جورجي أمادو

المحصول الأحمر

المكتبة الرقمية العربية

«المكتبة الرقمية العربية»

جورجي أمـادو

المحصول الأحمر

دروب الجوع – طرق الأمل

رواية

نقلها إلى العربية
عوض شعبان

الكتاب: المحصول الأحمر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل

FARDA FARDÃO, CAMISOLA DE DORMIR

Copyright © 2009, Grapiúna Produções Artísticas Ltda

Published in Brazil by Editora Companhia das Letras, São Paulo

All rights reserverd

المؤلف: جورجي أمادو

الترجمة: عوض شعبان

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦

ISBN:978-614-432-328-1

© جميع حقوق الطبعة العربية محفوظة لدار الفارابي

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

إلى زيه

إلى لويس كارلوس بريستس

صديق الفلاحين

إلى تورينيو وجيلديتي

إيفان واليزابيتي

إلى جوان امازوناس

تساقط، يا ندى الدم الرقيق

تساقط أيها الندى في وجه الجلّاد

إنمُ، إنمُ أيها المحصول الأحمر

إنمُ إنمُ أيها الثأر الضاري..

كاسترو ألفيس

«... إنما في الإقطاع، في التوزيع السيىء لملكية الأراضي، في احتكار الأرض، العلّة الأساسية في تأخر شعبنا وشقائه وجهله»

لويس كارلوس بريستس

«الحرية هي معرفة الاحتياجات»

إنجلز

الاحتفال

1

جرفت الريح الغيوم فتوقف المطر عن الهطل. وتحت السماء التي عادت صافية من جديد، شرع الأطفال يلعبون، وخرجت الدواجن من ملاجئها وراحت تنقب في العشب المبلل. واجتاحت رائحة الأرض القوية كل شيء، ودخلت البيوت. وانتشرت في الهواء، ولمعت قطرات الماء فوق أوراق الأشجار الخضراء وأغراس المنديوكا. عمّ اطمئنان صامت المزرعة؛ الأشجار والحيوانات والناس. فكانت أصوات الأطفال المرحة في الأرض البور وحدها تقطع هدوء تلك اللحظة:

انهمر أيها المطر

واغسل طريق حبيبي..

كان الأطفال الذين يرتدون الخرق المتسخة، وبعضهم شبه عراة، ببطونهم البارزة العجفاء يلعبون بالدولاب. ضاعت كتل الغيوم في سماء زرقاء صافية، حيث بدأت ظلال خفيفة تعلن الغسق. وبدت ملامح كل شيء بعد المطر باعثة على الحبور. تأمل أرتور الأشجار المنتصبة خلف منزل صاحب المزرعة الكبير ، والأغصان تهتز برفق من جراء النسيم، ثم ابتسم متخيلاً أن الأشجار كانت راضية بعد المطر الذي كان منتظراً طويلاً، وهمهم:

ـ كنت خائفاً هذه السنة.. لكن المطر هطل مدراراً في أوانه، وستكون المحاصيل وافرة. تخيل أرتور الابتهاج الذي سيخيم على بيوت الفلاحين والمرابعين . واذ ذاك قرر الذهاب إلى الاحتفال.

كان ينتظر وصول الفتى الذي ذهب إلى الدسكرة للاتيان بالرسائل حاملاً معه بعض الأشياء المطلوبة، بعد أن يعرّج على منزل أتاليبا لاحتساء جرعة من الكاشاسا على شرف العروس، ورقص البولكا.

تقدم إلى مدخل البيت الكبير حيث كانت زوجته فيليسيا تعتني ببعض أحواض الزهور.

- هيّا إلى حفلة أتاليبا...

- هل قررت؟

- أشار برأسه أن نعم، وانصرف. سيذهب إلى الحفلة، أجل. فالرجال سيكونون راضين، والخشية من الجفاف ومن الرعب الذي يتجدد كل سنة، كان الآن نائياً، حتى أن المطر قد يعاود الهطل في تلك الليلة بالذات، بالرغم من انقشاع آخر غيمة من السماء الملبّدة بالغيوم.

تنشق أرتور الرائحة التي تصاعدت من الأرض، وابتسم مرة أخرى. ربما ينظر إليه الرجال الآن أفضل من قبل. منذ أن تسلم الدعوة للاحتفال في منزل أتاليبا، وعد بتلبيتها. فالزواج والاحتفال لم يكونا أمرين عاديين جداً في المزرعة، إذ فور إعلان لقاء أنس في أي بيت، يغدو هو الحديث الأوحد في المزرعة طوال أيام، ولا سيما في نهاية فترة ما بعد الظهر في بيت العمال، غير أن مشكلة أرتور هي أن الجميع في حاجة ماسة دوماً الى بعض النقود. لأن لديهم دائماً ما يريدون شراءه. وهو يتلقى دعوات، ويعد بتلبيتها، ولكنه نادراً ما كان يذهب. يبدو له أن مجرد حضوره يكفي لتفقد الحفلات كثيراً من بهجتها لكون الرجال غير ميّالين إليه.

وتبعاً لهذا الظن، رفع أرتور كتفيه في حركة معيّنة. لم يكن ذلك ذنبه هو. فهو كان يفي بالتزاماته، الى حد تضييق الخناق على الرجال في العمل، والقسوة على المرابعين عند المحاسبة، في حين أنه يدفع الأجور المتفق عليها، ويحرص على كل ما يصب في مصلحة المزرعة، وهذه حقيقة ناصعة. لكن في نهاية الأمر، ألم يكن من أجل هذا هو المتصرّف؟ كيف كان سيتصرف أي شخص آخر في مكانه؟ لقد كان يتمتع بثقة الدكتور أوريليانو الذي آثر البقاء في ريو دا جانيرو والذي جاء إلى المزرعة مرة في العمر، وكأنه يسعى ليبرهن للسيد أنه جدير بهذه الثقة. ولم تكن المزرعة لتعطي مردوداً أكثر حتى ولا في أيام الكولونيل إيناسيو الذي كان يسكن هنا، ويهتم بكل شيء، ويتدخل حتى في أبسط الأمور.

وكان المزارعون يحتجون والعمال ينظرون إليه بأعين ملؤها الوعيد. لكن أرتور لم يبدِ قلقاً إزاء هذا كله. وكان يعتاد القول إنه لا يخاف الوجوه الممتعضة. ومع هذا كان ثمة أمور تؤلمه، لعلمه أن بعضاً من قاطني المزرعة كانوا يكيلون له الشتيمة بكثير من الانشراح. ولم يكن سراً بالنسبة إليه ما يقولونه خفية في حقه. فضلاً عن أن كثيراً من الرجال كانوا يشجعونه على معاقرة الخمرة استفزازاً له. ولم يكن ذلك يسرّه في شيء. إذ كان عليه أن يكون على وفاق تام مع العمال والفلاحين. فهو نفسه كان عاملاً في عهد الكولونيل إيناسيو، وكم يشعر بالرضا لو صار الرجال

رفاقاً له، يأتونه من دون استدعاء للتحدث في شرفة المنزل الكبير. ولهذا السبب لم يكن يرتاد أياً من تلك الاحتفالات النادرة، بالرغم من حب فيليسيا لأيما رقصة. وقد شغف أرتورنفسه حتى الجنون بمحادثة صديق، واحتساء جرعة من الكاشاسا.

وصل إلى المستودع ذي الأبواب الكبيرة المغلقة، حيث كانت المواد الغذائية التي سوف تباع إلى العمال والمرابعين. وفي إحدى الغرف في الجهة الخلفية التي فيها توضع بعض السروج، انتزع بغضب من جيبه مفتاحاً وفتح الباب. فالرجال لن يتأخروا في الوصول من العمل. وبما أنه كان يوم احتفال، فمن الطبيعي أن يرغبوا في شراء بعض الحاجات.

قفز إلى الطاولة المستطيلة، حيث دفتر الحسابات، فأخذه بصورة آلية وراح يقلّب صفحاته. حساب ماريو غوميز كان كبيراً. حتى ولو قضى وقتاً طويلاً في العمل، فلن يكون بوسعه السداد. عليه أن يقتصد في تزويده بالمؤن. واحد آخر سينقبض وجهه إزاءه، يتطلّع إليه بحنق، ويبصق بعد أن يمرّ به، ماذا في وسعه أن يفعل؟.

قلّب صفحة الدفتر. ابتاع جيرونيمو ما يرتديه فقط. فقد كان لديه إنتاجه من المنديوكا والذرة والبطاطا الحلوة. إنه رجل عاقل. وكان أيضاً يزرع أفضل قطعة من أرض المزرعة. فلو كان أرتور مالك تلك الأرض، لما بقيت في يدي الفلاح. لكنها لا تزال مع جيرونيمو منذ عهد الكولونيل إيناسيو. والدكتور أوريليانو الذي يهتم بالريو أكثر من اهتمامه بالمزرعة، ترك كل شيء كما كان عند موت العجوز. في النهاية يعود هذا إلى الدكتور الذي هو المالك. ويكفي أرتور الغضب الذي يبدونه له بسبب تنفيذه الأوامر فقط.

اختلس النظر إلى السماء التي أظلمت وتمتم قائلاً: إنهم يتركون العمل...

قفز مجدداً عن الطاولة المستطيلة، عبر الباب، ثم اقتعد حجراً كان على مقربة من المستودع. فرأى من بعيد الأولاد، أولاده وهم يلعبون بالدولاب أمام المنزل الكبير. كانوا ثلاثتهم. الكبيران في المدرسة الثانوية في المدينة. فأبناؤه لن يكونوا جهلة مثل الرجال الذين يعيشون ههنا، مثله هو بالذات، أرتور الذي لا يعرف سوى القراءة وحل المسائل الأربع فقط. ماذا تهمه كراهية العمال والفلاحين إذا كان في وسعه تثقيف أبنائه، بإرسالهم إلى المدرسة الثانوية، فيجعل من أحدهم دكتوراً، من يدري؟

وصل ماريو غوميز ماشياً والفأس في يده. كان يقضي مع آخرين، على بقية غابة في المزرعة. الأولاد يغنّون فتصل أصواتهم الطفولية إلى أرتور وتتغلغل في صميمه.أقعى ماريو

على مقربة من الحجر:

- مساء الخير يا سيد أرتور.

- ليمجد الله...

كان ماريو غوميز يريد شراء بعض الحاجات لكنه كان مضطرباً، وهذا يبدو جلياً. وتعالت أصوات الأطفال:

اهطل أيها المطر.

- هل سيكون الاحتفال على ما يرام يا ماريو؟

- احتفال ضخم..

- لديّ رغبة في الذهاب..

- شخصياً؟ سيكون أتاليبا راضياً..

إنه زواج ابنته، وإذا ذهبت حضرتك، فإنه سيحبل بالرضا..

قد لا تكون تلك هي الحقيقة، لكن أرتور سمع أصوات أبنائه وهم يغنّون، فتذكر الاثنين اللذين كانا في المدرسة الثانوية الداخلية. كان ماريو مديناً بالكثير، لكنه لم يكن الرجل الذي يهرب من المزرعة ويترك الدين منتظراً السداد.

هل تريد شراء بعض الأشياء؟

تطلّع إليه ماريو مندهشاً:

- كيلو فاصولياء وليتر من الكاشاسا... نهض أرتور وتوجّه إلى المستودع يتبعه ماريو وهو ما زال مرتاباً.

- سيكون احتفالاً عظيماً للكلام..

وبدأت تنسدل ظلال الغسق.

دمدمت زيفا بالكلمات الاعتيادية المبهمة، ثم اتجهت إلى داخل المنزل. كان الغسق يسقط متباطئاً وكئيباً فوق السهول، وهيكل جيرونيمو العجوز يقود الماشية إلى الحظيرة الصغيرة، راسماً نفسه إزاء الأفق ظلاً طويلاً يتماوج فوق العشب القصير. توقفت البقرة عن سيرها البطيء، لتقضم أوراق المنديوكا التي كانت قد بدأت تنمو. وأطلق جيرونيمو آنئذٍ صرخته كراعي بقر - ذكريات زمن غابر عندما كان يسوق قطعاناً كبيرة إلى أسواق الماشية - صرخة من دون جدوى، لأن الحمير والماعز والخنازير، كلها سبعة رؤوس، كانت تسير بسلام إلى مآلها الليلي. أما البقرة، فكانت هرمة جداً، وديعة تبدو فرداً من العائلة، وبهذه الطريقة كانت مرتبطة بذلك الوجود، لكن زيفا ارتعدت من جراء الصرخة التي كانت وكأنها تذكّرها بواجب يستحيل إهماله. فهمست بكلمات جديدة، وانتفضت، ثم ارتعشت عيناها المتوقفتان عن الحركة. والمرأة العجوز جوكونديتا، دون أن تترك الولد، تنبهت بكليتها إلى حركات زيفا. وقد استمرت كذلك سنين عديدة، ومع ذلك لم تتعود كل شيء. كانت تنتظر دائماً مفاجأة ما، أي شيء كمعجزة غريبة، حادثاً غامضاً. فقد وُلدت في تلك الأنحاء، وهناك ترعرعت وتزوجت وأنجبت أبناء وأحفاداً، وعرفت كل شبر من الأرض، ويداها يابستان من الزرع والحصاد، وقد عاشت فترات الجفاف وعصابات الجاغونسوس والاغتيال في المنزل الكبير الذي أثار اضطراباً شديداً، لكن لا شيء يقارن بذلك. لقد كانت متأكدة أن روحاً حلّت في جسد زيفا عالة عليها لتنفيذ عقوبتها من العذاب، مكفّرة عن المساوىء في حياتها. وكان هذا هو الرأي السائد لدى القاطنين في المزرعة، أجراء وفلاحين. وعندما تدق ساعة الصلوات المحددة بصرخة جيرونيمو الحنون التي يسوق بها الماشية، تكون العجوز جوكونديتا دائماً في حالة ترقب تحسباً لأي طارىء مباغت لا تعرفه هي بالذات. وربما تكون الروح قد أنهت مدة العقوبة، بحيث تستطيع أخيراً استعادة الطريق السماوي من جديد، حيث لا يوجد جوع ولا أمراض ولا دموع.

وزيفا التي كانت ذات يوم، في الماضي المنسي، فتاة جميلة، مثار طمع العمال، هي ذات الساقين الضخمتين والعينين النهمتين، ربما تؤوب إلى عقلها وتتعرف إلى أقاربها: أخيها جيورنيمو وزوجته جوكونديتا وأبناء اختها وأبناء عمها. كيف سيحدث ذلك؟ لم تكن جوكونديتا على علم بذلك، إنما كانت تنتظر الحدث. وعند كل غسق، حينما تنتفض زيفا وهي تؤدي صلواتها، تبقى العجوز في وضع تجسُّسي، لأن ذلك سيكون بالتأكيد في تلك الساعة المهيبة، حين تبدأ الظلال بالهبوط، خالقة جواً من الغموض. حين تُضاء الشموع، وتتغيّر الضوضاء، ويبدو لون العالم مختلفاً، فإن المعجزة ستحدث. وكانت تنتظرها من دون ذعر وبدون انفعال تقريباً. لكنها كانت تنتظرها طويلاً. قد يكون اليوم كما يكون غداً أو في نهاية الأسبوع. بيد أنه سيكون ذات مرة، وحين يحدث، فإن العجوز جوكونديتا سترى نفسها متحررة من ثقل جثم على قلبها طويلاً.

- كانت لحظة مهمة في نهار عمل العجوز جوكونذينا، لأنه يحدث دائماً أن تتجمع في ذاكرتها، عند صرخة جيرونيمو الهرم، الوقائع التي تشير إلى زيفا، توقع الأحداث العجائبية التي تستطيع الحدوث، وتذكر أولادها الثلاثة الذين رحلوا. كانوا فتياناً عندما مضوا. وكل واحد في طريقه، كل منهم لحياة مختلفة. إلا نينين، واسمه جوفينسيو، كان لا يزال طفلاً حينما ذهب لينخرط في الجيش. والآخران كانا رجلين مكتملين، لكن بالنسبة إلى جوكونذينا استمرا «الولدين». وفيهما كانت تفكر كل يوم. وفي تلك الساعة بالذات من نهاية فترة المساء، ربما لأنهم مع هبوط الغسق انتبهوا إلى غياب نينين (عرفوا بعد فترة أنه انخرط في الشرطة العسكرية)، وحتى اليوم يرنّ في أسماع جوكونذينا صوت الخيبة للهرم جيرونيمو في تعليق مرير ووحيد على الحادث:

- لن يبقى معنا أحد أيتها المرأة العجوز وسنموت بمفردنا في هذه الأرض، كالحيوانات وكجذوع الشجر..

وأشار إلى أغوسطينيو الذي كان لا يزال طفلاً بعد:

- سيذهب هو أيضاً ذات يوم...

- ها قد انصرمت السنون وما رجع أحد من الفتيان الثلاثة. ثمة أمل سرّي آخر للعجوز جوكونذينا... أن تراهم عائدين ليساعدوا جيرونيمو الهرم على العمل في الأرض. وبالرغم من أنهم رحلوا في تواريخ مختلفة، كل منهم بدوره، كل منهم بطريقه، كل منهم إلى مصير، فإنها كانت تتخيّل - كانت مشاهد صغيرة ومعدودة متشكلة مع مضي الوقت بحيث استمرت من دون تغيير في مخيلتها - أنهم يعودون معاً، ومعاً يعبرون باب الفناء الخشبي، ومعاً سيطلبون بركتها. أين سيلتقون في رحلة العودة هذه؟ المرأة العجوز لا تدري، وقد فكرت مراراً في هذا الموضوع بالذات، لكنها لم تتوصل إلى تحديد مكان يفيد الثلاثة في ذلك، فأهملته، إذ سبب لها تعباً في الرأس، وزاد من حزنها، حيث يجب عليها أن تفكر بماذا يمكن أن تؤول إليه الحياة الراهنة لكل واحد من الأولاد. كيف تحدد شجرة الأومبوزيرو للالتقاء عندها، إذا كان جوزيه ليس لديه مكان يرتاح فيه ولا طريق معيّن، بوسعه المجيء من أي طريق، دائماً مثل هارب مذعور؟ وجاون، من أين سيصل؟ إذا كانت العجوز جوكونذينا لا تعرف اسم المدينة التي كان قد حط رحاله فيها؟ وفضلاً عن ذلك فهي لا تريد التفكير في حاضر الفتيان، في ما سيحدث لهم في ذلك اليوم وفي تلك الساعة. حسناً أن تراهم يصلون، في أثر جيرونيمو والحيوانات، الثلاثة معاً، وأكياس السفر ملأى بالأشياء من البلاد الأخرى، بالأشياء التي هي حتى من المدينة، والصوت قاسٍ لكنه حار، يطلب البركة.

الصوت الذي كانت تسمعه هو خليط من الأصوات الثلاثة، كان صوت نينين، أصغر الثلاثة وأحبهم أيضاً.

وكيف يمكن أن يحدث ذلك - «الله كبير» - ففي يوم معيّن، من يدري؟ قد يصل الأولاد عائدين، وتغادر الروح التي تعصف بزيفا إلى الأبد، والتي تملأ فمها بكلمات مختلفة وقاسية، والتي جعلت عينيها ثابتتين ومذعورتين. وتبدد الحزن من الجسد الذي كان قبلاً مرحاً وقوياً..

وشيئاً فشيئاً وبتمهل، جمعت العجوز جوكوندينا الحدثين بتاريخ واحد. وكانت قبلاً تفكر في الحدث الواحد أو الآخر بشكل منفصل: «قد تغادر الروح اليوم، فقد انتهت مدة عقوبتها»، «قد يصل الأولاد اليوم عائدين، وقد قضوا ما قضى به قدرهم». وتنصرم الأيام وتتعاقب أوقات الغسق. وتتكرر صرخة جيرونيمو الرتيبة الكئيبة، وزيفا تتلو صلواتها بدون رابط، ولا تُفتح البوابة لخطى الهاربين. وتبخّر أمل آخر، وامتزجا مع مضي الوقت، والآن كل سيحدث في يوم واحد، في مساء وحيد، وعندها - فكرت العجوز جوكوندينا - بوسعها أن تموت مطمئنة، لأن كل ما كانت ترغب فيه في هذا العالم، حيث هي للعذاب، قد حدث ولم يبق لها أحد لتفكر فيه، إذ تعلّمت منذ وقت بعيد أن الرغبة في امتلاك الأرض التي يعملون فيها كانت حلماً مستحيلاً غير قابل للتحقيق.

3

كان طونيو في الثالثة عشرة وما كاد يسمع صرخة جيرونيمو حتى ترك أخته الصغيرة نوكا ذات السبع سنوات، وركض إلى الحظيرة ليساعد جده على استدرار الحليب. وظل متمسكاً بالعجل الصغير بالحبل كيلا يقترب أكثر من اللازم من ضرع البقرة. وبعدها جاء دور العنزة. فنوكا وأرنستو - الأصغر - كانا يشربان من هذا الحليب. وكانت جوكوندينا تؤكد أن لا شيء أفضل من حليب الماعز لصحة الولد. وكان طونيو يحب ذلك العمل.

كانت البقرة هي نفسها الوادعة، وأحياناً كان يمتطيها كحصان رغم أن جدّه كان ينهره، ويلعب مع العجل أيضاً، ويقلّد خواره ويثير الحمار، وهو الوحيد بين الحيوانات الذي له اسم، فقد أطلق عليه اسم جيريمياس. وعند سماعه أحداً يناديه باسمه، يأتي حالاً بخطواته المتباطئة. ومع المطر، ملأت برك الماء الوسخ الطريق، فكان طونيو يدوس في كل بركة منها، ولم يكن ثمة متعة أكثر من تلك. ويختلس النظر إلى الوراء، فنوكا حمقاء، إذ إنها بقيت عند باب المنزل بصحبة القطة الصفراء ماريسكا، لا تعرف كم هو حسن العمل في الحظيرة، استحلاب الحليب، إثارة جيريمياس.

كانت نوكا خائفة، تحتضن القطة بصدرها الهزيل والقذر. وقد قال طونيو في تلك الليلة، التي فيها احتفال أتاليبا، إنهما سيبقيان وحيدين في المنزل، الاثنان مع الأصغر، سيأتي الوحش بالتأكيد ليأكل نوكا.

- يأكلك أنت أيضاً...

- إني أختبئ...

وخرج ضاحكاً باتجاه أطراف الحظيرة، فاحتضنت نوكا ماريسكا بشدة، قطتها، صديقتها، لعبتها، رفقتها الوحيدة في البيت الفقير. وكانت عيناها المذعورتان مصوبتين بحب إلى القطة الصغيرة الصفراء ذات العينين الرمداوين. وماءت ماريسكا بسبب شدة احتضان البنت وقالت لها نوكا:

- أنتِ تبقين معي.. إذا قدم الوحش فنحن الاثنتين نرميه خارجاً..

بالقرب من ماريسكا، لم تكن تخاف، فماريسكا مقدامة، تضرب الدجاجات، تزمجر على كلب العم جوان بيدرو حين يأتي بزيارة، وتقفز على السياج، حتى أنها اصطادت طريدة في السهل. وذات يوم قتلت ماريسكا أفعى أمام البيت تماماً. أفعى صغيرة لكنها مسمَّة. وتلك الليلة أعطتها جوكونDينا كأساً صغيرة من الحليب. ماريسكا الجسورة، قربها لا تخاف نوكا، لا يهم إذا بقيت وحيدة. يا للشر لدى الآخرين، يذهبون إلى الحفلة ويتركونها وأخويها، الثلاثة بمفردهم، مع وجود وحش يهاجم الأولاد ويأخذهم إلى مكان لا أحد يعرف إلى أين.

تنكمش نوكا على نفسها إزاء التذكر، فتحتضن القطة بشدة. وماريسكا التي تشعر بعدم الارتياح لضغط يدي الطفلة، تتمدد ثم تخلّص نفسها وتقفز إلى الأرض، تموء طويلاً أمام ظلال الغسق وتغدو فوراً حذرة لصوت زيفا التي وصلت من المطبخ حيث تكيل لعناتها. وارتفع ظهر القطة كأنها رأت عدواً. بيد أن يد نوكا، الصغيرة والقذرة ربتت عليها، فانحنت لتستقبل الحنان بشكل أفضل، وتسير تحت ضغط يد البنت، وتزمجر بصوت خفيض، بوداعة، وتعود فتثب إلى حضن نوكا.

وحلّ الليل تجلبه الظلال. وتكتشف نوكا فجأة في أعلى السماوات شكل الوحش، فيرتعد جسمها الصغير النحيل تحت ثوبها، ولا تجد إلا في ماريسكا العزاء والشجاعة، الفرح والرقة.

لم تحظ قط بدمية، حتى ولا بواحدة من هذه الدمى المصنوعة من القماش التي تباع في السوق المتنقلة . لم يكن لديها لعبة، حتى ولا واحدة من اللعب الخشبية التي يصنعها الهواة. ما سمعت قط موسيقى ولا حضرت مسارح العرائس (ماريونيت) ، فلم يكن عندها غير ماريسكا. وهي تلخص لها الدمية التي شاهدتها في يد ابنة أرتور. وسيارة الصفيح التي طالما ألفتها وطونيو في المنزل الكبير، تلخص العالم كله، شخصيات التاريخ التي كانت جوكونديا ترويها أحياناً. ليس لديها شيء غير قطتها.

ستبقى وحيدة هذه الليلة مع أخويها الصغيرين. وقال طونيو إن الوحش سيأتي، فلو كان أغوسطينيو هنا لسألته نوكا إذا كان ذلك حقيقة، ولدى أغوسطينيو طبنجة بوسعه إطلاق رصاصة على الوحش. إنه يأتي على غيمة، يزفر غيظاً، يأكل الأولاد.

قفزت القطة من حضن نوكا وراء جعل ظهر مع الغسق، وتحركت قوائمها في الهواء، لكن الجعل أسرع منها. فقد خدع ماريسكا. وماءت حانقة، وها هو الجعل على الحائط خارج متناول وثبة الهرّة. فمضت نوكا بهدوء ووضعت يدها على الجعل وأوقعته على الأرض، فوثبت إليه ماريسكا. وصفقت نوكا بيديها الهزيلتين والقذرتين والفم قذر أيضاً، لكن يا لها من ضحكة ولا أحلى منها!

4

الحياة صعبة ومتعبة. فنصف الطحين والذرة والبطاطا كان للمزرعة، فضلاً عن نهار العمل المجاني، وهو إلزام بالعقد مع المرابع. لكن حتى ولا الأطفال الذين يموتون، والأمراض التي تتعاقب، والعوز الأزلي إلى النقود، ولا أي من هذه، كانت قادرة على إدخال الحزن إلى أتاليبا. فقد وُلد مرحاً، محباً للقاءات الأنس. وعلى هذا المنوال كان يشيخ. حتى في السنين الأشد صعوبة، حتى في تلك السنة من الجفاف عندما يبس كل شيء وصار هو مديناً حتى الشعر، حتى في ذلك الحين احتفل أتاليبا بالقديس يوحنا الذي كان عيد شفيع امرأته جوانا.

لكن لا يمكن مقارنة أي احتفال بهذا الاحتفال الآن، احتفال زواج ابنته تيريزا من كوزمي، وهو عامل أعور، وهذا دافع ليعرف باسم كوزمي دوكا . وكانت النسوة يعملن في المطبخ، جوانا، تيريزا بالذات التي خلعت حذاءها وخلعت ثوبها الجديد الذي ذهبت به إلى الدسكرة من أجل الزواج، وجاءت لتساعد في إعداد لحم الخنزير والدجاجات وحلوى المامون الأخضر. وحضرت شابات ونساء من بيوت أخرى، مارتا وفيليسيانا، موندينيا وكاسولا، دينا وجيرتروديس. ونشطت

الحركة في المطبخ، وحين توقف المطر وأصبحت السماء صافية، وأدركت النسوة أن الليل آت، اعتراهن الذعر فضاعفن العمل.

قطع أتاليبا حطباً للنار. وكانت النساء يتحدثن فيما هن يعملن، حتى أن أصواتهن كانت تبلغ مسامع الفلاح. إن أتاليبا سعيد، ولا يهمه كثيراً أن يكون قد أنفق في هذا الاحتفال كل مدخرات العام الماضي، وأن يغدو متورطاً في ديون للمخزن. لا يخيفه العمل ولن يدع ابنته تتزوج من دون الاحتفال بالحدث، وبحفلة تبقى مثاراً للكلام عنها كأروع حفلة في المزرعة. وسيأتي باستيون ليعزف. وفي كل تلك الممتلكات المجاورة، لن يتقاعس في هذه الليلة، أي رجل أو أية امرأة عن المجيء ليحرك قدميه ويأكل قطعته من لحم الخنزير ويشرب كأسه من الكاشاسا بصحة العروس. وكان أتاليبا يصفّر وهو يقطع الحطب، وبالرغم من البنود المجحفة في عقده كمرابع، كان في نهاية السنة ينتزع دائماً رصيداً ما، ويأكلون ما تنتجه الأرض، حيث يزرع فاصولياء وآليبين وبطاطا حلوة، ولو لم يكن مخزن المزرعة حيث يبتاعون ما يريدون، لا يسرقه كثيراً، لكان بوسعه جمع بعض النقود ليواجه مرضاً وسنة سيئة.

ها هو ماريو غوميز قادم في الطريق. الوقت مبكر للاحتفال، فكر أتاليبا. فالنساء ما زلن في المطبخ يعملن. لكنه انتبه حالاً إلى أن ماريو لم يبدل ثيابه. فهو يحمل بيده زجاجة وكيساً. يجب أن يكون قادماً من المخزن. فأراح أتاليبا الفأس وبقي منتظراً.

- مساء الخير...

- ربنا يسوع المسيح يمنحك مساء طيباً.

أنزل ماريو غوميز الكيس المليء بالفاصولياء، ورفع زجاجة الكاشاسا:

- جئت بها لحفلة حضرتك... فشكره أتاليبا:

- احمل كحولك يا سيد ماريو. أشكرك، فاحتفالي أقيمه أنا بمالي...

- ليس القصد إهانة حضرتك.

- لست مهاناً، إني أشكرك. لكن بما أن هذه هي حماقتي، فلا أقبل مساعدة لحفلتي... أعلم أن سعيك طيب، لكن خذ زجاجة الكحول، وبعدها تعال لتلهو...

سكت ماريو غوميز دقيقة. إنه ليس مهاناً بالرفض. فهو يعرف أتاليبا جيداً.

- سيأتي السيد أرتور...

- سيأتي؟ إلى الحفلة؟ فتح أتاليبا فمه بتعجب.

- أجل، هو نفسه قال لي منذ دقيقة. يضلل المرء أحياناً، فيسيء تقدير شخص ما.. أنا لم أكن أميل إلى السيد أرتور هذا، كنت قليل الثقة به...

- وضع يده على أعلى حنجرته - لكنه ليس رجلاً سيئاً... خاض معي حديثاً الآن هناك في المخزن، إنه ليس رجلاً سيئاً...

كان أتاليبا حتى الآن غير مصدق:

- سيأتي؟

- لقد قال لي. إنه ليس رجلاً متكبراً.. رفع الكيس الذي يحمل فيه الفاصولياء، وأكمل:

- كل فرد يعرف نفسه، يبدو الشخص سيئاً أحياناً وهو شيء آخر. كل امرئ يعاني أحزانه، وأحياناً... هذا هو الذي يخدع المرء. فليس هو رجلاً سيئاً، ليس هو...

قبل أن يختفي شبح ماريو غوميز في الغسق، صرخ أتاليبا بالنساء في المطبخ: هل تعرفن الخبر الجديد؟ سيأتي السيد أرتور...

لكن الآن هنّ اللواتي أبدين دهشتهن:

- إلى الحفلة؟

- طبعاً...

وسمع صوت جوانا المتعب والمتباطىء.

- هيّا إلى العمل يا عزيزاتي، لقد تأخرنا في كل شيء...

مضى أتاليبا ليختلس النظر إلى نصف الدزينة من الأسهم النارية التي ابتاعها من الدسكرة ليطلقها في هذه الليلة. أي أهمية للنقود بالمقارنة بالرضا الذي بوسع المرء أن يحصل عليه؟

ربما زيفا والعجوز جوكونداينا هما الشخصان الوحيدان في كل المزرعة اللذان لم يفكرا في ذلك الغسق، في الاحتفال ليلاً في بيت أتاليبا. وغريغوريو نفسه الذي قدم منحنياً تحت عبء كيس الذرة، لم يستطع التخلّي عن التذكر بأن اليوم كان يوم الاحتفال، إذ شاهد جوانا وآخرين غيرها، من الدسكرة، حينما عاد العروسان معاً مع أتاليبا حيث كانا قد ذهبا ليتزوجا. لم يرغب غريغوريو في أن يُرى، فاختبأ في الدغل، ليتيح لهم المرور. فكوزمي الذي كان العريس، وهو أعور، كان يحمل حذاءه بيده. انتزعه بشكل طبيعي في الطريق. كان يتأبط ذراع تيريزا، ويضحك الاثنان سعيدين، فيما خلفهما يدور حديث منتعش حول الحفلة.

- باستيون رجل لا يتراجع في كلامه، وبما أنه قال سيأتي فسيأتي حتماً...

- أتاليبا هو الذي كان يؤكد لأحد الذين يسيرون معه. وغريغوريو يعرف باستيون عازف الهارمونيكا الأكثر شهرة في تلك الفراسخ الخمسة. لم يكن يأتي إلى كل حفلة. إنه يجعل الناس يتضرعون إليه، ويعطي أعذاراً - مرضاً، عملاً، تعباً - وأي حفلة من دونه تفقد نصف حيويتها.

وفيما الجمع يمرّ، تمنى غريغوريو أن يكون باستيون حاضراً. علماً أنه يأتي إلى حفلة في بيت أتاليبا ويعزف طوال الليل. كان غريغوريو يرغب أن يكون باستيون حاضراً، ليس لأنه ينوي الذهاب إلى الحفلة، فلن يذهب. لكنه يحب أتاليبا ويعرف أن المحتفل الهرم سيتعذب كثيراً لغياب العازف. وفي النهاية كانت حفلة نادرة بالنسبة إلى تلك الجماعات. وعندما تقام واحدة لا يدور التعليق على شيء آخر طوال أيام كثيرة بعدها.

مضى الجمع بعيداً، وعاد غريغوريو ليتنكب طريقه، والكيس على ظهره، متخفياً عن الأنظار، متجنباً المرور على الطريق الرئيسية. وذهب مفكراً في الاحتفال، في أتاليبا، في كوزمي، في تيريزا. إنها خلاسية جميلة. كان هو نفسه غريغوريو، يرقبها بعينيه حينما وصل إلى ههنا، وكانت آنئذٍ بنتاً صغيرة، بالكاد برز صدرها، لكنها ذات ابتسامة سهلة ولعوب. إنما كانت لغريغوريو مشاريع أخرى، فلم يكن الوقت قد حان ليأتي بامرأة إلى بيته، كان هجيناً قوياً ومقرراً، حزين الوجه حيث ينغلق الحاجبان الكبيران فوق عينين صغيرتين. سيتزوج فقط حين تكون له أرضه، مع وثيقة مرّت على دائرة السجل العقاري. وليحصل عليها، كان يعمل نهاراً وليلاً، من دون أن يخلد إلى الراحة، بينما ميلتون الذي هو شريكه في زراعة الحقل، ينفق ما يتبقى له على نساء الدسكرة أو يشتري هدايا لخطيبته، وعلى الكاشاسا أو في الحفلات. أما غريغوريو فيحتفظ بنقوده. وفي تلك السنوات الخمس كان قد جمع بعض المال. فشراء قطعة أرض هو كل ما كان يرغب فيه.

أتى غريغوريو بحركة من ظهره، فأرخى كيس الذرة على الأرض أمام البيت المبني من الطين المجبول. وانتفضت الفراخ باضطراب في شجرة الغوافة ، حيث كانت قد ارتقت إليها. واختلس النظر عبر باب البيت المفتوح. لم يكن ميلتون قد وصل بعد. فعاد عندها إلى الطريق وصفّر. وجاء الجواب من بين نبات المنديوكا. وميّز شكل ميلتون الذي وصل والمنجل على كتفه. فجلس على كيس الذرة وانتظر. كان على وجهه المقطّب شبه ابتسامة كما لو أن أحداً قد عاد منتصراً من عراك صعب.

كان ميلتون خلاسياً طويل القامة ودائم الابتسام، يسير بادي الارتياح، ووضع المنجل على قاعدته وأسنده إلى جدار البيت، ثم أقعى إلى جانب غريغوريو، وكان تعليقه الأول حول الحفلة:

- ستكون حيوية لدرجة أني لن أرى لها مثيلاً.

لم يجب غريغوريو. وعندئذٍ فقط انتبه ميلتون إلى كيس الذرة، فأبدى عجبه:

- تدبرته، هه؟

انفرجت الابتسامة كلها في وجه غريغوريو، ومع هذا كانت ابتسامة صغيرة سرعان ما اختفت:

- أما قلت لك؟.. ثمانية آلاف ريس (8 كروزيرو)، أكثر رخصاً.. تساوي الجهد..

- ألم يشاهدك أحد؟

- تسللت إلى الدغل، حتى أني جرحت قدمي بالأشواك. لم ألتقِ روحاً حية. ولن يتفوّه ليوكاديو، فهو ليس معتوهاً..

ضحك ميلتون وفمه الأدرد قد فُتح على اتساعه:

- إن ثمانية آلاف ريس.. تساوي الجهد. إنما إذا ارتاب أرتور فإنه قادر حتى...

- قادر على ماذا؟

- على طردنا..

كانت ظلال الغسق تهبط على الرجلين، فنهض غريغوريو عن كيس الذرة، واقترب من ميلتون، وقفزت الفراخ عن شجرة الغوافة وقدمت لتقرص الكيس، فطردها ميلتون بقدمه:

- أخرجي... يا للشيطان!

نظر غريغوريو إلى حقل المنديوكا الذي امتد إلى ما بعد قطعة الأرض وحول البيت:

- سأقول لك شيئاً يا ميلتون - لم تعد الآن أي بقية من الابتسامة في الوجه المقطّب مجدداً والمغتم - حتى ولا الشرطة تستطيع طردي من هنا...

- نقّل ميلتون عينيه وثبتهما على رفيقه، فرأى التصميم البيّن في وجهه. ثم رفع ذراعيه كأن ذلك التصميم غير مهم إزاء الواقع الذي لا يناقَش:

- يكفي أن يريد... فالأرض هي للدكتور أوريليانو..

نظر غريغوريو إلى حقل المنديوكا النامية، حيث ترتسم ظلال الغسق:

- لكن المنديوكا هي لنا نحن الاثنين... من اقتلع الغابة ومهّد الدغل؟

كل ما هنا كان مهملاً حقاً.

طرد الدجاجات التي عاندت في البقاء لصق كيس الذرة:

- وفي حزيران/ يونيو سيكون هناك ألوف تسرّ القلب...

خبط كيس الذرة بيده مجدداً، وشقّت وجهه الابتسامة:

- إذا ارتاب أرتور، فليذهب إلى الجحيم...

كانا ملزمين بالشراء من مخزن المزرعة. وكان ميلتون في تجواله سعياً وراء الحفلات هو الذي اكتشف أن بإمكانهما شراء ذرة للبذار أرخص بكثير إذا ابتاعاه من ليوكاديو. وعندما روى لغريغوريو ذلك، قرر هذا على الفور:

- سأشتري منه، وليذهب أرتور إلى الجحيم..

لم يكن غريغوريو كثير الكلام. لكن أمثاله في العمل قليلون. فقد وصل إلى ههنا منذ خمس سنوات. وقبلاً كان راعياً ، في مزرعة أخرى. وبما أنه ظهر بدون قريب أو نصير، فقد دارت قصص مختلفة عن ماضيه، فتحدثوا عن أحداث موت، وعن رجال اغتيلوا بالسكين في بعض الاضطرابات. لكن ذلك كله كان مبهماً وغير ثابت. وميلتون أيضاً كان يفتش عن عمل. فالجفاف

قذفه إلى هذه الجهات. وتمكن الاثنان من استئجار ذلك الدغل حيث ما زالت بقية من غابة، وهي قطعة أرض تعتبر عاطلة من قبل الأغلبية.

كانت القطعة في أحد أطراف المزرعة، والكولونيل إيناسيو حينما كان لا يزال بعد على قيد الحياة، لم يزرع في تلك الناحية البتة. كان غريغوريو يفهم في الأرض، وعندما عرض أرتور أن يؤجرهما ذلك الدغل، أسكت احتجاج ميلتون وقبل على الفور.

في البدء كانا يعملان أربعة أيام من الأسبوع للمزرعة، منها يوم بلا مقابل، حسب ما كان يقضي به العقد. والثلاثة الأخرى ليحصلا ما يشتريان به قديداً، فاصولياء ودقيقاً. وفي بقية الأسبوع ينهالان بالفأس والمنجل على الدغل وعلى الغابة، فيبيعان حطباً، ويزرعان المنديوكا. وكل عام يجددان العقد. والآن لا يوجد في المزرعة كلها زراعة أكثر رعاية منها. وعن استدارتها يقولون إن غريغوريو كان «ثوراً وُجد للعمل»، وفيما كان ميلتون يضحك ويخطب ابنة أفونسو، العامل الأجير، كان غريغوريو يقذف نفسه في الحقل من دون راحة. وبالنسبة إليه لم تكن توجد لا حفلة ولا يوم واحد بدون عمل. ولم يشتر قط زوجاً من الجزمات القصيرة، ولم يمتلك ثياباً جديدة. وكان يذهب إلى الدسكرة مرة في الحياة. وما فازت امرأة غانية بنقوده. ويوضح ميلتون للذين كانوا يبدون عجباً من جهده في العمل، أنه (غريغوريو) يريد شراء قطعة أرض، تلك القطعة أو أية قطعة أخرى، حيث بوسعه القول إنه كان على أرضه هو.

وكانوا يعلّقون:

- سينتهي بأن يصبح صاحب مزرعة.

وانتشرت، من جديد، تلك الحكايات غير المكتملة، أخذت تنمو شيئاً فشيئاً في تفاصيل. وذاعت شهرة غريغوريو، وأخذت الأعمال الشجاعة والمساوىء تنضم إليها في الروايات. حتى أرتور نفسه كان يكنّ له تقديراً نادراً لم يكن يناقشه، ويعامله براحة اليد وغير مرّة عرض عليه مركز مساعد المتصرّف.

حين اكتشف ميلتون سعر الذرة، تداولا طويلاً منافع وأضرار الشراء. كان ميلتون يرى أن الأمر لا يساوي المجازفة. فكان ذلك خطراً جداً. فثمة قوانين في المزرعة لم تكن مكتوبة، لكن الجميع يحترمونها احترامهم للدين. وهذه القوانين تجبر الفلاحين والعمال على شراء كل ما يحتاجونه من هنا. بيد أن غريغوريو كان مستعداً، وما لبث أن أقنع ميلتون. وفي ذلك المساء، بعد تناول الطعام، غادر بدروب فرعية هارباً من اللقاءات.

- رأيت الناس عائدين من عقد الزواج..

- كوزمي؟

- هو وتيريزا والهرم أتاليبا، لكنهم لم يروني...

- ستكون حفلة كبرى... يجب أن تذهب.. لكن غريغوريو كان يفكر في أمر آخر:

- في حزيران/يونيو سيكون هنا الكثير من المنديوكا رائعة المنظر...

نهض ميلتون، وجرّ كيس الذرة إلى داخل البيت، ورافقه غريغوريو:

- يجب أن نتكلم مع جوان بيدرو... ليتفق معنا ليطحن لنا الدقيق...

كان مخزن الطحين قد بناه جوان بيدرو، وكل الفلاحين يستعملونه، دافعين له دقيقاً أو نقوداً لقاء استعمال المطحنة والفرن.

وافق ميلتون:

- اليوم في الحفلة سأقول له.. سيذهب إلى هناك مع امرأته.

وكانت ثلاثة أحجار في إحدى الزوايا تشكل الموقد. وفي صفيحة مسودة بالناركانت بقية من قوة الصباح. وأدخل غريغوريو قطعة من القديد في سفود وأوقد النار. كان يتسرب من الباب المفتوح، الليل الذي يغطي المزروعات. ونمت ألسنة اللهب في الموقد فوق قطع الحطب الصغيرة، مضيئة وجهيْ الرجلين. وكانت الجداجد الأولى تقفز خارجاً. وجلب النسيم الذي يهب إلى داخل البيت الرائحة المألوفة للغابة والأرض. وقال ميلتون:

- أعدّ حساء المنديوكا لك فقط. سآكل لحم الخنزير في الحفلة... عليك بالمجيء...

أشعل السراج، فارتسم ضوؤه الأحمر على جدران البيت:

- سأغسل قدميّ لأنتعل الجزمة.

مشى إلى داخل البيت ورافقه صوت غريغوريو:

- تكلم مع فيلينيا لتساعدنا في طحن الدقيق - فيلينيا كانت خطيبة ميلتون.

- هي وأختها. بوسع المرء أن يتكلم أيضاً مع مارتا، في بيت السيد جيرونيمو.

- جير ترديس أيضاً تستطيع المجيء..

- ساد صمت وبعده جاء ميلتون من الداخل منتعلاً الجزمة.

- سأنتهي اليوم من كثرة الرقص. توقف أمام غريغوريو الذي كان يقلّب اللحم في السفود:

- ألا تريد المجيء؟

- كلا، لن أذهب..

- يجب أن تأتي.. ستكون هنالك كاشاسا حسب الطلب وباستيون سيعزف..

- لن أذهب...

اجتاحت الجداجد الفناء. وفاحت رائحة اللحم على الجمر. وهمس ميلتون بشيء حول الحفلة، وكان لا يزال يحاول إقناع رفيقه بمرافقته. وتناول غريغوريو صفيحة واتجه نحو الباب. كان يريد الإتيان بالماء ليعد حساءً من الدقيق. لكنه توقف في الباب وبقي يختلس النظر إلى المزروعات التي بالكاد تُرى في الليل الذي كان قد اكتمل. وطار أحد الحباحب قرب شجرة حيث كانت الدجاجات ساكنة. وقال ميلتون أي شيء حول بهاء الحفلة الموعودة. لكنه سكت لأن صوت غريغوريو كان يجتاز عتمة الباب ويرجّع صداه داخل البيت باعثاً على الخوف:

- يطردوننا... لا يوجد رجل يطردني من هنا. إني أقول لك هذا يا ميلتون...

هبّ النسيم وتراقص ضوء السراج، وملأت رائحة الأرض البيت:

- حتى ولو أتعست نفسي وأتعست آخر معي.

تضاعفت الجداجد في الليل الذي خيّم في غابة الكاتنغا البعيدة وكانت أنغام الهارمونيكا تقطع الصمت.

6

أسكتت أنغام الهارمونيكا الجداجد في الدرب الفرعية. وفي الجمع - عدد من الرجال وبعض النساء - سكتت أيضاً الأحاديث والتعليقات والقهقهات. فقد بدأ باستيون بالعزف. كانت

البولكا قديمة وخارجة عن المألوف. ففي نهاية العالم ذاك، كانت الأشياء تصل متأخرة كثيراً، والموسيقى أيضاً. ولو أن الدكتور أوريليانو يقطن المنزل الكبير لكان ربما وضع هناك مذياعاً يعمل على البطارية. لكن صاحب المزرعة يقيم في الريو، حيث تخرّج، ولديه مصالح تجارية. وكان لدى الكولونيل إيناسيو خلال سنين، مشاريع لشراء واحد، لكنه بقي قانعاً بالفونوغراف القديم المستعمل الذي ساقه إليه بائع جوال سوري، ولم يلبث أن كُسر رفاصه. وحينما كان يقوم بوظيفته، كانت سينيا انجيلا عندما لا تصدر الأوامر للزنجيات في المطبخ، تقضي ساعات برمتها تشحن الآلة باليد، فتعزف الاسطوانات الثلاث الوحيدات التي فيها يغني كاروزو ، مقاطع من الأوبرا. وقد انتهى في إحدى زوايا المنزل، شيئاً بلا فائدة، يصعب تصليحه. «نقود ملقاة خارجاً» كما أنهى الكولونيل إيناسيو الأمر وهو ينظر إلى الآلة التي تزيّن الآن قاعة المفروشات الثقيلة في المنزل الكبير.

إضافة إلى الفونوغراف، كانت الموسيقى كلها لدى الفلاحين والعمال تُلَخص في الهارمونيكا، الكمان، والكافاكينيو والفيولا . وقرب المزرعة كان يسكن بيدرو دا رستينغا، وهو أعمى عازف مشهور على الفيولا، ومنشد للحوارات الغنائية الشعبية، في زمن الكولونيل إيناسيو كان يعتاد القدوم إلى المنزل الكبير في أيام العيد، وينتزع أغنيات شعبية على الفيولا تسرّ صاحب المزرعة الهرم. لكن كل هذه الأمور أصبحت من الماضي. فبعد أن مات كل من إيناسيو وأنجيلا أوقف حساب بيدرو دا رستينغا في المخزن - وهو حساب لم يكن يُسَدَّد البتة، هو نوع من الصدقة كان الكولونيل يعطيها له. وكان لديه الحق في شراء الفاصولياء والطحين وزجاجة كاشاسا، وقطعة من القديد كل أسبوع، وكان ملحوظاً في الدفتر، لكن الجميع يعرفون أنه لن يُسَدَد، فقد كان يدفع من أغنياته الشعبية وأشعاره على الفيولا وقوافيه في «يون» ، ومقاطعه الطويلة ذات الفكرة الواحدة التي كانت تجعل إيناسيو يضحك - ولم يقل أوريليانو شيئاً حول حساب بيدرو دا رستينغا، وقطع أرتور - الذي انتهى به الأمر إلى أن يقطن المنزل الكبير - الحساب في السبت الأول. وكان ذلك سبباً أولياً للنفور الذي كان يبديه العمال والفلاحون له. ومع هذا فإن أرتور لم يشعر أنه مذنب، حتى أنه تذكّر أن بوسعه تحصيل الدين الذي صار ضخماً على مرّ السنين. وانقطع بيدور دا رستينغا عن القدوم إلى المزرعة وفي السوق المتنقلة، في الدسكرة - حيث كان يلمع بآلته الفيولا والقرعة المجوّفة التي يضع فيها ما يتسوّله - يغني بعض الأغنيات الشعبية حيث قيل إنه كان يفكر في أوريليانو وأرتور:

«صدقة لأعمى بائس

افتقد ما يأكله

كان السيد إيناسيو رجلاً طيباً

الدونا آنا لم يكن أحد أفضل منها

وفي الفيولا آتي بنغم

لطيبتها الممجدة

ابنه لم يأخذ عنه

الطيبة التي لا تضاهى

فقد صار دكتوراً

لكنه يسيء إلى الفقراء

سيىء أكثر من الشيطان

رجل ذو قلب شرير

إنه أرتور، المتصرّف عنده

العاجز عن عمل الخير

صدقة لأعمى بائس

افتقد ما يأكله».

ولم يفقد باستيون قطعة الأرض، تلك التي أهداها إليه إيناسيو في احتفال معيّن، وهو راضٍ عن حيازته في مزرعته عازفاً على الهارمونيكا مثله. وعند الجردة لبث أوريليانو طويلاً في المزرعة، وعند مغادرته أعطى أوامره، وسأله أرتور:

- وباستيون؟

- ماذا عن باستيون؟

وكان الزنجي على مقربة منه، فتقدم منه:

- إن السيد الكولونيل أعطاني قطعة الأرض حيث حقلي الصغير...

وأخذ يروي القصة. لكن أوريليانو الذي كان آنئذٍ واقعاً تحت تأثير موت مفاجىء للوالدين تقريباً، قطع عليه كلامه:

- لتبقَ لك أرضك أيها الزنجي.

وكانت لدى باستيون الرغبة في أن يطلب تدوين ذلك الأمر في ورقة. فهو لم يشعر إزاء العجوز إيناسيو بضرورة التوجه بذلك الطلب. فكلمة الكولونيل كانت واحدة. وهو لا يرجع إلى الوراء. ومع هذا لم يطلب. كان يخشى إلحاق الإهانة بالدكتور، فترك المسألة إلى مرة أخرى، وهي مرة لم تصل البتة، إذ بقي أوريليانو في الريو، وأرتور هو الذي يأمر وينهى في الملكية.

كانت البولكا القديمة كافية لبعث المرح لدى الذين يسيرون جماعة، متحلقين حول باستيون الذي كان في نشرة الاحتفال. وكانت قدما الزنجي الذي يحمل الكافاكينيو تتحركان في الطريق كأنه يرقص على إيقاع تلك البولكا القديمة. والمهجن يحمل كماناً، لكن لا هو ولا الآخر كانا يعزفان، لأن المعلم باستيون كان يحمل الهارمونيكا، واسمه محترم كعازف لا يضاهيه أحد في تلك المنطقة.

كان شعره الجعد قد بدأ يبيضّ ولم تعد أصابعه مرنة على المفاتيح كما في السابق، لكن مقاومته تستمر هي نفسها، عازفاً ليالي بطولها، وكلما احتسى الخمرة أكثر أصبح أفضل.

كانت أنغام البولكا تنساب برقة فوق الغابات وفوق الجداجد، وكانت النجوم تملأ السماء ذات القمر المكتمل. كان ثمة جمال مكثّف في الحقول، لكن الناس لم ينتبهوا إليه، فتفكيرهم كان في الحفلة ويسيرون متعجلين. وكان أكثر عجلة من الجميع هو الزنجي ذو الكافاكينيو. فالرغبة في احتضان جسد مارتا في دوران الرقص، تدفعه إلى أن يخبط قدميه على الأرض الطينية. إنه أسرع الجميع خطى في الرقص، إذ يتحول جسمه الضخم خفيفاً ورشيقاً، وكذلك قدماه المشوهتان. وسيدور بمارتا على صوت موسيقى باستيون وستكون ليلة مجيدة، خلاسية، جميلة،لم يخلق الله امرأة أخرى مثلها في الدنيا.

وتنساب الأنغام يحملها النسيم المسائي، وكانت مسموعة كدعوة ملحة ومرحة، في كل بيوت المزرعة. في الصمت المحيط بها، اهتزّت الهارمونيكا في يديْ باستيون الحكيمتين معلنة

الاحتفال بزواج كوزمي وتيريزا.

كانت ليلة فرح في المزرعة. فما من امرأة أو رجل، عازب، متزوج أو يتخذ عشيقة، إلا كان راضياً، وقد أعد نفسه لتنكب الطريق إلى بيت أتاليبا، إلا غريغوريو الذي كان يمضغ بصمت قديده مع حساء الماندیوكا بالماء البارد، مفكراً في حقل الذرة الذي سيغرسه، فيما ميلتون ذو الجزمة التي تحدث صريراً، قد غادر المكان إلى الحفلة، وشعره أملس بسبب ملمّع الشعر من الصنف الذي تباع العلبة منه بخمسماية ريس. وزيفا أيضاً، الحزينة أمام قديسيها الذين كان ينيرهم قنديل صغير، كانت تفكر في أمور بعيدة عن الاحتفال بالزفاف. فبالنسبة إليها لم تكن حفلات، تلك التي تراها في عينيها الزاخرتين بالخوف، ولا كانت أحداثاً سعيدة، ولا أخباراً طيبة. كانت ترى أشياء مريعة، ترى نكبات لا توصف.

لكنهم كانوا الوحيدين، زيفا، جوكوندينا وغريغوريو الذين لم يكن لديهم تفكير في الحفلة وما كانوا مهيئين أنفسهم لها. والآخَرون إما ذهبوا وإما كانوا يبدلون ثيابهم، يغسلون أقدامهم، ليصبح انتعال الجزمات أكثر سهولة. وحدهم الثلاثة لم يسمعوا الأنغام الداعية من آلات الهارمونيكا التي وصلت من الدرب وكانت تملأ ليل المزرعة. لأنه حتى الجداجد صمتت لتصغي إلى موسيقى تلك البولكا، وكان باستيون هو الذي يعزف، ولا أي عازف مثله، لا أحد!

7

أجل، لا عازف مثله في كل تلك الأراضي، في المزارع التي تمتد فراسخ وفراسخ في السرتون الشمالي الشرقي!

وداخل المنزل حيث كانت تبدل ثيابها، قالت فيليسيا لأرتور الذي كان جالساً إلى الطاولة ينتظر العشاء، متباطئاً في اتخاذ القرار بالذهاب إلى الحفلة:

- لا يوجد من يعزف مثله...

شخص آخر لم يكن يحبه، هو الزنجي باستيون. وقد تحدث أرتور مع ماريو غوميز قديماً. كان ذلك ترويحاً عن النفس. ماذا فعل هو على سبيل المثال، للزنجي باستيون؟ لم يفعل أي سوء، وخصوصاً أنه أثار مع الدكتور أوريليانو موضوع أرض العازف وساعد على الحل السعيد. لكن باستيون كان صعب التعامل مفعماً بالكبرياء، وكل ذلك لأنه كان صاحب قطعة الأرض التي يملكها. إنه مالك بالاسم فقط، كان أرتور يفكر - كان يريد بيع طحينه في الدسكرة، يبيع ذرته

لمزارعين آخرين، ويشتري من خارج مخزن المزرعة. وغير مرة تناقش أرتور معه، وماذا كان يفعل إزاء هذا، إذا ما قام بالتزامه؟.

عندما جاء أرتور للعمل في المزرعة أجيراً بسيطاً مثل الآخرين، وكان باتسيون هناك من قبل، شهرته كعازف تدور من فم إلى فم، ومذ كان فتى يافعاً وهو يحسن العزف على الهارمونيكا، يقيم الحفلات للعقيد إيناسيو. وحينما كان لدى العجوز زوار في البيت، وحين كان أصدقاء أوريليانو يأتون في العطلات برفقته لقضاء بعض الأيام في الريف، فإن باستيون الذي كان في ذلك الوقت قد أصبح مكتمل الرجولة، قلّما يخرج من المنزل الكبير مبدداً بموسيقاه رتابة الليالي. كان سلوى الفتيات والفتيان في المدينة، حيث يرقصون على أنغام ألحانه القديمة، ضاحكين من قدم الرقصات، وكان يغازل، وكانت الفتيات لطيفات معه، ويعطينه خرجية وهدايا.

- في حفلة زفاف أخرى أعطى الكولونيل إيناسيو باستيون قطعة الأرض التي كان يحرثها. ولم يكن أرتور قد وصل إلى المزرعة حين حدث ذلك. بيد أنه عرفه بكل تفاصيله، حيث كان الرواية التي تتردد دائماً عندما يكون اسم الكولونيل محور الحديث. حين يريدون البرهنة على أنه كان رجلاً طيباً. كانوا يروون فوراً ما حدث لباستيون في حفلة زفاف جولييتا. وكانت جولييتا هذه ابنة صاحب المزرعة بالتبني. جاءت لتكون برفقته وهي في التاسعة من عمرها، ابنة إشبين له مات من الحمى أمام نظر الكولونيل. وقبل أن يموت طلب منه أن يرعى البنت. وهكذا وصل إيناسيو إلى البيت جالباً الطفلة الوجلة. وكان أوريليانو في المدرسة الثانوية داخلياً في عاصمة الولاية، والدونا أنجيلا المسرفة في الحنان، عطفت على اليتيمة، وبدلاً من أن تكون خادمة، جعلت منها فرداً من العائلة. وبالنسبة إلى إيناسيو، كانت الصغيرة هي الابنة التي كان دائماً يتمناها ولم تكن له. كان هو وأنجيلا في السن التي يجب أن يكون لهما أحفاد حين وصلت وملأت البيت بصدى ضحكاتها ومشاكساتها. وكان أوريليانو يأتي في العطلات، وعندما صار طالباً في الجامعة، حيث كان يدرس في الريو، ندرت زياراته إلى المزرعة، فكتب رسائل إلى والديه في فترات متباعدة، وكان يظهر في المزرعة مرة كل سنتين، حيث يقضي خمسة عشر يوماً، وهو في عجلة من أمره للعودة، الأمر الذي جعله يزيد من أعذاره، بينما العامل الرئيسي هو دائماً على وجه التقريب، زوجاً من العيون الساحرة والسيقان المتكاملة. وهكذا كان من أمر جولييتا التي امتلأت بالشباب، فأشاعت حرارة العاطفة في شيخوخة صاحبيْ المزرعة. وكان قلق إيناسيو حينما أصبحت شابة، يدفعه لأن يهيئ لها زواجاً حسناً. فقد كان يخشى بموته، أن تعود الفتاة إلى ظروفها كابنة عامل. ولم يكن يقبل أن ينظر إليها فلاح أو راعٍ بعينين طامعتين. والرجل الذي يقدم على هذا العمل

يستطيع أن يعتبر نفسه مطروداً من تلك الأراضي. وكان الكولونيل نفسه هو الذي اختار العريس لها. فأينوتشي كان يمتلك متجراً في المدينة، مجهزاً بكل الأصناف، ولديه ضعف في الصدر جعله ضيفاً على المزرعة خلال شهر. وكان إيناسيو يعرف والد أينوتشي مذ كان طفلاً. وقد ساعد الغلام نفسه ليجتاز مصاعب معيّنة في بداية حياته التجارية. وقال للدونا أنجيلا حين تحسنت صحة الفتى على حليب السرتون وهوائه النقي: «إنه زواج حسن لجوليتا».

وجمع الزواج أصحاب المزارع في الجوار، وأناساً من المدينة، تجاراً أصدقاء لأينوتشي. وقدم أيضاً نائب، سياسي كان يعتمد على الأصوات التي يؤمنها له إيناسيو. وكانت بائنة جوليتا مثاراً للكلام في ضخامتها. وجاء ثوب العروس من الريو، هدية من أوريليانو، وكان فستاناً جميلاً. ويتذكر آنئذٍ ويحب أن يروي:

- كانت تبدو كدمية..

وعزف باستيون حتى انبلج الصباح. وفي رضاه عن ذلك، تلك الحفلة التي لا تُنسى عندما احتسى الكولونيل إيناسيو الشمبانيا مع النائب، أعطى كلمته بصدد الأرض التي كان الزنجي يعمل فيها. وكان باستيون يزرع ذلك الحقل منذ أربع سنوات، وكان يعمل سابقاً بأجر في المزرعة. وهو قد وُلد في المزرعة وهناك ترعرع. وكان الكولونيل يعرفه مذ كان فتى، شاباً جميلاً يلاحق الزنجيات في الغابة، ويغوي نساء متزوجات في المدينة. ومع أنه لم يعزف في حفلة زفاف إيناسيو (كان لا يزال ولداً ولا يحسن التعاطي مع أسرار الهارمونيكا) فقد عزف في عمادة أوريليانو، وهي حفلة صاخبة أخرى، بحضور قس قادم من المدينة، وسياسيين جلسوا إلى مائدة العشاء، ودكاترة وعقداء .

ومنذ ذاك، كان باستيون، سواء في حفلة تُقام في المنزل الكبير، أو في حفلة أناس فقراء في المزرعة، وفي المزارع في الجوار، الشخص الذي لا يمكن الاستغناء عنه، وحين يوجه صاحب الحفلة الدعوة، لم يكن ينسى أن يضيف:

- باستيون سوف يعزف..

في حفلة زفاف جوليتا تلك، في نهاية الليل نادى باستيون عندما سكتت الموسيقى وتوقفت الأقدام عن رقص الفالس، وربما كان مأخوذاً بالشمبانيا، راضياً بزواج الفتاة وحزيناً لأنها سترحل، وفخوراً بحضور النائب:

- أيها الزنجي، لقد اقتربت من الموت...

- معاذ الله. ليحفظ الرب حضرتك، يا سيدي..

- إني على وشك الموت: وقبل أن أمضي لأسدد حساباتي، أريد أن أعطيك هدية...

- كما تقول حضرتك، أيها الكولونيل إيناسيو.

- لتكن لك هذه الأرض حيث يوجد حقلك. وليس ذلك من الفم فقط، كلا، فلسوف أسجلها على الورقة في يوم من هذه الأيام..

لكنه لم يسجلها البتة. إذ لم يكن ثمة مناسبة لذلك. فالكولونيل عاش فترة قصيرة بعد الحفلة. وباستيون أيضاً لم يعتقد قط أنه من الضروري تذكيره. فبالنسبة إليه كانت تكفي كلمة إيناسيو. فإذا قال إن الأرض له، فلن يكون عندها نقاش. ليس للعقيد كلمتان. إنما في مناسبة الجردة فقط، فكر في أن يطلب من أوريليانو أن يحرر له وثيقة بالأرض. لكنه لم يشأ إلحاق الإهانة به، فترك الأمور كما كانت. لم يكن يدفع مخصصات، ولا يعطي نصف إنتاجه للمزرعة، إنما كان أرتور يلح فقط على أن يبيع الإنتاج للبيت، ويشتري من المخزن. ومن هنا مشاكسات وثورات باستيون، زمجرات الزنجي المهينة وخصوصاً عندما يفرط في معاقرة الكاشاسا.

وكان أرتور يقول:

- الزنجي الحيوان...

كان لدى الزنجي باستيون، عازف الهارمونيكا، كبرياء معيّنة، لأنه أصبح صاحب قطعة أرض. ولهذا فقط كان يجعل الآخرين يتوسلون إليه عندما يدعونه ليعزف في حفلة ما. فلديه أرضه، وهو شخص مهم، لا يدفع مخصصات ولا يعمل يوماً بلا مقابل للمزرعة، كما تقضي عقود الفلاحين. ولم يكن يعامل الآخرين بشيء من التعالي لأنه أفضل عازف للهارمونيكا في كل المنطقة، إذ إنه كعازف جيد وذي ميزة يمتلكها، حتى هو لا يعرف حقاً كيف أن أصابعه مرنة جداً وأذنيه مرهفتان، فالعزف بالنسبة إليه مثل الأكل والشرب، وما استوفى قط ريالاً في حفلة ما، إنما لأنه الزنجي باستيون، لديه أرضه التي تعطيه ما يأكله. أرض يعمل فيها مع امرأته وأبنائه منذ بزوغ الشمس حتى حلول الليل، مع الجداجد والحباحب. الليل، أجل، إنه للهارمونيكا، للموسيقى، لرقصات البولكا القديمة المنسية، فرح المزرعة لأنه في الفراسخ العشرة المحيطة، لا يوجد عازف يضاهيه، لا أحد.

«بائسون... بائسون...» كانت زيفا تردد الكلمة بكراهية، وتختلس النظر إلى من حولها، جاحظة العينين. كانتا كبيرتين جداً، وإزاء الظلال التي تهبط ثقيلة فوق البيت المشيّد من الطين، كانتا تغيّران تعبيرهما كأن الانفعالات مكتوبة وموجهة بتغيّرات الغسق.

«بائسون...» قالت، لكن الآن بصوت ملؤه الأسى، إذ إن الأحاسيس الأشد اختلافاً تنمو بسرعة وبدون انتظار، منذ الفرح المبهم حتى الخوف الأشد رعباً، الذعر، الرغبة والحقد. كانت لحظة الوحي القاسي والمرعب، حقيقتها الوحيدة، التي يجب أن تنقلها إلى الناس الكافرين، التي يجب أن تنشرها في عالم السرتون الشاسع، حيث لا أخبار لدى زيفا عن العوالم الأخرى.

كانت تعرف بشكل مبهم عن المدينة القصية والآثمة والمعاقبة بشكل لا علاج له، والتي ليس بالإمكان أي إنقاذ لها. وسيكون من العبث إيصال الكلمات التي تجيء لها من داخل صدرها، إلى المدينة، والتي في ساعة المغيب، تحاول إبلاغ الذين يحيطون بها لكي يُنشر الخبر، ويكون البشر مهيئين للحظة الرائعة التي لا يمكن تأجيلها.

هناك، أمام أطر القديسين، وحيدة في القاعة، ملحوظة فقط من زوجة أخيها، استعدت زيفا مرة أخرى لإعلان السر الذي نُقل إليها، وليست هي الوحيدة في هذا السرتون ذي المزارع الواسعة والجوع. فإن رجالاً ونساء آخرين منتشرون في اتساع الكاتنغا، لهم الوحي المرعب نفسه، ويبذلون الجهد المماثل نفسه الذي تبذله زيفا ليقنعوا الذين يحيطون بهم. ويأتي يوم سيقتنع الجميع وستهمل أدوات العمل، وستترك الأيدي المناجل والفؤوس، وسيرفعون إلى السماء وركبهم منثنية فوق الأرض، ورؤوسهم منحنية.

كانت الظلال تنزلق على الأشجار والأعشاب والبيت والكاتنغا البعيدة.

وضغطت الأحاسيس على قلب زيفا المغتم. إنها الآن مرحة جداً. عيناها تسيلان عذوبة، والشفتان شبه مبتسمتين، كشفاه العرائس في يوم الزفاف، ويداها تشد الواحدة على الأخرى كأنهما تضغطان على يدين حبيبتين جداً. وفجأة أضحت مريعة، متبدّلة، تنظر بحقد، تبدو وفمها متشنج، أنها تريد أن تبصق، وتلعق ويداها تنتفضان، وجسدها متوتر، في حالة دفاع. وفوراً أطبقت أسنانها، فإذا الرعب في حدقتيها الواسعتين، والجسد ملقى إلى الوراء، واليدان تمسكان قاتلاً غير مرئي. لتعود بعد ذلك منهكة، كأن أحداً وصل من مسيرة لا نهاية لها، وإزاء نظرة الحنان العذبة، ومصافحة اليدين الرقيقة، فيما كانت الظلال تحت سماء السرتون مختلفة، جارفة الليل العميق.

أعلن خوار البقرة دخولها الحظيرة، مودعة الحقل، والحرية مع الشمس. وكان ذلك علامة لزيفا. فتلك الضوضاء التي تتكرر تقريباً كل مساء بشكل لا يتبدل، لها عندها قيمة تختفي أمام الآخرين. وما كانت أصوات الحيوانات والبشر - خوار البقرة، صرخة جيرونيمو - إلا علامات إلهية، بلاغات عن ذلك العالم الذي كانت متعلقة به مذ عرفت الوحي.

رفعت رأسها بانتظار تكرار الخوار، وبقيت في حالة ترقب، في قلق من الأحداث التي لم تتحقق. وبدأت آنئذٍ تمضغ كلمات منتزعة بصعوبة من صميمها. متلفظة كل كلمة منها بشكل متقطع، كأنها تبعث فيها الخوف. وتطلّعت إلى ما حولها لترى إذا لم يكن أحد موجوداً، إذ إن أشخاص البيت وقاطني المزرعة الآخرين، كانوا يعتادون الضحك مما تقوله. لم يكونوا يولونها أهمية، وكان ذلك يثيرها إلى أقصى حد. مع أنها كانت تبدي أقل اهتمام، سواء كانوا قريبين أو بعيدين، إذا سمعوها أو لا، فتنتهي كلماتها بأن تغدو محترمة شاؤوا أو أبوا، حيث كانت كلمات الله تلك التي ترددها. أصبحوا كافرين وبعيدين عندما تتكلم. جيرونيمو وجوكونديـنا ومارتا وأغوسطنيو، وكل الآخرين أيضاً. لكن لا بد أن يقتنعوا يوماً وربما يكون قد فات الأوان. ولم يعد ثمة وقت للندم وللخلاص. وهذه الأفكار مثل رياح العواصف، في اضطرابها، كانت تعبر قلب زيفا وتغيّر تعابير عينيها وتبدل سحنتها.

كانت ذات يوم، شابة مثل الأخريات، إنما أكثر صمتاً وأكثر التجاءً إلى ركنها، منحنية فوق مغازل الوسادة ذات التخريمات حينما يكون لديها متسع من الوقت، وتحمل صفائح الماء، وتساعد أخاها في العمل في حقل المنديوكا. وبدأ التحول بعد القداس حين استدعى الكولونيل إيناسيو، قساً ليقيم قداساً، يزوّج ويعمّد، ويعظ جميع ساكني المزرعة. واستمعت زيفا للعظات بعينين مفتحتين، وحافظة كل كلمة - كلمات كثيرة لم تفهمها - ومدركة أن البشر كانوا يقترفون الخطيئة وأن عقاب الله يقترب. ولم يلبث أن جاء موت كلاوديونور، اغتيل بالسكين بسبب الأرض، على بعد عشرين فرسخاً من هنا، في مزرعة أخرى. وحين وصل النبأ أطلقت زيفا صرخة وارتجف جسمها في أولى تلك الهجمات التي أثرت في البدء كثيراً في أقاربها.

ومنذ ذلك الحين، أصبحت معتوهة كما يقولون في المزرعة، تسير من ناحية إلى أخرى، لا تساعد تقريباً في أي من أعمال البيت وفي الحقل، وتتبدل عند المساء، زاخرة بالنذير والتنبؤات. أحياناً، في أيام الآحاد، كان الجيران يأتون ليحتسوا الكاشاسا ويقصّوا أحداثاً، فيتأخرون في المطبخ مستمعين إلى عازف ما على الكمان أو على الهارمونيكا، متبادلين الانطباعات تجاه أقارب هاجروا إلى سان باولو وكان لديهم عنهم أنباء غامضة ومتفائلة. «قيل إن مانيكا فولو قد

أثرى بشكل مخيف أيها الإشبين». «قيل إن ذلك تم في وقت وجيز». «هذه هي البلاد أيها الإشبين، لرجل يحب العمل».

كانت زيفا تصغي إلى الأحاديث وهي غير ثابتة في انتباهها. تستبقي فقط شذرات متفرقة من الجمل، وأحياناً ترددها. لكنها تأخذ في فمها المحموم معنى آخر. فبدلاً من التأكيدات كانت تقريباً سخريات. وحينما تحين ساعة جمع الماشية المنتشرة في المرعى قليل العشب، كان الجيران يشعرون أنهم مجتاحون باحترام لا حدود له، فإذا زيفا كأنها لم تكن ذلك الشكل من فتاة مريضة، تقف بينهم مستمعة لما يقولونه، مرددة شذرات من الأحاديث، ضاحكة من الأمور بضحكتها البلهاء. ففي تلك الساعة التي كانت تنهض وتخطو منتصبة وذات عزيمة، إلى مقربة من أطر القديسين (كان لديها القديس جيرونيمو وسنيور دو بون فين ، والقديس كوزمي والقديس داميان، وهذان القديسان في صورة واحدة)، وكان الخوف يجتاز جميع الحاضرين، ويرغب البعض في الانصراف، وتصمت الفيولا وتموت الأحاديث حتى عندما تتكلم عن الأقرباء الذين أثروا في سان باولو. كانوا يرافقون كل نظرة، كل حركة، كل كلمة، كل بلاغ مرعب من الفتاة التي كانت بالنسبة إليهم، وعلى حين غرة، الغموض الذي لا حلّ لرموزه. كانت هي الإنسانة الخارقة. وكان بعضهم يضحكون بعد ذلك مما يثير زيفا نفسها. فكان ثمة من يجب أن يراها ثائرة. لكن عندما تتواصل الهمسات يوماً بكامله، تتحول إلى صرخات عند نهاية المساء. فإن الاحترام والخوف وحدهما اللذان يرسمان ملامح المستمعين عرضاً. والذين يسمعونها للمرة الأولى، يبقون أياماً وأياماً مفكرين في ذلك الوجه حيث مشاعر كثيرة تنعكس بشكل مندفع، ويستمرون في الليل مصغين إلى الكلمات التي يلفظها ذلك الفم الذي كان يبتسم بحب شديد مرة، ومرة أخرى ينفرج عن حقد على جميع الرجال والنساء وعلى كل كائن حي، خصوصاً الأطفال والماشية وطيور السماء، وحشرات الأرض، جميعاً بلا أي استثناء.

«بائسون... بائسون...» كانت زيفا تردد، ويأتي صوتها مفعماً بالحسرة والرقة. وكانت تركز بصرها على أحد ما أمامها وعيناها إذ ذاك تعكسان الرعب، فتهتزّ بجسدها وتصرخ خوفاً. وعلى الفور كان الحقد، الكلمات نفسها، لكنها الآن قيلت كلعنة: «بائسون... بائسون...».

وهم يعرفون مسبقاً أنها سوف تعلن، إذ إن رسالتها لم تكن تتغير. كانت هي نفسها منذ سنين عديدة، وتستعيدها يومياً، لكن بما أنها تكسب قوة كل مساء، فإنها تتحول أكثر تأثيراً لقاء كل تكرار. والرجال، مع انقضاء الانفعال، حين تلملم زيفا الهادئة نفسها بعد الصلوات التي لا رابط بينها، يحتسون الكاشاسا ويعودون إلى أحاديثهم بتوتر ملحوظ. وكان يوجد بدون شك أولئك الذين

رغم الضحكات والنكات، يؤمنون أنه كان صوت الله هو الذي يتكلم من فم زيفا، وكان رجال ونساء آخرون يرددون في السرتون الجائع، كلمات مشابهة وبعضهم يمضون متكئين على عصي ومسرعين، ناقلين من مكان إلى آخر تلك الرسالة. وعندما كان أحدهم، يصل من السفر، يقول لفلاحي المزرعة إن طوباوياً في الكاتنغا أعلن قرب نهاية العالم، فيرسمون إشارة الصليب ويؤكدون أن هنا أيضاً ثمة فتاة معيّنة يتلبسها روح، تنقل هذا النبأ كل مساء وتأمر البشر بأن يستعدوا للحظة القادمة.

وهكذا بدأ اسم زيفا بالانتشار إلى ما وراء حدود المزرعة التي كانت إحدى تلك المزارع ذات المساحات الشاسعة في السرتون، الكبيرة كولايات، والمنفصلة عن بقية العالم كأن أسواراً ارتفعت حولها.

بعض أولئك الرجال الذين يضحكون هناك، لم يسبق لهم أن خرجوا من حدود الملكية. لكن اسم زيفا اجتاز الأبواب الحديدية والسياجات، وفي المزارع الأخرى، وعلى الدروب والطرقات كانوا يتكلمون عن تنبؤاتها. والدكتور أوريليانو الذي كان مالك تلك الأراضي، وقد جاء ذات مرة من ريو دي جانيرو (إبان الانتخابات الإيالية) رغب في رؤية زيفا وحضور أحد تجلياتها. وبما أن زيفا رفضت بشكل قاطع الذهاب إلى المنزل الكبير، فجاء هو عند نهاية المساء، بصحبة صديق كان قد توقف في المزرعة، وسمع الصرخات المرعبة والكلمات الهادية تكلم بعدها بهستيريا، وهمس بكلمات علمية وضحك الآخر وعلّق:

- أنت كطبيب، ليس لديك إلا الدبلوم يا أوريليانو. لماذا هذا الكلام التافه؟ المرأة مجنونة وانتهى الأمر.

ضحك الدكتور أوريليانو أيضاً، وقال إنه لا يزال يتذكر صفوف الدراسة. وأعطى جيرونيمو عشرة آلاف ريس وعاد إلى المنزل الكبير. بقي بعض الوقت في المزرعة، فحياته كانت في الريو، وبالنسبة إليه فإن تلك الأراضي الموروثة تعني القليل أمام الفوائد الكبيرة في المال والتي كانت تربطه في عاصمة ريو دي جنيرو .

ومع هذا، فإن زيفا بكلماتها غير المنطقية هي التي أنقذت المزرعة من السرقة، يوم ظهرت عصابة لوكاس آرفوريدو هناك، حيث شرع قطاع الطرق في أخذ كل ما هو موجود في بيوت الفلاحين والعمال، وأقله المنزل الكبير، حين بدأت زيفا الإعلان عن نهاية العالم. بالنسبة إليها كان اليوم قد حان، فأولئك الأشقياء الذين كانوا يطلقون الرصاص في الهواء، وغيَّروا حياتها اليومية

المستقرة تماماً، قد زودوها بالشعور أنه قد حانت اللحظة التي فيها سيحاسب الخطأة على خطيئتهم. فاندفعت من باب البيت، أمام ذعر العجوز جوكوندينا، وحيّت الكانغاسيرو كمبعوثين من الله. وحين رآها لوكاس آرفوريدو، صاح:

- أي شيطان هو هذا؟

لكنه سكت فوراً وأمر رجاله بإطباق أفواههم، لأن زيفا بدأت تعلن نهاية العالم، مكررة كلماتها المتعثرة عند كل غسق. ورمق لوكاس آرفوريدو الفتاة الشديدة الشبه بوحش، فشعرها لم يسرح منذ سنين، حيث كان القمل يسرح حراً، ويداها ذواتا أظفار طويلة، والفم المتنبىء. عندها طوى الكانغاسيرو ركبتيه ورسم إشارة الصليب، وحنى رأسه، وقلّده رجاله بصمت. فخفض بيكو دوسي الذي كان يصوّب بندقيته إلى صدر زيفا، سلاحه وركع هو أيضاً. وزعقت زيفا برسالتها وانتظرت شيئاً ما لم يحدث ثم عادت إلى البيت.

أمر لوكاس بإرجاع النقود التي كان قد سلبها، ولم يشأ أن يأخذ شيئاً من المزرعة. وكل ما أخذه هو فنجان قهوة مع الآيبين في بيت الهرم جيرونيمو، ثم رحل.

أخذ معه شيئاً وحيداً، هو جوزيه الذي هرب في تلك الليلة لينضم إلى عصابة الجاغونسوس.

- بقيت زيفا وخلال وقت معيّن، أشد ارتباكاً، كأنها قد سرقت. واقتضى الأمر بضعة أيام للعودة إلى حياتها العادية إلى ترقب تحولات الغسق، وإعلان نبوءتها مع صرخة جيرونيمو في قطيعه.

وصاحت هي: «البشر قد أثموا بما فيه الكفاية. والعالم سينتهي». ثم رفعت يديها وأبلغت:

«عقاب الله قريب، ولن يُنقذ أحد» ورددت الكلمات كأنها تردد مثلاً: «بائسون... بائسون...».

9

خرجت فيليسيا من الغرفة بكامل زينتها، الخدان مطليان بالأحمر، الشعر مسرّح، والثوب هو الأفضل. فنظر إليها أرتور بحنو. كان الأولاد نائمين، فسيذهب المتصرف بالمزرعة وزوجه إلى الحفلة بعد العشاء، وعندها تذكر أرتور الفتى الذي أرسله إلى البريد في الدسكرة، ليجلب له المراسلات. فبرقية الدكتور أوريليانو حملها اليه رجل، وقد أبلغته أن الرسالة هي حول موضوع

مهم. وعامل البرق الذي كان مديناً في مركزه لحماية الدكتور، أرسل البرقية مرفقة برسالة. ويوم الأربعاء، هو موعد البريد، أرسل أرتور الفتى إلى الدسكرة. أي نبأ سيكون هذا النبأ المهم جداً؟ فأوريليانو لم يكن الرجل الذي يكتب رسائل كثيرة. لقد بعث إليه أرتور تقارير، بخطه المرتبك، متحدثاً عن أوضاع المزرعة. وقد أجاب هو ببطاقات قصيرة، أوامر موجزة. فلم يكن يهتم كثيراً بالمزرعة. كان سعيداً في أعمال أخرى في الريو، وعرف كيف يوظف المال الموروث، المتراكم في المصارف من قبل الكولونيل إيناسيو. لم يكن الهرم يعرف أي وظيفة لرأس المال غير الأراضي، وعندما وجد أن مزرعته بلغت الحجم المرغوب فيه، بدأ يترك العائدات في المصارف لكسب الفائدة.

بيد أن أوريليانو وظف هذا المال حالما وجده في تصرفه. واليوم فإن أعماله في الريو هي أكثر اهمية له من المزرعة في السرتون، البعيدة والمنسية تقريباً.

قدّمت فيليسيا العشاء الذي هو أفضل قليلاً من عشاء العمل؛ آيبين مطبوخ، فاصولياء، قديد، بطاطا حلوة ودقيق المنديوكا. وجلست إلى جانب زوجها، ولم تكن لديها شهية تقريباً، فتفكيرها كان في الحفلة، ولهذا لم تفهم في البدء سؤال أرتور:

ـ ما الذي يمكن أن يريده؟

ـ أتاليبا؟ إنه يعيش مرتاحاً ولم أر أحداً مثله يحب الاحتفال هكذا...

فأوضح أرتور:

ـ أنا أتكلم عن الدكتور أوريليانو، تلك الرسالة المهمة جداً...

فكرت فيليسيا، والشوكة حائرة في الهواء:

ـ أن هذا الأمر بصدد مجيئه إلى ههنا مع زمرة من أصدقائه...

ثم تنهدت:

ـ إرباك لنا.

ـ أهكذا سيكون؟

ظل أرتور مفكراً، لكن فيليسيا تريد التحدث عن الحفلة:

- يجب علينا أن نقدّم هدية للعروس...

- لتيريزا؟

- لا نستطيع الذهاب بأيدٍ خاوية...

- إذا رأيت واحدة في المخزن فقط...

- ماذا يمكن أن تكون؟

- قطعة من قماش الشيت؟

- يمكن أن يكون شيئاً أفضل.

- ماذا؟ هنا لا يوجد شيء مناسب.

- يمكن أن تكون تلك المرآة مع المشط والفرشاة...

- إذا كان ذلك ممكناً...

تذكّر أرتور صندوق الزينة القديم. فالكولونيل قد اشتراه من عربي ليقدّمه هدية للدونا أنجيلا، لكن لم يتسن لها استعماله. فبقي في المخزن سلعة غريبة بين القديد وقماش الشيت والكاشاسا والفاصولياء.

- لقد جاء اليوم الذي يُستفاد منه...

- سوف يسيل لعابها...

إن أرتور الآن فرح، لأن فكرة إهدائه صندوق الزينة لتيريزا تساوي بالنسبة إليه مصالحة كاملة مع الفلاحين. ولم يدر حقاً لماذا أزعجته في نهاية المساء وفي بداية الليل، تلك الفكرة بأن الفلاحين لا يحبونه. سيذهب إلى الاحتفال ويعطي تيريزا صندوق الزينة، وسيحتسي الخمرة مع الرجال، ويرقص مع النساء، وربما لن تستمر علاقاته متوترة جداً، ولن يديروا بعد وجوههم، ولن يتكلموا بالسوء عنه من وراء ظهره، وأخيراً ماذا فعل لهم؟ كان يفي بالتزاماته كمتصرّف في المزرعة، حين يضيّق الخناق عليهم في العمل، عندما يرفع الأسعار لمصلحة المزرعة، حينما يناقش مع الرجال ديونهم ومستحقاتهم. لكنه لم يكن يريد لهم سوءاً ويحب العيش في وفاق جيد معهم، وأن يكون له أصدقاء بين الفلاحين والعمال، ويستطيع التحدث عند المساء في ساعة

المخزن، ويقوم بزيارات. فكل شيء الآن يسير بشكل أفضل. وهو يشعر بذلك منذ محادثته مع ماريو. فذهابه إلى الاحتفال، والهدية التي ستحملها فيليسيا سيكونان العلامة المحددة لمرحلة جديدة في علاقاته بالفلاحين والعمال. وهذا يفرحه كثيراً.

قال لفيليسيا، كأنه يجيب عن جملتها في البداية:

- إنه شخص طيب، أتاليبا هذا، محب للحفلات لكنه شغيل...

- دهشت فيليسيا من مظهر زوجها أكثر مما دهشت من كلماته:

- قلت إنه كان متلافاً...

- هذا أمر يخصه... فلكل شخص طريقته... هو يحصل على نقوده، وينفقها كما يريد... فلا علاقة لنا بهذا الشأن...

- أنا لا أقول شيئاً...! أنت الذي قلت..

وصاح أحد من الخارج:

- يا سيد أرتور! يا سيد أرتور!

- من هناك؟

- إنه ميلتون...

- ماذا تريد؟

- ألست ذاهباً إلى الحفلة؟

- سنذهب، أجل.

- إذن لا تتأخر، لأنهم ينتظرون قدومك ليطلقوا المفرقعات... عند وصولك...

عاد أرتور مبتسماً إلى فيليسيا:

- أرأيت؟

وصاح إلى الخارج:

- أكاد أنتهي من إعداد شطيرة يا ميلتون.

وضاع الصوت في الليل، وابتسم أرتور. سينتظرونه مع المفرقعات، وسيطلقونها حين وصوله. ربما قد أساء معاملتهم في بعض المرات وبشكلٍ قاسٍ، وبالزعيق. وربما كان فعلاً قد أجرى حسابات مرتبكة ليدفع أقل من قيمة المحاصيل للفلاحين، وربما كان قد باع بسعر أغلى من قيمة السلع في المخزن. لكن من أجل هذا كان المتصرّف. إن هذا يجب ألا يكون مهماً في علاقاته بالناس. وسيعاملهم بصورة أفضل من الآن فصاعداً، وسيحاول إرضاء كل واحد، ويجعلهم أصدقاء...

نهض عن المائدة. وقال لفيليسيا التي اتجهت إلى المطبخ:

- ستغسلين الأطباق عندما نأتي...

إنه في عجلة من أمره. فالمفرقعات سوف ترتفع إلى الأجواء حينما يصل إلى بيت أتاليبا. فهو شخص طيب أتاليبا هذا...

- سآتي بالهدية...

وصل الفتى، وقبل أن يلقي تحية المساء، اعتذر:

- وصل البريد متأخراً. فقد تعطلت الشاحنة في الطريق...

تسلّم أرتور الرسالة كبيرة الحجم:

فيليسيا، هاتي السراج...

سلَّط النور الأحمر على الرسالة كبيرة الحجم، المطبوعة على الآلة الكاتبة. وفي الصفحة الأخيرة توقيع الدكتور أوريليانو، وهو أول شيء استرق أرتور النظر إليه. وبدأ يقرأ وفمه يلفظ الكلمات بصوت هامس، وعيناه مفتوحتان ووجهه متجهم. فجزعت فيليسيا:

- ماذا هنالك يا أرتور؟ مصيبة ما؟ ماذا حدث للدكتور؟

كان صوت أرتور الآن ثقيلاً:

- باع المزرعة...

- باعها؟

- قام بطرد جميع الفلاحين، وتصفية حسابات الجميع، حتى حساب باستيون، ورحيلهم قبل أن يصل المالك الجديد...

التفكير الحزين والقاتم نفسه، اجتاز الآن قلب فيليسيا:

- والآن يا إلهي، كيف ستصير الحال؟

خبأ آرتور الرسالة:

- ليس مناسباً أخذ الهدية...

كانت الخطوات في الطريق هي خطوات جيرونيمو مع امرأته وأخته المجنونة زيفا تهمهم بتنبؤاتها، فأنْصت أرتور إلى الهمس أمام المنزل الكبير، وزفرت فيليسيا:

- إنهم ذاهبون إلى الحفلة... من الأفضل ألا أذهب...

- أفضل حقاً... دعيني أذهب بمفردي، وأبلغ النبأ...

وقطع صوت زيفا الصمت، وما كان أحد يفهم ماذا تقول، لكن فيليسيا شعرت بثقل في القلب. فتلك الكلمات هي لعنات وللعنات زيفا قدرة مرعبة. ونهض أرتور:

- ليكن ما يشاء الله...

ورجع صوت زيفا صداه في الطريق:

- بائسون... بائسون.

10

موسيقى الهارمونيكا مصحوبة الآن بالكمان والكافاكينيو. وباستيون جالس. يبدو ملكاً على عرشه، وابتسامة عريضة تقطع وجهه الزنجي. ها هم هنا، في حفلة أتاليبا، في زفاف تيريزا، جميع الفلاحين في المزرعة، وكل المرابعين والعمال. هذا هو يوم الاحتفال، حدث نادر في الرتابة الحزينة لتلك الحيوات. لقد جرى الكلام عنه خلال وقت طويل من قبل، ولوقت طويل سيتكلمون عنه فيما بعد. إنهم الرجال والنساء الذين يعملون نهاراً وليلاً، يكدحون والمعول في يدهم، وينقبون

الأرض ويغرسون ويحصدون. إنهم أشباه عبيد للمزرعة التي ينبغي أن يبيعوها محصولهم لكي يشتروا موادهم الغذائية، لكنهم في هذه الليلة لا يفكرون في أي شيء، في أي حزن، في أي مصيبة. حتى ولا جيرونيمو الذي دخل مع جوكونديا، آتياً بزيفا المجنونة، حتى ولا يفكر في جنون أخته، ولا في أولاده الذين رحلوا باتجاه مجهول... اليوم، يفكرون فقط في الحفلة، في فرح الرقص والشرب والضحك، والتحدث والإصغاء إلى الزنجي باستيون على الهارمونيكا.

وصاح أتاليبا بجيرونيمو:

- أيها الإشبين، كن كما في بيتك.

وجلست زيفا على المقعد الخشبي المستطيل، عيناها الزائغتان تبتسمان، ووجهها مطمئن تقريباً لصوت الموسيقى. وأراد أتاليبا أن يعرف:

- أيها الإشبين، أنت الذي جئت من أطراف المنزل الكبير، ألا تعرف إذا كان السيد أرتور قد خرج؟

- يبدو أنه آتٍ... عندما انطلقت، شاهدت حركة أناس يتهيأون...

رقصوا في القاعة المعدة للاستقبال. ومع أن أقدامهم غير معتادة الجزمات، فإنهم لم يتوقفوا في خطوات الرقص. رقص كوزمي مع تيريزا، وميلتون مع خطيبته، رقصت مارتا ورقص أغوسطينيو، زنوج وبيض وخلاسيون. وقدّم أتاليبا الكاشاسا، فثمة وفرة منها. ليتمجد الله.

- جرعة أيها الإشبين...

- بصحة العروس...

وتركت جوانا رفيق الرقص لتذهب إلى المطبخ وتلقي نظرة على الأطعمة. كل شيء جاهز وفي منتصف الليل ستوزع الاطباق الشهية. وسيكون الطبق الأفضل لأرتور، لأنه المتصرّف وبالرغم من هذا، يأتي إلى الحفلة. تُرى هل سيجلب معه هدية؟ إنه قادر على هذا. بضعة أمتار من القماش أو قارورة طيب. وملأت الموسيقى القاعة الصغيرة. وسالت الكاشاسا من وجوه الرجال، وكانت ثمة رائحة نفاذة من النساء الشديدات التأثر، ومن الزنوج الضاحكين. وتبودلت أقاويل وضحكات منفلتة. وأكثر ما أفرح الناس، كانت الأقدام في خطوات الرقص والهارمونيكا والكمان والكافاكينيو. لم يفكر أحد في الأحزان، فالليلة هي للاحتفال.

هوذا أرتور على الطريق، جاء متمهلاً، كيف سيقول للفلاحين، كيف يبلغهم النبأ؟ قدم متسلحاً. من يدري ما قد يحدث؟ وما كان يؤلمه أكثر هي المفرقعات. لقد جاء مطبق الأسنان. كيف يعلن الأخبار المستجدة؟

كانت الحفلة تنمو حيويةً. ورقصة الديك الرومي صاخبة ومبهجة. كان الجميع أزواجاً مكتملين. واحد فقط كانت تنقصه المرأة. الفارس بدون سيدة يمسك عصا. وعندما توقفت الموسيقى، أطلق الجميع أولئك السيدات اللائي كن يراقصنهم، وأخذ ذو العصا واحدة، هي التي ركضت سعياً عمن تراقصه، فلا أحد يريد الرقص مع العصا. فضحكوا وشربوا، وسالت الكاشاسا، وازدادت الكاتنغا، ورائحة الخلاسي، الفرح ينمو، و أتاليبا يبتسم: حفلة كهذه بمثل هذه الحيوية، لم تحدث قط في هذه الأنحاء، إنما ينقصها فعلاً وصول أرتور لتُطلق المفرقعات.

سمع أحدهم، وهو ذو سمع مرهف، وقع الخطوات في الطريق:

- جاء السيد أرتور..

فاندفع أتاليبا إلى الباب، حمل سراجاً وقرّب اللهب، فارتفعت المفرقعات إلى السماء وانفجرت في الأعالي. وأسرع الجميع ليشاهدوا. وسكتت الموسيقى، لكن الفرح لم يصمت.

نظر آرتور إلى السماء، حيث صعدت المفرقعات تكريماً له. كيف سينقل الأخبار التي جاء بها؟

وصرخ صوت أتاليبا به:

- تقدّم يا سيد أرتور....

توقف أرتور في الطريق، رباه، ما العمل؟ وانفجرت الصواريخ، وسمعت صرخة من الحقل:

- مرحى، يا سيد أرتور!

- رباه، ما العمل؟

الجزء الأول

دروب الجوع

الكاتنغا

1

تمتد الكاتنغا وعرة غير قابلة للعيش. وفيها تنتصب الشجيرات القليلة الكثافة على مسافة فراسخ وفراسخ في السرتون الجاف والبرّي، كصحراء من الشوك. والأفاعي والعظاءات تجرّ نفسها بين الصخور، تحت أشعة الشمس المحرقة في منتصف النهار. إنها عظاءات كبيرة الحجم، تبدو كأنها متبقية من بداية العالم، متوقفة بدون تعبير في الأعين المثبتة، كأنها منحوتات بدائية: إنها الأفاعي السامّة أكثر من غيرها، الكاسكافيل والجاراراكوسو والجاراراكا والكورال . كانت تصدر فحيحاً مخيفاً كلما تحركت الأغصان، وعندما تقفز العظاءات، وإزاء حرارة الشمس. وتتشابك الأشواك في الكاتنغا. إنها صحراء لا يمكن عبورها، قلب الشمال الشرقي الذي يُنتهك. الجفاف، الشوك والسم، الافتقار إلى كل شيء إلى الدروب الأكثر بدائية، إلى أي شجرة ذات ظل ظليل وثمر ذي عصارة. إنما فقط نباتات الأمبورانا ترتفع من وقت إلى آخر، كاسرة رتابة الشجيرات بحضورها الصديق والمرحب. ولا شيء غير نباتات البالماتوريا، الفافيلا، المانداكارو، الكولومبي، الكيشابا، الكرووا، الشيكيشيكي، تيجان القس . وفي وسط تلك القسوة، تنبثق زهرة أوركيديا كرؤية كلها جمال. ويجعل تشابك الأشواك العبور مستحيلاً. وعلى امتداد فراسخ وفراسخ، صحراء الكاتنغا عبر الشمال الشرقي كله. يستحيل اجتيازها، بلا طرقات، لا درب، لا ممرات ، بلا طعام وبلا ماء، بلا فيء وبلا جداول. هذه هي كاتنغا الشمال الشرقي.

وعبر الكاتنغا يرحل جمهور لا يمكن حصره من الفلاحين، قاطعينها من جميع الجهات. إنهم الناس الذين قُذف بهم خارجاً، من أرضهم، بواسطة الإقطاع، بواسطة الجفاف، المطرودون من بيوتهم، بلا عمل في المزارع. والذين يهبطون بحثاً عن سان باولو وإلدورادو البلد الخيالي المليء بالكنوز. جاؤوا من كل الأنحاء في الشمال الشرقي، في رحلة الأهوال، يقطعون الكاتنغا فاتحين ممرات في الأشواك منتصرين على الأفاعي الغادرة، قاهرين العطش والجوع، تنتعل أقدامهم أخفافاً من الجلد، وأيديهم ممزقة، ووجوههم مجروحة، وقلوبهم مفعمة يأساً. إنهم آلاف وآلاف تتعاقب بدون توقف. وهي رحلة بدأت منذ وقت طويل ولا أحد يعلم متى ستنتهي، لأنه في

كل السنين، يجمع الفلاحون الذين فقدوا أراضيهم والعمال المستغلون وضحايا الجفاف والوكولونيلات ، أسمالهم، وأبناءهم وقواهم الأخيرة. ويبدأون المسيرة. وفيما هم يهبطون بحثاً عن جوازيرو أو مونتس كلاروس، يصعد الذين يعودون خائبين من سان باولو. ومن الصعب إن لم يكن محالاً، اكتشاف أيهما الشقاء الأكبر، شقاء الذين يغادرون أم شقاء الذين يعودون. إنه الجوع، المرض، والجثث تبقى في الطريق مخصبة أرض الكاتنغا، فتنبت الماندكاروس أكثر نمواً، وتغدو الأشواك أكبر لتمزق لحماً جديداً من أهالي السرتون الهاربين. عائلات كثيرة العدد تبدأ الرحلة وحين تبلغ بيرابورا يكون المرض والجوع قد اختصراها إلى أقل من النصف.

وتُسمع في هذه المدن عما يكتنف الكاتنغا من القصص التي لا تصدَّق، وتُحاط بألوان الشقاء الأشد رعباً، تلك التي لا تستطيع أي رواية أن تقصّها بدون أن تبدو عبثاً. إنها الرحلة التي لا تنتهي أبداً، ويبدأها دائماً من جديد، رجال يشبهون الذين سبقوهم كالماء في كأس يشبه ماء كأس أخرى. إنها الوجوه نفسها ذات اللون غير المحدد والأقدام الضخمة ذات الأصابع المشققة، الفائضة عن الخفاف، الشعر القليل الكثافة، الجسم الهزيل والمقاوم نفسه. والنساء أنفسهن بلا جمال في الوجوه المتعبة، يملأن صحراء الكاتنغا بحيواتهن اليائسة، بآهات الوجع، بخطاهن التي تفتح ممرات سرعان ما تغلقها الأشواك.

هنا في الكاتنغا يسكن الكانغاسيروس، جنود الانتقام، أسياد السرتون لا سلام لديهم ولا راحة، ليس عندهم ثكنة ولا معسكر في الهواء الطلق. ليس لديهم بيت ولا وسيلة انتقال. بيتهم وثكنتهم، سريرهم ومائدتهم، هي الكاتنغا حبيبتهم. وجنود الشرطة الذين يطاردونهم لا يجرأون على التسلل بين شجيرات الشوك وجذوع الشيكيشيكي والكرووا. وإلى جانب الثعابين والعظاءات، يعيش الكانغاسيروس في الكاتنغا وهم أيضاً يغتالون ببنادقهم أهالي السرتون الذين يهبطون والذين يصعدون في الهجرة المتواصلة.

في قلب الكاتنغا الجافة، يظهر الطوباويون الأكثر شهرة، أولئك الذين يجرّون حشداً دراماتيكياً في خطاهم، مالئين السرتون مواعظ غريبة، وطقوساً خرافية، معلنة من فم محشو بالنبوءات، نهاية العالم وعذاب الفلاحين.

في الكاتنغا أقام لوكاس دا فيرا، انطونيو سيلغيو، كوريسكو ولامبيون. واليوم يقطن لوكاس آرفوريدو مع عصاباته . وفي الكاتنغا ظهر أنطونيو كونسيلييرو والطوباوي لورينسو. ومن أقصى الصحراء يظهر الآن الطوباوي استيفان مع كلمات النبوءات الهاذية نفسها.

إنما المهاجرون فقط هم أنفسهم، لكن الأسماء تتغيّر، لكنها الوجوه المتطابقة، الجوع نفسه، القدرية نفسها، التصميم نفسه على السير مجتازاً الكاتنغا، فوق الحجارة والأشواك والأفاعي والعظاءات، إلى الأمام، ذاهباً إلى سان باولو، حيث قيل إنه يوجد أرض بلا مقابل ومال وفير، وعائداً من سان باولو، حيث لا توجد أرض ولا مال.

ها هم قادمون، إنهم مئات، إنهم ألوف، في رحلة الأهوال. يجتازون الكاتنغا خلال شهور. وتبقى الجثث في الدروب المرتجلة، ومع هذا لم يتغيّر المنظر الموحش حيث ترقد تحت الشمس الكاوية، العظاءات اللامبالية. والماء هناك فقط، تحت، حيث ينتهي شقاء الكاتنغا ويبدأ شقاء نهر سان فرانسيسكو.

2

عند الفجر المرطب بالندى، أصدر صوت جيرونيمو الأجش والمتقطع الأمر:

- هيّا، لنرحل أيها الناس...

كان هو وأخوه جوان بيدرو، وقد اجتمعت العائلتان للرحلة. وكان ميلتون هو الوحيد الذي جاء مودعاً. إذ وصل والسراج في يده، فجعل النور الأحمر ضياء الصباح معتماً:

- ليرافقك ربنا يسوع أنت وعائلتك...

وزف إليهم الأنباء:

- مضى باستيون أمس مع عائلته... قيل إن غريغوريو لو لم يطلق النار كان هو الذي يطلقها...

- ألا توجد أخبار عنه؟

- ولا خبر. سقط في الغابة. فمن ذا الذي يقبض عليه؟

فنذرت جوكونديتا نذراً:

- وعدت سيدنا دو بون فين بشمعتين إذا لم يقبض عليه أحد...

سأل جيرونيمو ميلتون:

- ألن تذهب أنت حقاً؟

- كلا، لن أذهب. سأبقى كعامل. والمال القليل الذي سأجنيه من الأرض سأحتفظ به للزواج...

- كان ميلتون هو الوحيد من بين الذين بقوا في المزرعة، بعد تسليم الأرض. أطلق غريغوريوُ النار على أرتور لكنه لم يقتل المتصرّف. فقد دخلت الرصاصة الكتف اليسرى، وأصبح أرتور الآن يقف على قدميه. واستخدمت الطلقة لتصفية المشاعر العاطفية التي استقبل بها النبأ. وإذ علم المالك الجديد بعنف غريغوريو، مجّد نفسه لإصراره على تسلم المزرعة من دون فلاحين. ولم يأت ليمارس سلطانه إلا بعد أن رحل آخر فلاح، وجاء عمال جدد وحرثوا الأرض كلها. واستبقى أرتور كمتصرّف، وبعد سنين عديدة، سمع مجدداً بوجود فلاحين ومرابعين في المزرعة.

اختفى غريغوريو في الدنيا، بعد اطلاق النار. ووُجد من قال إنه انضم إلى عصابة لوكاس آرفوريدو. وقد وقعت الجريمة حينما عاد أرتور من حفلة أتاليبا، حيث أبلغ الفلاحين الأنباء التي جاءت في رسالة أوريليانو. وانتهت الحفلة على الفور بتلاوة الصلوات ، وقد أكد باستيون بأنه سيقتل أرتور، فيما طيّب جوان بيدرو خاطره:

- إنه كلب مأمور، وليس الذنب ذنبه.

سمعوا الطلقة، ولا أحد يعلم كيف بلغ الخبر أسماع غريغوريو، إذ إنه لم يأت إلى الحفلة، ولم يكن مع أرتور. وعرفوا أن غريغوريو هو مطلق النار، لأنه اختفى من المزرعة حاملاً بندقية. ولم يسمعوا بعد ذلك أحداً يتكلم عنه. وبعد يومين دُعوا جميعاً إلى المنزل الكبير لتسوية الحسابات. وكان أرتور مضمد الكتف: فقد جاء طبيب من الدسكرة واستخرج الرصاصة، وقال إن ذلك لم يكن له كبير أهمية. وتعقبت الشرطة آثار الفلاح المختفي، وضاع الأثر في الكاتنغا.

باع جيرونيمو حقل المنديوكا وجذوع الذرة والماشية. ومن هذه لم يستبق إلا الحمار الذي سوف يستخدم في الرحلة. ولم يشأ أرتور إعطاء شيء مقابل البيت. كما لم يدفع أي شيء مقابل أي بيت من بيوت الفلاحين. وحينما اجتمعوا اكتفى بالقول:

- احملوا البيوت على ظهوركم إذا استطعتم...

- إنما أعطى فقط بعض النقود للمطحنة التي يملكها جوان بيدرو. وهذا الأخير كان مديناً للمزرعة ولولا المطحنة لما تمكن من الانسحاب منها مع عائلته. كان عليه البقاء ليعمل على

المعول حتى يسدد الدين. وهو ما حدث لأتاليبا الذي كان مديناً. فأخذوا أرضه والبيت والدجاجات والخنازير، ومع هذا بقي مجبراً على العمل مع امرأته وأبنائه وصهره حتى سداد دينه البالغ ستمائة ألف ريس.

ودّعهم ميلتون:

- إلى مرة أخرى، يا سيد جيرونيمو...

الحمار الآن مستعد، يحمل ما ينقلونه والولد الصغير في حضن جوكونديا، والاثنان الآخران يسيران. وأغوسطينيو يحمل كيساً من المواد الغذائية ومارتا ترتدي الفستان نفسه الذي ذهبت به إلى حفلة أتاليبا.

- إلى ما يشاء الله...

انفجر الفجر في السماوات، وصاح جيرونيمو بصوت الرحيل:

- هيّا لنرحل يا أهلي...

بقي ميلتون بمفرده، ينظر إليهم، ممسكاً السراج بيده اليمنى، مشيراً باليسرى إشارة وداع لم يجبه عنها أحد.

وتجمعت الأشكال في ضوء الصباح الذي كان لا زال مبهماً. فأطفأ ميلتون السراج وبقي الدخان يتمايل في الهواء.

3

احتضنت نوكا القطة بشدة. جرحت قدمها بشوكة عند بداية الرحلة، لكنها لم تبك. رغبت في ألا يعير أحد اهتماماً لشخصها الصغير. يكفي ما قاسته، مع الدموع التي انهمرت هذا الصباح بسبب ماريسكا. فحينما كانوا مستعدين والصرر مهيأة، السلتان ممتلئتان بالأسمال والحاجات القديمة على ظهر جيريمياس، وصل ميلتون لتوديعهم فجرى النقاش حول ماريسكا. كانت مارتا هي التي حذّرت والديها. وكانت نوكا خارجة بصمت، والقطة فوق ذراعها. تضع يدها على فمها كيلا تموء. وكانت البقرة والعنزة والدجاجات قد بيعت لأرتور. وبقيت القطة في البيت، وفي الحقيقة إن أحداً لم يفكر فيها حتى ساعة الرحيل. فسألتها مارتا:

- هل تريدين أخذ هذه القطة يا نوكا؟

وقبل أن ترد فعلاً، احتجت العجوز جوكونDINA:

- أطلقي هذه القطة أيتها البنت. أي شيطان سيتولى أمر قطة في هذه الدروب؟

وطونيو الذي كان مرتبكاً بسبب الرحيل منذ العشية، كأن ذلك بالنسبة إليه حفلة، تسرع بالقفز أمام أخته:

- أطلقي القطة، اتركي القطة، أطلقي القطة...

ترقرقت الدموع في عيني نوكا. وصلت إلى حد خفض يدها التي كانت تقبض على القطة في حركة توحي بأنها ستتركها على الأرض. لكنها ثارت وانطلقت صرخة من فمها، ليس في الإمكان أن يكون أشد منها أسى:

- دعوني آخذها...

تطلّعت جوكونDINA إلى نوكا بعينين كانتا تعلنان الضرب بالخف:

- هل تريدين أن أضربكِ؟ أطلقي القطة، ها قد قلت لكِ...

لكن نوكا ضغطت على القطة بصدرها وكررت طلبها بصوت باكٍ مختلط بالدموع:

- أنا أهتم بها، دعيني آخذها...

فتدخل أغوسطينيو:

- دعيها تأخذها... ماذا في الأمر؟

ابتلعت نوكا غصة، فركضت إلى جانب خالها، شاعرة أنها محمية إلى جانب الفتى. بيد أن صوت جوكونDINA عاد ليرعبها:

- ماذا سنفعل بهذا الرابط ؟

أمسكت نوكا بيدها الطليقة، سروال خالها:

- لا تدع جدتي تطلقها؟...

- دعي البنت تأخذ القطة يا أماه..

فسألته جوكونديـنا:

- بماذا ستفيد؟

- من بوسعه أن يعلم؟ حتى للأكل إذا اشتد علينا الجوع في الطريق وإذا انتهت المؤونة...

ضغطت نوكا آنئذٍ بصدرها على ماريسكا بشدة أكثر. أحست أنها في عالم من التهديدات والمخاطر. وكانت عيناها جاحظتين من الذعر، ولم تتوقف الدموع عن الانهمار. واستمرت المناقشة، وبسرعة أخذ الجميع جانبها، فيما كانت نوكا تشهق، ومع هذا لم تطلق القطة التي كانت تزمجر في حضنها، غير مبالية بالضجيج حولها. وأخيراً قرر جيرونيمو بسلطته كرئيس للعائلة، ما هو في مصلحة نوكا:

- دعوها تأخذها... وإذا سببت مشاكل فإننا سنطلقها في الطريق...

في أي طريق؟ فكرت نوكا، في نهاية هذا النهار الأول من الرحلة. الطريق الحقيقية بقيت في الخلف، والآن هي مجرد ممر يختصر المسافة بين الغابات. ينبغي أن يقودهم إلى مزرعة بريمافيرا، حيث خططوا للمبيت هذه الليلة. كانت قدمها المجروحة تؤلمها، والقطة تحاول القفز والركض إلى الغابات، وهذا هو أخطر من كل شيء. فقد أطلقتها نوكا مرة وسبب لها ذلك عناءً شديداً لتتمكن من القبض عليها. وكان لازماً أن يساعدها أغوسطينيو، ومع هذا اضطروا إلى التوقف جميعاً، واغتنمت جوكونديـنا الفرصة لتقول:

- هل ترون؟... لمَ نجلب القطة؟... إنها لا تفيد إلا للإرباك...

لكن بما أن نوكا بدأت بالبكاء مجدداً، فإنها لم تقل شيئاً آخر.. حتى أنها تركت الصرّة التي كانت تحملها وركضت أيضاً وراء ماريسكا، حيث غرائز الصيادين قد استيقظت لديها لقاء الاحتكاك بالكاتنغا.

لم تترك القطة بعد. فقد أتعبتهم أكثر مما فكرت. كان عليها أن تخفيها في صدرها، وكانت ماريسكا تخدشها محاولة الهرب. ولم تستطع نوكا أن تولي انتباهاً إلى بؤر وعوائق الدرب الضيقة والصعبة. وحينما يركض طونيو لاهياً يجر رسن الحمار، متوقفاً ليرى العصافير، كانت نوكا تختتم الطابور إلى جانب زيفا التي تردد كلماتها غير المفهومة والتي يبدو أنها لا ترى الطفلة التي كانت قدمها المجروحة تجبرها على أن تعرج بشكل خفيف.

في ساعة معينة اقترب منها أغوسطينيو، فسألته نوكا بصوت خائف:

- أما زالت بعيدة يا خالي؟

عندها أخذها أغوسطينيو بذراعيه، هي والقطة، فابتسمت نوكا، إذ رأت من أعلى، أقدام الآخرين تغرق في وحل الدرب.

4

كان الفلاحون المطرودون من المزرعة منتشرين على طرق الكاتنغا. يرحلون جميعاً باتجاه الجنوب، بحثاً عن بلد هو سان باولو. كثيرون قد ذهبوا من قبل. والمتعاقدون كعمال يظهرون في المزارع، يروون قصصاً، يقولون أشياء مدهشة. فلم يكن يوجد أناس فقراء في تلك الأرض السانباولية حيث تُغرس القهوة وتقطف. ويصبح كل عامل صاحبَ مزرعة في سنوات معدودة، يغدو عقيداً، رجلاً نافذاً في السياسة. هكذا كانوا يقولون ودائماً هناك من يصدق، بالرغم من أن الذين يعودون كانوا أشد فقراً مما كانوا عندما غادروا.

كانت هذه هي الدروب نفسها، هذه الشقوق المفتوحة في الكاتنغا التي كان جيرونيمو وأخوه جوان بيدرو يسلكانها الآن مع عائلتيهما. ودينا امرأة جوان بيدرو التي كانت شديدة الاعتقاد بالخرافات، تحسب أشخاص وحيوانات الموكب البائس:

- أحلف... إنهم ثلاثة عشر حياً...

وزوجها وابنتها جيرتروديس ذات الخمس عشرة سنة والطالعة إلى السنة السادسة عشرة، وهي خلاسية دكناء البشرة كثيراً، ذات أنف أفطس، تشبه أمها، وكانت ثوراً في العمل رغم صغر سنها. تبدو رجلاً أكثر منها طفلة. وعائلة جيرونيمو، هو وجوكونديا والولدان وأحفاده الثلاثة، يتامى ابنته الكبرى يعدون أحد عشر، لكن دينا كانت تحسب أيضاً جيريمياس وماريسكا.

كان جيريمياس يسير في المقدمة، وجيرونيمو يجرّه بالرسن، وأحياناً يسلّمه إلى طونيو. وكان يحمل سلتين ينقلون فيهما تقريباً كل ما يمتلكونه. والباقي كان في الصرر التي يحملها رجال ونساء؛ الثياب القليلة، ولا أي طعام تقريباً. ويسير جيريمياس بخطاه المتباطئة، على مهل، منتزعاً ورقة من مرة إلى أخرى، متوقفاً عند برك الماء الكبيرة ليشرب.

في ذلك النهار الأول مشوا، خمسة فراسخ طويلة وهي التي كانت تفصلهم عن مزرعة بريمافيرا. وصلوا ليلاً، عندما بدأ جيريمياس يتسمّر في الطريق. وكانت نوكا تمشي خلف الجميع،

ولم تكن تحتمل أكثر من التعب، والقطة مشدودة إلى صدرها.

وصلوا إلى ما وراء الحظيرة. وما كادوا يطأون أرض المنزل الكبير، حتى صاح صوت قوي:

- من يأتي من هناك؟..

فأجاب جيرونيمو:

- إنه يأتي بسلام حسن...

ظهر رجل، يحمل بيده مصباحاً على البطارية، يرتدي سروال ركوب، وينتعل جزمة طويلة، وفي وسطه مسدس. وقف أمامهم، فحيّاه جوان بيدرو:

- مساء الخير...

- من أين تأتون؟

فتقدم منه جيرونيمو:

- نحن قادمون من مزرعة الدكتور أوريليانو..

- وإلى أين تمضون؟

- في اتجاه سان باولو...

- أنتم مهاجرون؟

- نعم، يا سيدي.

ولم يغيّر الرجل صوته الذي قال:

- لا تستطيعون المبيت هنا... إنه ممنوع. سيروا إلى الأمام...

كانت نوكا قد اقتعدت الأرض، تحك قدمها المجروحة، فيما ماريسكا تموء إلى جانبها.

- لهذه الليلة فقط، يا سيدي...

- لا يمكن...

- وإلى أين نمضي؟

قلّص الرجل كتفيه. بقي برهة واقفاً منتظراً. رأى الآخرين لم يغادروا، فقال:

- إلى الأمام بعد، يوجد حقل. إنه من مزرعة السيد مورا. بوسعكم النوم هناك، لا يهم. لكن انتبهوا للنار كيلا تحرق الحقل...

- هيّا يا أهلي...

نهضت نوكا مع أنّة:

- لِمَ لا نبقى ههنا؟

لم يجب جيرونيمو. جرّ جيريمياس الذي لم يكن يريد المشي. وغطى ليل المسافرين دروب الكاتنغا القريبة.

5

وسط بقعة من الأرض الجرداء انتصبت شجرة اويتيزيرو وراح جيرونيمو يجرّ إليها خطوات الحمار المتثاقلة:

- إمش يا جيريمياس.. امشِ يا جيريمياس.. لنرحل أيها الحيوان التعس...

لكنه لم يكن يتكلم بغضب. خلافاً لذلك، كان في صوته نبرة حنو. وكان جيرونيمو يسمع أنّات نوكا المسحوقة. ولم يدر لماذا لم تئن الطفلة بصوت مرتفع. لم يكن يهتم بتصرفها ذاك إزاء الحادث حول القطة. وسار أغوسطينيو مسافة طويلة من الطريق يحمل البنت على ظهره. وحملتها دينا أيضاً خلال بعض الوقت، وجيرونيمو وضعها في إحدى السلتين فوق الحمار في المقاطع الأشد صعوبة من الدرب. وهو الآن يسمع الأنين المسحوق ويتحسس غضباً على الرجل الذي لم يدعهم يبيتون في مزرعة بريمافيرا، مجبراً إياهم على المشي نصف فرسخ بعد. نصف فرسخ من الفراسخ الكبيرة، أقله ذات الأربعة كيلو مترات. إنه مثل أرتور، ذلك المتصرّف الآخر..

وإذ فكر في أرتور، فكر في غريغوريو الهارب في الغابات، وربما في عصابة آرفوريدو. وربما في تلك الليلة تحادث مع جوزيه، ثاني أولاده الذي كان قد غادر، والذي حسب ما يقوله

الجميع، كان كانغاسيرو من عصابة لوكاس آرفوريدو. لقد هرب من البيت في اليوم الذي هاجمت فيه العصابة المزرعة ولم يعد يصلهم أي أخبار حقيقية عنه. لكن اسماً جديداً ظهر في عصابة لوكاس، والشرطة تتحدث عن جاغونسو يلقَّب بزيه تريفوادا، ذي تسديد صائب بالمسدس، بشجاعة برهن عليها كلياً. وقال الذين يعرفونه إن زيه تريفوادا كان هو جوزيه نفسه، ابن جيرونيمو وجوكونديا. ومن الممكن أن يكون هو، لأن جوزيه كان دائماً غريب الطباع، منعزلاً، محبّاً للتوغل في الغابات يتصيّد، قائلاً إنه سيرحل.

ربت كفلي الحمار بيديه لينشّطه، واحتفظ جيريمياس بخطاه المتباطئة نفسها، ومع هذا كانا بعيدين على مسافة قصية من الآخرين. وكانت أنّات نوكا قد اختفت. وهبط الليل كلياً وجيرونيمو لا يكاد يرى الممر الحديث الشق. وثقبت قطع الحطب والأشواك قدميه، غير أنه لم يشعر بها. فكر بأن الرحلة كانت في بدايتها فقط، وأن أرضاً كثيرة يجب عليهم اجتيازها قبل الوصول إلى مدينة جوازيرو، في ولاية باهيا، حيث سينتقلون بسفينة ليهبطوا النهر. كانت سان باولو بعيدة، كانت في نهاية العالم. وفي جوازيرو سيبيع الحمار، وسيحس غياب جيريمياس. فقد انقضت ست سنوات على امتلاكه له، وقد ساعده كثيراً.

كان في وسط العتمة يرى لمعان الجمرات. وملأت رائحة شهية من بقية الطعام منخريه. ثمة أناس على مقربة من المكان بالتأكيد. فوقف منتظراً الآخرين الذين تخلفوا كثيراً، لكي يقتربوا. كان يسمع الخطوات تكسر قطع الحطب في الدرب، وصوت جوكونديا يعنّف نوكا:

- اغلقي فمك أيتها البنت..

ما كان يجب أن تتشاجر مع البنت. كان ينبغي أن تتفهم أن الصغيرة المسكينة متعبة، فالمسيرة تضني رجلاً، فكيف بطفلة.

كان جيرونيمو يشعر بالرغبة في أن يزعق بالمرأة، لكنه تذكر أنها هي أيضاً كانت ميتة أكثر مما هي حيّة، فطوال النهار والطفل على ذراعها، ولم تحظ بالراحة إلا ساعة الغداء فقط. كانت مارتا وجيرتروديس يساعدانها في حمل الطفل، لكن جوكونديا كانت قليلة الثقة بابنتها وبابنة شقيق زوجها لتترك معها الحفيد الأعز خلال وقت طويل.

كانوا أطفال أرنستينا الأيتام الثلاثة، الإبنة الكبرى لجوكونديا وجيرونيمو. زُوجت لعامل هو بيدرو ريبيرو، وماتت عند الوضع. ولم يلبث الزوج طويلاً في المزرعة، فارتحل في الدنيا تاركاً الأطفال الثلاثة مع جدّيهم. والأخير، وهو الذي ماتت أرنستينا عند ولادته، ربَّته جوكونديا

منذ اليوم الأول. كان لديه الآن ستة شهور. وكل طاقة الحنان لدى العجوز تبدو أنها مركزة على اليتيم الصغير. لم تكن تهتم بطونيو ونوكا. وكتعويض له، لم تترك الصغير الذي أعطوه اسم أرنستو إحياءً لذكرى أمه المتوفاة.

اقتربت الأصوات والخطوات. وكانت زيفا مهتاجة. كان ذلك اليوم الأول مريعاً لها. وخلال الساعات الأولى كانت مرحة تنشد أغنيات تعلمتها منذ أكثر من خمس عشرة سنة، حينما كانت وهي شابة وسط شابات أخريات في المزرعة، تقطف زهوراً برية، وتنزع منها تويجاتها، وترميها على الطريق. لكن، حالما هبط المساء، حينما دنت ساعة الغسق، وما إن تكررت الحركات اليومية، التي كانت هي معتادة إياها والتي توجه جنونها، حتى بدأت تفقد الصبر، فوقفت في الطريق وأذناها تصغيان، وشفتاها ترتجفان، ويداها مرتفعتان إلى أعلى، ساكتة، وبصمت باعث على الرعب أكثر من كلماتها المحتضرة والمهددة، والعينان مثبتتان بالأقارب كأنها تتهمهم بذلك التحول في حياتها. وكان لازماً بذل الجهد لإقناعها بالمشي. وكان أغوسطينيو وجوان بيدرو يشعران باليأس أحياناً:

- هيّا يا زيفا، هيّا، فالوقت متأخر...

وهي متوقفة، صامتة وفظة، ترفع يديها إلى السماء، والعينان على الظلال الأولى لليل. والسمع يترقب صرخة رعاة البقر التي لم يطلقها جيرونيمو في ذلك الغسق. وكان على جوان بيدرو أن يدفعها في ساعة معيّنة فرمقته بتينك العينين، بحيث جعلت الفلاح يرتجف خوفاً مفاجئاً من أخته.

الخطوات أكثر اقتراباً. ميّز جيرونيمو خيالات السائرين. أغوسطينيو يجيء في المقدمة ويمسك زيفا من ذراعها، وهي تأتي مرتعدة، فلا بد أنها عرضة لنوبة من نوباتها بالتأكيد. وجاء طونيو إلى جانبهما، وهو الآن قد فقد مرحه الذي بدأ به المسيرة، ليس غير التعب يظهر على عينيه المغامرتين الصغيرتين. ومارتا قدمت تحمل نوكا وهي تنوء لاهثة تحت ثقل البنت. وليست هذه الفتاة الأثيرة لدى والدها، قوية ولا مقاومة. إنها فتاة جميلة، وما كانت في المزرعة واحدة تقارن بمارتا، ذات الساقين المكتملتين. وهي خلاسية نقية اللون وذات شعر أملس تقريباً، وصدر ناهد. كانت تقوم بمساعدة ضئيلة في عمل الحقل، إذ كانت دائماً متوعكة الصحة عندما كانت صغيرة. لديها الآن ثمانية عشر عاماً، لكنها تبدو أصغر من جيرتروديس، وتتحسس فيها المرأة الكاملة، بعينيها المسبلتين وبثدييها النافرين.

ختم كل من جوكونديتا ودينا وجوان بيدرو المسير ووقف الجميع إلى جانب جيرونيمو، فأشار هو إلى الأمام:

- هناك كانت نار... ما زالت الجمرات.

ووجه جيريمياس في ذلك الاتجاه. فتبعه الجميع من خلفه، وكان ثمة صمت ثقيل من التعب، وعاد جيرونيمو إلى تذكر أرتور. وبالنسبة إلى جيرونيمو فكل شيء يوجز بمسألة رجال الكولونيل إيناسيو، كان رجلاً طيباً، قبل أن يحرثوا أراضي المزرعة. كان الدكتور أوريليانو رجلاً سيئاً، أمر بطردهم. وأسوأ من الجميع، كان أرتور الذي كان قبلاً عاملاً مثلهم، وقد سرقهم جميعاً عند تسوية الحسابات. والأمر الوحيد الذي يزوّده بالعزاء هو أن غريغوريو لم يلق عليه القبض.

تقدموا مقتربين من النار، لكن توقفوا فجأة، لأن رجلاً انتصب أمامهم وبيده مسدس:

- من يأتي من هناك؟

- إنه يأتي بسلام...

وكان صوت جيرونيمو زاخراً بالتعب.

6

لم يخفض الرجل المسدس، لكنه لطّف صوته:

- منكوبون ؟

- إننا ذاهبون إلى سان باولو... للعمل... في مزرعة بريمافيرا، قيل لنا إن بوسعنا المبيت ههنا، هذه الليلة...

انضم جوان بيدرو وأغوسطينيو إلى جيرونيمو، وكان الثلاثة يحيطون بالحمار. وسأل الرجل ذو المسدس:

- حضراتكم، هل جئتم من بعيد؟

- كلا يا سيدي، إننا قادمون من مكان قريب، على بعد ستة فراسخ من هنا.

خفض الرجل مسدسه، متمتماً:

- إذن، ما زال لديكم مؤن...

وأكمل كمن يوضح، فيما هو يفسح طريقاً:

- لم يعد لدينا شيء تقريباً بعد الآن.

كانت عائلة مخيّمة تحت شجرة اويتيزيرو. عدا الرجل الذي استقبلهم، هناك غلامان وأربع نساء. اثنتان منهن كانتا شابتين وظلتا تختلسان النظر من بعيد إلى مارتا وجيرتروديس.

دفع جيرونيمو الحمار إلى شجرة الأويتيزيرو حيث ربطه. وأنزل أغوسطينيو السلتين وانتزع البرذعة. وكانوا جميعاً صامتين. وركضت نوكا التي ألقتها مارتا على الأرض، في جهد أخير، إلى قرب الجذور الكبيرة حيث جلست ووضعت ماريسكا إلى جانبها. وماءت القطة طويلاً. كان ثمة صمت من ناحية إلى أخرى، وكانت العائلتان منفصلتين بجذع الشجرة، كل منهما تدرس الأخرى بأطراف العيون. وبعدما فكّوا الأمتعة، أطلقوا جيريمياس. ونهض الحمار الطليق من الرسن، بفرح وخرج يرعى على مقربة منهم. كان لا يزال بعض العشب الذي حرقته الشمس لكنه كافٍ لجيريمياس.

واتجه جوان بيدرو الذي كان يفك كيس الكتان الذي جلبوا فيه القديد والدقيق والقهوة والمربى المجفف ، إلى الرجل الذي كان قبلاً يحمل المسدس:

- هل تسمح لنا حضرتك باستخدام النار؟

أشار إلى الجمر الذي كان لا يزال يعسّ في الجانب الذي كانت العائلة الواصلة قبلاً تجلس عنده. هناك بالتأكيد أعدّوا العشاء. فقال الرجل أن نعم، وقال للفتاتين:

- ماذا تفعلان أنتما ههنا إنكما لا تساعدان السيدات؟

نهضت الفتاتان على مضض. فسبقتهما جوكوندينا:

- لا ينقصنا شيء. شكراً لحضرتك، بوسعنا أن نتدبر الأمر.

أنعش جوان بيدرو النار. وسأل أغوسطينيو وبيده صفيحة، أين يوجد ماء. فأجابه أحد الغلامين:

- عندما تهبط هذا المنحدر، ستجد بئراً.

كانت الفتاتان واقفتين أمام جوكوندينا التي قطعت القديد وغرفت الدقيق بصفيحة أخرى.

- لا تزعجا نفسيكما. إذهبا وارتاحا. فلا بد أنكما بحاجة إلى الراحة إذا كنتما قد مشيتما كثيراً كما مشينا نحن اليوم...

عاد أغوسطينيو بالماء... وطلبت منه جوكوندينا أن يعد سفوداً للحم. ولم تتحرك الفتاتان. ورفعت جوكوندينا عينيها لتختلس النظر إليهما. ولاحظت أن عينيْ الفتاتين كانتا ترمقان قطعة اللحم التي كانت العجوز تغسلها لتزيل عنها الملح. وفكرت: «إنهما جائعتان».

وضعت السفود مع اللحم على الجمرات. وهذا ما جعلها تنتقل إلى الناحية الأخرى، إلى قرب العائلة الثانية. كانوا جميعاً بالقرب من النار ويكادون أن يحيطوا بها حينما أقعت إلى جانب الجمر لتهتم بالسفود. وقدمت مارتا أيضاً بصفيحة صغيرة ملأى بالماء، وضعتها على النار لتغلي. وقد رافقت الفتاتان جوكوندينا وهما الآن تنظران بعيون ملتهبة بالاشتهاء إلى اللحم، وهو يصدر صوتاً شبيهاً بالفحيح فوق الجمرات. وبدأ الولد الصغير البكاء وهو بين ذراعي دينا، يفصلهما جذع الشجرة، فصاحت جوكوندينا:

- أعدت حساء من طحين المنديوكا للطفل. كان حساء خفيفاً؟ بدون مادة غذائية وبلا طعم. لكن لا يوجد شيء آخر. فكان مستحيلاً أن نجلب العنزة. توقف الطفل عن البكاء. كانت مارتا بمفردها ترى أعين الفتاتين وجميع الباقين من العائلة شاخصة إلى اللحم الذي كان يشوى وعلى الكيس حيث الدقيق. وأقلقها ذلك، فظلّت مرتبكة، بدون كلمات لتبدأ حديثاً.

عادت جوكوندينا، بعد أن انتهت من إطعام الولد الذي نام على الأرجوحة التي نصبها جيرونيمو بين أغصان الشجرة. وقالت لمارتا:

- اذهبي واهتمي بالولد. وبعدها تأكلين...

كان ذلك إنقاذاً لمارتا، إذ كانت تشعر بتلك العيون جميعها تتبع حركاتها وهي تقلّب اللحم على النار، كانت عيوناً مفعمة بالمطالب، شرهة وحزينة.

لم يلبث العشاء أن أصبح جاهزاً. إضافة إلى القديد، والموجود هو حساء دقيق المنديوكا. وألصقت جوكوندينا في بقية الماء المغلي، قطعة من المربى المجفف، وكان ذلك للقهوة.

قرفص الجميع على جذور الشجرة، قرب النار، وأصبحوا جنباً إلى جنب مع العائلة الأخرى. ولم ينتبهوا لغياب نوكا، حيث كانت ماريسكا تموء حولها جائعة.

ودعاهم جيرونيمو إلى الطعام.

- تفضلوا.

كان ثمة حركة غير واضحة من إحدى الفتاتين. كأنها تريد التقدم والقبول. اعترى جوكونדينا خوف. فكان لا يزال أمامهم طريق طويل وقليل من المؤن. والنقود محسوبة لتذاكر السفر في السفينة حتى بيرابورا. بوسعهم تدبر أمرهم بالقليل الذي يملكونه والذي لا يكاد يكفي إذا قاموا بالرحلة بالسرعة التي كانوا ينوون القيام بها. ظلّت تتطلّع إلى الفتاة التي لم تبلغ حد الخروج من مكانها، إنما انتصب عنقها فقط لكي ينكمش بعد ذلك.

كان الرجل الذي حمل المسدس قبلاً هو الذي أجاب:

- شكراً، نحن قد أكلنا، منذ أكثر من نصف ساعة...

قسّمت جوكونדينا اللحم! أعطت الرجال الثلاثة قطعاً أكبر. كانت زيفا صامتة تمضغ في إحدى الزوايا، ثم ترسم إشارة الصليب على جبينها وصدرها وكتفيها من وقت إلى آخر. وأعطت دينا قطعتها من اللحم لجيرتروديس، وطلبت من جوان بيدرو أن ينصب الأرجوحة . وبدأت جوكونדينا تصفّي القهوة.

كانت علب الصفيح قليلة ولم يكن متوافراً سوى كوبين. قدمت القهوة. أولاً جيرونيمو وجوان بيدرو. الفتيات يتطلعن والصبيان أيضاً يتطلّعان. وكان الرجل ذو المسدس قد حنى رأسه، ربما كيلا يتطلّع هو أيضاً، وربما كيلا يرى بناته وابنيه وعيونهم مندفعة إلى القهوة. بيد أنه لم يقاوم حتى النهاية. فحين كانت جوكونדينا تقدّم الطعام لزيفا ومارتا، قال:

- إذا استطعت حضرتك أن تعطي، فإني أقبل جرعة من القهوة للبنتين...

وقبل أن تجيب جوكونדينا بالفعل، أوضح هو ويداه تتمايلان وصوته بعيد:

- لأننا منذ وقت طويل ونحن مسافرون لقد جئنا من سيارا ونفد كل ما جلبناه. ومنذ ثلاثة أيام وليس لدينا قهوة، لدينا فقط مربى مجفف ودقيق...

تناول الجميع القهوة. وأعطت جوكونديتا أيضاً قطعة من اللحم الصغيرة، لكنها استُقبلت بصمت يساوي أكثر من أي تظاهرة صاخبة.

- ليساعد الله حضرتك...

بدأوا يغسلون علب الصفيح. وفجأة، افتقدت مارتا، نوكا:

- أين نوكا؟ إنها لم تأكل؟

خرجوا باحثين، كانت البنت نائمة إلى جانب جذر الشجرة، في الجهة الأخرى.

فقال جيرونيمو:

- من الأفضل ألا توقظوها...

جلست مارتا إلى جانب ابنة أختها التي كانت تتنفس بعذوبة. وأخذت القطة التي كانت ترقص بالقرب منها، وألصقتها بحرارة البنت. ونوكا التي كانت شبه مستيقظة، سحبت ماريسكا بيدها وضغطت عليها بجسمها. وفي الجانب الآخر، كانوا يتحدثون. وروى الرجل ذو المسدس:

- احتفظوا بكل ما لدينا. لأننا فقط لم نستطع دفع العائدات.. مال زهيد، كان ذلك بؤساً. فقررنا المجيء أيضاً إلى سان باولو، إنما نحن ذاهبون إلى مونتس كلاروس حيث ينتظرنا هناك شخص متعاقد. منذ شهرين ونحن مسافرون.

- نحن خرجنا اليوم، لقد بدأنا...

كان ذاك صوت جوان بيدرو.

قذف أحد ما ببقية الماء. وكانت قدما مارتا متعبتين ويداها تؤلمانها. وفي تلك الليلة في الغابة أسالت في جسمها كسلاً مجهولاً. وانطفأت الجمرات شيئاً فشيئاً، فيما الرجل يروي:

- نحن مررنا بشقاء كثير لا نستحقه.

كانت مارتا تصغي وعيناها مطبقتان. تذكرت الدكتور أوريليانو. كان شاباً جميلاً، طويل القامة، مصفف الشعر جيداً تضوع منه رائحة زكية. لماذا طردهم؟ حينما كان في المزرعة، منذ سنتين، كانت مارتا آنئذٍ صغيرة تقريباً، وذهبت لتساعد فيليسيا في المنزل الكبير. وقبض على صدرها النامي، وأعطاها بعض المال هدية. فلماذا طردهم؟ كان يبدو طيباً جداً، وقال إنها أجمل

من نساء المدينة. تذكرت مارتا مداعبة الدكتور. لقد اعتراها خوف في ذلك اليوم. لكنها ترتجف في هذه الليلة في الغابة وهي تتذكر.

كان الرجل يروي في الجانب الآخر:

- قيل إنها نهاية العالم... كل هذا الشقاء الحاصل.. لست أنا القائل، إنه رجل قديس طوباوي ظهر في جهات السرتون، اسمه ستيفان، وقيل إنه يقوم بمعجزات وشفى مريضاً لم يشفه حتى القس سيسيرو.. لقد ظهر منذ وقت بعيد، ويجيء ماشياً قرب البحر. قيل إن لديه أكثر من خمسمائة رجل يسيرون وراءه.. إنه يبشّر بأن العالم سينتهي، داعياً الناس إلى التوبة...

رأت مارتا ظلاً يمر من جانبها. كانت زيفا التي نهضت عند سماعها اسم استيفان، ووصف أعماله، كانت مارتا تفكر في الدكتور أوريليانو. لقد كان دائم الابتسام بشوشاً، ولقمصانه رائحة عطر ثمين. وكانت مارتا تحب أن تشمّها حينما تحملها لتغسلها. ووصل صوت الرجل إليها في العتمة:

- قيل إنه يبحث عن لوكاس آرفوريدو ليجبره على التوبة... قيل إن نهاية العالم تقترب.

وقطع صوت زيفا الليل، ومرة أخرى كلمات الرسالة، التي لم تكن سوى ما أعلنه الطوباوي استيفان في سرتون المنكوبين والمهاجرين، سرتون الجاغونسوس والأطفال الذين يحتضرون.

استيقظت نوكا على الصراخ، واستغربت المكان الذي كانت فيه. ونهضت مارتا، وكانت الجمرات مطفأة، والرجل ذو المسدس يختلس النظر إلى زيفا مرتعباً، وجوان بيدرو يوضح له:

- إنها مجنونة، المسكينة...

7

- من الطبيعي أنهم رغبوا في السفر مع جيرونيمو وعائلته، لكن جوكونذينا كانت متيقظة، وقد تصورت منذ الليلة الماضية أنهم سيقترحون السفر في جمع واحد ما دام طريقهم هو الطريق نفسه. ولم تكن تتصوّر كما أنذرت جيرونيمو، أنه ليس عندهم طعام، فالقديد انتهى، والقهوة أيضاً، ولم يعد بحوزتهم نواة من الفاصولياء، وكل ما كانوا يحملونه هو بقية من دقيق المنديوكا والمربى المجفف. فما الفائدة إذاً من انضمامهم إليهم ؟ فالسبب ليس في أن جوكونذينا لم يكن عندها شفقة. لقد أشفقت عليهم حتى أنها في العشية أعطتهم قطعة من اللحم، مع أنها تعرف جيداً أن ذلك سيشكل

نقصاً لهم، وهو ما كان يمكن أن تفعله، فكما قالت لجيرونيمو، انتزاع الطعام من أفواه أولادها وأحفادها وإعطاؤه إلى الغرباء.

عند الفجر، حتى قبل طلوع الشمس، حين وضع جيرونيمو البرذعة على ظهر جيريمياس، قدّم الرجل عرضه، فقال جيرونيمو:

- إننا ذاهبون في اتجاه مختلف.

لكن الرجل ألحّ. إن مسافة طويلة من الطريق بوسعهم اجتيازها معاً، وكلما كان الجمع أكبر، سيكون ذلك أفضل. إنها ضمانات كبرى ضد الجاغونسوس، وأناس أكثر لفتح ممرات الكاتنغا التي يشعرهم الاقتراب منها بالرعب والخوف. كان جيرونيمو يعطيها بدون إجابة عندما تدخلت جوكوندينا:

- نحن لدينا مؤن قليلة، يمكن أن نتدبر أمرنا... ونحن لا نستطيع ذلك مع أي كان...

كان صوتهم صارماً، مع أنه لم يكن فيه أي أثر ولو بعيد من الفظاظة. قالت ذلك تقريباً كمن يطلب أعذاراً لكونه فقيراً جداً، عاجزاً جداً عن المساعدة، لكن في الوقت نفسه، مع صلابة مطلقة، لتنهي الحديث.

انطلقوا قبلهم، وعند منعطف الطريق، لم تستطع جوكوندينا التوقف عن التلصص إليهم، فرأت أن الرجل كان يتكلم مع امرأته فيما الفتاتان تسترقان النظر إلى الذين غادروا. ندمت جوكوندينا تقريباً، لكنها تطلّعت إلى الأمام ورأت أفراد عائلتها يسيرون، مصحوبين بخطى الحمار المتباطئة، ولم يعرف قلبها أي شفقة. فكانت خطاها أشد ثباتاً، وفوراً لحقت بمارتا وزيفا اللتين كانتا تسيران وراء الآخرين.

8

بعد خمسة أيام، كانوا في عرض الكاتنغا، ساعين بين الأشواك المنغلقة، إلى أثر لممرات كان متشردون آخرون قد شقّوها من قبل. وقد اعتادوا النوم في الرطوبة، تحت الأشجار، إذ وُجدت فقط أرجوحتان في إحداهما تنام جوكوندينا مع حفيدها الأصغر، وفي الأخرى ترقد دينا. لكن في تلك الليلة الأولى في الكاتنغا لم تكن توجد شجرة تُعلَّق بها الأرجوحتان. وبجهد كثير، تمكنوا من بلوغ خلاء صغير حيث بسطوا الصرر وألقوا بأجسادهم.

كانوا قد اجتازوا مسافة قليلة من الطريق في ذلك النهار. فالرجال يسيرون والسواطير بأيديهم قاطعين الغابة، فاتحين ممراً غير مرئي تقريباً. كانوا متعبين جداً بحيث لم يحسوا بجوع.

وتكفلت دينا بالعشاء تساعدها مارتا. وصنعت جوكونديتا سريراً بالأرجوحة، على الأرض، للصغير، وجلست إلى جانبه. ومدت ساقيها، وقد كانت متعبة بشكل مريع مع أن الولد الصغير يتناقص وزنه في كل يوم وكان هزاله بادياً للعين. ففي الحقل كانت جوكونديتا تغذيه بحليب العنزة، وكان يربى بدون أي عناء. لم يكن سميناً، لكن من رأى ابن فلاح سميناً؟ الآن طبعاً قد هزل بهذا النظام الغذائي، حساء دقيق المنديوكا، يكاد يتناوله بالإكراه، باكياً، ضارباً يديه الصغيرتين بإشارة احتجاج. وفكرت جوكونديتا: «كان يجب أن أجلب العنزة، مهما كانت التضحية كبيرة». وظلّت تنظر إلى وجه الطفل الشاحب. عظامه كانت ظاهرة والعينان نافرتين. يمكن عدّ الأضلاع في الظهر الرقيق. «كان يجب أن أجلب العنزة».

وتختلس جوكونديتا النظر إلى حفيدها بخوف. تُرى، من المستحيل أن يستطيع المقاومة في الرحلة. وفي كل الأيام، عندما يتغوّط الطفل، كانت تتفحص فضلاته بخوف من أن يكون قد تغوّط برازاً أخضر. كانت لهفى إلى اليوم الذي فيه يصلون إلى جوازيرو في باهيا ، حيث ستحصل على حليب للطفل، وفي منديلها ذي الزهور الحمراء كانت تحمل بعض النقود مربوطة في عقدة في أحد أطرافه، ولا أحد يعرف شيئاً عن تلك النقود. إنها تحتفظ بها لشراء حليب أثناء الرحلة. إنما في الكاتنغا لم تعثر على أي أثر لأيّ قطيع. ربما عندما يصلون إلى المدينة ويهبطون النهر، ستكون وفرة منه في تلك الأنحاء، حيث يفيض الماء، ولم تكن أرضاً جافة مثل تلك التي اجتازوها. ينام الطفل إلى جانبها وجوكونديتا تفكر أنه من غير العدل أن يعاني حفيدها البريء جداً، بهذا القدر. أن تعاني هي ويعاني جيرونيمو وجوان بيدرو ودينا، فهي تتقبل هذا. إنهم عجزة ومعتادون على الشقاء. لكن لماذا يتعذب طفل ذو شهور قليلة لم يسىء حتى الآن إلى أحد؟ أي آثام يعاقب عليها، ولماذا لا يشفق الله عليه؟

وفجأة تقطع أفكارها أنّات تصل إليها. خافت في البداية فهي صماء وتبكي، فإذا هو صراخ ألم. وميّزت جوكونديتا صوت نوكا. فمنذ أيام وهي تعرج، وتشكو من قدمها، حيث انتزعت منها مارتا قطعة من الشوك. كانت تبكي طوال الطريق. وتقضي القسم الأكبر من الوقت على ذراع شخص أو آخر، أو على برذعة الحمار، من دون أن تترك القطة الصفراء. «القطة البائسة، بسببها جرحت نوكا».

جوكونديـنا متعبة جداً لدرجة أنها تتأخر في النهوض لتأتي بحفيدتها التي كانت تشهق بالبكاء. «بدلاً من القطة كان بوسعهم جلب العنزة، ولن يكون العناء أشد كثيراً». وسمعت صوت جيرونيمو يعنف نوكا:

- أغلقي هذا الفم أيتها اللعينة... ألا تتوقفين عن البكاء... إذا لم تطبقي فمك فلسوف أصفعك...

لكن نوكا لم تطع، واستغربت جوكونديـنا ما يحدث. فنوكا شديدة الخوف وسهلة الخضوع، وتصمت قبل أي تعنيف أو تهديد. فنهضت في الوقت نفسه الذي نادتها فيه:

- نوكا، تعالي إلى هنا...

قدمت وهي تعرج، وعيناها تدمعان، وتضغط على القطة بصدرها، وتختلس النظر بخوف إلى جدها.

- أتركي هذه القطة على الأرض...

أطلقت القطة التي سرعان ما ركضت إلى الغابة. فأخذت جوكونديـنا البنت بذراعيها ووضعتها في حجرها:

- ماذا بك؟

- قدمي تؤلمني...

كان السراج يضيء بشكل سيىء، ورأت جوكونديـنا بنوره، وجه أرنستو الهزيل الذي كان نائماً. فنادت مارتا:

- تعالي إلى هنا...

- إني أشوي اللحم...

- جيرترودیس! جيرترودیس!

وجاءت ابنة أخ زوجها وأمسكت بالسراج. فأمسكت جوكونديـنا القدم المريضة بيدها، ومررت إصبعها فوق الجرح. كانت القدم كلها متورّمة، قبيحة ولونها أدكن، وحركت القشرة التي تغطي الجرح، فانتثر القيح. كانت نوكا تتمسك بعنق جدتها بذراعيها الاثنتين تشهق بنحيب خفيض.

جلست جوكونديـنا وسوّت من جلسة نوكا في حجرها، وأمرت جيرتروديس بأن تقرفص لتضيء لها بشكل أفضل. وبدأت تعصر القيح الذي تزايد.

- إذهبي واجلبي قطعة قماش... امشي بسرعة...

عادت جيرتروديس بخرقة، قطعة من فستان عتيق. وبالرغم من كونها مغسولة، كانت تحتفظ بلون غير محدد من الاتساخ القديم. فقسّمتها إلى قطعتين، نظفت القيح بواحدة، وعصرت بشدة، وأنّت الطفلة:

- قولي لجوان بيدرو أو لأغوسطينيو أن يبحث عن جذع رشاد في الجوار...

وفيما كانت تنتظر، أخذت تملّس بهدوء شعر نوكا التي خففت المعالجة من آلامها. هي أيضاً كانت تعاني، يا للصغيرة المسكينة. أي شر فعلته في هذه الدنيا؟ وشعرت جوكونديـنا بقنوط غريب، وفجأة لم تفهم لماذا هي في ذلك الدرب الضيق في الكاتنغا، بقدمين مشقوقتين من الأشواك، وبيدين متعبتين، فالجسم مسحوق كأنه تعرّض للضرب، لماذا أخرجوا من أرضهم، لماذا تركوا بيتهم، الحظيرة، البقرة الهادئة، أغراس المنديوكا والذرة؟ لماذا طردوهم؟

كانت تملّس شعر الطفلة، حتى تناهى إلى سماعها جيداً خطوات أغوسطينيو الذي عاد مصحوباً بجيرتروديس.

- اسحقي الرشاد بحجر وألصقيه بقدم الطفلة، واربطيه بالقماش.

وصل جيرونيمو:

- ماذا بها؟

- إنه جرح قبيح... متقيّح...

صاحت مارتا بأن اللحم قد شُوي. وشاهدوا شبح زيفا الطويل مجتازاً الغابة إلى جوانب النار. شعرها طليق، هائل،وهي الآن، في الرحلة، تتكلم طوال الوقت، بحيث لم تعد ثمة ساعة إلا لتردد بأن العالم سينتهي، وأن على الناس أن يتوبوا.

تفكر جوكونديـنا، فيما ترقد نوكا إلى جانب شقيقها الأصغر، بأن التوبة الكبرى لن يستطيعوا فعلها. ويبزغ القمر مكتملاً في السماء.

كانت زيفا في كل مرة تشغلهم أكثر. من قبل، حينما كانت في المزرعة، اعتادت قضاء حاجاتها في الغابة، باستثناء ساعة الغسق، حين تستسلم بشكل لا يمكن تجنبه، لطقسها الغريب، فتقضي النهار بصورة اعتيادية، حتى أنها تساعد في عمل الحقل، مهما كانت مساعدتها ضئيلة. لكن منذ اليوم الثاني من الرحلة، غيّرت عاداتها، فكان من الضروري مراقبتها باستمرار، إذ تختفي في الدروب، تتكلم بصوت مرتفع وتشير إلى الأشجار والعصافير، ترعب الأشخاص الذين تلتقيهم صدفة، بكلماتها المستعصية على الفهم، وبحركاتها المخيفة. وما عادت تهتم بالذهاب إلى الغابة لتقضي حاجتها، فتتغوّط وتبول بثوبها. وكانت مارتا الصبورة والطيبة هي من تنظفها وتبدل ثيابها الداخلية التي كانت دائماً متسخة. وبما أنه كان مستحيلاً جعلها تستحم (وخصوصاً أن الماء يصعب العثور عليه في تلك الدروب) فإن رائحة نتنة تفوح من ثيابها ومن جسمها، تكمل شخصيتها الشاذة وكلماتها المجنونة. ووحدهما مارتا وجوكونديناً لديهما صبر عليها. وكان طونيو يقضي النهار مثيراً زيفا، فيجرّها من ثيابها. ماداً لها لسانه، ومطلقاً عليها أسماء شتى. ووجَّه إليه جيرونيمو لطمة، لكن الولد لم يصلح من أمره، وعندما تعب من جرّ الحمار، ومن الركض في الدروب، لم يعد لديه تسلية أخرى سوى أن ينكد حياة خالته المعتوهة. وكان جوان بيدرو وأغوسطينيو ودينا وجيرترويس وجيرونيمو نفسه أحياناً، يفقدون صبرهم، فيصرخون بها ويهددونها:

- إنها لا تسبب إلا إزعاجاً.

وحدهما جوكونديناً ومارتا كانتا تهتمان بأمر البائسة. ومارتا تشبه أمها كثيراً، في الجمال الذي كان يذكر بتلك الشابة جوكونديناً في تلك الأزمنة السابقة، عندما عرفها جيرونيمو الذي كان راعي قطيع في ذلك السرتون، وفي الشجاعة في العمل، وفي القدرة على مواجهة الأحداث، وفي عدم الاستسلام لليأس. كانت هي التي تقود زيفا أثناء الرحلة كلها تقريباً، وترعاها كيلا تختفي المجنونة، منظفة ثوبها من القذارات، غاسلة رجليها عندما كان يتوافر الماء، مبعدة طونيو عنها.

وكان جيرونيمو يختلس النظر إلى ابنته في ذلك العمل الصبور متأثراً يكاد قلبه ينفرط. فهو يحب تلك الابنة أكثر من كل شيء. وهو بخلاف جوكونديناً، لا يفكر أكثر من اللازم في أبنائه الذين رحلوا. كان ذلك قدرهم. والقدر ليس شيئاً يمكن تغييره على هذه الأرض. فكل امرىء يولد مع قدره، وعليه أن ينفذه، ويبدي عجباً حتى من أغوسطينيو لعدم رحيله، ولبقائه معه. وصب كل حنانه على ابنته، فلأجلها كان يعمل في قطعة الأرض التي استأجرها من الكولونيل إيناسيو،

ليستطيع أن يهيئ لها زواجاً حسناً، من فتى محترم فيكون لها بيت على أكمل وجه، فلا تضطر، حتى لفلاحة الأرض. وكان يعرف أن فتيات غيرها قد تزوجن حتى من فتيان يعملون في التجارة. مارتا كانت جميلة، مطيعة تعمل بجد، وخليقة بأن تصبح سعيدة. إنها تمضي هناك إلى جانب عمتها، تقود خطاها غير المتزنة، كأنها تقود طفلاً أو أعمى. ويندم جيرونيمو على تصرّفه الخشن الذي يعامل به زيفا أحياناً. فيتذكر كلمات جوكوندينا الحاسمة حين صرخ، فاقداً صبره بأخته:

- إنها بريئة...

اختلطت آخر شهقات نوكا مع غطيطها. وأذهلت كلمات زيفا السحرية أفاعي وعظاءات الكاتنغا. وانساب ضوء القمر بلون الذهب على الماندا كاروس. وذهب جيرونيمو، بعدما مضغ قطعته من اللحم ليعتني بجيريمياس الذي ينتزع قشور الشجيرات، وأي عشب أخضر يعثر عليه، وأي ورقة في متناول فمه. ومن جانبه فإن جيرونيمو يشعر أنه مطمئن وواثق بنفسه. فالحمار هو الأكثر صلابة وثباتاً في هذه الرحلة. يبدو عاجزاً عن التحسس بالتعب، وهو الوحيد الذي يعرف كيف يكتشف الماء بين الأوراق، ويتجنب كل الأعشاب السامة، كأنه وُلد ونشأ في عرض الكاتنغا. جيرونيمو يمحض في كل مرة صرامته أكثر، فيتلمس فمه مداعباً، والقمر يضيء الكاتنغا وفي البعيد تفحّ الأفاعي السامة.

10

أيقظت أنّات نوكا جوكوندينا التي كانت تنام إلى جانب حفيديها. ووضعت يدها وهي شبه مستيقظة ، على جبين الطفلة. كانت الحمى تحرقها. ونظرت إلى ما حولها وإلى ضوء القمر، واستنتجت. لا بد أنه منتصف الليل تقريباً. كانت الطفلة تحرك جسمها قلقة على الفراش المهيأ كيفما كان، وفكرت في أي صرّة كانت أوراق القصعين التي جلبتها. وعرضاً، هل ما زالت بعض الجمرات متوقدة؟

نهضت محاولة ألا تحدث ضجة. لكن مع هذا، استيقظت مارتا: كانت تنام مع جيرتروديس، ودينا وطونيو بينهما. فاستندت إلى مرفقها، ورأت شبح جوكوندينا يتحرك بين الشجيرات. فكرت أولاً أن العجوز كانت تبحث عن مكان في الغابة حيث تقضي حاجتها. لكنها اتجهت إلى الصرر المكومة إلى جانب الرجال النائمين. وكان القمر يضيء كل البقعة الخالية من الأعشاب، ولاحظت مارتا خلال لحظة واحدة، أن العجوز جوكوندينا تفك الحبال التي تمسك إحدى

الصرر. وسمعت أنين نوكا، فأدركت حالاً ما كان يجري. فخرجت عندئذٍ وهي أشد صمتاً وبخفة، من بين رفيقاتها في النوم، ومشت إلى مقربة من جوكونديا:

- أماه...

فذعرت العجوز:

- هذا أنتِ؟

كانت تتكلم بصوت هامس:

- لا تحدثي ضوضاء كيلا توقظي الآخرين...

- ماذا تفعلين حضرتكِ؟

- نوكا محمومة بسبب الجرح في قدمها...

- عمّا تبحثين حضرتكِ؟

- عشب القصعين.. لأصنع شاياً. اذهبي وانعشي النار.

لم يكن ثمة جمرات، وكان من اللازم جلب قطع من الحطب، والكبريت مع الرجال. فمشت مارتا بهدوء، ولمست ذراع أغوسطينيو. كان الرجال الثلاثة ينامون وكل منهم قريب من الآخر. وكان المسدس قابعاً إلى جانب جوان بيدرو. يبدون وكأنهم أموات. تحرك أغوسطينيو فأمسكته مارتا من ذراعه موشوشة في أذنه:

- لا تحدث ضجة كيلا توقظ أباك وعمك جوان بيدرو...

فرك أغوسطينيو عينيه.

- الكبريت...

- لماذا الكبريت؟

- نوكا محمومة.. وأمي ستعدّ شاياً...

- استدعيني إذا لزم الأمر...

أعطاها الكبريت ونام من جديد. لكنه لم يغف، ظل يختلس النظر إلى الجهة التي تنام فيها النساء. كانت دينا في الجهة الأمامية ومع هذا فإنه ميّز جسم جيرتروديس، الكبير على سنيها الخمس عشرة. كانت امرأة كاملة. لو اختلى بها أغوسطينيو وهما بمفردهما... كانت ابنة عمه، لكن ماذا يهم هذا؟ حتى أن بوسعه الزواج بها. الصعب هو أن ينتظر ظهور قس أو قاض. أنهض نصف جسمه، هكذا يستطيع رؤية ساقي الفتاة اللتين كانتا فائضتين عن ثوبها القصير، إنهما سمينتان ودكناوان. عاد إلى الرقاد، بانتظار حلول الفرصة المناسبة.

غلتا الأوراق في علبة صفيح ملأى بالماء. ونوكا تواصل الأنين. استيقظت زيفا ونهضت واقفة إلى جانب الطفلة. كانت تنظر إليها بعينيها المشبعتين بالخرافات، ولم تكن تعرف شيئاً عن الجرح ولا عن الحمى، لكن ابتسامة ارتسمت على شفتيها أرعبت المرأتين. فقالت مارتا:

- نامي يا عمتي زيفا...

أشارت زيفا إلى الطفلة بإصبعها ذات الظفر الضخم والأسود:

- سوف تموت!

- معاذ الله.. لا سمح الله...

أنَّت الطفلة. فرفعتها جوكوندينا بذراعيها وشرعت تسقيها الشاي. فجرعت نوكا الشراب المحلَّى - كانت جوكوندينا قد وضعت قطعة من المربى الجاف - بجرعات كبيرة. زادت الحمى من اتساع عينيها اللتين ما كانتا تبدوان أنهما تخصان ذلك الوجه النحيل والمذعور.

- إني أشعر ببرد يا جدتي...

- إذهبي وأحضري سترة أبيك...

عادت مارتا بالسترة العتيقة المصنوعة من الجوخ. فلفت جوكوندينا الطفلة بها، وأضجعتها مجدداً.

- نامي...

بقيت زيفا واقفة، إلى جانبها. وضوء القمر يصفع وجهها المبتسم. ابتسامة عذبة بها كانت الكلمات الزاجرة بالتأكيد الحاسم:

- ستموت...

أخذتها مارتا بيدها:

- تعالي نامي...

رافقتها زيفا بخضوع. وكانت تردد في طريقها، ورأسها ملتفت إلى الوراء، تختلس النظر إلى الطفلة:

- ستموت... ستموت...

وجوكونديـنا التي سمعتها، بدأت تزخر بذلك التأكيد. نوكا سوف تموت... وربما الصغير، وطونيو أيضاً.. وجيرترودِيس ومارتا، ودينا، وبعد ذلك الرجال، كلهم في هذه الدروب البائسة.

تذكرت أن المؤن تتناقص بسرعة. فلن تكفي حتى منتصف الرحلة. وأحست بعقدة في حلقها، لكنها لم تبك. فاهتمت بالطفلة التي كانت تئن.

11

كان يسير في المقدمة جوان بيدرو وأغوسطينيو مبعدين الأغصان الأكثر عدوانية في الشجيرات. من يرَ ضيق الدرب يعرف أنه منذ وقت بعيد لم يمر الناس من هنا. فالأشواك سرعان ما تتشابك مغلقة الممر في الحال تقريباً، بعد مرور الناس. كانت ثمة آثار أقدام على الأرض. إن أقداماً كثيرة قد وطئت حجارة وغبار ذلك الطريق. فهاهنا شُقت درب. وجيرونيمو يوم كان يعمل راعي قطيع، كان معتاداً أن يجوب كل هذه المسالك في الكاتنغا، وكان يعرفها خطوة خطوة، وخلال امتداد كبير. كان يسير وراء أخيه وابنه مباشرة، جارّاً الحمار. وتسير النسوة وراءهم صفاً، لأن الممر لم يكن يتسع لأكثر من واحد. ودينا التي كانت تحمل الصغير، تدافع عن نفسها بذراعها ضد الأشواك.

كانت نوكا تسافر الآن في إحدى السلّتين اللتين يحملهما جيريمياس فوق برذعته. كانتا قد أفرغتا، وهناك ركزت جوكونديـنا الطفلة المريضة، جالسة، وكانت القدم في كل مرة تصبح أكثر تورّماً، والحمى أكثر ارتفاعاً. لقد توقفت عن الأنين في لا مبالاة إزاء كل شيء. وكانت جيرترودِيس هي التي تحمل القطة.

في الأيام الأولى من الحمى، كانت نوكا تبتسم عند رؤيتها ماريسكا وتحب أن تحملها، وأن تداعب ظهرها الحريري، وتسمع مواءها. لكن مع مرور الوقت، سقطت في لامبالاة كانت تخيف جوكونდينا. وأكثر من ذلك، فمنذ الليلة الأولى للحمى، لم تتوقف زيفا عن تكرار تلك الكلمات كأنها لعنة:

- ستموت...

كانت تبدو أنها نسيت كل المفردات الأخرى في قاموس مفرداتها الصغير عن اللعنات والتهديدات. وقد أوجزتها بهذا التوقع لموت نوكا، في البدء كان الرنين المستمر لتلك الكلمات لا يُحتمل بالنسبة إلى المسافرين، كان تطيّراً بالشر رغب الجميع في إبعاده. لكنهم اعتادوه واقتنعوا به. فمنذ الليلة التي أيقظت أنّات نوكا جوكونდينا، ساء حال البنت الصغيرة. فلم يفدها رشاد ولا شاي. «الجرح يدمرها» كما كان يقول جيرونيمو. وفي داخل كل منهم كانت كلمات زيفا قد تحولت إلى تأكيد لا يُناقش: ستموت. وباتوا بانتظار أن تحين الساعة، عندما تغلق نوكا عينيها، وتنقطع عن التألم. وأمضوا يومين متوقفين قرب بئر يلفهم الحزن أمام الطفلة المريضة. وبما أنها لم تتحسن ولم تمت، قرروا في اليوم الثالث مواصلة الرحلة، إذ لم يكن بوسعهم إنفاق مؤونة بلا جدوى. والآن هم يتصرفون بدون أن يفكروا في نوكا التي في السلة. جوكونდينا ومارتا فقط تأتيان إليها من وقت إلى آخر وتلقيان نظرة على وجه المريضة الأصفر، ذات العينين شبه المطبقتين والتنفس المجهد.

وتردد زيفا آلياً كلماتها الباعثة على التطيّر، غير مفكرة بعد في نوكا. والآخرون، بعد كل هذه الأيام من الانتظار، يرى كل واحد منهم في نفسه أن من الأفضل لها أن تموت سريعاً، لأنها تؤخر الرحلة بتباطؤ أكثر. فالعذاب يجرجر نفسه والطعام ينتهي.

12

وفي ذلك اليوم، لم يجدوا ماء في كل المرحلة من الطريق. وكانت الشمس حارقة وحجارة الدرب كأنها جمرات متوقدة أكثر منها حجارة. والأفاعي تتحرك بين الشجيرات.

قتل جوان بيدرو واحدة من نوع الكاسكافيل بعصاه. وظهر طونيو راكضاً، وقد ابيضّ وجهه من الفزع، لأنه التقى أفعى من نوع الجاراراكوسو في الطريق. كانوا يسيرون بانتباه والعطش يتزايد. والماء القليل الذي يحملونه، إبريق مملوء إلى منتصفه، أبقته جوكونდينا كله لنوكا.

وفي لحظة معيّنة كان من اللازم تركيز طونيو فوق البرذعة... لم يعد الولد يتحمل المشي. ومسيره بات أكثر بطئاً وعينا نوكا أشد إطباقاً، وتعب الجميع يغدو في كل مرة أشد.

عند الساعة الثالثة من بعد الظهر، سقطت دينا على الأرض إعياءً:

- لا أستطيع التحمل أكثر...

توقفوا جميعاً. وأخفض جوان بيدرو وأغوسطينيو السكينين الكبيرتين فلا شجرة في القرب، ولا بيت يُرى، ولا بؤرة من الأرض ولا بقعة غير معشوشبة. إنما فقط الكاتنغا، العدوانية وغير المضيافة: حتى زيفا بالذات التي كان الهذيان يعضدها، جلست على الأرض، وطلبت أن يسقوها. فانتشر الرجال بحثاً عن الماء.

اقترب أغوسطينيو من الحمار، فنظر الى ابنة أخته في السلة:

- لن تجتاز الليلة...

كان يقول ذلك وفي صوته ارتياح.

13

وفي ليل ذلك اليوم نفسه، في مواصلتهم الرحلة، التقوا، في بؤرة من الأرض، حيث تتفرّع منها طريق عريضة - كان جيرونيمو يبحث عنها - جمعاً كبيراً من المهاجرين، انضم إليهم عمال المزرعة التي تعود إليها ملكية تلك الأراضي. كانوا حوالى عشرين شخصاً بين رجال ونساء وأطفال، وكانوا يقيمون حفلة بدون إعداد مسبق. وبينهم عازف كمان - وهو مهاجر أيضاً - ويشربون الكاشاسا. وكان عمال المزرعة قلما يهتمون بسالكي الدروب، إذ يمر المنكوبون يومياً بالمزرعة، قاصدين سان باولو أو عائدين منها. وفي المزرعة ظهر ساحر، بقي من فرقة مسرحية صغيرة أفلست في المدينة القريبة. وألقى الساحر بنفسه إلى المزارع أمل الحصول من أصحابها على ما يدفعونه مقابل عروضه من نقود يسافر بها مجدداً إلى ريو دي جانيرو. في المدن الكبيرة، في الإعلانات الصاخبة، كان معتاداً أن يطلق على نفسه البروفسور فلوفيو العظيم. لكنه هنا يرتدي ثياباً قذرة (لقد باع خزانة ثيابه ليدفع لقاء ما يأكله محتفظاً فقط بالبذلة التي كان يرتديها وورق اللعب لعروضه السحرية وإحدى الآلات الأبخس ثمناً) إنه طويل الشعر وذو لحية، وهو ببساطة جوزيه دوارتي.

لقد بلغ أقصى درجات البؤس، يذهب من مزرعة إلى أخرى عارضاً ألعابه أولاً على الكولونيلات، وبعدها على العمال والفلاحين، ملتقطاً نيكلات هزيلة من دون أن يتمكن أبداً من جمع ما يكفي لرحلة يقوم بها بأسرع ما يستطيع إلى العاصمة . وها قد مرّ عليه شهران على هذه الحال، يجتاز الكاتنغا، دون أن يدري أي فرح كان ينثره في هذه المزارع الملأى بالناس الذين يجهلون السينما والمسرح.

ها قد عرض ألعابه أمام المالك والمتصرف وأمام العمال أيضاً. وكان يستعد للمضي قدماً عندما عرف بأن جمعاً من المهاجرين توقف في أرض المزرعة، وقرر أن يكسب هناك المزيد من النيكلات.

حينما وصل جيرونيمو مع العائلة، كان الساحر سيبدأ المشهد، ولأن الجميع عادوا ليشاهدوا المسافرين الجدد، توقف هو أيضاً وقرر إعادة خطابه الذي كان يبدأ به أعماله، وألقى جيرونيمو التحية:

- مساء الخير...

كانت هناك بعض الشجيرات، ورأوا المراعي التي تنبسط بعيداً، وأماكن تربية الماشية. وبعيداً كان المنزل الكبير، والحظائر وبيوت العمال. لكن اللقاء البسيط مع ذلك الجمع من الناس، نشّط قلوب الذين كانوا قد وصلوا.

طلب جيرونيمو إذناً للمبيت هناك فأوضح له أحد العمال بأنه من الضروري الذهاب إلى فوق والتكلم مع الكولونيل. وقال آخر إن ذلك ليس ضرورياً، فالكولونيل قد سمح بذلك للذين كانوا قد وصلوا عند فترة ما بعد الظهر، والأمر يسري أيضاً على أسرة جيرونيمو.

بدأوا إنزال الأحمال عن الحمار، ورأوا، جميعهم، الطفلة المريضة حينما انتزعت من السلة، وأضجعتها جوكونديتا قرب جذع إحدى الأشجار، وقدمت القطة تموء بالقرب منها، وتدور حول سيدتها، تريد اللعب معها. وبدأ الصغير بالبكاء طالباً طعاماً.

انفصلت امرأة عن الذين كانوا يحيطون بالساحر، وجاءت تسأل عمّا تعانيه البنت الصغيرة، وعندها تحرّك الجميع مهتمين بالأمر حتى أن الساحر نفسه شمّر عن كميْ قميصه مجدداً، واقترب منهم. وامتدت المحادثة بين الجميع، جوكونديتا وديتا تقدمان الإيضاحات، فيما

مارتا وجيرتروديس تنتهزان فرصة وجود النار حيث كان المهاجرون قد أعدوا عشاءهم، لتشويا اللحم المقدد.

ابتاع أغوسطينيو قرط موز من رجل وفيما كانت جوكونDينا تعطي الصغير ما يأكله، كانت دينا تصف للنساء المجتمعات مرض نوكا. لقد أعطين نصائح، وإحداهن جلبت دواء، مرهماً وصفه طبيب لحالة كهذه أصابت ابنها. وضعت دينا المرهم، لكن نوكا لم تبد أنها أحست بشيء. فالجسم رخو والعينان مطبقتان. وكان الساحر ينتظر بصبر هدوء الحركة ليبدأ مشهده. ولم يتأثر برؤية الطفلة المريضة. لكن الشعور الذي كان يسيطر عليه هو الخوف من أن يتحول انتباه المهاجرين كلياً إلى القادمين حديثاً، فإن رجالاً قدموا أنفسهم لجلب الماء وآخرين ساعدوا جيرونيمو في إنزال السلّتين والبرذعة عن الحمار، والنساء جلبن أي شيء نافع عثرن عليه لنوكا. وتحدثت إحداهن بحماسة شديدة مع زيفا التي كانت تصغي إليها صامتة وعيناها مثبتتان على شفتيْ المرأة. وكان من الضروري أن يبلغها أغوسطينيو بأن زيفا معتوهة. وكانت أخرى تروي لجوكونDينا أنها قد فقدت ولدين صغيرين في تلك الرحلة وكلاهما أصيب بحمى تعرّض لها خلال الطريق.

وكان الساحر يبتعد قليلاً وينظر إلى ذلك الاهتياج بريبة. رأى العائلة تجتمع للأكل، وشاهد جوكونDينا تضع أرنستو وتضجعه على الأرجوحة التي عادوا إلى نصبها في تلك الليلة. وفي أرجوحة أخرى نوكا، وكانت مارتا تؤرجحها برفق.

أخيراً مضوا جميعاً ليتجمعوا حول الساحر. وكان يصفق بيديه، وأصبح الليل معتماً والقمر في طريقه إلى الهبوط، فإذا تباطأ في البدء بالمشهد، فإن قسماً كبيراً من ألعاب السحر ستفقد مفعولها، وستكون النيكلات قليلة.

- انتباه! انتباه! سيبدأ!

كان أغوسطينيو قد تمكن من بلوغ الصف الأول، مصطحباً جيرتروديس معه. واختلط الآخرون أيضاً بغيرهم من المهاجرين، في فضول لمشاهدة إنجاز الساحر. كانت جوكونDينا فقط جالسة إلى جانب أرنستو، ومارتا تؤرجح الأرجوحة التي كانت نوكا تحتضر فيها. قالت:

- إذهبي حضرتك أيضاً. اذهبي يا أماه. اذهبي ورفّهي عن نفسك... إني أهتم بالصغيرين...

كانت جوكونذينا راغبة بأن ترى. فأرنستو قد نام باطمئنان، وفي الأرجوحة الأخرى تبدو نوكا هادئة. فمشت العجوز كأنها مترددة ووجدت مكاناً إلى جانب جيرونيمو.

ووقفت مارتا، ومن على أغصان الشجرة كانت يدا الساحر ممسكتين بورق اللعب، وبوجهه الملتحي، وابتسامته المظفرة. لقد جعل ورق اللعب يتناقص بمختلف الحجوم، فتضحك النسوة ويعلّق الرجال. وجعل بيضة تختفي من يده ومضى ليجلبها من خلف أذن جيرتروديس. كانت الضحكات تتزايد. قدّم سحراً آخر، الورقة النقدية الممزّقة داخل المنديل، والتي تظهر كاملة بعد ذلك. وتوقف معلناً أنه يخصص استراحة لبضع دقائق لكي يدور على الجمهور سعياً لامتنانه. لم تكن القطع المعدنية التي جمعها كثيرة. بيد أن البروفسور فلوفيو كان قد اعتاد ذلك. فهو يعرف أنهم أعطوا ما بوسعهم إنفاقه في شقائهم، ويشعر أيضاً بالسرور وهو يزوّدهم بذلك الفرح.

عاد إلى وسط الدائرة، وسأل: من يملك ساعة؟ فسلّمه أحد الرجال ساعة كبيرة قديمة تصدر تكتكة مرتفعة بحيث كان الجميع يسمعونها. وتناول الساحر منديلاً وضع ساعة داخله، وأمر الذين هم في الصف الأمامي بإمساك المنديل للتأكد من أن الساعة كانت هناك ثم عقد المنديل عليها، لفّ المنديل وضربها بحجر مرات متعددة. ولم يستطع صاحب الساعة كتم صرخة خوف. لكن الساحر كان يبتسم ويمازحهم. اعلن أن الساعة قد تكسّرت كلها، لكنه سوف يجعلها تظهر كاملة.

كانوا جميعاً ملصقين أعينهم به، خصوصاً زيفا التي كانت تنظر إليه نظرتها إلى إله، وكذلك مارتا التي كانت تمطّ عنقها لترى بشكل أفضل. وكانت تقف على رؤوس أصابعها فوق جذع الشجرة، وتحتفظ بالتوازن ممسكة بطرف الأرجوحة حيث تنام نوكا. كانت عيناها مسمّرتين بالساحر. لكنها تتحسس في البداية اهتزازات الأرجوحة، والتفتت بنظرها إليها، فشاهدت آنئذٍ نوكا تحتضر، مرتعشة في الأرجوحة، تضرب بقدميها ويديها، وتبدو حيواناً صغيراً جريحاً.

وفي اللحظة نفسها التي أظهر فيها الساحر الساعة، أمام نظرات الفلاحين الذاهلة، صرخت، وصوتها مخنوق:

- أماه، إنها تموت...

وركضت جوكونذينا راكضة، وبقي الآخرون حيارى، حتى رددت المرأة:

- لقد فقدت اثنين في هذه الرحلة...

عندها ساروا إلى الأرجوحة، وجيرونيمو أسند إليه جوكونداينا التي كانت تتشنج. كانت نوكا ممددة الجسم على الظهر، وتتقلّب في حشرجة الموت. فانتزعتها مارتا من الأرجوحة ووضعتها على الأرض. كانت خيطاً بشرياً، تكاد العظام تمزّق الجلد لشدة ما هي هزيلة. ووصل طونيو فجلس إلى جانب أخته الصغيرة الميتة، وبدأ يبكي.

14

لم يكن هناك وقت طويل لذكرى نوكا. لديهم فقط الليل ليبكوا ويصلّوا. سهروا مع الجثمان الصغير المسجّى وسط أحاديث محزنة، حالات وقعت مع أولئك الناس، وكل واحد يروي مصائبه، وقصص الجفاف. الأراضي المستولى عليها، الصراعات مع الكولونيلات المتسلطين والأطفال الذين يموتون، الأمراض والأدوية في الغابة.

في تلك الليلة، عادوا إلى سماع كلام عن الطوباوي استيفان. قالوا إن الطوباوي يمشي على مقربة منهم، قادماً من طريق المدينة وكثيرون من أهالي السرتون المسلحين يصحبونه، رجال بلا أرض، عمال بلا عمل مطرودون من المزارع، وآخرون ضربهم الجفاف، هاربون من العدالة وغيرهم ممن فرّوا كيلا يسددوا ديونهم إلى المخزن، جاؤوا كلهم يسددون العقوبة، يرتلون المزامير وأبانا الذي في السموات، وصلوات أخرى أيضاً اخترعها الطوباوي، معلناً نهاية العالم.

كانت زيفا تصغي بانتباه إلى قصص الطوباوي جميعها، وفي تلك اللحظة لم تبدُ مجنونة. كانت غير مبالية بجثمان نوكا التي كانت تكيد لها في البدء. وحالما مددوا الطفلة الميتة على الأرض، ارتمت زيفا على الجثمان واحتضنته ثم راحت تهدهدها، مغنية لها الأغنيات التي لم يكن أقاربها يعتقدون أن بإمكانها أن تعرفها. كأنها تحتضن الابن الذي لم يكن لها البتة، كأنها تنوّمه على نغم صوت عذب وحنون.

استعادت جوكونداينا الطفلة من بين ذراعيها:

- تضرّعت بكثير من اللعنات، والآن ها هي تتودد إلى الصغيرة البائسة...

لكن زيفا لم تفهم كلمات جوكونداينا. كانت غير مبالية، ومدت يديها طالبة الجثمان:

- أعطوني إياه...

كان من الضروري أن يأخذها أغوسطينيو من هناك، بمساعدة مارتا. فكان لها آنئذٍ تهجماتها، وصرخت وهددت الجميع، الأقارب والمجهولين لديها الذين كانوا يختلسون النظر إليها

من بعيد. إنما هدأت حين سُلّط الحديث على الطوباوي استيفان. ومن الطوباوي انتقل الحديث إلى لوكاس ارفوريدو الذي كان شخصية ضرورية في كل القصص في ذلك القطاع من السرتون. رووا منجزاته، وقائعه الجسورة وشروره. كانوا يخشونه بلا شك، لكنهم لم يكونوا يبغضونه. كان فلاحاً مثلهم، خرج أيضاً من المزارع، من الأراضي المستولى عليها، من العمل من الشمس إلى الشمس. وأشار بعضهم إلى زيه تريفوادا:

- قيل إن هناك جاغونسو أكثر الجميع إقداماً.. اسمه زيه تريفوادا، وقيل إنه لا يتوقف عن إطلاق الرصاص، وهو بالضبط كرعد...

أرهفت جوكونديـنا السمع. وبلغ بها الأمر حد نسيان جثمان نوكا وهو بجانبها، لأنها سمعت كلاماً عن ابنها. فأثناء هذا الطريق كله الذي اجتازوه، كانت كثيراً ما تتذكر الأولاد الثلاثة. آه! لو كانوا هنا، فإن أموراً كثيرة كانت تغدو أكثر يسراً. إن جهداً كبيراً كانوا سيزيلونه عن ظهر جيرونيمو وجوان بيدرو. وبشكل رئيسي، نينين الذي كان يعرف كيف يعالج كل شيء، كان لديه وسيلة خاصة في الحصول على الأشياء، وودور مثله لقادر على حل أي وضع. لقد رحل ثلاثتهم ولم تنسهم دقيقة واحدة. والأمر بالنسبة إلى الآخرين كما لو أنهم لم يوجدوا، فكان لزاماً أن يتحدث البعض كما يتحدث هذا الرجل الآن عن جوزيه، عن أحدهم ليتذكروهم. فلقد انقضت على رحيلهم سنوات، الواحد تلو الآخر، مختفين في الليل. أحدهم مع لوكاس آرفوريدو، والاثنان الآخران كانا جنديين، أحدهما في الشرطة، والآخر في الجيش. لكن جوكونديـنا لم تكن تجد فرقاً بين الثلاثة. لم تكن ترى أن جوزيه أصبح قاطع طريق وجاون ونينين كانا شخصين قويمي السلوك. فالثلاثة كانوا مستقيمين، كل منهم تبع طريقه، قدره المختلف. وكل ما كانت ترغب فيه هو أن تتمكن من رؤيتهم مجدداً، أن يكونوا حولها، وكل هذا صار أشد صعوبة منذ أن طُردوا من الأرض التي غادرها الفتيان الثلاثة. وإلى جاون جعلت دينا - الوحيدة التي كانت تكتب بشكل أفضل في العائلة - تكتب رسالة، قاصّة عليه ما حدث، معلنة له أنهم سوف يغادرون إلى سان باولو. ومن هناك سيكتبون مجدداً. وإلى جوزيه، كيف تبلغه، إذاً كان هو زيه تريفوادا، من عصابة لوكاس آرفوريدو، بلا اتجاه ولا مهجع معيّن، عائشاً في الكاتنغا، يقتل أناساً، مغيراً على الدساكر؟ وعن نينين لم تكن تعرف أيضاً عنوانه. في بعض الأوقات كان في سان باولو، مشاركاً في إحدى الحروب، وبعد ذلك يبدو أنه انتقل إلى أمازوناس ، ولم يرد عنه قط أي خبر. كان أحب الثلاثة إليها، والأبعد أيضاً، ذلك الذي لم تكن تعرف شيئاً عنه. كان أحد المعارف قد حدثهم منذ وقت بعيد عنه، أنه كان عريفاً نال الرتبة في تلك الحرب في سان باولو. وقد التقاه الرجل في المدينة، وهو

يسافر في باخرة باتجاه ماناوس. وقال إنه سيذهب إلى الداخل، إلى منطقة الهنود، ليقيموا دوريات على الحدود. وانتظرت جوكوندينا بلا جدوى رسالة منه لم تصل ابداً.

دنا جيرونيمو من الرجل الذي تكلم عن زيه تريفوادا. لكن الرجل كان يعرف القليل، عمّا يتعلق بقبضاي مقدام فقط، قيل إنه هو الذي قتل الملازم انسلمو في أثناء تبادل إطلاق الرصاص. ولا يعرف أكثر من ذلك ليقوله.

ولم يقنع قلب جوكوندينا المتألم بهذه الأخبار القليلة جداً. فتركت مارتا إلى جانب الجثمان، واقتربت من الرجال:

- ماذا تعرف حضرتك عن زيه تريفوادا هذا...

والرجل الخجل الآن نوعاً ما لكونه لا يعلم أخباراً أكثر من ذلك، وإزاء الاهتمام الشديد البادي، يفتش في ذاكرته، يفكر في أن ينسب إلى زيه تريفوادا جريمة وقعت في بلاده، لكنه يصمت أمام اعتراف جوكوندينا:

- إنه ابني، هل تدري؟ لهذا أريد أن أعرف...

- لا أعرف شيئاً أكثر من ذلك يا سيدتي، إلا ما رويته فقط. يقال إنه رجل مقدام، ولا يخاف أي شيء...

عندها، عادت إلى الجثمان، لكنها الآن برفقة أبنائها الثلاثة. ولم تعد تشعر بأنها بائسة جداً.

وكان طونيو الصامت النشيج من التعب ينام وهو جالس. فأرقدته جوكوندينا وغطته بالأسمال التي كانت تغطي بها نوكا قبلاً. ومضت لترى أرنستو الذي ينام في الأرجوحة.

كان الساحر هناك، يختلس النظر إلى الطفل. وحين رأى جوكوندينا اقترب منها وهو لا يعرفها، فأشار إلى الولد الصغير النائم:

- وهذا أيضاً لن يبقى...

استغرب عدم الإجابة، وتطلّع إلى وجه المرأة القريب، وعندما رأى أنها جوكوندينا ارتبك، وبحث عن كلمة يعتذر بها، فلم يعثر عليها: وكانت يده متوقفة في الهواء بحركة غير متكاملة.

- إن شاء الله، فهو لن يموت...

بسط الساحر ذراعيه، وتمتم:

- هذا هو بالضبط... إنه قادر على أن يتعافى... حبذا...

وابتعد متبوعاً بنظرات جوكونדينا. ثم اختلط بالناس الذين طلبوا منه إيضاحات حول أعماله السحرية. واختلست العجوز النظر إلى الطفل الذي في كل مرة يغدو أشد هزالاً.

لكنهم، هناك، حصلوا على حليب. فملأت جوكونדينا الإبريق حليباً مغلياً، يكفيه طوال اليوم التالي. فالحساء من الدقيق كان يأكل لحم الطفل. لكن الله لن يسمح بأن يموت أبناء ابنتها الذين أخذت على نفسها أمر تربيتهم حينما ماتت أمهم، جميعاً بين يديها، كلا، فالله يجب ألا يسمح بذلك...

15

وتدور الأيام على المسافرين الذين تقرّحت أقدامهم، وأنمت الجروح قشوراً ويبست، وفُتحت قروح ولم ينتهِ الطريق. كان جيرونيمو قد سجل ملاحظة في يوم المغادرة. وكل ليلة يحسب كم من الوقت قد قطعوه. وكان قد مضى عليه أكثر من أسبوع منذ تخلّى عن العد، كمن يتخلّى عن مسألة لكونها بلا فائدة ومتعبة. فلم يعرفوا كم من الوقت مضى عليهم وهم مسافرون، يمزّقون الكاتنغا، يتوقفون من وقت إلى آخر في مزارع، لكن يجب أن يكون قد انقضى أكثر من شهر، لأن المؤونة التي حسبوها لثلاثين يوماً قد انتهت كلياً.

وكانوا قد اقتصدوا، منقّصين حصة اللحم الموزعة على كل منهم، وفي الأيام الأخيرة ألغوا العشاء، متناولين فقط قليلاً من القهوة قبل النوم. كانوا هزالى، وممزّقي الثياب. عندما غادروا كانوا يبدون فلاحين فقراء، والآن فهم يشبهون قطاع الطرق أو متسولين، فالشعر منسدل على الأذنين واللحى طويلة جداً.

وعندما يحدث أن يسمحوا لهم بالمبيت في إحدى المزارع، كان بوسعهم دائماً شراء ما يأكلونه، شيئاً ما ليستمروا في الرحلة. وهذا كان نادراً. فالممرات كانت دائماً تأخذهم بعيداً عن المنازل الكبيرة ، ولم يرغبوا في الانعطاف.

ذات مساء، فيما انتهى بهم المطاف إلى إحدى المزارع البعيدة كثيراً عن البيت الذي يتخذه المالك سكنى له، استقبلتهم امرأة عجوز سمحت لهم بالمبيت في أحد بيوت العمال الذي كان شاغراً. وكان العمال المتعاقدون ما زالوا يعملون في الزرع وتمكنوا قبل غياب الشمس، من شراء قديد وقهوة وفاصولياء، ودقيق ومربى جاف من المخزن. وأعطتهم العجوز أيضاً قليلاً من الحليب.

وحين وصل العمال عند هبوط الظلام، جاؤوا بأخبار عن الطوباوي استيفان. كانوا متيقنين أنه مع رجاله التائبين - ألف تقريباً حسب قول العمال - قد وصلوا إلى مسافة أقل من فرسخ من هنا ويعسكر في مزرعة مجاورة، حيث شرع في الوعظ. لكن جنود الشرطة يتعقبونه، إذ إن رجاله قد أغاروا على الممتلكات التي مرّوا بها ونهبوها.

في تلك الليلة، أعدت جوكونديناا عشاء حقيقياً؛ فاصولياء مع قديد، حساء الدقيق، وقهوة كافية. كانت ترى الرجال يستحقون الأكل بشكل أفضل في ذلك اليوم. كانوا يحصلون على نصف حصة منذ أسبوع، وفي اليومين الأخيرين، قلّما ذاقوا طعم اللحم واكتفوا بقليل من القهوة. وبعد أن أكلوا، رقدوا على أرض البيت، خليطاً من رجال ونساء.

واضطجع أغوسطينيو قرب جيرتروديس وفي نيته أن يدعوها لتخرج معه إلى الغابة، لكن النوم تغلّب عليه، فنام قبل أن تنتهي الحركة في المنزل.

أعلن جيرونيمو أن عليهم الرحيل عند الصباح الباكر. فقد كان يرغب في تجنب اللقاء برجال الطوباوي استيفان. وفي الواقع استيقظ والوقت ما زال ليلاً وحاول الذهاب ليأتي بجيريمياس الذي كان يرعى العشب النامي جيداً في المزرعة. فمسّ بيده رأس الحمار، ومازحه، كان يعامله كأنه شبيه له، بحنو وتقدير:

- إنك تنتزع بطنك من الشقاء. أليس هكذا يا جيريمياس...

العشاء في المساء، والرقاد تحت سقف، والمؤن التي حصلوا عليها، جعلته يبدو ذا مزاج طيب، واثقاً وذا عزيمة. فوضع البرذعة على الحمار ودفعه إلى أمام البيت ودخل ليوقظ الآخرين. كان ينقصهم جوان بيدرو وزيفا. تصوّر أنهما في الدغل يقضيان حاجتهما. لكنه بعد ذلك حالاً عثر على جوان بيدرو أمام البيت يدس بعض الآيبين في السلتين. وكانت يداه متسختين بالتراب. فعرف جيرونيمو أنه سرق المنديوكا من الحقل. وقد آلمه ذلك. فقد كان يعتبره رجل خير، غير قادر على القيام بأي سرقة. وأراد أن يحتج على تصرف أخيه، لكنه فكر في الجوع الذي عانوه، وفي الطريق الذي ما زال متبقياً إلى الأمام، فلم يقل شيئاً. سأله عن زيفا:

- هل رأيت زيفا؟

- كلا...

كان جوان بيدرو يدقق النظر في وجه أخيه الأكبر، وشعر بأنه ملزم بتقديم إيضاح حول مسألة الآيبين:

- إنك لم ترَ أي وفرة في الآيبين... البارحة تكلمت عن شراء بعض الجذور، وقال المتصرّف إنه ينبغي التكلم مع العجوز التي هي مالكة المزرعة، لكنها كانت نائمة...

ثم رفع رأسه:

- لدينا نساء وأولاد، وإذا لم تفعل فسيموت الجميع في الطريق... لن يصل أحد...

- لم أقل شيئاً...

وكي يغيّر الموضوع، عاد ليسأل:

- ألم ترَ زيفا؟

عندما خرجت لم تكن هنا...

ذهب أغوسطينيو للبحث عنها. جاب بلا طائل الحقول المحيطة بهم، حتى أنه ذهب إلى فناء المنزل الكبير، وأخذ يسأل العمال المتعاقدين الذين كانوا يستعدون للذهاب إلى الحقول حيث كانوا يعملون. وكل ذلك بلا جدوى. وحين عاد من دون أخبار، أراد جيرونيمو الرحيل:

- وإلا فإننا نضيع النهار...

لكن جوكوندينا لم تسمح بذلك، وأجبرتهم على أن يعودوا ثلاثتهم ويقوموا بجولة كاملة على الجوار. وبعد ذلك ذهبت هي نفسها إلى المنزل الكبير وقصّت المسألة على السيدة المالكة. وحصلت على أمر بأن يبقوا يوماً آخر في المزرعة. كان كل هذا البحث غير مجدٍ. وعند الليل كان الرجال منهكين ولم يأتوا حتى ولا بأية معلومات. وكل ما استطاعوا معرفته لم يشر إلى زيفا، بل إلى الطوباوي استيفان الذي غادر عند الصباح المزرعة وتوغل في الكاتنغا مجدداً. وحسب ما رووا، قام بمعجزات وتنبأ بالمستقبل.

16

لم تقل جوكوندينا شيئاً، لكنها لاحظت جيداً أن بين أغوسطينيو وجيرترودیس ثمة سراً. وكانت دينا أيضاً ترتاب في الأمر وأخذت تراقب ابنتها. كانت قد تغافلت قليلاً، فكان الاثنان

يسيران جنباً إلى جنب، وهما في حديث طويل، وحينما كانوا يتوقفون للغداء أو للنوم، كان الغلام والفتاة يعثران دائماً على وسيلة ما ليختفيا عن أنظار الآخرين. وعندما يعودان، يبدو على جيرتروديس مظهر هو بين الرهبة والرضا. وكانت مفعمة بالضحكات الصغيرة بدون قصد، فيما أغوسطينيو يذهب لينام في ركنه، مطبقاً، محاولاً تجنّب الأحاديث. ولم تكن جوكونДينا تحب ذلك. فأغوسطينيو ليس في سن الزواج، وفي ما خص جيرتروديس، فإنها لا تزال بنتاً صغيرة. وبالنسبة إلى الآخرين، كيف يتزوجان إذا لم يكن لهما حتى مكان ليرتاحا فيه، ولا ما يعيشان منه، حتى ولا عمل؟ فلو كانوا لا يزالون في الحقل، لما قالت شيئاً. ما عدا أن جيرتروديس ملزمة بالانتظار سنتين بعد لتفكر في الاعتناء بالابن والبيت... ومع هذا كانت تدرك أنه من الصعب تجنّب تطور المسألة فأغوسطينيو رغم كونه غلاماً، فقد قام بعض المرات بالفرار إلى الدسكرة بحثاً عن امرأة. وفي تلك المسيرة كان يتحسس فقدان المرأة، وقرب ابنة عمه، بضحكاتها العريضة، وساقيها الباديتين من تحت الفستان القصير، كان ذلك إغواءً دائماً له.

كانت جوكونдينا تفكر في ما سيقوله جيرونيمو وجوان بيدرو إذا ارتابا في ما كان يجري. لم يكن لديهما وقت لملاحظة ذلك، ففي النهار هما منهمكان في مشقات السفر، وفي الليل، منهكان من التعب، لا يريدان إلا النوم. وما كان ذلك يخفى على النساء. أجل، فدينا كانت مرهفة السمع. ومارتا تبتسم حين ترى أخاها وابنة عمها يبتعدان. كان جيرونيمو رجلاً وديعاً وطيباً، لكنه يبعث على الخوف حين يستبد به الغضب. فلمثل حالة مشابهة غادر جاون البيت ولم يعد إليه البتة. كان قد بدأ يغازل ابنة إشبين لهم، هو مانيكا العجوز، وأخذ يتحادث معها عند ضفة النهر كل مساء. واستجوب مانيكا جيرونيمو حول المسألة. فإذا كان الغلام يريد الزواج، فهذا حق، وليس لديه ما يقوله. لكنه لا يريد أن تكون ابنته مثار كلام، ويصبح شرفها موضوعاً للمغتابين.

وقد أصغى جيرونيمو بصمت، وقال إنه سيتخذ تدبيراً. ولم يكن جاون قد أكمل العشرين سنة، والزغب وحده يطل فوق شفتيه.

وفي البيت، ليلاً، استجوبه جيرونيمو:

- إنك لا تستطيع الزواج، وما زلت لا تملك وسيلة للحياة...

أجاب الغلام بأن لا إيضاحات لديه ليعطيها. فكان سيد حياته. والعمل لا يعوزه إذا أراد الرحيل. فغضب جيرونيمو وتناول خشبة وركض وراء جاون. وكانت جوكونдينا تنظر إلى

المشهد من دون أن تكون لديها الجرأة على التدخل. ومارتا مذعورة في إحدى الزوايا. كانت بنتاً صغيرة في الثالثة عشرة من العمر. وصاح جاون بأبيه.

- لا تضربني يا أبتاه، حباً بالله...

وبما أن جيرونيمو واصل تعقبه له، أضاف:

- إذا لمستني فسأرحل عن هذا البيت...

لم يكن جيرونيمو يسمع شيئاً. فقد أضاع صوابه، وكسر الخشبة على ظهر جاون...

لم يبد الغلام مقاومة. كان يتطلّع إلى جوكونДينا، حتى إذا أحست بدوار، تقدمت نحو زوجها:

- أترك ابني، أيها البائس...

عندها فقط، توقف جيرونيمو لاهثاً. فألقى الخشبة، وخرج إلى داخل البيت صامتاً. وتلمست جوكونДينا ذراع ابنها ورأسه وظهره. فقال جاون:

- أماه، سأرحل...

- لا تفعل هذا يا جاون.. كان أبوك غاضباً. وكان محقاً. فأنت رددت.. والابن لا يرد على أبيه...

- سوف أرحل يا أمي، ولن أبقى هنا... سأصنع حياتي... أريد بركتك...

ظل أمامها، مصمماً. وأدركت أنه لن يبقى بأي وسيلة. فذهبت عندئذٍ لتجلب المائة ألف ريس التي كانت محتفظة بها لحالة مرض أو لحاجة لا يستغنى عنها، وسلّمتها إلى ابنها:

- عندما يبرد رأسك، عد...

- لن أعود بعد الآن يا أماه...

مشى نحو الباب. لم يحمل شيئاً بيديه، إلا النقود، وهي ورقة نقد ممزّقة عند منتصفها. وألصقت القطعتان بالصابون. وقبل أن يعبر عتبة الباب، التفت وقال:

- قولي لأبي أن يسامحني...

كانت عينا جوكوندينا مليئتين بالدموع. فاتجهت هي أيضاً إلى الباب في الوقت الذي كان ظل جاون يضيع في العتمة. كان أول المغادرين. والثاني ذهب مع لوكاس آرفوريدو. اختفى في إحدى الليالي بدون دافع، دون أن يترك رسالة، دون أن يعرفوا، وخلال وقت طويل، ماذا كان من أمره؟ بقي أغوسطينيو فقط؟ أصغر الأربعة. والآن كان هو متعلقاً بجيرترودیس، في الأحاديث التي يتبادلانها خفية، في اللقاءات التي تتم في الدغل. إن ذلك لن ينتهي على خير. وهمست جوكونديتا لنفسها:

- من الأفضل أن يتزوج قبل أن تضيع هي.

ماذا سيفعل جيرونيمو إذا حدث هذا؟ إنها لا تريد حتى مجرد التفكير...

17

وهكذا كان لقد توطّد الحب في الكاتنغا بين قلق جوكونديتا ودينا ومخاوفهما. وأصبح الطعام يعوزهم كلياً، وكانوا يضيعون قسماً من النهار في البحث عمّا يأكلونه؛ تاتو ومن مرة إلى أخرى باكا برياً لكن في الكاتنغا كان الصيد صعباً. وكان عليهم أن يهدروا ساعات في إثر حيوان، وتجرجر الرحلة نفسها. وبلغ التفكير بأغوسطينيو أن أباه ضلَّ الطريق، وعندما يلتقون أناساً يعلمونهم بأنهم يسلكون الطريق الصحيح، فيغدو هو أكثر ارتياحاً ووثوقاً.

كل ما كان يرغب فيه هو الوصول بسرعة إلى مدينة، أو مزرعة، حيث يحصل على عمل ويعيش مع جيرترودیس. وقد جعله الجوع شديد الانفعال خصوصاً مع ابنة عمه. وكان يتشاجر معها بعدما أخذت ترفض مرافقته إلى الدغل. ومع استطالة المسيرة وازدياد الرغبات الجنسية في جسد جيرترودیس الفتي - العناق، الالتصاق، المداعبات باليد، أصبح كل مرة أكثر إلحاحاً، مصرّاً على امتلاك الفتاة هناك، حتى في الطرقات، بالرغم من أنه قبلاً وعدها بأنه لن يتمكن منها إلا بعد أن يعثرا على قس يعقد زواجهما، ومكان يقيمان فيه. لم يعد أغوسطينيو يفكر في السفر حتى سان باولو. ففي المزارع التي مرّوا بها، عرضوا عليه العمل، بأجر بخس، إنها لحقيقة. لكنه كان مستعداً لقبول أي شيء ليستطيع البقاء مع جيرترودیس.

ذات مساء ظهرت الفتاة بشفة مشقوقة. لم يكن يبدو أنه جرح أحدثته شوكة، كما قالت. وأجبرتها دينا على الاعتراف فانتهت بأن أخبرتها أن أغوسطينيو لكمها. كان يريد الإمساك بها من رسغها فقاومته، وعندها ضربها. وصارت دينا كأنها مجنونة. تشبه زيفا في أسوأ أيامها. وكان جيرونيمو وجوان بيدرو قد غادرا في إثر تاتو، واختفى أغوسطينيو. وما كان إلا النسوة وطونيو.

وحينما ذهب جيرونيمو وجوان بيدرو وراء الطريدة لم يكونا قد أكلا شيئاً في ذلك النهار - يبقى أغوسطينيو بحجة السهر على النساء. كان لديه مخطط متكامل، فدمه يغلي.

بعد اعتراف جيرترودیس، مضت دينا رأساً إلى جوكونديتا، كانت الاثنتان على تفاهم جيّد، تنادي كل منهما الأخرى بالإشبينة. ومع أنهما مجرد سلفتين، فإن أي قربى بالدم لم تكن تربطهما في الواقع. إنما جوان بيدرو وأفراد عائلته كانوا يعيشون دائماً متكلين قليلاً على جيرونيمو الذي يساعدهم في السنين الأشد صعوبة، حيث كان الأخ الأكبر ويقدم له النصح معطياً الكلمة الأخيرة في الأشغال وفي المسائل المعقدة.

وصلت دينا تستشط غضباً، فالجوع قد أحالهم جميعاً عدوانيين ومحتدين. كانوا هزالى، جميعهم يبدون شخصيات متخيَّلة، الشعر يطلب القص، والقمل يسرح، والأجساد قذرة والفساتين والثياب قطعاً ممزقة، كأنهم بقايا سكان مدينة منكوبة بالحرب. فأي شيء كان يثيرهم. وجوكونديتا نفسها كانت تشعر بأنها مريضة وسهلة الغضب، تهمهم طوال الوقت محتجة على كل شيء، تتبادل كلمات قاسية مع زوجها. مارتا فقط صانت نفسها فبدت أكثر هدوءاً، وكانت هي التي توقف المصادمات والتي ما زال لديها رأس لتهتم بالصغار - الأصغر يغدو كل يوم أشد ضعفاً وطونيو لديه سعال جاف «سعال الكلب» كما صنّفته جوكونديتا.

جاءت دينا صائحة من الناحية الأخرى:

- إشبينتي! إشبينتي! تعالي إلى هنا...

لكنها هي التي سارت إلى حيث كانت جوكونديتا ومارتا تحاولان إعطاء قليل من الحساء إلى أرنستو، وكان طونيو يرعى الحمار الذي كان ينتزع لحاء الشجيرات، تلك التي كانت غريزته تشير إليها كما لو أنها تحتوي على ماء. وقد اعتاد الولد في الأيام الأشد جوعاً، أن يمضغ ويبلع قطعاً من لحاء الشجر التي ينتزعها جيريمياس.

- ماذا في الأمر يا إشبينتي؟

وقفت جوكونديتا، وكذلك كان حال مارتا. هل لدغتها أفعى؟ ومن مخاوف جوكونديتا الكبرى أن تلدغ أفعى من نوع كاسكافيل أو جاراراكا أحداً منهم. كان موتاً محققاً. وكانت تحيا موصية الرجال بالاحتراس. فكثير من الأفاعي قد قُتلت أثناء الرحلة، وإحداها كادت تلدغ طونيو، ولو لم يقفز الصبي بسرعة لكانت اللدغة قد تمكنت منه.

فهمت ما كان يتسرب من كلمات دينا الأولى. فهذا كان لا بد من حدوثه، حتى أنه قد تأخر حدوثه. وهددت دينا:

- إذا أساء إلى البنت، فإن جوان بيدرو سيرميه برصاصة، وهذا خير ما يصنعه...

- أطبقي فمكِ أيتها المرأة المجنونة...

لقد نسيت أنها أيضاً سلّمت نفسها إلى جوان بيدرو في الأدغال، وأنها عاشت معه كعشيقة سنين طويلة، وأنها لم تتزوج به إلا بعد ذلك بفترة طويلة، عندما أقام قس احتفالاً في المزرعة.

كان لصيحة جوكوندينا أثر طيّب في أعصاب دينا. فأطبقت فمها وبدأت الدموع تنهمر من عينيها. وواصلت جوكوندينا الكلام بغضب وبشكل عدائي:

- هل ترين أن ابني ليس خليقاً بابنتك؟ إنه طيب، حتى أكثر من اللازم.. فأي زوج أفضل منه بوسعك العثور عليه؟

وجاء صوت دينا خفيضاً وهادئاً:

- لا أقول لا... إنما الذي لا أريده هو أن أرى البنت تُشقى في الأدغال. أن تصبح ضائعة في هذه الأنحاء...

جرت بقية المحادثة باطمئنان. فاتفقتا على أن تتكلم جوكوندينا مع أغوسطينيو، وأن يقبل بأن يتم الزواج في كنيسة أول مدينة يمرّون بها.

- إنه مهم لي أكثر، هكذا...

عاد الرجلان في العشية. لم يكونا قد اصطادا شيئاً ولم يرجع أغوسطينيو إلا متأخراً، ومن نظرة الآخرين أدرك أنه لا يوجد ما يأكلونه. حاول تبيّن جيرتروديس في العتمة إذ لم يتمكن من إخماد النار المتأججة فيه. ورآها في إحدى الزوايا حزينة منطوية على نفسها وهي متورمة الشفة. وكان الطفل الصغير يبكي والقطة تموء. كانت قد كبرت أثناء الرحلة. إنها هزيلة وشرسة. والإمساك بها من الصعوبة بمكان، لكنهم تركوها ترافقهم في الطريق كما لو كانت كلباً. وغير مرة جاءت بحيوانات برية اصطادتها، وألقتها عند قدمي مارتا التي أصبحت بعد موت نوكا، تعتني بها. في الحقيقة إنها عندما كانت تأتي بأحد هذه الحيوانات تكون قد التهمت حيواناً آخر، وكانت ممتلئة البطن. ومع هذا فإن غريزتها كصيادة منعتهم من أن يتركوها في الطريق.

شعر أغوسطينيو بالجوع. فلم يأكل شيئاً أثناء النهار كله. والوجبة الأخيرة التي تناول فيها حساء الدقيق وقطعة من المربى الجاف كانت عند ظهر البارحة. وما تبقى من الدقيق احتفظت به جوكونديا لأرنستو، بتقتير. وضربت طونيو ضرباً مبرحاً لأنها وجدته يسرق قليلاً من الدقيق الذي بقي في قعر الكيس.

نادت جوكونديا ابنها:

- أغوسطينيو، اجلس ههنا...

قبل أن يجلس، اختلس نظرة إلى وجه أرنستو. لم يكن يبدو بعد طفلاً. حتى أغوسطينيو نفسه لم يكن يعرف كيف أن الولد الصغير ما زال يقاوم. فالعظام تكاد تثقب الجلد. إنه إنسان ضعيف هش ملفوف بالخرق. كان أغوسطينيو يحترم جوكونديا، لكنه يخشى هذه المحادثة الآن. كانوا جميعاً قليلي الكلام، وذوي معجم مفردات قصير، ولا يعرفون التعبير جيداً. فالكلمات لم تكن تظهر البتة، على وجه التقريب، الامتداد الحقيقي لمشاعرهم.

قرفص أمام جوكونديا وظل منتظراً، ولم تعرف كيف تبدأ. لم يكن ذلك سهلاً، وما عرفت اللعب بالكلمات، وتخشى أن يثور ابنها مثلما حدث مع جاون. فصممت أخيراً، حين أصبح الصمت ثقيلاً وغير مريح على الدخول مباشرة في الموضوع:

- هل تريد الزواج بجيرتروديس؟

قطّب أغوسطينيو عينيه، ونكت الأرض الجافة في الكاتنغا بقطعة حطب:

- زواج، مصاحبة، الانضمام إليها... أي شيء...

- ألن تستطيع الانتظار حتى نصل إلى سان باولو، وتصبح الحياة لك مهيأة؟ إنه أفضل للجميع.. وبإمكاننا إجراء زواج سليم، مع قس وقاضٍ.. لسنا بعيدين عن مدينة جوازيرو، وجيرونيمو قال إننا سنصل إلى هناك بعد أيام... وبعدها نأخذ الباخرة والقطار الحديدي، لن يتأخر الأمر...

هزّ أغوسطينيو رأسه:

- لن أذهب إلى سان باولو. سأبقى في أول مزرعة أجدها وتريد عاملاً...

- يقال إن الرجل في سان باولو يكسب مالاً، فالعامل هو كائن له شأنه، وهنا العامل لا يساوي شيئاً، إنه يفيض، وهم لا يريدون إلا أن يدفعوا قذارة...

حكّ أغوسطينيو وجهه بنفاد صبر:

- ليس في الأمر شيء يا أماه. فحضرتكِ سوف تذهبين، وقد صمم أبي على الذهاب إلى سان باولو، قد يصبح سعيداً متى وصل إلى هناك. وقد يموت الجميع أيضاً في الطريق، وهو مؤكد أكثر... بيد أنني لا أريد الموت، فلديّ ذراعان، سأعمل حيث يوجد عمل. وآخذ جيرترودیس معي...

أحست جوكونديتا أن ذلك كان قراراً نهائياً، جد نهائي مثلما هو بالنسبة إلى جيرونيمو بلوغ سان باولو وكسب المال الكثير المتوافر هناك. كانت تعرف أبناءها. كلهم هكذا، يشبهون أباهم. فلم يكن النقاش مفيداً، حتى ولا الطلب ولا التضرّع، وأقل منه التهديد. كان الأخير الذي سوف يرحل، الذي يهجرهم، الذي سيتبع مصيره. وهذا يأخذ معه امرأة، بنتاً ما زالت غير نافعة بشيء، وحين يغدو لهما أبناء، كيف سيصبح الأمر؟

فكرت في الثلاثة الذين رحلوا، جوزيه، جاون وجوفينسيو. هل كانوا تعبين؟ هل كان لديهم نساء وأولاد؟ جوزيه، هي تعرف أن ليس لديه أحد. فالجاغونسو لا يستطيع الزواج، ليس له الحق في التفكير في الأولاد، فحياته جري بلا نهاية، والآن طالما هي ترتحل في الكاتنغا، فإنها تعاني أكثر من أجل الابن الذي هذه هي حياته اليومية إضافة إلى إطلاق الرصاص والهجمات.

انتظر أغوسطينيو أن تتكلم. فهو يخشى التضرّعات والتوسلات التي تلجأ إليها. فقد حصّن نفسه ضد كل هذا بتصميم لا يتزعزع. وإذا بدأوا يضايقونه، فإنه سيتركهم هناك بالذات. سيأخذ جيرترودیس ويذهبان بحثاً عن مزرعة.

تتكلم جوكونديتا بهدوء. ولا يذكر أغوسطينيو أنه سمع أمه تتحدث بمثل هذه الرقة وهذا الحنان.

- إذا أردت الزواج بها، فلتتزوج... وليس لأحد الحق في الاعتراض... لكن ليس لديك أنت الحق أيضاً في التخلي عنا هكذا، في الغابة، والجوالق على ظهورنا. هذا عمل مؤلم، أن ترحل، وأنت غير آبه إلا لنفسك فقط. إني أستطيع الكلام هكذا لأنني أنا التي أنجبتك، وأرضعتك من صدري.. وإذا أردت الذهاب فعليك أن تنتظر وصولنا إلى جوازيرو وركوب السفينة، وهذا بعد

بضعة أيام فقط، فماذا سيكلفك ذلك؟ لن تكون سيىء القلب إلى هذا الحد بحيث تترك أمك وأباك في الطريق كحيوانين من حيوانات الغابة..

وافق أغوسطينيو:

- سوف أرحل فقط إذا ضايقتموني، إذا بدأ الجميع يتدخلون في حياتي.. ها قد أصبحت رجلاً، وأستطيع البحث عن حياة أفضل، إن حضرتك ستذهبين إلى سان باولو، وأنا لا أريد الذهاب...

- إن رأسك مقلوب... لم أقل أن تذهب معنا إلى سان باولو. إنما تذهب إلى جوازيرو فقط.

- حسناً، حتى جوازيرو...

ومع هذا لم تكن جوكوندينا راضية:

- يوجد لماذا أخرى...

- ما هو؟

- ستترك البنت بسلام حتى الوصول إلى هناك. وحين نصل، تتزوج أنت أو تفعل ما تريد... لكنك لن تسيء إليها في الطريق وذلك لتجنب مصيبة...

وأكملت:

- فإذا حدث هذا، فإني لن أقوى على تحمله... فقد أموت من الغم...

نهض من دون أن يقول شيئاً، لكنها قرأت في عينيه وفي حركة يده أنه موافق. وهي تعلم أن بوسعها الوثوق بأغوسطينيو. ومع هذا ظلت تنتظر منه كلمة، وابتسمت فقط حين قال:

- موافق على ذلك يا أماه، بوسع حضرتك أن تكوني مرتاحة...

مشى إلى حيث كان الرجال، ورافقته بنظرة. وكانت معدتها تؤلمها من الجوع.

18

مضى جوان بيدرو متمهلاً، على رؤوس قدميه، لكن القطة فرّت في الوقت المناسب. وأدرك أغوسطينيو ما كان يبغيه، فصاح بأبيه، فيما اتخذ موضعاً أمام ماريسكا:

- أحط بها من الناحية الأخرى يا أبي...

- كانت القطة موضوعة تحت المراقبة في كل لحظة. تقف، وعيناها تتنقلان من رجل إلى آخر، منتظرة الفرصة للقفز. وتمركز جيرونيمو في ركن من الأرض، وبين الثلاثة أخذت الدائرة تضيق والقطة أيضاً بدت مدركة مقصدهم. فلم يكونوا قد تبادلوا أي كلمات. كانت حركة جوان بيدرو كافية ليندفع الاثنان الآخران لاصطياد القطة. لقد خططوا لأكلها غير مرة. وفي أيام الجوع الشديد كانوا ينظرون إليها بعيون جشعة بالرغم من هزالها. لكنهم كانوا يواجهون دائماً بمقاومة مارتا. وبما أن الفتاة أثناء الرحلة قد احتفظت بتأثير معيّن بهم جميعاً، فلم تتجاوز الخطط النظرات والنيّات.

في ذلك النهار، وقد اشتّد الجوع، ومارتا لم تكن موجودة، إذ إنها تعتني بطونيو وأرنستو، فكانت الفرصة مؤاتية جداً. لم يتكلموا، ركز كل منهم قدمه أمام الأخرى، وتوقفوا ليلاحظوا ردة فعل القطة، كانت عجفاء، وما أكملت بعد نموها، وستكون عشاء بائساً. لكنها أفضل من لا شيء. إنها أفضل من ذلك الألم في المعدة الذي يشبه جرذاناً تقرضها، ويصيبهم بدوار في الرأس، ومرارة في الفم، وبما أن حبال التبغ قد انتهت من حوزتهم قبل أن تنتهي المواد الغذائية، فلم يستطيعوا خداع الجوع، فمن بين جميع الأشياء التي كانت تنقص جوان بيدرو وما يشعره بالقنوط، هو التدخين، كان يحب صنع لفافته من ورق الذرة، وفي الأيام الأولى التي لم يكن لديه ما يدخنه كان يبدو كمن سيصبح مجنوناً. وشيئاً فشيئاً، تغلّب الجوع على فقدان التدخين، والآن لا يفكر إلا في القطة الموجودة أمامه.

كانوا قريبين جداً بعضهم من بعض بحيث يستطيعون مد أيديهم وتشكيل دائرة. فانحنى أغوسطينيو فوق القطة وكانت قائمتاها الأماميتان ممدودتين. لكن ماريسكا متيقظة فقفزت في اللحظة نفسها التي كان سيمسك بها. قفزت إلى الجانب الآخر. وعندما يتقدم جيرونيمو تمرّ من بين ساقيه وتختبىء خلف الشجيرات. إن الأمر بالنسبة إليها الآن لعب. حينما كانت نوكا على قيد الحياة، كانت تحب أن تركض معها، وتحاول الإمساك بها. وتخدعها ماريسكا بقفزاتها.

إن الركض بين الشجيرات، يجذب النساء. فيتبيّن ما كان يجري ولا يقلن شيئاً وحتى قبل أن تفتح مارتا فمها، يقطع جيرونيمو عليها الطريق:

- لا توجد وسيلة أخرى.. فنحن لن نموت جوعاً...

ويأمرها بتسخين الماء.

لقد جلبوا الماء بتضحية عظيمة. تمكنوا من الحصول على برميل في إحدى المزارع وملأوه بماء أي بئر وجدوه، وكانوا يضعونه في إحدى السلّتين على ظهر الحمار. وفيما كانوا يتعقبون، من شجيرة إلى شجيرة، كانوا ينصتون إلى دينا كيف تملأ الصفيحة، وتغلي الماء فوق الجمرات بلا طائل. وكان ذلك ينشطهم، ويجعلهم يواصلون بشجاعة أكثر، ذلك الصيد السخيف. والقطة تفر من بين أيديهم، مارة من بين أرجلهم.

الوقت ينصرم والرجال لا يتمكنون من القبض عليها. وقدم طونيو لينضم إليهم وجُرح في كل أنحاء جسمه بالشوك، ومضى يبكي قرب مارتا التي كانت تختلس النظر إلى ركض ذويها من دون أن تتكلم.

وكان جيرونيمو أول من صرف النظر عن الأمر. فقد قضى النهار وراء الطريدة في الغابة، وهذا شيء كثير بالنسبة إلى رجل هرم جائع. قال كلمة ما واستكان، ناظراً إلى الاثنين الآخرين اللذين كانا مثابرين على هدفهما.

وأخيراً تعبت القطة من اللعب، فهربت إلى الكاتنغا. ومع هذا حاول أغوسطينيو اللحاق بها، فتطلّع إلى ناحية مارتا بحنق كأنه يعتبرها مسؤولة عن الفشل، نظر إليها جوان بيدرو أيضاً. بيد أن نظرته لها معنى آخر. فباستطاعتها الإمساك بالقطة، بلا أي جهد إذا رغبت في ذلك. إن ماريسكا تثق بها، وترقد إلى جانبها، في حرارة حضنها. وفهمت مارتا نظرة عمها. هل سيطلبون منها ذلك؟ لكن أحداً منهم لم يجرؤ ليلفظ كلمة. إنما الجوع حاضر في كل وجه، في وجه الولد الصغير الذي يبكي، في وجه دينا التي تغلي الماء بلا طائل، في وجه جوكوندينا التي ترعى الولد الصغير، الرجال هم رهن حركتها. ينتظرون، وهي تعرف أنه ليس بالإمكان تحمل تلك العيون الجامدة الملحاحة المتوسلة طوال وقت مديد.

تموء القطة بين الشجيرات، وتقرر مارتا، سوف تسير ببطء إلى الناحيةالتي تنادي فيها بصوتها الصديق:

- ماريسكا... بسيو... بسيو... ماريسكا...

وتخرج القطة من ملجئها، تركض واثقة إلى مارتا.

19

وفي وسط الجوع، العطش والتعب، سقطت دينا مريضة، أصابتها الحمى عند بدء المساء، بعد أربعة أيام على أكلهم القطة، وكان عشاءً غير كافٍ. فماريسكا كانت تقريباً جد هزيلة وبالقدر الذي كانوا هم عليه. وفيما هم مضغوا العظام، رفضت مارتا وحدها أن تأكل بالرغم من توسلات جوكوندينا وكل كلمات جيرونيمو القاسية. وما كان الهرم يحب المشادة مع ابنته، ففي كل ساعة كان يحنو عليها أكثر، ويشعر بكل ما كانت تقدمه لهم من مساعدة. ودينا لم يكن باستطاعتها المساعدة، شاكية من الآلام، من الانهماك بالولدين، وما كانت تحمل بعد الآن أياً من الصرر، وتسير شبه مجرجرة نفسها في الطريق.

حينما أدركتها الحمى، معلنة بالارتجافات، جهدت دينا في مواصلة السير، كانوا يقطعون فراسخ قليلة في اليوم، فالخطوة متمهلة. إذ كانت تنقصهم القوى لمسير أبعد، ولم تقل دينا شيئاً،

حتى ولا لجيرترودیس التي كانت تسير إلى جانبها (منذ اكتشاف حب ابنتها لأغوسطينيو لم تتركها تبتعد عنها، وكانت تخضعها للمراقبة، ولم تكن تكتفي بوعود جوكونديناا). استمرت في سيرها. وفي ذلك المساء قتل أغوسطينيو أفعى الجيبويا في الممر، وكانت قد التهمت حيواناً ما ضخماً قبل ساعات، فتخدرت، وبات من السهل قتلها.

توقفوا ليطهوا قطعة من اللحم، وأخذوا معهم قطعة أخرى ليأكلوها في ما بعد.

قالت جوكونديناا:

- إن هذا ليس طعاماً لمسيحي... لكنها لم تستطع النقاش. فلولا الجيبويا لما عرفت كيف كان بوسعها الاستمرار.

بعد أن أكلوا، نهضوا ليواصلوا السير، ورأى جيرونيمو أنهم ما داموا قد قتلوا الجوع، فإن بإمكانهم قطع جزء من الطريق، حتى يطبق عليهم الليل كلياً، ووخز جيرونيمو وصاح بأهله.

- تحركوا أيها الناس...

ولم تتمكن دينا من الوقوف. وأوقفت نداءات جيرترودیس القافلة، فوصل جوان بيدرو راكضاً ليعلم ما الأمر.

حمى شريرة...

في الأمتعة ما زال لديهم بعض حبوب عالج بها جوان بيدرو نفسه من حمى كهذه، ولم يكن يدري أي حمى كانت. تكلَّم الطبيب عن التيفوئيد. والآن كانت دينا من أصابتها الحمى وأوقعتها في الطريق، تلك الحمى التي لا تعفو، والتي كانوا يخشونها أكثر من كل شيء.

كانت دينا ترتعد من البرد رغم الحرارة السائدة حولهم. في نهاية المساء. جمعوا كل الخرق فوقها. وهناك ظلوا ستة أيام يأكلون بقايا الجيبويا، صائدين بعض البرية، مرتاحين أيضاً، وستة أيام كانت الوقت الذي دامت فيه الحمى، وماتت دينا عند الصباح الباكر. بالضبط، في اليوم الذي انتهى مجدداً ما يأكلونه ولم يعد لديهم حتى ولا قطرة ماء.

دفنوها على وجه الأرض تقريباً. فلم تكن لديهم قوى ليحفروا عميقاً. وحامت طيور البغاث في أسراب كبيرة فوقهم. كانت رفيقتهم الوحيدة في الرحلة. وتطلّعت إليها جوكونديناا بتشاؤم:

- إنها تنتظر أن لا نستطيع بعد دفن الميت...

20

تحلّقت طيور البغاث. فلم يتطلّب تحريك قليل من التراب الذي يغطي جثمان دينا جهداً كبيراً. وهي أيضاً لم تعثر على كثير مما تأكله من الكاتنغا المنعزلة. فتجمعت في عصبة ثائرة وصاخبة، تتبادل العضّ بالمناقير في ما بينها، فوق الجثة، وتخيّل جيرونيمو الذي يتقدمهم والذي لم يعد يراها في السماء تلحق بهم، ما كان يجري. وكان جوان بيدرو يعلم أنها كانت تلتهم جثة امرأته، لكن لم تكن لديه الجرأة ليعود، ويفقد وقتاً أكثر، كما أنه لم يعد لديه قوى ليتألم ولا دموع ليبكي. وشيئاً فشيئاً آمنوا بأن أحداً منهم لن يبلغ نهاية الرحلة، وأن أياً منهم لن يقيّض له أن يرى الوفرة التي توجد في سان باولو، لكنهم ساروا إلى الأمام، إذ إن الأسوأ هو أن يعودوا أدراجهم. وإلى أين العودة، إذ لم يعد لهم أرض، ولا بيت، ولا حقل منديوكا ولا حقل ذرة؟

عند منتصف المساء، أدركتهم طيور البغاث مجدداً، وحوّمت في دوائر فوقهم.

21

إذا كانوا لم يموتوا، جميعهم، عطشاً، فلأن جوان بيدرو عندما جاب الأماكن المجاورة، عثر على بقية من الماء في بئر قد جفّت، فشربوا قدر ما استطاعوا، لكن ما تبقى منه لم يكفِ إلا لملء البرميل، والآن حيث لم يعد لديهم ما يكفيهم للغداء وللعشاء، كانوا يأكلون حينما يتمكنون من العثور على ثمار الغابة أو على أحد الحيوانات. إنما الآن كانوا يتوقفون عدة مرات في الطريق، يسيرون كيلو مترين وثلاثة ثم يضطرون إلى أخذ قسط من الراحة، فالقوى تعوزهم، وأظهر جيريمياس وحده استعداداً لمواصلة الطريق، واستمر جيرونيمو يقول إنهم «بعد الله مدينون للحمار لكونهم ما زالوا أحياء»، ولم يكن طونيو وحده الذي يقطع حالياً قسماً من الطريق على متن جيريمياس، ممتطياً مؤخرته، فجوكونديا أيضاً، حينما رفضت ساقاها المشي، رُفعت ورُكزت بين السلّتين وسار بها الحمار، وبلغ الأمر بجيرونيمو أن أحبه كما يحب أياً من أقاربه الذين يمضون معه، وفي الساعات الطويلة من السير، تحت الشمس المحرقة وظهره متعب كأنه يحمل ثقلاً مكوناً من ستين كلغ، كان يحب أن يتكلم مع جيريمياس، أن يقول كلمات مشجعة ويمسك رأس الحمار، ويربته، ويعده بمرعى وافر حين يصلون. مع أنه يعرف أنهم حالما يلمحون جوازيرو لن يبقى عليه إلا بيع الحمار الذي سيصير من ذلك الوقت فصاعداً بدون فائدة. فبالرغم من كونه هزيلاً، سيحصل منه على بعض النقود تساعدهم على متابعة الرحلة، ولو استطاع جيرونيمو لأخذه معه

إلى سان باولو، فيطلقه في المرعى ويتركه طليقاً بقية حياته، فقد عمل كثيراً ويستحق الركون إلى الراحة في السنين التي بقيت له، مع عشب جيد وأفراس جميلة ليلهو، ولن يكون له ما يعمله.

غير أنه لم يكن في الإمكان حتى بيعه في جوازيرو، لأنه عندما اشتد بهم العطش مجدداً، وقد خصص الماء القليل الذي بقي لأرنستو فقط، وكان يُعطى له قطرة قطرة حينما فكروا بأنهم لم يعودوا يحتملون ويشعرون بالحسد لجيريمياس الذي يأكل لحاء الشجيرات حيث يُحْتَفَظ بالماء، التهم الحمار عشباً ساماً، وهو يائس من عدم العثور على شيء يقتل به العطش والجوع. وقد حذرته غريزته، لكن ذلك لم يثمر. فأثناء الرحلة كلها كان جيريمياس عندما يعثر على لحاء شجر، شوكة المنداكارو والشيكيشيكي، يحترس من أكل التينغوي ، العشبة الخضراء المرحبة به. لكن - هكذا يحدث لجميع الحيوانات التي هي من جنسه - تصل اللحظة التي يتغلب فيها الظمأ والجوع على كل شيء، فنهق طويلاً وعيناه مفتوحتان كثيراً، وكأنه يودع المنظر الجاف.

وجاءت طيور البغاث وحوّمت فوقه، وحتى قبل أن يسقط الحمار، كانت قد أخذت تنهشه بمناقيرها. بالأحرى، صارت طيور البغاث كل مرة أكثر جرأة، تجثم إلى جانب المسافرين، وتحيط بهم، فكان لازماً نهزها بالخشب والحجارة لترتفع في طيرانها، وكان الظل الذي رسمته فوق الأرض، هو الظل الوحيد على تلك التربة ذات الأعشاب القليلة والصغيرة جداً، بلا حيوانات ولا خضرة.

شاهدوا طيور البغاث تطير بأشلاء من الحيوان في مناقيرها، وما كان بعد قد نفق تماماً. واهتزّت الشجيرات على شهقات جوكوندينا.

22

إن ما آلم جيرونيمو كأنه ظلم، هو أن جيريمياس لو قاوم يوماً آخر بعد، لما كان قد نفق، إذ في اليوم التالي وصلوا إلى مزرعة كانت روعة في الجمال، فيها سد ويبدو أنها لم تتأثر بالجفاف إلا قليلاً جداً. كانوا في خضم الحصاد ويحتاجون إلى عمال، فاشتغلوا جميعاً بضعة أيام ليستطيعوا شراء مواد غذائية كافية لبقية الرحلة. وهناك عرف جيرونيمو أنه ضلَّ الطريق، إذ كان بوسعه أن يكون في جوازيرو لو اتبع الطريق الصحيح. والآن عليه المضي إلى الغرب، أي السير قرابة ثلاثين فرسخاً، وكانت هي المسافة التي تفصله عن المدينة. من جهة أخرى، سيسافر في أراض خصبة، ولن يحتاج إلى أن يدفن نفسه مجدداً في الكاتنغا، سيقطع جزءاً أو اثنين منها. لكن ستكون كل الرحلة تقريباً على طريق عريضة تمرّ عليها حتى الشاحنات.

عندما رجع من العمل في الفلاحة (كانوا قد أعطوهم بيتاً ليناموا فيه) أحس بوخزة في ظهره، ألم دقيق وحاد، فرفع جسمه، لكن الألم لم ينقض. كأن أحداً يغرز إبرة بين ضلوعه. وأحس بمرارة في فمه، فبصق بصاقاً أحمر، واستحال وجهه معتماً، لكنه لم يقل شيئاً في البيت، وفي اليوم الثاني عاد إلى العمل. وتجدد الألم بين الفينة والأخرى. وكان يشعر بأنه محموم في نهايات الأمسيات، كان ذلك بسبب السير بلا طعام.

أمضوا أسبوعاً يعملون في المزرعة. ويوم السبت أجروا حساباتهم. بالمكسب الباقي سيشترون مواد غذائية. ولم يشأوا أن يلمسوا النقود المحسوبة التي يحملونها. إنها بدل انتقالهم بالسفينة. ومع الإقامة في المزرعة، تحسن أرنستو، وإذا لم تكن الرحلة سيئة من الآن فصاعداً، فلن يكون ثمة خطر عليه من الموت.

وألفت جوكوندينا نفسها فرحة على وجه التقريب عشية الرحيل. بالرغم من أن جيرونيمو يبدو أشد تعباً وهزالاً مما كان قبلاً وعلى وجهه حزن جديد.

اجتمعوا كلهم في تلك الليلة في البيت للعشاء. كانت جيرتروديس خافضة العينين ولم ترغب في الأكل، فسألتها جوكونديتا:

- ماذا بكِ أيتها البنت؟

- لا شيء، أبداً يا سيدتي...

وتكلم جوان بيدرو بحدة:

- هل أنتِ مريضة؟

- أنا، لا...

وبحثت جوكونديتا عن السبب في عيني أغوسطينيو فأجاب عن نظرتها بحركة ما. باتت بانتظار ما يحدث.

تناول الابن حساءه مع اللحم القديد بدون أن يتكلم، باحثاً عن وسيلة ليبدأ الكلام، ثم سعل جيرونيمو.

- أبي...

- ما الذي تريده؟

- إن حضرتكم قريبون جداً من نقطة الوصول.. من جوازيرو إلى هناك، سيكون السفر بالسفينة والقطار.

انتظر جيرونيمو أن يكمل. ومضت جيرتروديس خارجة خفية إلى أمام البيت، وكان جوان بيدرو يصغي بانتباه إلى كلمات أغوسطينيو.

- سأبقى ههنا... فقد حصلت على عمل للقيام بحصد حقل، ولن أذهب معكم...

- ستبقى؟

لو لم يكن جيرونيمو يشعر أنه مريض وضعيف لكان من الجائز أن يحطم أغوسطينيو ضرباً. أين يوجد من يترك عائلته هكذا، حينما يكونون جميعاً مسافرين بعيداً؟ لكن الرحلة قد غيّرت الهرم جيرونيمو كثيراً. فأسرته قد دُمرت، ومات أناس في الطريق، وآخرون مرضى. وهو نفسه يعاني ذلك الألم في الظهر وتلك الحرارة في الوجه...

- إذا أردت البقاء فبإمكانك ذلك، وأنا أمنحك بركتي لكي يساعدك الله... ونحن سنمضي قدماً، فهنا لا مستقبل لنا...

- من يدري أني لن ألتقي حضراتكم في ما بعد؟ إذا لم يوافقني البقاء هنا...

وقال جيرونيمو:

- هيّا إلى النوم...

- انتظر يا أبي...

- ماذا هنالك؟

- جيرتروديس تريد البقاء معي...

- هيه؟

- سنتزوج حالما يظهر القس ههنا. قيل إنه سيجيء لأحد الاحتفالات.

تطلّع جيرونيمو إلى جوان بيدرو، فلم يكن أي اعتراض في وجه الآخر الذي رفع يديه:

- ليكن الأمر معه وليس مع أي آخر... وما أريده فقط هو أن يتزوجا، فلا أريد أن يكون لي ابنة ضائعة ههنا... إنه عار لم تكن المرحومة تتمناه...

- سنتزوج...

- هل فعلت شيئاً منكراً معها؟

- كلا، وعدت أمي بأن أحترمها واحترمتها، لكننا الآن سنبقى...

وتكلمت جوكوندينا للمرة الأولى:

- هل تضمن لي أنك ستتزوج؟ بروح أمها؟

- أقسم لحضرتك... وذلك حالما يصل القس..

غادروا في اليوم التالي من دونهما. ولم تبك جيرتروديس. كانت تبدو راضية في البيت. ومضى أغوسطينيو إلى الحقل، يحمل منجلاً. ويتساءل جيرونيمو كيف سيتدبّرون أمرهم في سان باولو، فهو مريض وشقيقه ضعيف البادرة. وجوكوندينا، مارتا والطفلان؟... فلو عاش حتى يراهم مقيمين في قطعة أرض حيث يغدو جوان بيدرو فلاحاً، فأقله يموت راضياً، ومن جديد تذكر أرتور والدكتور أوريليانو، لكن لم يعد لديه حقد من شدة التعب الذي كان يعانيه، ومن شدة القنوط.

23

كان المهاجرون يعسكرون خلف الكنيسة. وكان دائماً يوجد الكثير منهم، وكانت المدينة ممراً إجبارياً لجميع الذين سيذهبون إلى بيرابورا، حيث يغادر القطار إلى سان باولو، إلى الأمام، ومن الجهة الأخرى للنهر، تقبع مدينة بيترولينا. كانت هي ولاية بيرنامبوكو . لكن حتى الذين بلغوا تلك الناحية، فإنهم يعبرون فوراً بالزوارق إلى جوازيرو، حيث كانت وكالات السفن، وحيث بوسعهم شراء تذاكر السفر.

وكانت مصلحة كل منهم أن يركب السفينة بأسرع ما يمكن، ويترك وراءه ذكريات الرحلة في الكاتنغا، واللوعة على الموتى، وتذكر الآلام الكثيرة. ولم يكن بين العائلات الكثيرة المخيّمة في الساحة، أي عائلة على وجه التقريب تُحسب بنفس رقم الأشخاص الذين غادروا معهم. فكان للجميع قصص تروى وما كانت أي منها مرحة. لهذا فإن ما كانوا يرغبون فيه هو ركوب السفينة بأسرع ما يمكن.

وتغادر السفينة ودرجتها الثالثة مزدحمة، وأحياناً كان على المهاجرين انتظار أماكن شاغرة لأنهم كانوا كثيري العدد والسفن تستوعب قليلاً من الناس، بالرغم من أنه في الدرجة الثالثة يسافر السرتونيون مكدسين، تقريباً بعضهم فوق بعضهم الآخر.

ذات مساء ساخن من أماسي الصيف. والشمس ترفع الغبار في الشوارع، والنوافذ في معظم البيوت مغلقة، ورجال يمرّون بقمصان بلا سترات، وفي مخيّم المهاجرين تغلي الحياة رغم الأمراض والتعب والمصاعب في الحصول على تذاكر السفر.

وكان يوجد دائماً بالقرب من السوق جمهور صغير يشتري ويبيع. أكوام من الأخفاف وهو شراء إلزامي من قبل المهاجرين الذين يصلون وأحذيتهم متهرئة، وثياب ذات خيوط ملوّنة، فساتين رخيصة للنساء، لحم عجل، وبعض البقول.

وعند البوابة المركزية بالضبط، توقف حمار. وأول من تنبّه إليه ولد، فكر أنه يخص بعض أصحاب المزارع الصغيرة في الجوار، فدفعه بيده ليذهب، لكن الحمار كان ظمآناً ويريد الارتواء من نصف برميل فيه ماء كان أمام السوق، وبمحض المصادفة، بلا مقابل، اختلس الولد النظر إلى داخل السلة ليرى ما يحمله الحمار. فشاهد لأول وهلة طفلاً ميتاً، فبات مرتعباً، بدون نطق، فلمس ذراع الأعمى الذي يتسوّل عند البوابة.

- ما هناك؟

رأى أنه أعمى، فابتعد عنه. ونادى المرأة التي تبيع الإنيامي والبوبا . وتجمع الناس في الحال، كان ثمة طفل ميت في كل واحدة من السلّتين. فمضوا يسعون إلى المفوض. ولم يكن هناك أي غموض لكي يحل إشكاله. فالأمر يتعلق بعائلة من المهاجرين قد انتهت في الطريق. وكان سهلاً أن يخرج اثنا عشر أو عشرون من السرتونيين ويبقون في الطريق جميعاً. لقد قاوم الحمار وسار حتى المدينة.

شكلوا قافلة لاقتفاء أثر الحمار والوقوف على ما حدث، ذهبوا، سبعة رجال يحملون أسلحة وأدوية وحليباً، وخلال ساعة ونصف ساعة من الطريق التقوا عائلة جيرونيمو الذي كان يرتاح تحت شجرة. وكان الرجل الهرم قد تقيّأ دماً. كان ينزف، وهم الذين زودوهم بخبر الميتين صاحبيْ الحمار فقد التقوا زوجين ميتين من الجوع على بعد كيلو مترات إلى الأمام، وكانوا هم أيضاً على وشك الموت.

أضجع الرجال جيرونيمو على أرجوحة، وواصل اثنان فقط الطريق بحثاً عن الجثتين. سوف يقومان بعمل إحسان في دفنهما، وكان موت المنكوبين حدثاً عاماً في الأماكن القريبة من

جوازيرو.

حملوا الأرجوحة على أكتافهم، وكانت جوكونDينا تحمل أرنستو على ذراعيها، وأشفق رجل فأخذ الطفل وأبدى عجبه من كونه ما زال حياً، وهو جد هزيل، وكان جوان بيدرو ومارتا يجرّان نفسيهما أكثر مما كانا يسيران. وأكثر الجميع نشاطاً والذي كان لا يزال قادراً على المشي، هو طونيو، رفعه أحد الرجال الذين كانوا طليقي اليدين ووضعه على كتفيه:

- يا للمسكين الصغير...

وهكذا وصلوا إلى المدينة.

جوكونDينا تتطلّع إلى الأرجوحة التي فيها يمضي جيرونيمو، ففي السرتون الذي أتوا منه، هكذا يدفنون الموتى، يحملونهم في أراجيح، تهتزّ، فراسخ وفراسخ سعياً إلى المقبرة. وكان صدرها يضيق عند رؤيتها زوجها بلا قوى، يقذف دماً من فمه، محمولاً مثل رجل متوفى لا تنقصه إلا الشموع والصلوات فقط.

مضوا مباشرة إلى المستشفى، واستقبلتهم ممرضة، وشرح أحد الرجال، وأصغت جوكونDينا للكلمات:

- سل. إنه سيىء...

كانت مناقشة لم تفهم منها شيئاً، وقد جاء رجال من الداخل هناك، يرتدون ملابس بيضاء، كانوا أطباء، وتحدثوا عند الباب. كان المستشفى مليئاً بأكثر من طاقته واقترب جوان بيدرو الذي كان يتابع المناقشة ليوضح. ومع هذا قبلوا بقاء جيرونيمو ليفحصوه ويروا ما بوسعهم أن يفعلوا من أجله. وشاهدت جوكونDينا الأرجوحة تُحمل إلى الداخل، وأوضح أحد الرجال الذين جاؤوا معهم، كيف الوصول إلى مخيّم المهاجرين وأين هي السوق ليتزودوا بالمؤن، وبإمكانهم المجيء لزيارة جيرونيمو في اليوم التالي، الأمر مستحيل في هذا اليوم. لم يكن مسموحاً.

لم يكن في العالم شيء تخشاه جوكونDينا أكثر من المستشفى. فالفقير عندما يدخل المستشفى لا يخرج بعدها إلا إلى المقبرة. لقد تعلّمت هذا وهي ما زالت بعد ابنة صغيرة وما جعلتها تجربتها الطويلة في الحياة إلا أن تترسخ هذه القناعة في نفسها. وحينما هبطت سلم المستشفى أخيراً، كانت كأنها تودع جيرونيمو إلى الأبد، كانت متأكدة أنها لن تعود فتراه.

لكن ضد توقعاتها، خرج هو بعد ثلاثة أيام، ليس لكونه تحسّن، بقدر ما كان ذلك لصعوبة الحصول على أسرة في المصح. وإذ مرّت الأزمة، تحقق الأطباء من أن المرض كان لا يزال في بدايته، فأعطوه قليلاً من الأدوية وكثيراً من الإرشادات: الإخلاد إلى الراحة، النوم بعد الغداء، عدم التمرّس بالأعمال الشاقة، والتغذية الكثيرة والجيدة، كل ما لم يكن بوسعه أن يفعله، أو كل ما كان غير قادر على أن لا يفعله.

النهر

1

أوضح له الرجل المكلَّف بطاقات السفر أن السفر في النهر سوف يتأخر أسبوعاً في حد وسطي، مع هذا، لا يستطيع التأكد بالضبط، لأن البواخر تجنح أحياناً وتبقى أياماً متوقفة، ويعمل البحارة على انتزاعها من الأرض. ولقد أعطى كل هذه الإيضاحات مكرهاً. إذ كان يقضي النهار مجيباً المهاجرين الذين يلحون على بطاقات سفر، ولا يجد ما هو ممتع في تلك المهمة.

حين وصل جيرونيمو، برفقة جوان بيدرو، للحصول على البطاقات، كانت مقصورة قطع البطاقات مشغولة بمهاجر آخر. فسمع نهاية الحوار:

- أليس بإمكان حضرتك أن تجري تخفيضاً؟

- إنها ليست متجر توركو ... فالسعر محدد.

فأنّ الرجل:

- حتى ولا فرق زهيداً؟

لم يحصل على إجابة. لكنه لم يترك مقدمة مقصورة قطع البطاقات، منتظراً أن يشفق الموظف عليه.

- أترك المكان لآخر، يا رجلي العجوز... وتحلَّ بالصبر...

- حبّاً بالله، يا سيدي، بعني بطاقات السفر... لا ينقص إلا أحد عشر ألف ريس ليكتمل المبلغ. سآتي في ما بعد وأدفع...

- قلت لك إني لا أستطيع... فلست صاحب هذا...

كان يفكر أنه لو كان المالك، فلن يسكن في جوازيرو، وهكذا سيكون متحرراً من سماع طلبات المنكوبين العبثية.

- وأين هو المالك؟ أريد التكلم معه، لا بد أن يكون طيباً، ولديه بعض الشفقة.

- المالك هو ولاية باهيا...

وبما أن العجوز لم يخرج، رفع البائع رأسه داخل المقصورة ونادى جيرونيمو - انت الذي هنا... اخرج يا رجلي العجوز، فدبر الأحد عشر ألف ريس وعد...

وتمتم العجوز عندها بعض كلمات، لكنه أخلى المكان. وفيما كان جيرونيمو يعد النقود ليدفع ثمن بطاقات السفر، كان يوضح للذين ينتظرون:

- قالوا إن الثمن شيء، والآن هو شيء آخر... كيف سأفعل لأتدبّر ما ينقصني؟ فهنا لا يوجد بالفعل عمل يدرّ مكسباً. إلا إذا تسوّلت...

أرعبته الفكرة وفي الوقت عينه تمسك بها:

- إن رجلاً عجوزاً في مثل هذه السن، في وجهه حياء واضح، يطلب إحساناً وهو ليس مقعداً...

لم يجب الآخرون. ليس لأن التضامن ينقصهم، بل لأنهم يخشون أن يطلب منهم العجوز أكثر ولديهم النقود محسوبة. فلقد كانوا في وضع مشابه، لكن مع هذا، وبالرغم من أنهم قد سمعوا أجوبة الشاب العامل في مقصورة قطع البطاقات، يريدون المحاولة.

جيرونيمو يمتلك النقود اللازمة. ويبقى معه منها القليل، إذ جلب أكثر مما هو ثمن البطاقات للجميع بقليل. خصوصاً تذكرة كاملة لدينا ونصف تذكرة لنوكا. وأنفقوا بعضاً منها في الطريق، وأكثر مما كانوا يتوقعون. وهكذا فلن يحتاج لأن يتضرّع للرجل بأن يجري تخفيضاً مثلما فعل الرجل العجوز. ولهذا، بعد أن دفع النقود المنتزعة من طرف المنديل، شعر أن من حقه أن يوجه بعض الأسئلة. اليوم المحدَّد لخروج السفينة، وبائع البطاقات، لا يعرف. كان محدداً بيوم الثلاثاء القادم، لكن الأمر يتوقف على الموعد الذي تصل فيه السفينة، وعلى تفريغ الحمولة. وأوضح الرجل عن الأسئلة الأولى، فأجاب بصبر، وكان لا يزال تحت تأثير الرجل العجوز الذي تنقصه

الأحد عشر ألف ريس ليكمل ثمن البطاقات. لكن جيرونيمو أراد أن يعرف أموراً كثيرة وانتهى بأن فقد البائع صبره:

- أسبوع، عشرة أيام أو شهر، حسب النهر... إننا نعرف متى تخرج السفينة ولا نعرف متى تصل...

شكر وخرج. لقد اختفى ألم الظهر كلياً على وجه التقريب بالأدوية وتوقفت الحمى. ففي المخيم كان الناس يطهون، وكان ثمة لحم يكفي للشراء، وحليب للطفل، كأنهم بُعثوا في الأيام التي قضوها هنا.

أجرى حساباته لدى عودته إلى المخيم. وهي حسابات تتطلّب جهداً كيلا يخطىء. «لو جاء أغوسطينيو وجيرتروديس، فالنقود لم تكن تكفي لشراء البطاقات». الحقيقة أنه ترك مائة وعشرين ألف ريس معهما، إذ أمر جوكوندينا بأن تسلّمهما المبلغ. لم يكن عليه أن يعطيهما إياه. فهما يشتغلان، وهم بحاجة أكثر منهما، هم الذين سيواصلون السفر. لكنه لم يشأ أن يترك ابنه وابنة أخيه بدون نقود، فلا اعتماد لهما إلا على الرصيد المتبقي في نهاية الشهر، وهو رصيد من الصعب توافره ما دامت الأجرة متدنية جداً، وعلى أغوسطينيو أن يشتري أدوات العمل. لم تكن النقود تكفي للجميع لو كان الأربعة الذين نقصوا قد جاؤوا أيضاً. وفي الطريق أنفقوا أكثر مما تصوّروا. وكان كل شيء بشق النفس، وعليهم أن يقتصدوا كثيراً في هذا الأسبوع الذي كانوا مضطرين فيه إلى الانتظار في جوازيرو، وإلا فسيصلون من دون توستون إلى بيرابورا، وقد عرف جيرونيمو أن مراراً كثيرة يبقون أكثر من شهر منتظرين وسيلة النقل - السفر في القطار تدفعه ولاية سان باولو - إذ كان الذين يصلون إلى الميناء للسفر مئات ومئات.

وصل إلى المخيّم وسار إلى الركن الذي فيه أفراد عائلته وقد بسطوا الصرر في اليوم الذي وصلوا فيه. لقد مرّ بين رجال ونساء إلى جانب مواقد مرتجلة أقيمت بالحجارة، متعثراً بالأطفال الذين كانوا يركضون. كم شخصاً يوجد ههنا؟ ربما ثلاثمائة، وربما أكثر. وكان جيرونيمو يحسب بصعوبة. كانت حساباته دائماً مبالغاً فيها، إما أكثر وإما أقل.

وقفت جوكوندينا حين رأته. كانت تحمل الطفل الصغير بين ذراعيها. وتذكر ذات مساء في المزرعة، المساء الذي شهد حفلة أتاليبا وخبر تسليمهم لأراضيهم. ففي ذلك المساء رآها وهو بالقرب من الحظيرة، هكذا، واقفة والطفل بين ذراعيها، فيما زيفا تتلو صلواتها. لم ينقض بعد ثلاثة شهور على هذا اليوم، ومع هذا كان يبدو أن سنين عديدة قد انقضت، ويشعر أن ذلك الوقت بعيد

جداً، لدرجة أنه يتذكره بالحنين نفسه الذي كان يتحسسه وهو في الحفلة، إذ يتذكر أيام شبابه، عندما كان راعي بقر في الطرقات وعرف جوكوندينا، وهي صبية جميلة ولطيفة.

قرفص وأعطى جوكوندينا البطاقات لتحتفظ بها. كانت أثمن ما يملكانه، فخبأتها في صدرها، ثم جلست بعد ذلك إلى جانبه:

- هل أنت أحسن حالاً؟

- هُمْ، هُمْ... زال الألم كلياً...

- كان هذا تعباً من الطريق...

- هو كذلك، أجل...

انتزع بقية النقود التي كان يجلبها في عقدة المنديل. وكان قد عقد عقدة في طرفه، وبقيت النقود محزّمة في داخلها. وطلب من جوكوندينا:

- احسبي لنرَ كم تبقى منها...

وبدأ يفرم التبغ ليلفّ سيجارة.

وأفسد الحساب المتباطىء الذي تقوم به جوكوندينا، سائلاً:

- أين جوان بيدرو؟

- ذهب إلى السوق لشراء ما نأكل...

- ومارتا؟

- إنها ههنا، تساعد البعض والآخر... إنها لا تعرف البقاء بذراعين متشابكتين...

ابتسم جيرونيمو. فمارتا كان قلبها من ذهب، حتى في هذا تشبه جوكوندينا. كان ينتظر أن تكون سعيدة في سان باولو، وتتزوج شاباً مستقيماً، وأن يكون لديه شيء ما يملكه وأن يستحقها.

- وطونيو؟

- ذهب مع جوان بيدرو...

رفعت نظرها عن النقود:

- لقد أربكتني من جديد... لكنه كان يفكر في أمر آخر:

- أصبحت العائلة صغيرة...

لم تقل شيئاً. وخفضت نظرها إلى الأرض. وكان غسق المدينة قصيراً لأن المصابيح الكهربائية استدعت الليل بسرعة أكثر. كان ثمة دقيقة صمت. وطلبت منه جوكونديا:

- ساعدني في عد النقود...

عدّا مائة وثمانية وثلاثين ألفاً وأربعمائة.

2

ثمة شيء غير قابل للتفسير يدفعهم في الليل إلى ضفة النهر. شاهدوا أضواء بيترولينا إلى الأمام، وظل الكاتدرائية المهيبة، المبنى الوحيد الكبير والفخم في المدينة البيرنامبوكية . وأوضح البعض، أن هناك أسقفاً ولهذا فالكاتدرائية رائعة، وزجاج النوافذ ذو الطلاء الملوّن والرسوم جيء به من فرنسا، وهي تبعث الحسد من جوازيرو الأكبر منها والأكثر تقدماً وحركة، لكنها بلا كاتدرائية تماثلها. وكان بعض المهاجرين يفقدون حبهم لنيكل من ذوات الأربعمائة ريس فيأخذون قارباً ليذهبوا إلى الجانب الآخر ليظهروا دهشتهم من كثب من الكاتدرائية إنما القندلفت يمنعهم من الدخول خوفاً من أن يسرقوا الأواني الذهبية التي تفيض عن الكنيسة. وكانت البيوت البائسة حولها تتداعى لشدة قدمها فهي أكواخ متهدّمة.

إضافة إلى الكنيسة، كان النهر أيضاً يجذبهم. إنه نهر سان فرانسيسكو، وقد سمعوا به في بلادهم ذات الشمس والجفاف. لم يكونوا قد شاهدوا مثل هذه الحياة الثرية، واستدعت فكرة الوفرة رؤية الماء، كانوا يتصوّرون أن تلك الأراضي القريبة ستكون ذات خصب مذهل. وأبدوا عجبهم من كون المزارعين القادمين من ضفة النهر ذوي أسمال وضعفاء، وجوههم صفراء من الحمى الموسمية، وهم مقمّلون وقذرون. فمع تلك الوفرة الهائلة في المياه كان المتوقع أن تلك الأراضي الخصبة تخص قلّة من المالكين، وأن أولئك الرجال الهزالى والمصابين بحمى المستنقعات يعملون في أراضي الغير، على معاولهم من الشمس إلى الشمس، في حقول الأوريكوري والكارنوبال وفي حقول الأرز والقطن يكسبون أجوراً متدنية أكثر من الأجور التي كانوا يتقاضونها في السرتون.

جاء معظم المهاجرين من سياراو باراييبا وريوغراندي دي نورتي ، من المناطق التي عزلها الجفاف، ووجوههم تضيء عند رؤيتهم النهر الذي لا مقاييس له، فالماء يفيض على كلا الجانبين. ظلوا عند حاجز رصيف الميناء، حيث السفن الصغيرة ذات الدواليب ترقد بانتظار ساعة الرحيل يصغون بدهشة إلى الضجة التي يحدثها النهر في طريقه بدون أن يخلد إلى الراحة.

قال أحدهم:

- إنه يجري نحو البحر...

وظلوا يتخيّلون كيف هو البحر. فإذا كان لنهر سان فرانسيسكو كل هذه الحياة الغنية وكأنه أكذوبة، فالبحر إذن، أي ماء غزير لن يكون فيه؟ الذين هم أكثر أسفاراً، وكانوا قد قضوا أوقاتاً في مدن قريبة من الساحل، رووا حالات حول البحر. يضيع فيه النظر، فلا أحد يرى الجانب الآخر منه.

وهكذا أكد خلاسي قصير القامة، أكد لهم أنه أقام في فورتاليزا :

- وعندما يضرب الأرض يغدو أبيض بلون الحليب حتى أنه يجعل المرء راغباً في الشرب.

وأراد آخر أن يعرف إذا كانت حقيقة أن الماء ذو مذاق مالح. قالوا هذا، لكن كيف بالإمكان أن يصير ذلك؟

- إنه مالح بحيث لا يمكن تحمله.

واستفهمت امرأة عجوز:

- ويستخدم في الطعام؟

- كلا، لا يستخدم.

واستمروا يفكرون في ذلك اللغز. لماذا، لا يستخدم ماء البحر للطعام ما دام شديد الملوحة؟

- لكان هذا توفيراً جيداً...

قليلون هم الذين ظلوا في المخيّم حين هبط الليل. فقد خرجوا جماعات - العائلات، وأكثر العلاقات أقيمت من خلال التعايش في تلك الأيام - والاتجاه دائماً نفسه: حاجز رصيف الميناء.

وكان السكان يرونهم مارّين، من دون فضول. ذلك كان المشهد المألوف في حياة المدينة، وهو يتجدد في كل سنة. أحياناً في المخيّم كان هناك فريقان مميزان جداً: الذين ينزلون إلى سان باولو، وقد وصلوا بعد مسيرة طويلة خلال الكاتنغا، والذين يعودون من سان باولو ويهيئون أنفسهم لاجتياز السرتون. وهم الآن، ودائماً على وجه التقريب، يتابعون السفر في الحال، فينامون ليلة واحدة في جوازيرو ليكسبوا بعض العافية، ثم يندفعون إلى داخل السرتون. أما الآخرون فهم الذين سيذهبون، ويتأخرون أكثر في انتظار السفينة. وكان البعض منهم عاثري الحظ، إذ يبقون شهراً أو أكثر، قبل أن تصل السفينة التي تكون جاثمة في أي موقع من النهر. وكثيرون ينتهي بهم الأمر بأخذ بطاقات سفر زوارق كبيرة تتأخر أسابيع في السفر بين جوازيرو وبيرابورا.

ربما كانت السفن بدواليبها، وقشرتها الحديدية، ومدخنتها وصافرتها، تثير القادمين من السرتون أكثر من الزوارق الخشبية ذوات التماثيل البدائية في المقدمة - رؤوس نساء أو رؤوس حيوانات - التي تشبه الأشباح الهائلة. وكان الكثير منها يصل ليلاً، وبينما أشرعتها مطويَّة وضوء أحمر لصق الدفة، تبدو صيحات أصحابها الغريبة لغة أخرى لأناس آخرين في بلد آخر.

لم يكن المهاجرون المرتابون والمذعورون يقيمون علاقات في المدينة. وأقل من ذلك مع الملاحين الذين يحتفظون بجو من التعالي. كأن الوجود فوق مياه النهر مغامرة بطولية تضعهم فوق أولئك الهزالى والمرضى القادمين من السرتون، الخائفين من الماء. كانوا يبدون إعجابهم بالزنوج والمهجّنين الذين يمشون منتصبي القامة، عراة الصدور، على جوانب المراكب. يحملون قضباناً طويلة يغرزونها في النهر حتى تبلغ القاع، مساعدين المراكب على الزحف فوق الضفاف في الأرض الموحلة. طرف القضيب مسند إلى الصدر الذي يتحول إلى تآليل دائمة النزف. وكان ذلك العمل المدهش يملأ أهالي السرتون بإعجاب لا يُحد.

- إنه عمل الرجل الفحل...

ويصغون إلى ضحكات وأغاني وموسيقى الملاحين. فهذا جنس مختلف عن جنسهم بالتأكيد. ومع هذا فهم متشابهون. لديهم الامتقاع نفسه للوجه والخدود المتغضنة ذاتها، والأقدام الضخمة نفسها التي يبسطونها على الأرض!

أخيراً، يتوقف المركب وتتزايد الأصوات. ويصرخ آمر المركب مصدراً أوامره، فينزل رجال إلى الماء مع المرساة، وآخرون يحملون القضبان، وبعدها يصبح المركب جامد الحركة كطائر ضخم متخدّر فوق النهر.

قال الرجل:

- يبدو كذكر البط...

ويمثّل التمثال في المقدمة رأس امرأة ذات شعر أشقر متهدل نحو المياه وعينين زرقاوين كإحدى الكونتيسات، وشفتين حمراوين مكتنزتين، خليقتين بقبلة، وذات خدين متوردين. وكان الضوء المهتزّ في المركب يضيء التمثال، فيتخبط قلب أحد المنكوبين بسرعة، بحب شديد ومفاجيء لتلك المرأة المصنوعة من الخشب والتي لا تملك إلا الرأس والعنق، لكنها كانت جميلة جداً، بحيث تبدو حيّة وقادرة على الكلام.

بقي المركب قرب الحاجز، والفتى الذي كان إلى جانب مارتا، وهو من أهالي السرتون طويل القامة واسمه فيسنتي، قال لها:

- إنها سميّتكِ...

- ماذا؟

- هذه الفتاة، فتاة المركب...

لم تفهم مارتا. وتهجّأ هو اسم المركب:

- ما... - ... مار... تا... مارتا.

اختلست النظر، لكن المركب كان قد ترجح وخرج من دائرة ضوء المصباح الكهربائي ولم يعد باستطاعتها القراءة. لكنها كانت راضية. وحدّق الفتى إلى وجهها الأسمر الهزيل بسبب عناء السفر والعينان عميقتان، والنهدان نافران. لم تكن جميلة جداً مثل فتاة المركب الشقراء؛ لكنها مع هذا كانت رائعة الجمال، مهجّنة خليقة جداً بزواج.

كان فيسنتي يتجه أيضاً إلى سان باولو. وكان والده فيرناندو نورونيا يقضي عقوبته في السجن لأنه قتل أحد ملاكي الأراضي الذي استولى على زراعته وبيته وأرضه، مزوراً بعض الأشياء في دائرة السجل العقاري، فتشتتت العائلة، وبقيت أمه مع أخوته الأكبر منه الذين كانوا عمالاً في إحدى المزارع. ورغب فيسنتي في الذهاب إلى سان باولو، فهناك يستطيع أن يكسب مالاً، ويوكل محامياً جيداً ليخرج والده من السجن. هكذا قال له قس المنطقة فغادر ومشى بضعة فراسخ ليكمل الرحلة. وكاد يبقى مع الطوباوي استيفان الذي التقاه وآمن أيضاً بكلماته. لكن الرغبة

في كسب ما يكفي ليدفع لمحام يدافع عن الهرم ويطلق سراحه، كانت أقوى من كل شيء. قال القس إنه بالفي كروزيرو يستطيع أن يوكل أفضل محام في بارايبيا. وهذا مبلغ كبير، لكن ببضع سنوات من العمل، يمكن لرجل مقتصد ومحظوظ أن يجمعهما. وإذا كانت سان باولو هذه حقاً هكذا، فيها وفرة في العمل ودفع الأجور، فهو لا يشك بأنه سيفي بما وعد به. كان الهرم محكوماً بالسجن ثلاثين سنة.

تركز المركب في اهتزاز الماء مع مقدمة تحت الضوء. كان مكتوباً بأحرف حمراء، خُطت بشكل رديء. لكنه كان مقروءاً جيداً، حتى بالنسبة إلى مارتا التي أمضت في المدرسة ستة أشهر فقط.

قالت مصفقة بيديها:

- هو نفسه.

فقال فيسنتي:

- حضرتكِ أكثر جمالاً منها.

- يا للأمر... هذا لغو من حضرتك...

لم يملّا إبداء العجب بالنهر فالماء يجري بلا تعب. وذلك الهدير المتواصل الذي كان عذباً جداً على الأسماع. فمارتا و فيسنتي وجميع الآخرين أيضاً هم قادمون من حيث لا يوجد ماء، والأرض جافة وقاحلة، حيث لا تقاوم إلا الحيوانات الأشد وحشية، والرجل الذي هو أشد وحشية منها جميعاً.

كان النهر يجري بلا مبالاة. وتصل من المراكب المتوقفة موسيقى البحارة تتحدث عن الحب والانفصال، عن الغيرة والاشتياق، عن الخداع والموت. وبقيا صامتين يصغيان.

3

عند الحاجز، كانوا يتحدثون، ويتأملون النهر، منتعشين بالليل. يختلسون النظر إلى أعماق المياه المعتمة والموحلة. فكل هذا كان جديداً بالنسبة إليهم وغامضاً تقريباً. ههنا الصمت لا يقطعه إلا جملة أو أخرى، من الإعجاب أو الدهشة. كانت الحوارات نادرة وسريعاً ما تموت يسحقها الاهتمام بالأشياء الصغيرة جداً التي يحدثها النهر. وحينما تغادر إحدى السفن صدفةً، والدرجة

الثالثة ملأى بالمهاجرين، كانوا يشبكون أذرعهم جميعاً على الحاجز، حسداً للذين هم سعداء أكثر، فرحلوا في تلك السفينة، والأيدي تشير بوداع خجول، وأعينهم الممطوطة على الأثر الذي تتركه السفينة، في الرغوة التي تحدثها الدواليب على كلا جانبي النهر. كان شيئاً جديراً بالرؤية، عظيماً بالنسبة إليهم، بحيث يملأهم باحترام وخوف. فسان باولو البعيدة هذه لا بد أن تكون، في الواقع، بلاد ثراء كبير لكي تتطلّب كل هذه التضحية منهم ليسافروا إلى هناك.

في المخيّم - حيث كانوا يتحدثون كما يشاؤون - لم يكن ثمة دافع أفضل للأشخاص الذين يخططون المشاريع حول سان باولو، وحينما يظهر الذين رجعوا من البلاد التي يتمثلونها بلاد الوفرة كلها وهم ذوو أسمال وأشد فقراً منهم، ويروون لهم الصعوبات الموجودة هناك، كانوا ينكمشون على أنفسهم مع قليل من الرغبة في الإصغاء. وكانوا يستصوبون دائماً على وجه التقريب، التعليق الحتمي من امرىء أكثر تفاؤلاً:

- هذا الرجل لا يقوى على العمل... فكل ما يريده هو التشرد، أن يكسب مالاً سهلاً...

لم يكن أحد منهم يتوقع أن يكون الحال في سان باولو سهلاً. إن ما كانوا ينتظرونه هو أنه موجود وأن الأرض ليست قاحلة، وبشكل أساسي ليس الحصول عليها صعباً جداً كما هو الأمر بالنسبة إلى تلك التي جاؤوا منها.

- قيل حينما يصل المرء يعطونه أرضاً ليحرثها... إنها زراعة القهوة... يعطونه أغراساً نامية، وكل شيء أيضاً.. أدوات وحيوانات...

هذا ما كان ينعش الأمل في تلك القلوب المتعبة. الوعد بالأرض لكل امرىء، الأرض المتحررة من الصعوبات، من الدعاوى اللاحقة التي تكشف عن مالكين مجهولين سابقين. حينما تكون الأرض قد حُرثت، والمحاصيل مرتفعة.

كانوا يقيمون في المخيم علاقات على قاعدة تبادل المعلومات غير الدقيقة عن سان باولو. وفي الأيام الأولى كانت كل عائلة تصل، تريد أن تروي فقط ما عانت في السفر من الجوع والظمأ والمرض والموت. لكن حالما يصبح الاهتمام بمعرفة أي شيء عن السفينة، عن القطار الحديدي في بيرابورا، وعن سان باولو كان لدى الجميع ما يتحسّرون عليه. لكن الأمر قد اصبح من الماضي. ولا أحد يستطيع أن يقيم الموتى من قبورهم، وكثيرون منهم لم يكن لديهم حتى قبور. كانوا كطيور البغاث، وأصبحوا جيفة. وبما أن النهر، بمياهه الهادرة التي بلون الوحل، وضع

حدوداً بين الماضي والمستقبل، وإذ كانوا قد عانوا كثيراً وتألموا من ممرات الكاتنغا، فهم يستحقون الرخاء والاطمئنان اللذين ينتظرانهما في سان باولو.

كانوا أحياناً يرتابون بهذا الرخاء وبهذا السلام. فثمة ابتسامات ساخرة على شفاه الذين يعودون من هناك:

- اذهبوا إلى هناك لتروا كيف هو الأمر...

وكانت النساء أكثر سهولة في القنوط. وعموماً، مع هذا، كان هذا التشاؤم يدوم قليلاً، وإزاء البراهين المقدمة من العائدين، كن يدحضن الأحاديث في المخيّم. فدائماً يوجد أحد ما، له قريب أثرى في سان باولو. حتى أن أحداً كان لديه عم قد هاجر منذ اثنتي عشرة سنة، وهو ثري جداً بحيث يمتلك بيتاً في العاصمة وفاز بلقب كولونيل .

- لا ينادونه إلا بالعقيد. وهو الذي أرسل إلينا مالاً لنأتي... سوف نعمل في أرضه... وقيل إن لديه من أغراس الذرة وحدها ما لا يمكن إحصاؤه...

فيضحكون آنئذٍ، ويبتعدون. فتأكيدات الذين قد عادوا لم تتحقق وزائفة. وكما أنه ليس بإمكان جميع الناس أن يتوقفوا ويصبحوا سعداء، فينجحون ويثرون، فإن على البعض أن يصبحوا فقراء طوال الحياة. كان هذا تفكير النساء، لكن كلاً منهنَّ كانت تضع نفسها بين الثريات والسعيدات المحتملات. وهكذا كانوا ينتظرون السفينة في جوازيرو.

تلك الحيوات التي كانت تبدو أنها أبيدت في الكاتنغا حين بدأ الأمل كله في لحظة محددة ضائعاً، قد عادت إلى النمو في المخيّم. إنه مخيّم بائس، لكن فيه ما يؤكل، الماء غير مفتقد. وما كانوا محاطين بالأفاعي السامة. والأمل ينبثق مجدداً.

ومع هذا، لا يزال بعضهم يموت هنا. فالذين كانوا يصلون منهكين أكثر بالملاريا هم الأشد ضعفاً في الصدر، خصوصاً الأطفال. لم تكن هذه الوفيات تحتفظ بذلك الطابع من التشاؤم، لهذا الفرد أو ذاك. فالذين ماتوا كانوا بالنسبة إليهم ضحايا الكاتنغا.

كانوا ينامون على الأرض، والذين لديهم بعض النقود يساعدون الأشد فقراً، مقدّمين لهم قطع اللحم وحفنات من الفاصولياء، وقليلاً من الدقيق. وكانت السوق ذات وفرة في جوازيرو، لكن جميع الذين وصلوا لديهم نقود محسوبة. وهي عندما جاؤوا بها كانت لا تكفي لبطاقات السفر، فكانوا لا يشترون إلا ما هو أساسي ويختارون اللحم الأقل ثمناً، والفاصولياء الرديئة، والطحين

الأقل نعومة. ومع هذا، وبالرغم من كل التوفير، فلا فرق عن الجوع في الكاتنغا! هنا يوجد حليب للأطفال، أقله لأولئك الوالدين الذين بوسعهم الشراء.

كانت جوكونديتا تضغط على وجبة الآخرين لأن لديها حليباً يومياً - نصف ليتر - لأرنستو. وهو قد استعاد عافيته. لقد أصبح بطيناً من حساء الدقيق، لكن عظامه لم تعد ظاهرة للعيان. وبما أنه قوي فكان قليل البكاء، يحبو بين قذارات المخيّم. طونيو هو الذي استمرَّ هزيلاً، جشعاً لكل طعام، يسرق من الأكواخ في الجوار، تلك المصنوعة من الصفيح، متعرضاً للضرب من جوان بيدرو وجيرونيمو. كان يشبه جرذاً، رقيق الوجه، جاحظ العينين، وسريع اليدين. انضم إلى جمع من الأطفال الأكبر منه، ولم يكن أحد يحتملهم، كانوا يسرقون حتى من الحوانيت ، فظهروا مع اليقطين والكيابو والشوشو منتزعة من السوق.

على هذا النحو كانوا ينمون ويتعلمون. يتعلمون أشياء مجهولة في السرتون حيث جاؤوا. إنها معارف الأولاد في المدينة، أشياء متعلقة بالحياة الجنسية، كلمات نابية وإجابات عدائية، راكضين وراء العرب الذين جاؤوا ليبيعوا ما في حقائبهم في المخيم، يغوون النساء بعقود من الزجاج الملوّن بأمشاط طويلة للشعر، بأوشحة ذات أزهار، وعطور رخيصة.

وكانت النساء ينظرن إلى صناديق العرب السحرية، حيث الكثير من الأشياء الجميلة والمرغوب فيها، ويتفاقم الإغواء. وكنَّ يحسبن النقود القليلة التي يخبئنها دائماً لبعض الاحتياجات ويصغين، كما لو كانت لحناً مغرياً، لكلمات السوريين الركيكة:

- يا للرخص.. يا للرخص.. ذهب حقيقي... إنها خواتم، يا لها من خواتم جميلة! إنها عقود، زرقاء، حمراء، وردية! إنها أمشاط، مع زخارف من الرواسب الكلسية المتحجرة، تلمع في الشمس أشد من الماس! هذه لوحات القديسين، القديسين الأكثر تقىً، السيدة العذراء وسيد بونفين والقديسة باربارا والقديس كوزمي والقديس داميان والأب الأقدس سيسرو من مدينة جوازيرو الأخرى، من سيارا! إنها عطور، يا لها من عطور قادرة على إبعاد هذه الرائحة الكريهة التي التقطتها أجسامكن والتي ليس بوسعكن إزالتها حتى ولا في الحمام، وهو الآن ممكن في النهر! إنها قطع من القماش من شتى الألوان، قماش من سان باولو، ويقول العرب إنها أرخص من سان باولو.

كان لديهم من كل شيء في صناديق البائع الجوال التي يفتحها أمام أعين النساء.

- لا مال لدينا...

لكن السوريين يعرفون جميع الأسرار:

أيتها الزبونة، لديكِ نقود في طرف المنديل.. اذهبي واجلبيها، فيا له من رخص... ويعرضون الأشياء الجميلة التي يحملونها، أشياء من سقط المتاع في الصناديق المفتوحة.

والأولاد المتحلّقون قربهم، ذوو أيدٍ جاهزة متأهبة لأخذ بعض تلك الأشياء، فيعطونها لأم أو لأخت يبيعونها بكروزارو لأحد المنكوبين. فيحرّك السوري المتر، ويضرب به سيقان الأولاد السريعة الحركة.

- أخرج ، أيها الولد...

لكن من دون أن يفقد الابتسامة التي يغوي بها الزبونة:

- اشترِ أيتها الزبونة، إنها مقدمة مجاناً...

- يظهرون نهاراً وليلاً، فلا وقت محدداً لديهم للاتجار. حتى في الليل تكون تجارتهم أفضل. فالمهاجرون يكونون بشكل عام مجتمعين والعرب يعرفون كيف يتحدثون معهم، فيزوّدونهم بأخبار عن بيرابورا، إذ يعيشون ذاهبين وقادمين في السفن. وما كانوا يضيقون ذرعاً بإخبارهم كيف كانت الحياة في تلك الجهات، ولا يقاطعون أنفسهم إلا ليشيدوا بالبضائع التي يبيعونها. يطلبون ثمناً ثم يخفضونه إلى نصف القيمة. يعدّون نقود أهالي السرتون الصغيرة ويضعونها في جيوبهم. ومع كل تلك الشمس وذلك القيظ في السرتون، يرتدون ثياباً دكناء من الجوخ ولا يوفرون صداري في جيوبها دون أن يضعوا فيها ألف شيء وشيء.

لا يبيعون فقط، كانوا يشترون أيضاً، يسألون عن قطع النقد النادرة، تلك ذات الألف ريس القديمة من الفضة، التي كانت شائعة بين أيدي أهالي السرتون. ويدفعون ثلاثة آلاف ريس لقاء كل قطعة نقد، ويحصلون على أقراط ذهبية، عاديات مختلفة، أشياء معيّنة كانت تبدو للسرتونيين بلا قيمة ولا يجلبونها معهم إلا لأنهم قد ورثوها عن الأمهات والجدات، فكانت ذات تقدير عندهم.

وراح القادمون من السرتون يقيمون العلاقات فيما بينهم في المخيّم، وفي الأحاديث الليلية، وإعادة الصفائح والمواد الغذائية، وثرثرات النساء العجائز. وشيئاً فشيئاً عرف كل منهم اسم الآخر، ومن أين جاؤوا، والدافع الذي قرروا من أجله الهجرة. ومن بين الأشياء الكثيرة التي سمعتها جوكوندينا في المخيّم، واحد ترك انطباعاً لديها أكثر من سواه. كانوا يتكلمون ذات مساء، في إحدى الحلقات، عن الطوباوي استيفان. وكانت تمرّ سعياً للتزوّد بالماء، والصفيحة على رأسها.

فتوقفت لتولي انتباهاً، إذ إن الذي كان يتكلم راح يقصّ أنه إلى جانب الطوباوي ظهرت في الأوقات الأخيرة قديسة:

- قيل إنها تأتي بالمعجزات أكثر من الطوباوي.. ولا أحد يدري كيف وصلت. إذ ظهرت ذات يوم، ووحدها تفهم ما يقوله الطوباوي...

- إذن، فهي جديدة هناك...

فقاطعه آخر. وأعلن أنه هو أيضاً التقى، منذ حوالى ثلاثة أشهر، الطوباوي الذي كان ينزل من السرتون. ومشى معه بضعة أيام، وبعدها انفصل عنه لأنهم صعدوا إلى الشمال وطريقه هو إلى الجنوب.

- لم يكن لديه أي قديسة... ثمة كثير من النساء لكنهن نساء عمل، يصلّين ويكفّرن عن أنفسهن.

- هذه التي أتكلم عنها، منذ وقت قصير. حينما ظهرت قال الطوباوي إن سيدتنا العذراء هي التي أرسلتها لتحذّر النساء... قيل إن لها قدرة قوية على الأرواح التي تفعل ما تطلبه منها...

أخذت جوكونDينا طريقها مجدداً، لكنها ما تزال تستمع إلى الرجل وهو يروي:

- واسمها زيفا... هي نفسها قالت هذا عندما وصلت: «أنا زيفا المرسلة من قبل إلهنا الرب»...

وفكرت جوكونDينا بينما تأتي بالماء، أن بوسعها أن تكون قديسة. فأحياناً يكون لدى الناس قديسة في بيوتهم ولا يعلمون، فيعاملونها كما يعاملون شخصاً ما، كأنها بلهاء، على سبيل المثال. باستطاعتها أن تكون قديسة، إذ كانت تقضي يومها متكلمة عن تلك الأمور المقلقة حول نهاية العالم. وكانت جوكونDينا ترى دائماً أن روحاً يسكن ابنة حميها. ولماذا لا يكون روح قديس، لماذا لا يكون روح الله الكلي القدرة، القادر على صنع المعجزات، محذّراً الناس بنهاية العالم؟ فمذ كانت بنيّة صغيرة وجوكونDينا تسمع كلاماً عن نهاية العالم. وذات يوم يجب أن ينتهي العالم حقاً، هكذا كما بدأ. فجميع الأشياء لها بدايتها ونهايتها، وتنقضي الأوقات بشكل سيىء جداً، مليئة بشقاء شديد، بحيث لم تكن تعجب لو انتهى العالم، فهم واصلون إلى تلك الأوقات التي يتكلم عنها كبار السنّ. كيف سينتهي؟ بالنار أم بالماء؟ هنا قرب النهر، تفكر جوكونDينا بأنه سيكون بالماء الذي سيغمر

سطح الأرض ويقتل الناس والحيوانات والأشجار والعشب. وربما آنئذٍ سيكونون هم السالمين بواسطة زيفا التي تحولت قديسة في جمع الطوباوي استيفان.

عندما رجعت أخذت عائلتها بالحديث الذي سمعته. وكان جيرونيمو في ذلك اليوم يشعر أنه في حالة صحية سيئة، فقد عاد إليه ألم الظهر وجعله متكاسلاً، مع رغبة في البقاء ممدَّداً دون أن يفعل شيئاً. لم يكن يشعر بحيوية حتى يدلي بتعليق. بيد أن جوان بيدرو خرج للبحث عن الرجل الذي روى الواقعة، ليجمع معلومات أوفر وليعرف ما إذا كانت هي زيفا نفسها قريبتهم التي اختفت في الكاتنغا.

في نهاية المساء كان الطقس الرطب الحار ثقيلاً وجوكونداينا تعدّ بأصابعها الأيام الباقية على خروج السفينة. فقد وصلت تلك الليلة وستبقى ثلاثة أيام تفرّغ وتحمل، وفي اليوم الخامس ستخرج وعلى متنها لن يكابدوا نفقات ما عدا الحليب لأرنستو. فالطعام مجاناً. وفي بيرابورا، حسب ما يقولون، ليس عليهم إلا أن يستقلوا القطار إلى سان باولو. فثمة يوم نعم ويوم لا.. وحسبت جوكونداينا أنه على الأكثر سيقضون يومين في المدينة الأخرى. هذا في أقصى حدّ، إذا وصلوا في اليوم الذي يخرج القطار من دون أن يتسنّى لهم الوقت للذهاب إلى موظف الهجرة للحصول على الإذن بالمرور. لأنهم إذا غادروا السفينة مبكرين، في الوقت المحدَّد لإملاء الشكليات، فبإمكانهم متابعة السفر حتى في اليوم نفسه، وكان هذا أفضل.

كل ما كان يقلقها هو الوصول بسرعة أكثر، فتنتهي تلك الرحلة، وتجد رجلها في بيت، وكانت متأكدة بأنه سيغدو بسرعة على ما يرام. فذلك السعال والألم في الظهر كانا بسبب السفر. وحينما يتوقفون مجدداً، ومع حياة مطمئنة، فيزول المرض ويعودون متمتعين بأيام طيبة كما في القديم. وتعرف جوكونداينا الآن أنها كانت سعيدة في السابق، في بلادها، في بيتها، مع أبنائها وأحفادها وزوجها.

جيرونيمو راقد، عيناه ضائعتان في السماء الزرقاء. وكان الطقس حارّاً ثقيلاً ومثيراً. وذلك الفتى فيسنتي قد أتى إلى الناحية التي يوجدون فيها. كان يسعى، باسطاً جناحيه حول مارتا. وما أسرع ما تبيّنت جوكونداينا ذلك. يبدو شاباً مستقيماً. لكنه لا يملك شيئاً. فلا يستطيع الزواج. من قال إنهم سيكونون في سان باولو حارثين أرضاً، زارعين البن. أواه، من قال!

وضاعت التنهيدة في ضوضاء المخيّم، وكان جيرونيمو يختلس النظر بعين المريض الحزينة.

كانت مارتا أيضاً تعد الأيام التي بقيت على خروج السفينة. وذلك لتعرف كم يوماً ما يزال عليهم أن يبقوا في المخيّم، في جوازيرو. ففيسنتي لن يتبعهم في السفينة عينها التي ستقلّهم. عندما وصل ليشتري تذكرة كانت الأمكنة كاملة. حصل فقط على تذكرة في السفينة التالية.

ظلّا جنباً إلى جنب على الحاجز لصق النهر. كانا يتكلمان قليلاً، فهما لا يعرفان ما الذي سيقولانه. وحلّت الابتسامات الخجولة مكان الكلمات. كانا يتأملان الزوارق ويصغيان إلى أغاني الملاحين. وتمدّ مارتا عنقها وتخفض رأسها لترى لون النهر ليلاً. وتتحسس كتفه إلى جانب كتفها، ويده التي تتقدم ببطء لتأخذ بيدها لكي تطلقها في الحال بسرعة، حينما تسمع خطوات.

كان جيرونيمو وجوكوندينا يجلسان على مقعد مستطيل خلفهما. وطونيو يركض مع أولاد آخرين في الشارع، وجوان بيدرو هو من بقي قربهما.

وفي شارع متوازٍ، كان أهالي المدينة يقومون بجولتهم على الأقدام. فتمر فتيات وفتيان، آنسات المجتمع المحلّي، الفتيان العاملون في المتاجر، في أحاديث تشيع الحيوية والبهجة. المتحابون والمخطوبون عند الحاجز. ولم تكن مارتا وفيسنتي يعثران على مجرد كلمات، فكان ذلك الصمت المهيب إزاء النهر، لكنه زاخر جداً بالعذوبة والحرارة وبوسعهما أن يبقيا هكذا طوال الحياة بدون أن يشعرا.

كلمة واحدة فقط، بين آن وآخر. فيشيران إلى سمكة تقفز في الماء:

- هناك...

- أين؟

- هناك، إنها تقفز...

- وها هي فعلاً...

فيضحكان. ظلّا ينتظران أن تقفز السمكة مجدداً.

- تلك هي سمكة كبيرة...

- الأخرى كانت أكبر...

- هه! أرى هذه أكبر...

ولا كلمة حب، ولا مغازلة، فقط حرارة الكتفين اللتين تلتقيان معاً، والوجه الساخن حياءً. وبعدها، عندما تنام، ذلك الهمّ نفسه لتلك الأيام التي تتذكر فيها الدكتور أوريليانو وتصرفاته الجريئة، الاختناق في الثديين، التنفس المتسارع، وتتذكر آنئذٍ عينيْ جيرترودیس في الكاتنغا، هاربة خفية مع أغوسطينيو.

ويهب نسيم على أرصفة المرفأ فوق المراكب والمهاجرين. وتصفر الباخرة من تحت، ويستطيعون رؤية الأضواء الساطعة. وقال جوان بيدرو بصوت مرتفع:

- لقد جاء الوحش...

والتفت إلى جوكونديا وجيرونيمو:

- ها هي جاءت... إنها باخرتنا...

نهضت جوكونديا، وكان أرنستو في حضنها. ويصحبها جيرونيمو، فاتكأ على الحاجز. وهربت يد فيسنتي. وشعرت مارتا أنها متروكة، فاستندت أكثر إلى كتفه. كانت هي الباخرة، أجل، والآن كان ثمة حركة وجلبة الأصوات بين السرتونيين. فالكثيرون يسافرون عليها بسرور وفرح. ودست جوكونديا بحركة غريزية، يدها في فتحة ثوبها عند الصدر لتتأكد أن بطاقات السفر كانت هناك، لصق ثدييها حيث وضعتها.

وزاد حجم الباخرة، الأضواء لامعة وتجدَّد الصفير. وتكلم فيسنتي:

- إنها باخرة حضراتكم...

- قيل إنها ستخرج بعد غد...

كان الصمت حزيناً، وكانا مرتبكين. وافتقدا الكلمات:

- سأشعر بفقدكِ...

- سوف تنسى في الحال...

- لست من هؤلاء...

وجدوا الباخرة هائلة الحجم. مع أنها مركب بخاري نهري صغير، قديم وذو قشرة مرقّعة، وبطيء وقذر. بالنسبة إليهم كان رائعاً، شيئاً من الحكايات الخرافية، بأضوائه المتوهجة وأنغام البيانو التي يحملها النسيم. لم تستطع مارتا بالرغم من أن قلبها مفعم بالشوق، التخلّي عن الشعور بالخيلاء لمرأى الباخرة التي ستسافر فيها:

- إنها جميلة...

لم يجب فيسنتي. التقت نظراتهما وأشاحا النظر في الحال.

- إذا لم ألتقكِ في بيرابورا، فسأضرب في أرجاء سان باولو باحثاً عنكِ...

سنسافر حالما نصل إلى بيرابورا.

- قد لا تستطيعون. يوجد كثير من التعقيدات ولقد علمت ذلك. ثمة فحص طبي، وعليكم انتظار الإذن بالمرور وقطار المهاجرين. قيل إنه يتأخر... وقد أدرككم...

- حبذا...

- هل لديكِ رغبة؟

- نعم، لديّ رغبة...

كانت السفينة تمرّ أمامهما. فشاهدا مسافري الدرجة الأولى متشابكي الأذرع والفتاة التي كانت تعزف على البيانو مع فتى إلى جانبها. وفي الأعلى، كان القبطان مرئياً بقبعته البيضاء.

- كنت أحب أن أصبح قبطاناً... كنت سأحملكِ في النهر صعوداً وفي النهر نزولاً، وكنت سأحملكِ حتى البحر...

ابتسمت. وتحرك المهاجرون باتجاه الطرف الذي كانت الباخرة تقوم بمناورتها لتلقي المرساة. ومضت جوكوندينا وجيرونيمو أيضاً. وعند مرورها قربهما، قالت جوكوندينا:

- مارتا، سنرحل...

كان جوان بيدرو قد صار في المقدمة، وشاهدت مارتا طونيو في جمع من الأولاد الذين عرضوا أنفسهم لحمل حوائج المسافرين. ومشى فيسنتي إلى جانبها:

- سأشعر بفقدكِ كثيراً...

- وأنا أيضاً...

- يوجد في الباخرة كثير من الابتهاج. سوف تنسين...

كانت نظرتها تقول إنها لم تكن من اللواتي ينسين. فأمسك يدها ودسّ أصابعه بين أصابعها. كان العجوزان يسيران أمامهما. وخفضت مارتا عينيها نحو الأرض. وعلى الرصيف كان عناق وترحيب.

وقفز رجل بدين وقبّل امرأة كانت تنتظره:

- الأولاد كيف حالهم؟

- الجميع معافون، شكراً...

مرّا تحت عمود الإنارة، بعدها كانت العتمة أشد، إذ ثمة شجرة ترفد الظل. فأدار فيسنتي رأسه إلى جانبها ومدّ شفتيه، لكنه لم يتوصل إلى تقبيلها، فقد خرجا مجدداً إلى الضوء.

شاهدا القبطان يحيي زوجته، مشيراً لها بيده. كانت فتاة هشّة وجميلة تبتسم من على الرصيف. فقالت مارتا:

- القبطان لا يستطيع أن يأخذ امرأته في الباخرة...

- لو كنت أنا، لأخذتكِ حتى أبلغ بكِ مياه البحر... أقسم بأنني كنت سآخذكِ...

مرّ طونيو بسرعة، يحمل صندوقاً على رأسه، وتتبعه امرأة ترتدي السواد وتصيح به:

- .. هنا، أيها الصغير! من هنا أيها الصغير!

5

وصلت دفعة من المهاجرين، عشية خروج السفينة. فازدحم المخيّم وكان تدخل السلطات ضرورياً، إذ كانت تنشب مشاجرات. واحتل رجال ونساء أماكن كان فيها آخرون منذ أسابيع. فحدث اضطراب. وجاء المفوض إلى المخيّم، واحتج على القذارة، ومعه جنديان من الشرطة. فأعلن للرجال الذين تحلّقوا حوله طالبين اتخاذ بعض الاجراءات:

- لا يستقيم أمركم إلا بعقب السكين...

لكنه كان قلقاً. فوصول دفعات كبيرة من المنكوبين يشكل دائماً خطر انتشار الأوبئة، بدون الكلام عن الملاريا المستوطنة هناك، وكان الجدري، وهو شائع بين الذين يصلون من الكاتنغا. والاسترين، وهو نوع خفيف من الجدري، كان يدمر السرتون. فأمر المفوض باستدعاء طبيب البلدية والمحافظ.

عُقد مؤتمر للذين ظلوا في المخيّم نفسه، فيما كان الطبيب يجري فحصاً سطحياً على الوافدين حديثاً، وتقرر التوصل مع شركة الملاحة أن ينام في الباخرة أولئك الذين سيرحلون في اليوم التالي. وطالت المناقشة في مكاتب الشركة أكثر من ساعة. وعند المساء فقط، جاء الأمر بإعداد الصرر، وصعود الباخرة. كان لازماً إيفاد جوان بيدرو للبحث عن طونيو الذي اختفى في شوارع المدينة، ولم يكن موجوداً بعد من يضبطه. وعندما يعود لينام يجلب معه بعض النيكلات وأشياء مسروقة من السوق.

اهتمت جوكونداينا ومارتا بإعداد الحاجات وساعدهما جيرونيمو. وقد ذهب في هذا النهار إلى المستشفى سعياً من أجل زجاجات أخرى من الأدوية، إذ إن التي أعطوه إياها له كان قد أخذها. وكان يشعر بتحسن مع أن نوبات البرد لا تزال تسري في جسمه عند نهاية المساء. كان يترقب زوال ذلك مع السفر الهادىء في النهر وصولاً إلى سان باولو. لم يفكر كثيراً في بيرابورا، فهي مجرد مكان، يأخذون فيه وسيلة النقل.

أمر جندي الشرطة بأن يصطفوا في طابور. كانوا أكثر من مائة وخمسين. مع أن أماكن الدرجة الثالثة في الباخرة كانت لمائة شخص. كانوا يمسكون بحقائب من الخشب، صناديق من الصفيح، صرر. وكانت عائلة تأخذ معها ببغاء، والبعض لديهم كلاب. وبما أن ثمة رسوماً على الحيوانات، فقد قدموا في تلك اللحظة الحيوانات لأولئك الذين بقوا منتظرين الباخرة.

قالت المرأة التي أعطت كلباً لشخص من ولاية سيارا:

- اعتن به... بالمسكين الصغير...

وأبدى جندي الشرطة اهتماماً بشراء الببغاء. فعرض خمسة آلاف ريس. وقال صاحبه إن الثمن كان رخيصاً، والببغاء ثرثار، يعرف كل ما هو موجود من مادة الأسماء القبيحة. وأوضح:

- لقد نشأ في منزل بغي، ولهذا تعلم كل ما هو قذر...

وشجع الببغاء مردداً هو نفسه كلمات نابية، حتى مضغ الحيوان الكلمات المتوقعة من الشتائم. فكان ذلك عملاً ناجحاً. وقرر الجندي إعطاءه ستة آلاف ريس.

خرجوا من المخيّم بالطابور. وكان ذلك بسرعة، لدرجة أنه لم يتح الوقت للوداع. جاء أمر، وصاح الجندي:

- إلى الأمام! سر!

التفتت مارتا لترى مرة أخرى فيسنتي الذي كان واقفاً واللفافة مطفأة في زاوية شفته، وبعدها دخلت الباخرة حيث وقف رجل يدقق في البطاقات. وتسرّبت من المطبخ رائحة طعام، رائحة سمك يغلي في الماء.

سأل جيرونيمو:

- أين سنبقى؟

أتى الرجل بحركة من يده، يريه الأرضية الملأى بلفائف الحبال، والحديد وأمتعة مختلفة:

- ههنا بالضبط. تدبّروا أمركم...

ومضوا يتدبّرون أمرهم، معدّين الصرر في الزوايا الفارغة، محاولين معرفة أين يقع المرحاض، ومتى ساعة الطعام.

- لا يحق لكم اليوم العشاء هنا. إنما بعد أن تخرج الباخرة.

- هل نستطيع الطهي؟

- هنا على ظهر الباخرة، كلا...

- كيف العمل؟

- لست أدري... كان عليكم المجيء غداً، لأنه يوم خروج السفينة... إنها فكرة هذا المحافظ... إنه حمار مثل باب.

ظلوا يتطلّعون بعضهم إلى بعض. إن لم يُعطوا عشاء وهم لا يستطيعون الطهو، فكيف سيكون ذلك اليوم؟ عادوا إلى النقاش مع الرجل. كان خروجهم من على ظهر الباخرة ممنوعاً،

لكنهم توصلوا إلى الحصول على إذن بأن يستطيع الأطفال الذهاب إلى السوق لشراء الموز والخبز.

وعدّ رجل الأولاد الذين خرجوا. وبعد توسل ملحّ، سمح الرجل - واحد بمفرده - بأن يصحبهم ليقوم بالدفع. واختير خلاسي قوي البنية يعرف القراءة والكتابة. كان أثناء الإقامة في المخيّم قد وطّد علاقته بهم جميعاً. والذين أعطوه نقوداً ليبدلها بقطع صغيرة، ظلوا قلقين، خشية أن يتضرروا من التبديل. فأعد الخلاسي لائحة بالأسماء والمبالغ التي أعطوها إياها والمشتريات التي كانوا يرغبون فيها.

وكانت عودة الأولاد مفرحة وهم محملون بأقراط الموز، وبسلال الخبز، وببعض البطيخ. وأدى الخلاسي الحسابات بشكل صحيح، مما جعله يسمو في التقدير العام.

أكلوا ههنا بالذات، ورموا القشور في النهر. سرق طونيو رغيفين، فنال ضرباً بالعصا من جوان بيدرو. والمرأة التي منها سرق الخبز، احتجت بالزعيق، فأعطتها مارتا الرغيفين.

- المعذرة أيتها الشابة...

- إذا كنتم لا تعرفون تهذيبه، فلا ينبغي أن يكون لكم ابن...

إنها سورات غضب عابرة. فلا يوجد ولد لا يسرق، إلا الذين هم في طور الرضاعة، مثل أرنستو. فيوبخونهم ساعتئذ وبعد ذلك يعرفون كيف يعتذرون. في تلك الليلة الأولى كانوا ودودين واثقين بعضهم ببعض. فيقدّم بعضهم إلى الآخرين موزاً وخبزاً، وأولئك الذين اشتروا بطيخاً قطعوه ووزعوا شرائح منه.

أعدت جوكونديتا مكاناً قرب لفّة من الحبال، فوضعت أرجوحة فوق الحبال، مطويّة، وجعلت منها سريراً لأرنستو. كانت الباخرة تتمايل بهدوء، فنام الطفل. غمس طونيو رجليه في الماء، فنال شتائم من ملاح كان يصطاد السمك في المؤخرة. فقطع الصمت:

- أخرج من هنا، أيها الأخرق!

هبط الليل ومن الباخرة المطفأة الأنوار كانوا يشاهدون السرتونيين الآخرين يأتون إلى الرصيف في النزهة الاعتيادية. وجهدت مارتا لتتبين فيسنتي، لكنها لم تكتشفه بين الرجال. وجاء

البعض إلى جانب الباخرة، وبسرعة نشأت المحادثات بين الذين كانوا على متن الباخرة والذين على الأرض. وفقدت مارتا الآمال حينما سمعت اسمها يُهمس به:

- مارتا! مارتا!

وجوكوندينا أيضاً سمعت. فبقيت مارتا جامدة تنتظر أن تحتج أمها. لكن بدلاً من ذلك، قالت جوكوندينا:

- إذهبي وتحدّثي مع الشاب...

بحثت عنه بين الذين كانوا على الرصيف. كان جالساً على الإسمنت تحت السلّم الذي يرتفع من الشارع إلى الدرجة الأولى:

- إني ههنا...

- فكرت بأنك لن تأتي....

وبعدها قال بصوت حزين:

- يقال إن مركبي سيتأخر، فلم يصل بعد حتى إلى بيرابورا، وجنح في الطريق، وعليه بعد ذلك أن يعود...

- كيف عرفت؟

- ذهبت إلى الشركة اليوم. لكن إذا لم أجدك في بيرابورا، فسأضرب في أرجاء سان باولو كافة لأعثر عليكِ...

اختلطت الآن موسيقى المهاجرين على ظهر الباخرة مع موسيقى رجال المراكب وضاعت الأصوات كلها وسط هدير النهر. وكان الشرطي الذي يقوم بدورة في الجوار، قد فكر مرتين في طرد فيسنتي من المكان الذي كان يجلس فيه. فلو أراد بقفزة واحدة ويختلط مع الذين يغادرون. لكن لديه شفقة عليه ويرى أنه يودع عروسه، فلماذا يربكه؟

وهو أيضاً كان شاباً ويعرف ما هي هذه الأمور. ضحك ضحكة عذبة لو استطاع لذهب إلى الخمارة وتناول كأساً من الكحول. وبدلاً من ذلك، آثر البقاء هناك حتى الفجر.

شعروا بركوب مسافري الدرجة الأولى الباخرة أكثر مما شاهدوهم. وحُدد خروج الباخرة عند التاسعة صباحاً، ومنذ الصباح الباكر بدأت الحركة. فقد ناموا بعمق، رغم الضجة التي كان يحدثها الحمّالون جالبين الحاجات إلى الباخرة، وساعدهم اهتزاز السفينة على النعاس. لم يعطوهم قهوة في الصباح، فأكلوا بقية الخبز والموز التي فاضت عنهم في العشية. فهي مسألة سبع ساعات، وأعلن ملاح أن الطاهي كان يبيع القهوة بمائتي ريس لكل كوب. ورغب الجميع تقريباً في ذلك، فأخذوا أكوابهم والنيكلات، وطلب الطاهي:

- نقود بقطع صغيرة! نقود بقطع صغيرة!

رأوا في الأسفل مسافري الدرجة الأولى يصلون وأقاربهم وأصدقاؤهم الذين جاؤوا يودعونهم، عائلات مع أطفال، أناس معتنون بأمرهم، ودموع وضحكات. بعد القهوة مباشرة، حصل تحميل الخنازير، وكان رجل يرتدي ثياباً كاكية اللون وبيده سوط صغير، يعطي تعليماته في العمليات، كانت كناية عن عشرين خنزيراً كبيراً، من جنس غير معروف هنا، كانت تُساق إلى سان فرانسيسكو، لصاحب مزرعة هناك. وبُذلت مشقة لوضعها على ظهر الباخرة. وضحك المهاجرون وهم يشاهدون تقلّب الأحوال في ما خص ركوب الباخرة. وضحكوا أكثر أيضاً حينما سقط خنزير في الماء وكان لازماً أن يقذف رجلان بنفسيهما ليسحباه إلى الباخرة. وكان الرجل ذو السوط الصغير يصيح:

أنقذا الحيوان، فهو للعقيد جوفينال!

جمعوها في مؤخرة الباخرة، وأقاموا نوعاً من السياج. لكن هناك عدة عائلات قد أعدت لنفسها أماكن. فحدث صراخ واعتراضات وشتائم. وسأل الملاح:

- هل تريدون الحيوانات طليقة إلى جانبكم؟

وهدّأهم آخر، ذو وجه فتي وطيب:

- إنه فعلاً لخيركم... كيلا تختلطوا...

لكن الذين كانوا قد استقرّوا في المؤخرة لم يوافقوا، فبحثوا عن أماكن جديدة في الدرجة الثالثة المزدحمة، حيث يصعد إلى ظهر السفينة مسافرون جدد وأقفاص فيها دجاج، وحقائب وصناديق.

- رباه، أين سننام؟

وناموا فوق الصناديق، خليطاً مع الحيوانات والحقائب الكبيرة لمسافري الدرجة الأولى التي لم تتسع لها القمرات. وقد نصب البعض أراجيح مستخدمين دعامات الباخرة، وكان من الضروري أن يمشي المرء مطأطىء الرأس. وغسلت بعض النساء ثياباً متسخة مغتنمات ماء النهر.

عند الساعة التاسعة، صفّرت الباخرة. لكنها لم تتحرك إلا عند العاشرة والنصف، وقامت بدورة في النهر بحذر كيلا تجنح حين خروجها، كما يحدث أحياناً. وركضوا جميعاً إلى الحاجز على ظهر السفينة متدافعين ومتعاركين من أجل إيجاد مكان. يريدون رؤية بيوت المدينة التي أصبحت وراءهم، والتي تبدو أنها تمشي. يريدون رؤية معارف، مهاجرين آخرين بقوا على الرصيف. وكان بوسع مارتا أن تميّزه، كان مجرد نقطة ضائعة في البعيد.

أبدى الأولاد عجبهم من حركة الدواليب، وساد هرج ما في الدرجة الثالثة لم يهدأ إلا عند الساعة التي أعلن فيها الجرس الصغير الغداء.

لم يكن بوسعهم أن يشكوا من النقص في الطعام. فقد وزعوا صحناً من الصفيح على كل منهم، وكوباً وملعقة. وشكلوا طابوراً أمام المطبخ حيث وزع الطاهي من قدور ضخمة، سمك البيراروكو المطهو بقليل من الملح، والأرز. وأعطوهم طحيناً أيضاً ومع مرق السمك الكثيف والكثير الدهن، صنعوا حساء أصفر لذيذاً. وترك كثيرون منهم الملاعق وفضلوا الأكل بأيديهم، وغمسوها في السمك. وكان الدهن يسيل بين أصابعهم، ويرون ذلك ذا مذاق لذيذ.

فيما المركب ينساب، لم يشعروا بالحرارة. وهبت نسمة وكان باعثاً على السرور أن يتمدد كثيرون بعد الغداء ليناموا. وكان جيرونيمو راضياً، فلم يزعجه ألم ظهره، وجعله النسيم يشعر بالنعاس، وكان الطعام جيداً. وأخذت جوكونדينا الصحون لتغسلها. وفعلت ذلك نساء عديدات أخر. فغمسن الصحون في ماء النهر، ومررن أيديهن فوقها ليزلن ذرات الطحين - ورأين السمك الصغير يقفز حولهن. كل ذلك أدى إلى المرح في ذلك النهار الأول من السفر. وجلبت نساء أخريات ثياباً متسخة فوضعنها في الماء، ثم نشرنها على لفائف الحبال لتجف، وأخذن يحرسنها، والأولاد يركضون مثيرين الخنازير ومواجهين ثورات الغضب لدى الرجل ذي السوط الصغير:

- ويحكم، أيها الأولاد فاقدي الحياء... انصرفوا وإلا سأحطمكم...

كانت الوجبة المفضلة بالنسبة إلى جوكونديتا هي الحليب. ففي العشية، مع فوضى الصعود إلى الباخرة لم تستطع شراء حليب لأرنستو. وما تبقى منه كان قليلاً، وبالكاد أشبعه تلك الليلة، لو لم تمزجه بالماء.

وتمكنت في الصباح من الحصول على قليل من الطاهي، في الساعة التي اشترت القهوة. لكنه استُنفد، وهو لم يشأ أن يزوّدها منه بعد ذلك. إذ سوف ينقص للدرجة الأولى ولن تستطيع الباخرة التزوّد من الحليب إلا في المدينة القادمة، فنصحها:

- أعطه مرق السمك...

وزوّدها به، غارفاً من القدر بمغرفة، من ذلك المرق الكثيف والأصفر. واستقبله الطفل بشكل حسن، كان جائعاً. وتناوله على دفعات بالملاعق.. ضحكت جوكونديتا ثم قالت لجيرونيمو:

- ربما لن نحتاج بعد الآن لشراء الحليب...

- الطعام جيد... وكثير...

حتى طونيو الذي كان يبدو أنه لا يشبع، والذي كان يأكل كل شيء بمتناول يده، حتى هو بدا متخماً بعد الغداء. وكان لديه الحق في تكرار الصحن.

تعاطف أحد مساعدي الطاهي مع الولد، ذي الوجه الشبيه بوجه فأر، ونظرته الجريئة، وزعيقه الحاد، فأعطاه قطعة كبيرة من البسكويت التي لم يستطع أن يأكلها فأعطاها إلى مارتا.

وجاء جوان بيدرو إلى حيث كانت جوكونديتا وجيرونيمو، فجلس على الحبال، وعلّق:

- لو أن المرحومة حيّة لأحبت هذه الرحلة... كانت لديها رغبة في التعرف إلى الباخرة.

تكلم عن دينا، فتذكروا آنئذٍ الموتى والبعيدين. جيرترودیس وأغوسطينيو، نوكاوديتا، الفتيان الثلاثة الذين غادروا. زيفا التي تحولت قديسة، وأيضاً الحمار جيريمياس الذي تسمم، والقطة ماريسكا التي أكلوها.

7

كان أجمل منظر هو انعكاس الأضواء على الماء. بقيت مارتا تتأمل ذلك، وتفكيرها بعيد، في الشاب فيسنتي. تُرى هل ستلتقيه ذات يوم؟ كل شيء ممكن في هذه الدنيا، ولو كان صعباً. فهم

لا يعرفون ما سيكون مصيرهم في سان باولو. ولقد أنبأهم رجل أن عليهم البقاء في مضافة المهاجرين حتى يتعاقد معهم صاحب مزرعة. ربما تعود فتراه، من يدري؟ وكانت الأضواء تسطع فوق الماء.

ليس للاعبي الورق عيون لترى جمال انعكاسات المصابيح على صفحة النهر. والدرجة الثالثة ضعيفة الإنارة، ويجب عليهم أن يكونوا مستيقظين لمهارات الملاحين بالأيدي كيلا يُسْرَقوا في دورة الورق. فالملاح حيوان عليم، والورق قديم وملوّث بالشحم والدورة هي دورة لعب قمار للص. يراهنون على عيدان ثقاب، وكل واحد يساوي عشرين ريساً لكنها غالية كثيراً على جيوبهم.

يخلط الملاح الأوراق، وتطول الأحاديث في الجماعات، فيما هم الآن مجتمعون في الباخرة وكأنهم أسرة واحدة. وقد حصل الخلاسي الذي خرج لشراء المواد الغذائية على سلطة الرئيس وهو الذي يحل المشاحنات بسبب الأمكنة، ويتعامل مع الطاهي والمفوض. إنه يدعى أريستوتيليس ولا يبدو أنه مهاجر. قال إنه في سان باولو سيبقى في العاصمة، ومن المحتمل أن يصبح سائقاً لترام. والبعض لا يعرف ما هو، فيوضح، جاعلاً حركاته الكبيرة تساعد كلماته:

- هو قطار صغير يجري في الشوارع حاملاً أناساً من جهة إلى أخرى.

- يا له من أمر...

- ها قد رأيتم... هذه دنيا...

ويضحك الخلاسي من جهلهم. فقد سافر ويعرف جزءاً من العالم، يعرف كلمات مجهولة. ويتجمعون حوله، وتنفجر النقاشات وتنبثق القصص:

- لا أدري كيف كان ذلك حينما رأيت نفسي فوق الرجل، والخنجر في ضلوعه... وقال القاضي إني لم أكن مالكاً لوعيي وهذه حقيقة...

تصل من الدرجة الأولى أنغام البيانو، وأصوات وضحكات. شعرت مارتا أن فوق رأسها، في الممر العلوي، رجلاً وامرأة يتحادثان. ربما هما عروسان. هو يقبلها بتكرار. ويقول كلمات حب بصوت حنون. وتختلس مارتا النظر إلى بريق الضوء على الماء الجاري. تُرى هل ستلتقيه بعد؟ ومتى سيكون ذلك؟

نشب عراك في مجموعة لاعبي الورق. فأسرع رجال ونساء، وصرخ ملاح، وأمسكوا بمن كان بيده سكين:

- هل أنت مجنون أيها الفتى؟

جاء أناس من الدرجة الأولى ليلقوا نظرة. لكن العروسين لم يتحركا حيث هما. فالقبلات تنفجر، بعضها طويل، والشفاه داخل الشفاه. ترى مارتا الظلّين، ماذا يفعل فيسنتي في هذه الساعة؟ سيكون على حاجز رصيف الميناء، يتأمل النهر والقوارب، ذلك الذي يحمل اسم مارتا. لن تراه بعد الآن أبداً. فلديها تأكيد على وجه التقريب. ذات يوم كان يهم بتقبيلها، كانا في ظل الشجرة، فلم يسنح لهما الوقت. لماذا لم يقبلها؟ تشعر بأنها كما لو كانت مسروقة. وبحث عنها صوت جوكونديتا:

- مارتا! مارتا!

- إني قادمة يا أماه...

وما كان لديها إلا وقت قصير لترقب مرة أخرى الأضواء على الماء، ولتصغي إلى صوت قبلة بعد أن سمعت الرجل يقول لعروسه:

- عزيزتي! كم أحبكِ...

وتسير مارتا متمهلة، ولديها رغبة في البكاء.

8

لم يروا من النهر تقريباً إلا الماء حيث تتبع الباخرة طريقها، في مسيرة بدت لهم سريعة جداً ومسافرو الدرجة الأولى يصفونها بأنها من أشد المسيرات بطئاً. شاهدوا أيضاً الخضار في الضفتين، والفلاحين ذوي الوجوه الصفراء، والمدن الصغيرة التي اجتازوها. وكان يتوارى عنهم غموض النهر ومآسيه وجغرافيته الإنسانية المفجعة. حتى أنهم لم ينتبهوا إلى الحياة التي كانت تحيط بهم وكانوا مهتمين عندما جنحت الباخرة وأمسك ملّاحو المراكب في سان فرانسيسكو القضبان الطويلة وأسندوها إلى صدورهم، وصارعوا خلال ساعات، المركب والرمال والنهر. وبما أنهم لا يعرفون شيئاً عن البلاد في الجانب الآخر من البحر - ماعدا ملاحظات غير ثابتة وخائبة مسموعة صدفة - فلم يدركوا الملاحظات الأدبية من البائع الجوّال الذي كان مسافراً في الدرجة الأولى والذي كان يفكر أنه بها يؤثر في رفاق السفر وخصوصاً ابنة الكولونيل ميناندور التي كانت متوجهة إلى مدينة بارّا.

- إنهم يشبهون ملاحي المراكب في الفولغا...

ربما يشبهونهم وربما لا، فالبائع الجوّال يعرف القليل عن الفولغا، إلا ما كان يعرفه من خلال الموسيقى وكلمات الأغنية، وأن هناك نشبت ثورة دامية وملاحو المراكب توقفوا عن دفع المراكب بأكتافهم. كل هذا أوضحه لكلاريسي، في لغته الملأى بالكلمات السوقية التي تخالطها بعض النكات.

- حدث إطلاق رصاص كثيف... وكان ملاحو المراكب شيوعيين. فقتلوا الملك والآن هم الحكومة...

وهي، التي كانت تدرس في إحدى الكليات، تعرف أكثر منه، فضحكت. ولم يبلغ الأمر بها إلى حد الانفعال لمشهد الرجال مع قضبانهم المسندة إلى صدورهم وهم يرفعون الباخرة من القاع الغادر للنهر. كان ذلك منظراً قد اعتادته منذ الطفولة. وكان زملاؤها في الكلية قادمين من مناطق أخرى، يحبون الإصغاء إليها وهي تروي تلك الحكايات، ويتحدثون عن ميلها الأدبي. ولهذا كانت تبتسم من البائع الجوّال وتشعر بشكل خفيف أنها غير مرتاحة لحضوره الملح.

سمع المهاجرون المقارنة، إذ إن الفتى كان يتكلم دائماً بصوت مرتفع جداً ولم يفهموا. لكنهم كانوا جميعاً أسرى رؤية أولئك الرجال ذوي الصدور العارية، المدفونين في النهر، محرّكين القضبان بين الصيحات، مصغين إلى الأوامر التي يصدرها القبطان إليهم من فوق. كان ذلك عملاً شاقاً، شاقاً جداً أو أشد قسوة من العمل في حراثة الأرض وشق أثلام عميقة فيها، من الغرس والحصاد.

ثم أشارت جوكوندينا إلى أحد الرجال:

- لديه ثؤلول في صدره...

كانت لديهم جميعاً ثآليل في صدورهم، تشويه في المكان الذي يسندون إليه القضبان. شاهدوهم وهم يغطسون ممسكين بعد ذلك فوراً بالقضبان الكبيرة، عائدين إلى غرزها تحت قشرة الباخرة. إنه صراع دام ساعات بكاملها، بدون راحة.

خُلّصت الباخرة ببطء وهذا أكثر ما أدهشهم، إذ لم يتصوروا أن بالإمكان أن تتحرك أبداً. ولاحظوا الزنوج والخلاسيين حول المركب. كانوا رجالاً مثلهم، من القامة نفسها، من اللون

المشابه، لكن بالنسبة إلى أهالي السرتون كانوا يمثلون العمالقة ذوي القوة والقدرة، سادة النهر القادرين على كل شيء.

وأخيراً، عندما استعادت الباخرة مسيرتها، بعد مساء من العمل تقريباً، وقفز الملاحون إلى ظهر الباخرة، فتحلَّق حولهم المهاجرون وأخذوا يوجهون إليهم الأسئلة، وجاء الأولاد وأخذوا يلمسون الثآليل التي في صدورهم. وابتسم الملاحون، فذلك كان كسب خبزهم، وهو ما على الرجل أن يعيشه بشكل ما.

9

ليس أرنستو أول طفل يموت. مات آخرون قبله، وحتى بالغين بقوا في مياه النهر مع الديزنطاريا. فبعد الطعام الجاف والمقنن في الكاتنغا، القديد المشوي وثريد الطحين وبعد التوفير في جوازيرو والقروش المعدودة، يبدو الطعام على ظهر المركب، السمك بوفرة، والدسم، حلماً. كان حسب إرادتهم. فالرجال يأكلون صحنين وثلاثة صحون من البيراكورو. ويلحسون براطمهم، ثم يتمددون على خشب الباخرة وبطونهم إلى فوق، مسخّنة بالشمس، كأفاعي الجيبويا في السرتون بعد التهامها عجلاً أو جدياً.

وقبل أن تُعْلَن الديزنطاريا فعلاً، كان المرحاض قد أضحى عديم الفائدة. إنه واحد فقط في الدرجة الثالثة كلها. وفي اليوم الثاني لم تعد أداة التفريغ تعمل، وفاحت الرائحة الكريهة فراح الرجال يوسخون كل المساحة في الحجرة الصغيرة حيث كان الجهاز، وحالاً أصبح معطلاً كلياً. ولم يعد في الإمكان اجتياز الباب. فتعلموا آنئذٍ التوازن على حافتيْ الباخرة؛ المؤخرات إلى الخارج، والسراويل مشمّرة، ويتغوّطون في النهر.

كان الملاحون ينظفون المرحاض كل صباح. وعند العاشرة لا يعود بوسع أحد استخدامه، فأداة التفريغ قد تحطمت بالتحديد. وكانت الوسيلة الوحيدة انتظار الليل بعتمته، لقضاء الحاجة في النهر. أو آنئذٍ الوصول إلى أي مرفأ، مع الركض الدائم إلى الأدغال القريبة. في البدء رفضت النساء أن يقعين على حافتيْ المركب، أمام النظرات المتطفّلة من الفتيان والنكات عديمة الذوق من الأولاد. لكن حينما بدأت الديزنطاريا فقدن كل ما تبقى لهن من الحياء ولم ينتظرنَ الليل. وتحاشى مسافرو الدرجة الأولى النظر إلى أسفل.

الأطفال هم أول من أحسّ بالتغيّر وبوفرة الغذاء. فكان برازهم أخضر، رخواً، وذا رائحة كريهة. وحينما مات الأول منهم كانت في الباخرة حالة «ربّي أغِثني». فلم يكن ثمة طبيب على

ظهر الباخرة، إذ نُسي قرار الحكومة الذي يصرّ على وجوده. وجاء ممرض هجين قبيح الوجه وسيّيء السلوك. ففي كل المراكب البخارية التي يسافر فيها مهاجرون، كان الأمر نفسه: يصلون جائعين، ويدفنون أنفسهم في السمك، فيموتون، والبعض منهم بالديزنطاريا.

نظر إلى الولد الميت، واختلس النظر إلى آخرين وسأل إذا كانوا يشكون من ألم في البطن، ثم بصق:

- لقد بدأ التغوّط...

لم يعطهم دواء، حتى ولا إيضاحات.

- الوسيلة الوحيدة هي أن تأكلوا أقلّ... فكلما كان أقلّ... هو أفضل...

يستحيل تتبع النصيحة. فالسمك يغريهم، إنه معد بشكل جيد مع زيت الدنديه ورائحته تعبر الباخرة. لكن سرعان ما تغلّبت عليها الرائحة الكريهة التي فاحت من الزوايا كافة، إذ إن الأشد مرضاً لم يكن بوسعهم تحمّل القرفصاء ليتغوّطوا في ماء النهر، فتغوّطوا ههنا في المركب نفسه، موسخين السراويل والفساتين. قذارة!

مات طفل آخر، وبعده كان دور أرنستو، إذ كانت جوكونديا، إزاء النقص في الحليب، تطعمه مرق السمك. وعندما كانوا قريبين من مرفأ ما، فإن الجثث تُحفظ لتُدفن في المقبرة. وتبقى العائلة حول الجثمان تبكي، ولم يكن ثمة تابوت ولا زهور. وكانوا في المرفأ يسلّمون الجثمان إلى الشرطة. فالباخرة لا تستطيع الانتظار. وحينما يكونون بعيدين عن مكان التوقف، فالوسيلة آنئذٍ هي بقذف الجثمان إلى النهر، تاركين البيرانياس تأكله. وهكذا جرى لأرنستو، وشاهدوا الجسد الصغير تجرّه المياه، وقميصه الصغير المتسخ تهب فيه الريح كراية أو منديل يلوح مودعاً.

كانت تلك طعنة نجلاء لجوكونديا. ففي بداية الرحلة، في الأيام الأولى في الكاتنغا، كانت تترقب رؤيته ميتاً في أية لحظة. كان يخيفها النقص في الحليب، والغذاء الأكثر فاعلية من ثريد الطحين. لكن الطفل قاوم واجتاز الرحلة وهو عرضة للهزال يوماً إثر يوم، لكن دون أمراض، وشيئاً فشيئاً اقتنعت بأنه لن يموت. والآن، فيما كل شيء يبدو قريباً من النهاية، عندما أوشكت عذاباتها - في تفكيرها - على الانتهاء، حينما كانت الوفرة في الطعام، حينما اقتنعت بأنه سيتربى وسيكون ذات يوم شاباً أكثر وسامة من نينين. وعندها يموت وجسده غير مدفون، ويمضي حسب مزاج النهر، يصير طعاماً للبيرانياس. لو مات في الكاتنغا، لدفنوه على الأقل، ووضعوا صليباً فوق

قبره، ولأمضوا ليلة يساهرون الجثمان الصغير، مصلّين له. حتى ولو جاءت طيور البغاث بعد ذلك ونبشت المكان، فلسوف يكونون بعيدين، ولن يروا المشهد. لكنهم الآن يشاهدون الجسد ذاهباً في النهر، إلى جانب أغصان الشجر والأوراق اليابسة، والقذارة التي يقذفونها من المركب. تلتصق الأوراق بالجثمان وأحياناً تغطيه المياه، فلا يستطيعون إلا رؤية الرجلين الهزيلتين الصغيرتين جداً!

بيد أن ألمها لم يكن الوحيد على ظهر الباخرة. فقد تتالت ميتات وحتى جثث رجال ذهبت إلى المياه، هذه المقبرة الغريبة. وحين تقترب ساعة الطعام تعتمل في قرارة كل مهاجر مأساة: الجوع، الرغبة في أكل السمك اللذيذ، والخوف من الديزنطاريا.

في أحد المرافىء التي توقفوا فيها، أمر القبطان بشراء ثور، وذبحه. وخلال يومين قُدّم لهم لحم، وهكذا تناقصت تأثيرات الديزنطاريا. لكن لم تختف البتة من عينيْ جوكونדينا رؤية جثمان أرنستو تطفو فوق مياه النهر. فلديها الكثير لتقصّه على الأولاد الثلاثة وخصوصاً نينين، عندما تعود فتلتقيهم. ستروي لهم ذلك الحزن الشديد. دموع كثيرة ستذرفها على أكتاف أبنائها. لماذا تذكرهم عند كل مصيبة؟ الآن، لم يبق لها سواهم في الحياة تقريباً. فعائلتها تنتهي بسرعة ولم تعد تتحسر على أن الثلاثة قد رحلوا، حتى ليصبحوا جنديين وكانغاسيرو، فالأسوأ كان الموت في تلك الرحلة إلى سان باولو.

بدأت تشعر بالحقد على أرض سان باولو هذه، ولا تعرف فعلاً لماذا هم يذهبون إلى هناك. كان بوسعهم البقاء في الطريق، في أية مزرعة كمتعاقدين. ماذا يهم إذا لم تكفِ الأجرة، وأن تكون الأرض ليست لهم، وأن يحرثوها لأحد الكولونيلات وله يحصدونها؟ لكانوا قد عاشوا بأي وسيلة ما، ولظلوا جميعاً أحياء، وهي تراهم يعودون عند نهاية كل مساء مع أدوات العمل. تراهم الآن يرحلون واحداً واحداً، وإزاء كل واحد هي أشد حزناً لموته. حسناً فعل أغوسطينيو وجيرترودیس في الإصرار على البقاء في تلك المزرعة. لعلهما في هذه الساعة قد أصبحا متزوجين، وخلال سنة سيكون لهما ولد، ربما يكون شبيهاً بأرنستو، وهذا سيتربى، فمع رصيده الباقي من الأجر، سوف يشتري أغوسطينيو عنزة. إن حليب العنزة يغذي الطفل، يربيه قوياً، وحتى إنه أقوى من حليب البقرة. كان يجب أن يشتروا بقرة... مهما كانت التضحية كبيرة.

حدثت جلبة صاخبة وبكاء وتأوهات على متن المركب، وفي الدرجة الأولى كانوا يعزفون على البيانو ويضحكون. هناك لا يقدمون سمكاً فقط. يوجد لحم وخبز بوفرة، وقهوة مع الحليب، ولا يمرض أحد. حياة الفقير هي هكذا بالفعل وجوكونדينا لا تعرف لماذا يولد الناس الفقراء إذا كان

ذلك ليتعذبوا كثيراً. سواء هم في تلك الرحلة أو ملاحون مع القضبان في الصدور الدامية. المشوهون بالثآليل. فهذا العالم مصنوع بشكل سيّىء، فيه كثير من الظلم، وينبغي أن ينتهي بالفعل. وسينتهي بالتأكيد، فهو يقترب من النهاية، والطوباوي يقول هذا، والقديسة تقوله، وصوتاهما مسموعان في السرتون، حيث العميان عازفو القيثارات، والكانغاسيرو الأكثر جرأة والنساء الأشد تعاسة يرددون أن نهاية العالم قريبة، وسينتهي العذاب.

«حبذا لو ينتهي قريباً» وهو ما ترغب فيه جوكونDينا، فكل ما ترغب فيه الآن فضلاً عن رؤية أبنائها الثلاثة، ألا تحضر موت زوجها. فلقد شاهدت أناساً كثيرين يموتون، أناساً ولدتهم أو ربتهم. لماذا ليس لدى الله رحمة ولا يأخذها مرة واحدة؟ لماذا يتركها تعيش إذا كان ذلك لتتألم فقط؟ ستموت مطمئنة إذا احتضنت قبل ذلك أبناءها: جاون الذي هو جندي في الشرطة، وجوزيه الذي هو كانغاسيرو، ونينين الذي هو عريف في الجيش. إذا وصل الثلاثة معاً، وطلبوا منها البركة... لكن إلى أين يصلون، إذا لم يعد لهم بيت، ولا أرض، إذا لم يعد لهم أقارب تقريباً، إذا كانوا لا يعرفون أين سينتهي بهم المطاف؟

تجري مياه النهر إلى البحر، هكذا أوضحوا لها، إنها تعرف إلى أين تذهب، وما هو مصيرها، وجوكونDينا لا تعرف إلى أين تمضي، وأين سترتب صررها ويرتاح جسدها. وحينما يصلون إلى سان باولو، فأي اتجاه سيأخذونه؟ قالوا إن الطقس بارد، والجوّ في الشتاء مثلج بحيث تتشقق الآذان والشفاه. سوف يموتون من البرد جميعاً، وقليلون الذين يتبقون.

تبحث بنظرها الذي لم يعد يتبيّن جسد أرنستو. وبقية العائلة، جيرونيمو راقد، مارتا تجفف الدموع بظاهر يدها، جوان بيدرو يدخّن عند الحاجز، وطونيو يركض مع الأولاد الذين لم يصابوا بالمرض. عندما غادروا كانوا ثلاثة عشر، محسوبين مع الحمار والقطة. كانت دينا هي التي عدتهم. والآن هم خمسة فقط، وكم سيصلون؟

10

تراجعت الديزنطاريا، لكن بعض الرجال والنساء استمر منهوكاً من الحمى. كانت الآن الملاريا. فأولئك الذين لم يأتوا بها في أجسادهم من أعالي السرتون، احتفظوا بها هنا في مياه نهر الملاريا الموسمية. وأصبحت رائحة كريهة لا تُحتمل، اعتيادية في الدرجة الثالثة. فقذارات المرضى تمتزج بروائح كريهة أخرى مصدرها زريبة الخنازير المرتجلة، وأقفاص الدجاج، والمرحاض المليء دائماً. وباتت التأوهات والكلمات النافرة خلال الحمى والشكاوى هي أيضاً

عامة جداً بحيث أن أحداً لم يبد اهتماماً بها. وخاف مسافرو الدرجة الأولى، وهدد بعضهم بالقفز خوفاً من الملاريا. وظهر بائع جوال مصاباً بالحمى، فألحّ المسافرون على اتخاذ التدابير من قبل القبطان. فجرى توزيع واسع للكينا بين المهاجرين.

وبالرغم من كل شيء، تواصلت الحياة بين الذين لم يقضوا بالحمى ونجوا من الديزنطاريا. فكانوا يلعبون الورق، يخسرون نقوداً ويعزفون على القيثارة، ويضعون مشاريع لسان باولو. فبعد بضعة أيام يصلون إلى بيرابورا، وهي تقريباً نهاية الرحلَة. ومن هناك ليس عليهم إلا أن يأخذوا القطار، بتذاكر مجانية، ويسافروا مدة يومين ليصلوا إلى حيث الوفرة في العمل، المال والفرح. كانت التضحيات كثيرة، لكنها تستحق ذلك، لأنهم رووا أشياء كثيرة عن سان باولو هذه بحيث لو كان نصفها فقط حقيقياً، لاستحقت ذلك.

عندما رموا جسداً آخر في مياه النهر ورأوا البيرانياس تقترب شرهة، تحسّروا لأنه لم يحتمل قليلاً بعد. لقد قتلت الملاريا منهم أقل مما قتلت الديزنطاريا. إنما جعلت الرجال صفر الوجوه، وجعلت النساء شبيهات بالأشباح. وما حدث لم يدعهم بعد ذلك البتة بدون ما يتألمون منه. فكان يمضي ليعود في السنة التالية، حين يصل الشتاء بأمطاره الغزيرة. لكنه كما يقولون في سان باولو، كل شيء كان مختلفاً. لا تمطر السماء في الشتاء، فهو برد جاف مع جليد وضباب، وتهطل الأمطار فقط في الصيف، ويمكن ألا توجد هناك ملاريا.

الأسوأ هو أن خبراً كان يجري منتشراً، ولا أحد يعرف كيف ولا من أي فم خرج. هو أن في بيرابورا لا يسمحون بانتقال المرضى. وأنّ المصابين بالملاريا لا يستطيعون متابعة السفر إلى سان باولو. فالحكومة لا تعطي بطاقات سفر. وإذا أرادوا فعليهم أن يدفعوا بدل البطاقات في القطار ولن يحملوا أية ضمانة للعمل. وأنه يوجد طبيب من قبل الحكومة يفحص كل واحد، ووحدهم الذين يتمكنون من المرور في الفحص وهو مشدد، لديهم الحق في التذاكر.

اكتسح الإحباط الباخرة وكان لا يزال أكثر تحسساً من الرائحة الكريهة والأنين والدموع والحمى. فقد جابوا دروب الجوع والمرض وهم القريبون جداً من الرخاء، ألن يكون بوسعهم أن يخطوا الخطوة الأخيرة ويبلغوها، ويمسكوها بأيديهم الشرهة المتعبة؟

قال الخلاسي الذي قام بالمشتريات في جوازيرو والذي كان قد وقع فريسة الملاريا:

- سأقتل واحداً...

سمعت جوكوندينا الخبر. انفعلت قليلاً. فالآن أصبح لديها إيمان بكلمات الطوباوي التي سمعتها تتكرر. العالم سوف ينتهي، وكان قريباً من النهاية. سيكون حسناً لو ينتهي سريعاً، قبل أن يصلوا إلى بيرابورا. فهكذا لن يكون بوسع أي شر أن يحدث بعد ذلك.

11

كان النهر يهدر في شلال، وحدث ضجيج يصمّ الآذان. واستبقوا ليشاهدوا مسافري الدرجة الأولى ينزلون من الباخرة. ونزل البائع الجوال المصاب بالملاريا محمولاً إلى المستوصف. والذين في الدرجة الثالثة كانوا جميعاً واقفين، حتى الذين لا يزالون مصابين بالحمى. فلا أحد أراد أن يظهر كمريض. إنه الخوف ألّا يحصلوا على بطاقات السفر إلى سان باولو. وكانوا يطلبون أخباراً من جميع الناس الذين يظهرون على ظهر الباخرة. كيف يجب أن يفعلوا للحصول على الأذونات، وأين يجب أن يتوجهوا، وكيف هو الطبيب الذي يجري الفحوص، ومتى تخرج القطارات التي تحمل المهاجرين.

وكانوا من جديد ذوي حيوية مع أنهم قد تفرقوا إلى بنسيونات متعددة. ولم يودّعوا بعضهم بعضاً، منتظرين أن يلتقوا جميعاً في القطار الأول الذي سينطلق إلى سان باولو.

استحصل خلاسي المشتريات الذي كان محدثاً لبقاً ومتكلماً جيداً على معلومات من أحد الحمالين، وأصبح يعرف أين يستطيعون النزول. كانت هناك بنسيونات رخيصة الأجر في الشوارع البعيدة، التي تقبل منكوبين، ما دام الدفع مقدماً. لكنه عرف أخباراً أخرى أيضاً. إذ يوجد في مدينة بيرابورا أكثر من ثلاثمائة مهاجر ينتظرون وسيلة النقل إلى سان باولو. هذا عدا الكلام عن المرضى، عن الذين لم يحصلوا على تأشيرة الطبيب. فهؤلاء لا يُحسبون بعد الآن، فقد تحوّلوا إلى متسولين في الشوارع أو يعملون لقاء الطعام في مزارع الجوار، دائماً بغية الحصول على التأشيرة، مجددين فحص الطبيب من آنٍ إلى آخر.

- أنتم سوف تقضون هنا نحواً من شهرين، وكأنهما لا شيء...

أخيراً، نزلوا من الباخرة. فحملوا صررهم على رؤوسهم أو بأيديهم. وظلوا واقفين على الضفة حيث أنزلتهم الزوارق، بدون أن يعلموا إلى أين يتجهون. فدلَّهم حمالون أكثر إحساناً على الطرق.

كانت الشمس حمراء ومحرقة. وتصاعد غبار بلون الدم في الشوارع، فملأ الرئات. وكانت مدينة بيرابورا ترقد في القيلولة حينما وصلوا. المتسوّلون فقط كانوا يملأون الشوارع، دزينات ودزينات يطلبون إحساناً من المارة النادرين، وذلك الغبار الكثيف الذي يجعل الأشياء حمراء ويعطي البصاق لون الغيوم الدكناء. وإلى الأمام كان الشلال يهدر تحت جسر مهجور. وساروا تتقدمهم جماعات، في طريق البنسيونات الرخيصة الثمن.

القطار الحديدي

1

حين خرج الشخص المعاين، بقي الدكتور إيبامينونداس لحظة جالساً، قبل أن يستدعي الممرضة. كان يشعر أنه منهوك القوى، فتطلّع إلى مقدم الحذاء المتسخ بالغبار الأحمر، لا يفيد مسحه. كان ذلك مالاً يُلقى خارجاً. تثاءب طويلاً، يربت فمه بظاهر يده. كان يشعر بالحرارة التي تدخل من نوافذ العيادة. إنه يرتدي قميصاً مبللاً بالعرق، بلاد بائسة... أي وسيلة لديه سوى أن يقف ويكمل؟ ثمة بطاقات فوق الطاولة. جيل يتناقص ببطء. في فترة ما بعد الظهر هذه عاين عشرين مهاجراً خرج تسعة فقط بالبطاقات التي تثبت صحتهم وتضمن لهم الإذن إلى سان باولو، في القسم الآخر من المبنى، حيث يعمل مكتب مصلحة الهجرة لولاية سان باولو. جميعهم تقريباً مصابون بالملاريا، وآخرون في أمعائهم ديدان. والبعض مصدورون، حتى أن حالة جذام ظهرت في ذلك النهار، ومهما كان الفحص سطحياً - قبل سنة حينما وصل، كان إيبامينونداس يتأخر في فحص كل منهم متحدثاً، سائلاً عن الأسلاف، يريد أن يعرف عن الآباء والجدود - فأعراض الأقراص كانت مطبوعة على كل وجه. وكان كثيرون لا يزالون يحترقون من الحمى، وتظهر الملاريا في الامتقاع البارز في الوجه، في ارتجاف اليدين، في أعماق البؤبؤين، يكفي النظر إلى البائس، فلماذا يتأخر أكثر في معاينته؟ عند آخرين كان في تقوّس الظهور، والوجوه المتغضنة، وذلك الضجيج المميّز في التنفس. يوجد جهاز للأشعة السينية، لكنه كان مكسوراً، وبالرغم من احتجاجاته فلم يرسلوا قط من يصلحه، كما أنه لم يكن ضرورياً، فما زال بعيداً الوقت الذي يبحث فيه عن الجذور، أسباب كل مرض، كل سل. وكان يعرف أيضاً من اللون ويباغت بهذه الأشياء: السفر، الجوع، العمل المفرط. في الشهور الأولى كان المهاجرون عندما يخرجون من قاعة العيادة الصغيرة، يقولون:

- الطبيب يبدو قساً يأخذ الاعتراف أكثر منه طبيباً... إنه يسأل عن حياة كل منا بأسرها...

كان يشعر أنه مستنفد، ليس في فترة ما بعد الظهر هذه تحديداً، إنه تعب جاءه منذ وقت طويل، من أسابيع وشهور، حقد على كل ذلك الذي يحيط به: حرٌّ بيرابورا بغباره الذي يدخل من

الأنف، من الأذنين، ومن الفم. وأحاديث الإشبينات في البيوت الهادئة، وهدير النهر، وأعراض المهاجرين وتوسلاتهم ودموعهم وحكاياتهم المأسوية، إنه تعب من الممرضة، تعب حتى من فيلو، البنت التي ينام معها معظم الليالي والتي تنتظره في الكاباريه. شيء واحد يرغب فيه، الرحيل، ترك المدينة، العيادة، البطاقات عديمة الفائدة تقريباً، وأن لا يرى وجوه الموظفين الآخرين، ولا يسمع صوت الممرضة آميليا وهي تأمر المهاجرين.

- القريب...

- سخافة... القريب... هل يعلمون ماذا يراد من القول بكلمة قريب... في أي من معانيها، التوراة (هل كانت التوراة حقاً؟) تكلمت إنه يجب ألا يُساء إلى القريب. الصعب هو إرساء مفهوم الخير والشر بالضبط. فيا له، ذاك الذي يحاول هذا؛ جدياً سوف يغدو مجنوناً... وهو إيبامينونداس الذي كان يعاني هذه المعضلة في الأشهر الأولى، ظل بلا نوم. كان وقتاً مرعباً. وكان من الأفضل عدم الاهتمام وترك الأمور تجري كما تشاء. فهذا العالم هو بالفعل كائن خطأ، ولن يكون هو الدكتور إيبامينونداس لايتي الذي تخرّج منذ عامين وبراتب كونتو واحد وخمسمائة، من سيتمكن من إصلاحه... لم يكن غير هذا الاستنتاج الذي وصل إليه الدكتور ديوجينيس. إنما بدلاً من التوافق معه، استسلم للكحول، فكان عديم الفائدة إلى الأبد. وحسناً فعل إيبامينونداس إذ حاول. ثمة ليلة كانت رغبته الوحيدة هي السكر حتى يغدو فاقداً للحس، بدون أن يفكر في شيء، هائماً في أي مكان، ونظيفاً بالكحول من كل القذارة التي تحيط به. لكنه صان نفسه من هذا الفعل، إذ إن ما رآه من الدكتور ديوجينيس كان درساً مفيداً له.

المهم هو أن يتحمل إلى أن يتوصل أصدقاؤه في سان باولو إلى نقله. فلقد بعث برسائل، واحدة إثر أخرى، ولم يخلد والده إلى الراحة، فترك المقص والإبرة وراح يبحث عن الأصدقاء النافذين، فيسمع وعوداً ثم يعود ثانية. وما كان يعني لإيبامينونداس إلا قليلاً أن يدعوه باللجوج. فلم يعرفوا ما كان ذلك ههنا، تلك العيادة والمهاجرون وحكاياتهم، وتضرّعاتهم وتوسلاتهم التي تستمر تدوي في سمعه طوال الليل، جاعلة النوم مستحيلاً...

لو، أقله، تظهر مهاجرة ما جميلة... وهو أمر نادر... واحدة بعد أخرى. فمنذ شهور وهو يعاين نساء عجائز اثداؤهن رخوة ورجالاً هزالى كالقضبان... كان يعرف أنها سفالة، وانتهاك لكل الأخلاق المهنية، لكنه لم يقاوم؛ فعندما تأتي هجينة جميلة يأمرها بأن تتعرّى بحجة الفحص، فيربت على الردفين والثديين، ويرى خديها متضرّجين حياءً، وهي خافضة العينين ويداها مشبكتان حول

صدرها. بعد ذلك كان يتعرض لتبكيت الضمير، لاشمئزاز من نفسه بالذات، لكن تلك البلاد وذلك العمل يحطان من قيمة أي امرىء، ويسفّهان خلق أي كان. ويتذكر دائماً عبارة مهاجر في أوقات وصوله الأولى. لقد ضرب بعنف طفلاً بقبقاب، فسال الدم من شفة الطفل المجروحة، فأمسك بذراع المهاجر ووبخه:

- أوقف هذا، يا لها من بربرية...

فتطلّع إليه الرجل بعينين شريرتين، لكن عندما عرف أنه الطبيب، غيّر سلوكه، وصار وضيعاً، فترك الطفل الذي لم يخرج من مكانه، منتحباً ومتسخاً.

- أيها السيد الطبيب، نحن فقراء ونسافر إلى سان باولو، وإننا بلا طعام، لا نملك توستوناً واحداً. ومع هذا فإن هذا البائس لا يرى موجباً لسرقة الخبز، كي يحرجني...

لقد تحدى بحكايته، ههنا بالذات، على درجات الباب، في ذلك الوقت كان إيبامينونداس يصغي بأناة إلى الوقائع المذهلة. وعندما انتهى الرجل، زوّده بنصيحة ووجَّه إليه سؤالاً:

- بعد أن تعذبت كثيراً أنت وأسرتك، كيف لديك الشجاعة لتضرب الطفل؟ أليست عندك شفقة؟

فرفع الرجل عينيه، وتكلم بصوت وضيع:

- العذاب لا يجعل أحداً يصير طيباً، يا سيدي الطبيب... العذاب يزيد الناس سوءاً، يجعلهم فقط سيئين...

كان الآن يحب أن يردد لنفسه عبارة المهاجر، حتى إنه كتبها في إحدى رسائله الأسبوعية (قبلاً كانت يومية) إلى ماريينا، خطيبته التي كانت في سان باولو، هو أيضاً أصبح سيئاً، لكنه سوء صغير، جبان، عاجز عن الإتيان بشر كبير، ضائع في هذه الفواحش حيث يأمر الفتيات بنزع الثياب، ويرفض إعطاء الأذونات للموظفين الذين كانوا تحت مراقبته والذين كانوا يحلمون بالقرار بضعة أيام من مركز الهجرة.

كانت المهاجرة الجميلة أمراً نادراً، لقد نام مع بعضهن. فكن يمضين جائعات. كن غنيمة سهلة. بعضهن متزوجات، وأخر مصاحبات ، وثمة أرامل مات أزواجهن في الطريق، يعطيهن خمسة آلاف ريس، وكان هذا بالنسبة إليهن ثروة. كثيرات فضن على الشوارع عاهرات، وكان هو

أحياناً يتعرف إلى البعض اللواتي كن قد مررن على مكتبه للحصول على بطاقة. كن مريضات، لا يصلحن فعلاً لأي شيء، فيسد عليهن الطريق إلى سان باولو فينتهين في بيوت البغاء، حيث يمتن بسرعة...

كان كل شيء مقرفاً. ويشعر أنه متعب، بوسعه ألا يأتي إلى العيادة لو أراد، فقد فعل ذلك مراراً، فيبقى في البيت الصغير الذي استأجره حيث يقيم بمفرده (أثناء النهار تأتي زنجية وترتب المنزل) ويأكل في الفندق. وفي أمسيات معيّنة ذات الحر الشديد والكآبة، بدلاً من أن يتجه عند الساعة الثانية إلى العيادة، يذهب إلى منزله فيلقي بنفسه على السرير، لكن إن لم يستطع النوم حالاً (ذلك النوم الثقيل الذي يستيقظ منه متصبباً عرقاً وفي رأسه صداع) يبقى آنئذٍ مضطرباً، مفكراً في طابور الرجال والنساء الذين ينتظرونه جالسين أو واقفين في القاعة وعيونهم المضطربة شاخصة إلى الباب حيث يدخل. جاء بعضهم مرتين أو ثلاثاً، ودائماً مطبقيْ الأفواه، وعيونهم خجولة كعينيْ الكلب الذي كان لديه عندما كان طالباً. فيتقلّب في السرير ثم ينتهي بالذهاب.

وفي تلك الأيام كان يغدو أشد فظاظة، أشد انغلاقاً على نفسه وحزيناً. ولهذا السبب تخرّج...

أي وسيلة لديه سوى النهوض والاستمرار؟ كانت القاعة مكتظة، وحين وصل لم يستطع المرور تقريباً. وبعد ذلك لم يتوقف الناس عن الدخول. ها قد عاين حوالى عشرين مريضاً، بسرعة، فكان من السهل أن يرى المرضى في الحال.

- الآن مستحيل... ما دمت لا تزال محموماً بالملاريا...

كان يعطي علباً فيها حبوب الكينا:

- خذ هذا وحين تذهب الحمى عد لكي نرى ماذا يمكننا فعله...

أي سحر سقيم يدفعه إلى التحديق إليهم بينما يعرف مسبقاً أنه سيرى العيون المذعورة نفسها، وذات الأفواه الهاتفة بالتوسل واليأس نفسه؟

- غير مجدٍ... لا أستطيع أن أفعل شيئاً... كان يسمع أيضاً التأوهات في الخارج. وصوت آميليا آمرة العائلة بمغادرة المكان بالصراخ. يا لها من قبيحة ووحشية آميليا هذه! إنه يفعل الشيء نفسه، نفسه تقريباً. فعل أسوأ، كأن يعرّي الفتيات الجميلات، لكنه يغضب على الممرضة بسبب أساليبها تلك، بلادتها تجاه المهاجرين. كانت لا تشعر بكل ذلك الشقاء الذي يحيط بهم، فتضحك وتتبادل النوادر مع الموظفين الآخرين:

- يا لهم من ناس... أي قرف...

يفكر بأنه ليس أفضل منها بكثير. فكان أيضاً قاسياً وسيئاً مرات عديدة، مستخدماً كلمات مساوية أو مشابهة كثيراً لكلمات آميليا. لكنه يضمر لها حنقاً ولا يخفيه.

يختلس النظر إلى النافذة، فمع هبوط المساء يتناقص الغبار قليلاً. ويتراكم المسحوق الأحمر في أطر النوافذ. مرَّ أحدهم في الشارع وحيّاه:

- مساء حسن...

كيف في الإمكان أن يكون ثمة مساء حسن في هذه المدينة وهو يعاين المهاجرين؟.. ينظر إلى الساعة، الحظ يقترب من النهاية. فليتقدم البعض الآخر وينتهي الأمر لهذا اليوم. وبعد ذلك يأتي العشاء والليل في أحضان فيلو، حتى هذه الذكرى نفسها لا تشعره بالحماسة، كان تعباً من الهجينة. وهو لم يتركها بعد لأن أخرى ذات وجه معقول لم تأت لتحل محلّها. والأمر هنا بلا امرأة..

وصاح:

- آميليا!

- إني آتية...

عندما فتحت الممرضة الباب المؤدي إلى قاعة الانتظار، سمع إيبامينونداس ضجيج المحادثات.

- أما زال يوجد أناس كثيرون؟

- كثيرون، اليوم وصلت باخرة...

- أيهم الأوائل؟

- عائلة وصلت في هذه الباخرة... رجلان والأم وابنة - ابتسمت - جميلة جداً، وولد...

- أدخلي أحد الرجلين...

وحين اتجهت إلى الباب، قرر هو:

- أدخليهم دفعة واحدة، وبإمكان الآخرين الانصراف... ليرجعوا غداً. فهؤلاء سيكونون الأخيرين...

جميعهم مرة واحدة، سيكون أسرع.

وفي النهاية، يتعلق الأمر بفحص سطحي، وقد جلبت الباخرة حمولة سيئة. الجميع تقريباً مصابون بالملاريا. كان وباء على ظهر السفينة. وهو قد تثبت من ذلك.

عندما وصل جيرونيمو مع عائلته كان مديراً ظهره يتطلّع إلى النافذة وسمع الخطوات والباب الذي أغلقته الممرضة، وساد الصمت المهيب. الفتاة جميلة. آميليا مصيبة. مثل تلك قليلات رآهن بين المهاجرين...

2

عندما وصل إيبامينونداس لايتي إلى بيرابورا، قبل أكثر من سنة بقليل، وصل مستعداً لإنجازات عظيمة، متفائلاً وسعيداً. كلَّفته تلك الوظيفة عناء شديداً. والسفر في القطار، منذ سان باولو، أنجزه بإحساس من انشراح حقيقي. ومن بيلو أوريزونتي أبرق إلى مارييتا: «رحلة مثلى، قريباً سوف أكون بطريق العودة. وسيكون ذلك إلى الأبد».

كان يفكر في قضاء بعض من ستة شهور، هكذا وعده الأصدقاء. ورئيس الدائرة وهو عجوز مغرور ألّف كتاباً حول البانديرانتيس ، وكان فخوراً جداً بنفسه، قال إنه سيهتم بأن لا يبقى «ذلك الفتى في بيرابورا طويلاً» وبعدها قال له، بطريقته في الكلام كما لو أنه يلقي خطاباً:

- يا صديقي الشاب، رغم كل هذا، يجب ألا تهتمّ، فستضع نفسك في تماس مع اثنتين من أعظم معضلات بلدنا: الهجرة الشمالية الشرقية ونهر سان فرانسيسكو. وهذا الأخير، بشكل خاص، مغرٍ أساساً. وأنا أنصحك بأن تغتنم الوقت دارساً مشكلات المنطقة. وهناك أمر مثير فوق كل هذا. لماذا في أرض خصبة جداً وغنية، يكون الرجل جد كسول وعاجز؟ والرأي عندي هو التمازج بين الأعراق... لكن ستحظى بفرصة تفحص المعضلة «في المكان» (قالها باللاتينية)...

وعد بأن يدرس المشكلة وبأن يبعث بملاحظات إلى رئيسه في رسائل ستكون بداية «تقدير واسع ورسائلي» كما حدد مؤرخ الباتديرانتيس. وعندما وعد لم يفعل ذلك من أجل تهذيب بسيط، ليلبي ويكسب تعاطف ذلك الرجل الذي ارتبط به من الآن فصاعداً. فهو يحمل مخططاً كاملاً للدراسات وللأعمال وللتحقيقات. «هناك أستطيع التخصص في الأمراض الاستوائية، فأدرس

كثيراً، وهو تخصص مفيد». وعندما أتمكن من الانتقال إلى سان باولو أستطيع فتح عيادة. وكان يرى نفسه ذا مال وشهرة؛ بيت جيد التأثيث، وماريبيتا تغدو سيدة عظيمة، والوالد يترك المهنة المنحطة كخياط.

لكنه بقي في الرسالة الأولى التي بالأحرى لم يضعها في البريد. فملاحظاته بعد شهرين من وصوله، حملت نتائج لا تسر رئيسه بالتأكيد، ورأى من الأفضل أن يضع الموضوع جانباً. فماذا يقول مؤرخ البانديرانتيس إذا عرف أن الكسل والعجز يريدان القول فقط إنه الجوع في الأرض الغنية والخصبة؟

أعد أنواع المشاريع كافة في الرحلة الطويلة بالقطار. لم يكن يأتي في الهواء، بدون أن يعرف إلى أين يمضي، كما يحدث للمهاجرين في عبورهم الكاتنغا ونهر سان فرانسيسكو. فتلك الوظيفة التي هو مدين بها من دون شك لفلوريانو - وصل من أوروبا في رحلة دروس في الساعة التي كان هو فيها قد دبَّ فيه اليأس - كانت تمثل ثمرة سنة من التوسلات، من الجلوس وضيعاً، وحذاؤه ممزق، وبذلة التخرّج الزرقاء قد اسودَّ لونها، وفقَدَ السروال استقامته. وعندما يصل محبطاً إلى البيت في المساء، وبدون كلام يوجهه لترقب والديه، ويذهب إلى منزل خطيبته شاعراً بخوف من السؤال الذي لا يتغيّر من الدونا إيزولينا:

- هل توصلت إلى شيء؟

كان يقوم بحركة نفي. فتجرّه ماريبيتا إلى الشارع. فهي تعرف أنهما إذا بقيا هناك، فالدونا إيزولينا ستبدأ بالتحسّر، والقول إن الخطبة الطويلة غير نافعة، وإن خاتم الطبيب يفتح الأبواب كافة إذا كان الشخص الذي يحوزه عنيداً ومحباً للعمل. فأعصاب إيبامينونداس تصل إلى درجة الغليان. وغير مرة أجابها بفظاظة. فكان من الأفضل التنزّه أمام البيت، محيين الجيران متحدثين مع البعض وغيرهم.

كان حلم العجوز لايتي أن يتخرّج ذلك الابن. وقد مارس أبوه مهنة الخياطة وهو لا يزال ولداً حينما وضعوا إبرة في يده مع أن رغبته كانت في أن يصير طبيباً، وبما أنه لم يستطع تحقيق ذلك، أقسم على أن يخرّج ابنه. ولهذا قام بتضحيات جمة، عاملاً في الليل حتى ساعات الفجر الأولى، في أشغال للزبائن المسروقين من مشغل الخياطة، أثناء النهار كان يعمل لدار الأزياء الخاصة بالرجال. ومن الساعة الثامنة يعمل لزبائنه. وكان لديه علامات الدار التي يخيطها على ياقة السترات. ويعرف الزبائن أن تفصيل البذلات هو نفسه، ذلك الذي صنع شهرة مشغل الخياطة.

وكانت النقود المخصصة للنفقات محسوبة، فيشتري اللازم فقط، لكي لا يجوعوا، وكان ابنه في المدرسة الثانوية يحوز جميع الكتب، مع حقيبة جيدة، والبذلة دائماً نظيفة.

ويوم أدى امتحان القبول - حصل على علامة جيدة، 8 بالكامل - كانت فرحة الخياط عظيمة. خرج يعلم الجيران جميعهم، ودعا الأكثر حميمية لتناول الجعة، فقد صار ينظر إلى إيبامينونداس كطبيب. وأخذ يناديه على الفور بالدكتور، بين المزاح والجد، وكما كان يقول: ليعتاد هذا...

وبدأ يجمع النقود من أجل الخاتم:

- أريد خاتماً ذا زمردة حقيقية وبراقة بالفعل... ليست تقليداً، كما يستعملونها ههنا... - ويضحك راضياً.

وجد إيبامينونداس بصورة مبكرة أن ذلك كان مضحكاً. لكنه ذو قلب طيب بما فيه الكفاية ليدرك تضحيات والديه وفرح الخياط البسيط الذي وصل إلى حد إخفاء أبوته عن زبائن دار الأزياء الذين كانوا زملاء ابنه. وحينما اكتشف بين الزبائن طالباً، جرّ المحادثة بطريقة ما لتنتهي بالكلام عن إيبامينونداس.

- هل تعرفه؟ إنه زبوني...

كان الفتى يعرفه:

- إنه ذكي أليس كذلك؟ سيصبح طبيباً مهمّاً... لديه موهبة وميل... كما أنه حمار فوق المكتب.

وما كان إيبامينونداس يخفي عن زملائه مهنة والده. وهذا ما قرَّبه من فلوريانو، الفتى الثري، ابن أحد أعضاء مجلس الشيوخ، الذي يعامل بحسد ودلال من الطلاب والأساتذة. فوالده كان فاعلاً في السياسة، وظّف أناساً، ويصدر الأوامر نوعاً ما، والجميع يسعون لمرضاة ابنه. ولم يكن إيبامينونداس قط على علاقة حميمة به، إذ له حلقته الخاصة، فتيان مع سيارات وعشيقات، يذهبون إلى حفلات أنيقة ويلعبون القمار في الكازينوهات، يدرس قليلاً وليس عند الأساتذة الجرأة لتوبيخه، راضين بتسلم بطاقة من الشيخ طالباً الرفق بابنه.

ذات صباح في الدرس العملي، جرّ فلوريانو الحديث:

- البارحة عرفت شخصاً معجباً بك متحمساً...

أبدى الآخر عجباً:

- معجب بي؟

- هو في النهاية، خياط. فأنا أصنع ملابسي في محل روبلس، وهو أهم ما يفصل في سان باولو. والبارحة حينما اكتشف الخياط أني طالب طب، بدأ حالاً الكلام عنك، راوياً حياتك، قائماً باطرائك. قال إنه يعرفك.

حدَّق جيداً إلى عينيْ الآخر. لم يكن يتعاطف مع فلوريانو. فكل شيء يكلف جهداً ميؤوساً كان هيّناً عليه:

- إنه أبي...

وكان دوره في إبداء العجب:

- أبوك؟

لم يتكلما خلال ما تبقى من الدرس. لكن صراحة إيبامينونداس سرّت الفتى الغني، فبدت له شيئاً نبيلاً ومحترماً. وحين خرجا من القاعة، اقترب منه مجدداً:

- هل تذهب إلى وسط المدينة؟

- ذاهب، نعم.

- أدخل، فإني آخذك..

دخلا معاً في سيارة فلوريانو، وهي باكارد بنيّة اللون تجعل الفتيات مجنونات وأخذا يتحادثان وأصبحا صديقين. التحق إيبامينونداس بحلقة فلوريانو، لم يدعه يكابد المصاريف. في البدء أشعره ذلك بالضعة قليلاً. لكن ما قدموه له مقابل ذلك الشعور بالدونية كان كثيراً وهو لم يقاوم وقد أصبح يغازل ماريبيتا في ذلك الوقت، وفي السنة الثالثة بات خطيباً. وضمن له فلوريانو، أنه حالما يتخرج سيحصل على وظيفة جيدة في القطاع العام.

- وسنعد معاً عيادة... أنا لا أعرف شيئاً، فأنت طالب مجتهد... سأضع اسماً على حسابك...

شعر الخياط أنه سعيد بتلك الصداقة. وأخذ يتحدث طويلاً مع فلوريانو عندما يجدد هذا البذلات، فيتقن العمل للطالب، ويتناول إيبامينونداس العشاء في منزل الشيخ، ويصحب فلوريانو إلى الكازينوهات، في الحفلات وفي الاستقبالات. حتى في القصر كان موجوداً في حفلة راقصة والشيخ بالذات، وفي تصرّف معيّن، فيما هو يجرّب ثياباً في مشغل الخياطة أراد أن يصافح أبا إيبامينونداس، وذلك بالنسبة إلى العجوز مثّل شرفاً لم يكن يستحقه البتة.

- عندما يتخرّج، سأهتم بمستقبل فتاك.. وكان صاحب دار الأزياء يصحب الشيخ، ومن هذا اليوم فصاعداً عامل الخياط بود أكثر.

- ابنه طالب طب، محمي من الشيخ توغيرا... هذا يحدث في الحياة... يقولون إن الشيخ هو من يتحمل نفقات الدروس...

وماريبتا أيضاً كانت تعيش تلك الآمال، وأحياناً ترافق إيبامينونداس في سيارة فلوريانو الذي كان يأخذ إلى جانبه الحبيبة الموقتة. فيحتسون الويسكي في سنتو آمارو أو يرقصون في غواروجا، وكل هذا زاد من تضحيات الخياط، فتلك الحياة تكلف مالاً وهو لا يرغب أن ينقص إيبامينونداس شيء.

في يوم التخرّج، عندما رأى ابنه يرتدي الرداء الجامعي فوق اللباس الأزرق الذي خاطه هو بنفسه ليلاً في البيت، مع كل الحنان، لم يستطع إمساك دموعه. وأصغى بانتباه غير محدود، إلى خطاب عرّاب الاحتفال وإلى خطيب الدفعة. وعندما قرأ اسم إيبامينونداس، صفّق بصخب. وأيضاً حينما لفظ المدير العجوز اسم فلوريانو نوغيرا. وكان الشيخ في مقصورة الشرف فحيّا برأسه الخياط الجالس في صالة القصر البلدي حيث جرى احتفال التخرّج.

واشترت ماريبتا فستاناً جديداً لتذهب إلى الحفل الراقص. ذهبوا بالتاكسي، وبدا حلماً في بيت الخياط ولم يشعر بالنعاس. وحدّث زوجته بكل تفاصيل الحفلة:

- إنه يرقص الآن...

أعطاه الخاتم وساعة ذهبية أيضاً، وقلم حبر ليوقع الوصفات. وقدّم فلوريانو لصديقه ميزان حرارة ثميناً.

بعد ذلك بستة شهور، كان كل ذلك بدون جدوى. لم يشأ أن يستعجل فلوريانو في مسألة الوظيفة. فهو ينتظر من صديقه أن يتذكر، ويتحدث مع الشيخ. لكن بعد خمسة عشر يوماً من

التخرّج، ركب فلوريانو الباخرة مصحوباً بوالديه إلى أوروبا. وبعد ثلاثة أشهر رجع الشيخ إلى أعماله التشريعية. وبقي فلوريانو ليقوم بدورة تخصص غامضة. وبقي الشيخ في سان باولو يومين فقط. ولم يستطع إيبامينونداس حتى رؤيته، إذ عاد إلى الريو، لأن السياسة كانت معقدة.

وبدأ ذلك الوقت من الكرب، حصل على بطاقة تقديم، وأعطي وعوداً من أشخاص مهمين، فكر أن ليس من العدل أن يستمر والده في إعالته، بعدما أصبح الآن متخرّجاً، كان يرى الخياط فوق الإبرة حتى الفجر، وكانت الرغبة في أن يشمّر عن كمي قميصه ويتناول المقص ويساعده. ولاحظ أيضاً نظرات الدونا ايزولينا عندما رجع ليرى خطيبته. وأحياناً لم يكن يملك نقوداً حتى للترام. فمن العار أن يطلب من والده، وكانت أمه هي التي تعطيه خمسة آلاف ريس للسجائر والمصاريف الصغيرة.

بقي في قاعات الانتظار في أمانات السر ، ونعل حذائه متهرىء، كانت طويلة ساعات الانتظار تلك من أجل الاهتمام بشؤونه، وأضحى وضيعاً وثائراً.

دام ذلك سنة، وحينما كان محبطاً كلياً وصل فلوريانو من أوروبا ومعه سيارة جديدة، سيارة فيات للسباق، وفرنسية كانت رائعة صغيرة، وشهادة بأنه تردد إلى عيادات معيّنة معروفة.

حاول إيبامينونداس ممارسة التطبيب في عيادة أعارها له أحد زملائه، مرتين في الأسبوع، خلال ثلاث ساعات. لكنه يعرف أن ذلك لا يحل مشكلته فذلك لمجرد الخداع، ليقول إنه كان يقوم بعمل ما. وتهرأت الملابس الزرقاء، وغضب لرؤيته أباه يستعد لتفصيل بذلة أخرى له، منقصاً نفقات البيت.

فلوريانو نفسه هو الذي سعى إليه. ولما عرف أنه لا يزال عاطلاً عن العمل، أبدى قلقاً:

- هل هذا ممكن؟ لقد أوصيت العجوز كثيراً... إنه شيطان السياسة، لا يترك له وقتاً حراً... لكن هيّا نعالج هذا على الفور... وظيفة تستحق العناء. شيء حسن في الواقع...

ووضع البرنامج لتلك الليلة. سيذهبان إلى سانتوس، الكازينو، وأراه إيبامينونداس ملابسه.

- سترتدي إحدى بذلاتي... واحتفظ بها... لا تأتِ الآن وتتظاهر بالكبرياء التافهة، أليس كذلك؟ وفي النهاية الذنب هو ذنبي أنا.

عندما عادا، قال له إيبامينونداس:

- فيما يخص الوظيفة، فأي شيء يصلح، مع الأخذ في الاعتبار بأن لا يتأخّر الأمر...

ولم يتأخر الأمر في الواقع. أوضح له فلوريانو، أنه كان بإمكانه الحصول على شيء أفضل لو تسنّى له كثير من الوقت. لكن، مع تلك العجلة، فقد تمسك بأول وظيفة شاغرة. إنها وظيفة طبيب في مركز المهاجرين في بيرابورا.

- هذا عمل لوقت قصير. سأتدبّر قريباً نقلك. إلى ههنا أو إلى شيء آخر أفضل... هذه المرة لن يحدث مثلما حدث في المرة السابقة...

لكن إيبامينونداس كان يكتفي بالوظيفة، بمبلغ كونتو وخمسمائة، لم يقل شيئاً في البيت، حتى ولا للدونا إيزولينا ولا لماريبيتا، حتى جرى تعيينه. ففي ذلك النهار حمل جبناً ونبيذاً إلى البيت، وزهوراً إلى الخطيبة. وأقرضه فلوريانو مالاً لينتزع الخاتم والساعة وقلم الحبر وميزان الحرارة من الرهن وسواه لمصاريف الرحلة.

دخل إلى البيت وبيده الجريدة الرسمية. وكانت فرحة الخياط شديدة لدرجة أن إيبامينونداس خاف أن يصيبه شيء ما. إذ إنه احتضن ابنه:

- أما قلت...

وما كانت فرحة ماريبيتا بأقلّ من ذلك. وسألت الدونا إيزولينا متى يستطيع تحديد الزواج.

- حالما أُنقل إلى هنا. مسألة بضعة شهور، خمسة أو ستة، على الأكثر...

سيخلف شخصاً يدعى الدكتور ديو جينيس وهو موظف مضى عليه وقت طويل، وقضى أربع سنوات في بيرابورا والآن توصل إلى أن ينتقل إلى سانتوس. سمع قولاً عنه إنه كان رجلاً قديراً جداً، طبيباً ذا سمعة حسنة.

وضع مشاريع أثناء السفر. كيف ستكون مدينة بيرابورا هذه، النائية جداً على ضفة سان فرانسيسكو؟ وتذكر كلمات رئيسه في الدائرة حول مشكلات النهر الشائكة. فلم يعرف مدناً في الداخل عدا كامبيناس وجونديايي، وسانتوس لا يمكن اعتبارها مثل هذه، لكن هذه المدينة الميناسية يجب أن تكون مختلفة. فالبرغم من أنه سيقضي هناك شهوراً قليلة، ينوي تجهيز عيادة ليطبب في ساعات الفراغ ويدرس قدر الإمكان.

أبدى عجباً لكون الدكتور ديوجينيس لم يكن بانتظاره في المحطة. فقد أبرق إليه من سان باولو ومن بيلو معلناً وصوله. ثم تلقف حمال حقائبه.

- أين يسكن الدكتور ديوجينيس ميذيس؟ هل تعلم؟

- الدكتور ديوجيني؟ يسكن في فندق انترناسيونال...

- هل هو بعيد؟

- قريب...

- احمل حقائبي إلى هناك. وسأرافقك لأتعرف إلى الطريق...

- إنه هناك... - مدّ برطميه - مجرد قطع هذا الطريق، أخرج إلى فوق.

ترك الحمال وراءه. كان الحرّ لا يحتمل، والغبار يهاجم العيون. يجب أن يشتري نظارات دكناء. لكنه رأى المدينة لطيفة بمنازلها البيضاء، وبعث الشلال المتساقط تحت الجسر فيه الحماسة. ووقف ينظر إلى سان فرانسيسكو. طلب منه فقير صدقة. فدسّ يده في جيبه مخرجاً النيكل. واختلس النظر إلى الرجل. ثبّت نظره مندهشاً. لم يكن ثمة شك، كان مصاباً بالجذام.

كان الفندق صامتاً، كأن لا أحد موجوداً. فصفّق بلا جدوى. أيقظ زنجيّ الحقائب صاحبه حيث كان ينام القيلولة وأخذ نزلاء آخرون وصلوا في القطار نفسه، يتجمعون في القاعة.

- يا سيد جوكا، لديك نزيل...

لم يبدل السيد جوكا خطواته المتباطئة. كان ينتعل خفّين ويمرر ظاهر أصابعه على عينيه الوسنانتين. فتقدم منه إيبامينونداس.

- هل الدكتور ديوجينيس يسكن ههنا؟

تفحّصه الفندقي تفصيلياً:

- أنت هو الطبيب القادم للمركز؟

- أنا هو، نعم...

- غرفتك محجوزة... إنها الرقم 19..

مضى الزنجي مع الحقائب، لكن ما كان يريده إيباميناونداس هو الالتقاء فوراً بالزميل والتحدث معه. ربما لم يأتِ لانتظاره بسبب مريض ما حالته خطرة، وربما بسبب عملية، فالاستقصاء أمر يستحق الجهد:

- والدكتور ديوجينيس، أين هو؟ في المستوصف أو في العيادة؟ أو يزور المرضى؟

رفع السيد جوكا عيناً، كانت حركة غير محددة:

- من؟ الدكتور ديوجينيس؟

فقال إيباميناونداس وقد أثير:

- أجل...

- هاه! الدكتور ديوجينيس. يزور مريضاً... أي مريض؟

بسط يده، وأشار إلى خمّارة في الناحية الأخرى من الساحة:

- إنه هناك... عند تلك الطاولة، ذو الملابس البيضاء... يشرب الكاشاسا...

3

كان ذلك عدم اعتبار. فطلب من صاحب الفندق إبلاغ الدكتور ديوجينيس بأنه قد وصل، وذهب إلى غرفته. فأخذ حماماً وغيَّر ملابسه، ثم انتظر أن يلتقي الدكتور في القاعة منتظراً إياه. بعد الحمام الذي نظفه من الغبار ومن تعب السفر، ذهب مرحاً ومحباً للاستطلاع متوجهاً إلى القاعة حيث يجب أن يكون ديوجينيس. فلم يجد أحداً. تطلّع إلى الخمّارة المقابلة. كان الطبيب هناك إلى الطاولة نفسها، وبدا له أنه بقي في الوضع نفسه. فنادى السيد جوكا. وجاء صاحب الفندق بلا عجلة، وبقي ينتظر ما سيقوله هو بتلك الهيئة الخالية من التعبير والتي توتر الأعصاب:

- هل أرسلت من يبلغ الدكتور؟

- كلا أيها السيد...

- لكن، أما قلت لك أن تخطره؟ يجب أن أتكلم معه، إنه لأمر مهم...

- لم أرسل أحداً، لقد ذهبت أنا بنفسي... فالموظف هنا عبارة عن كيس من الكسل. كان عليّ أن أذهب بنفسي...

- أبلغته؟

هزّ رأسه أن نعم.

- وهو، ماذا قال؟

- قال إنه قد علم... وأرسلني إلى الغائط...

وأكمل:

- إنها عادته، يرسل الجميع إلى الغائط... كل شيء إلا الكاشاسا. وقال إنها الشيء الوحيد المفيد في هذا العالم، ولو كانت له ابنة لسمّاها باراتي ...

ثم ضحك وكانت ضحكة مائعة، بدون قوة. وفكر إيبامينونداس: «مثلما تكون ضحكة الحلزون، إذا ضحك». واتجه إلى الباب. سيقول بعض الحقائق لذلك السكير. هل هذه هي الطريقة التي يستقبل بها زميلاً؟ كان عليه واجب الذهاب لينتظره، ليريه الدائرة، وينقل إليه المأمورية، ويقدمه إلى الآخرين. سيتحادث معه ويقول له ما يفكر فيه إزاء تصرّفه.

رجع ليأتي بالقبعة، فالشمس حارقة. وكان يجلب معه عادة المشي بلا قبعة، وهنا سيكون مستحيلاً الاحتفاظ بها. وعليه شراء النظارات الدكناء، بدون إبطاء. يا لها من شمس... وأبدى عجبه مرة أخرى بمنظر المياه فوق الصخور في الشلال، الزبد الذي يرتفع كأنه حواشٍ للزينة، ذلك يستحق العناء. سوف يبعث رسالة مطوّلة إلى مارييتا ينوي كتابتها هذه الليلة يخبرها فيها بكل هذا. لكنه لم يكتب لمارييتا هذه الليلة. فعل ذلك في الصباح التالي إذ قضى الليل في الكاباريه مع الدكتور ديوجينيس «متعرفاً إلى البنات» كما قال الآخر.

لم يكن يتصوّر أن هذا سيحدث حين اجتاز الساحة باتجاه الخمّارة. كان لديه استعداد ليوجه بعض الإهانات للدكتور ثم يتدبّر أمره بمفرده ويعلم بعدها الدائرة. ويبعث برسالة سرية إلى فلوريانو حول هذا الطبيب. كان يفكر بأنه لا يصلح لشيء، وليس لديه علاقات، ربما عرف أنه ابن خياط ولهذا...

رفع الدكتور ديوجينيس عينين فقدتا بريقهما. يجب أن يكون عمر لحيته أقله أسبوعاً. هكذا فكر إيبامينونداس.

كانت لحيته محمرّة غير كثيفة بحيث تعطي الدكتور هيئة مجنون. والشعر يجب أن يمشّط، إذ دس فيه يديه اللتين كانتا ترتجفان. وتمتم إيبامينونداس لنفسه، هذيان كحولي، مقدّراً بأنه قد يكون في البداية، رغم كل هذا.

كانت ثيابه متسخة، محروقة في أماكن مختلفة بالسجائر، ورماد السيكار الذي كان الدكتور يدخّنه منثوراً على ياقة السترة وفوق صدر القميص المليء بالبقع.

- مساء الخير...

حدّقت إليه العينان الميتتان:

- هل أنت بديلي؟ حسناً جداً. اجلس...

سحب الكرسي بحركة خشنة، وجلس مبتعداً قليلاً عن الطاولة. كان ديوجينيس في الخمسين وأكثر بسنين كما يبدو، بديناً، ويداه المستديرتان ترتجفان بشكل خفيف. وهمَّ إيبامينونداس بالكلام، وببدء الاتهامات الكاتيلينية . لكن الآخر لم ينظر إليه بعد، مصفّقاً بيديه ومنادياً النادل، وكانت على الطاولة زجاجة من الكاشاسا استهلك أكثر من نصفها:

- اجلب كأساً أخرى... وبسرعة، أيها الغائط...

وضحك النادل. لا بد أن يكون معتاداً تصرفات الدكتور.

- ومرر شيئاً من الماء على الكأس، أقله...

كان صوته ممتلئاً وحارّاً. صوت من كان مغنياً في وقت ما. وانتظر إيبامينونداس أن يقدم له الشراب ليرفضه. وضع النادل الكاشاسا وهمَّ بأن يسكب من الزجاجة، فأوقفته حركة من الدكتور ديوجينيس:

- أغرب، أيها الغائط...

ملأ الكأس الأخرى، ورفع كأسه:

- صحة...

- لا أشرب...

حدّقت إليه العينان الفاقدتا البريق مجدداً وبدتا مبتسمتين تحت الرخاوة التي كانت تغلّفهما، وبدت بقية من سخرية تينك العينين.

- لا تشرب... هاه... حسناً أن تبدأ حالاً...

- أن أبدأ حالاً؟ لماذا؟

- ستعرف بعد ذلك... إنه كل ما تبقّى ههنا...

أراه الزجاجة وأردف:

- سانتا كاشاسا، أفضل قديسة في بيرابورا. أكثر إتياناً بالمعجزات من الأب سيسرو أو من هذا الطوباوي الجديد الذي يسير في السرتون، المدعو استيفان... قرّب الكأس من الآخر وختم:

- دع الكبرياء، أدر الكاشاسا الصغيرة... إنها لا تصلح، غائط، لكنها أفضل ما هو موجود ههنا... إنها من جانواريا، إنما لا تقارن بالبيرنامبوكية .

وبما أن إيبامينونداس كان لا يزال متردداً، كرر:

- دع الكبرياء أيها الشاب. فهنا تفقد الكبرياء...

وكان لصوته المتبدل نبرة عميقة في هذه اللحظة:

- وكل الحشمة أيضاً...

رفع إيبامينونداس الكأس:

- على صحتك...

- شكراً.

أفرغ كأسه بجرعة واحدة، ثم بصق، وملأها مجدداً.

كانت الكاشاسا حادة فأحس إيبامينونداس أنها تحرق صدره. وسال العرق على جبينه. وجعلته الشمس المرعبة يطبق عينيه. فانتزع منديلاً من جيبه (تذكر أن مارييتا طرزت الحروف

الأولى) فنشف وجهه:

- يا له من حرّ...

- يوجد ما هو أسوأ... هيهات، إذ يوجد...

تفتحت عينا ديوجينيس مجدداً بذلك التعبير الساخر وشخّص الأمر بنصف ابتسامة على شفتيه الرخوتين:

- الكاشاسا تصلح للحرّ...

وبدون قصد، وجّه سؤالاً غير متوقع، مشيراً بإبهامه إلى مصدر إيبامينونداس:

- أي عمر تعطيني؟

واستقام على كرسيه ليستطيع الآخر تفحصه.

وحسب إيبامينونداس. يجب أن يكون بين الثامنة والخمسين والستين. ليقل خمساً وخمسين سنة.

- إنك في حوالى الخامسة والخمسين. أكثر قليلاً أو أقل...

- لهذا فإن بيرابورا هي مكان المفتش الطبي في مركز الهجرة في ولاية سان باولو.

أدار كأس الكاشاسا مجدداً وملأها وكذلك كأس إيبامينونداس.

- مضى على وصولي إلى هنا أربع سنوات وقليل... حينما نزلت من القطار في غائط هذه المحطة كان لدي ثمانٍ وثلاثون سنة... فيجب أن أكون الآن في الثانية والأربعين، إذا كنت ما زلت أعرف حساب الجمع. إني في الخامسة والخمسين، وهو هذا فعلاً... سبع عشرة وليست أربعاً... وأراها أيضاً قليلة، فبالنسبة إليّ تبدو أنها كانت ثلاثين...

حرش لحيته الحمراء، وكان إيبامينونداس أسير صوته:

- ثلاثون سنة، إنها العقوبة القصوى في قوانين هذا البلد الغائط، أليس كذلك؟ لقد أوفيت عقوبة ثلاثين سنة في أربع سنوات قضيتها ههنا...

قال إيبامينونداس إنه يعجب قليلاً من تلك التأكيدات. فهو لم يتمكن من رؤية شيء تقريباً في المدينة ويعاني الحرّ. لكن من القليل الذي رآه لم يتوصل إلى استنتاج بأنها كانت على هذا القدر من السوء. وكمدينة في الداخل لم تكن من المدن الأسوأ كما يبدو.

- هيه! .. المدينة... فيها مطار، فيها ناد للرقص والقمار حيث يلعبون الغامون، ومحال جميلة للتجارة. في اختصار إنها غائط. لكنني لا أتكلم عن المدينة في ذاتها. فليست هي التي تصفّي الناس، رغم الحرّ والبشر اللجوجين...

كانت عيناه الآن ضائعتين في ما هو وراء الساحة. ولم يعلم إيبامينونداس إلى ما كان يهدف، مع كثرة ما رافق نظرته، ففي الساحة المقفرة لم يكن ثمة أحد. وفي الشارع الآخر، أمام متجر، ثمة عربي ذو صدار يتثاءب. ربما كان الطبيب ينظر إليه، وعقّب إيبامينونداس بابتسامة:

- بصدار من الجوخ في هذا الحرّ... يا له من حصان!

لم يسمعه ديوجينيس. كان يفكر في شيء آخر بالتأكيد، إذ عندما تكلم فإنما يقول:

- انتظر حتى ترى مرضاك المهاجرين... كم سنة لديك؟

- سبع وعشرون...

- ولد... في عمرك كنت أنا في الريو، نساء حسناوات، ما كنّ مثل هذا الغائط هنا...

وحرش لحيته مجدداً:

- أقسمت أن لا أحلق ذقني حتى تصل أنت... هل استبد بك الهياج لأنني لم أذهب إلى المحطة؟

- حسناً، كنت أنتظر...

- كنت ذاهباً... لكن على الفور في الصباح...

أطبق فمه. ثم أفرغ كأس الكاشاسا في جوفه وعاد ليطري الشراب:

إنها تدفيء قلب الانسان...

وبدون التوصل إلى نتيجة لما كان يستمر فيه، روى:

إنهم يأتون من كراتو، وقد مشوا أكثر من ستة أشهر ليصلوا إلى هنا. وقد مات كثيرون منهم في الطريق والذين تبقوا...

- المهاجرون؟

- مرضاك... يوجد بطاقة لإملائها. لا تُملأ إلا عندما يكون المواطن بصحة جيدة، وبها سيذهب للحصول على الإذن في القاعة الموجودة في المبنى الآخر. وعندما يكون مصاباً بمرض فإنه لا يحمل البطاقة. هل لديك مسدس؟

- كلا، يا لها من توصية...

- كان من الأفضل أن يكون لديك مسدس لتدافع عن البطاقات... أو أقله يكون لك قلب من حديد... إني أضع الكاشاسا فوق قلبي لأقاوم، فقلبي هو غائط.

- هل هم عنيفون؟

- عنيفون؟ - أبدى عجباً من الكلمة - أي عنيفين... الصعب هو في العيون، نظرة حيوان حرون... حينما يصوّبون تلك العيون أتحسّر لعدم حيازتي مسدساً لأطلق عليهم النار... إني ههنا وأرى عينيْ الرجل حين أقول له إنه ذو رئتين مضروبتين. فيشرع في البكاء...

بقي صامتاً بضع ثوان، ثم سأل:

- هل رأيت رجلاً عجوزاً يبكي؟

تذكر إيبامينونداس أباه في يوم تخرّجه. لكنه قال لا.

- هيّيء نفسك لترى... إنه الغائط الأكبر... فكيف أستطيع الذهاب إلى المحطة؟ اليوم، في فترة ما بعد الظهر، لن أذهب إلى هناك، ووصولك ممتاز لأن يكون ذريعة وغداً صباحاً أسلّمك الوظيفة، وأصعد أول قطار... فعقوبتي تنتهي، وتبدأ عقوبتك..

- لكن هل هو مرعب بهذا القدر؟

كان إيبامينونداس يجد مشقة في إقناع نفسه بأن المكان على هذه الدرجة من البؤس الذي يتكلم عنه الآخر. وفي النهاية كان لا بد من معاينة المهاجرين، وملء البطاقات للأصحاء، وصرف المرضى.

- وما الذي يحدث للمرضى؟

- ما الذي يحدث؟ لا شيء... لا يستطيعون متابعة الطريق، هذا هو فقط... بعدها يموتون، من الذي لا يموت في هذا العالم الغائط؟ - كان يشير إلى الساحة - يصبحون متسوّلين هنا... فهو الذي يفيض في بيرابورا: متسولون. ويعودون إلى العيادة كل يوم لفحص جديد، ضامنين أنهم قد تعافوا...

- والزميل يعاينهم مجدداً؟

ألقى ديوجينيس عليه عينيه الخاليتين من البريق:

- ما أهمية ذلك؟ ما من أحد يُشفى من السل والجذام. وكذلك عندما تكون ثمة مالاريا...

وبسط الآن ذراعيه الاثنتين بحركة قد تكون مسرحية لو أتى بها أي شخص آخر، لكنها لديه مجرد حركة حزينة:

- لم أر قط مثل هذا القدر من الجوع. هذا الذي يقتل هؤلاء الناس: الجوع!

وضحك حالاً ليقول:

- يوجد شويعر ههنا، نظم أشعاراً غائطية. في بعض منها، الأكثر شحناً زهيداً للعواطف يقول إنهم سلكوا - المهاجرون - دروب الجوع حتى وصلوا إلى هنا... إنه الشيء الوحيد الصالح الذي كتبه... فدروب الجوع تأخذهم مباشرة إلى المقبرة.

- وجهاز الدائرة؟

- أفراد كالغائط... - لكنه وجد الكلمة غير معبّرة وفيها إطراء، فصحح فوراً - كلا، أفراد بؤساء، أبناء عاهرة... يتاجرون بالأذونات، ويفعلون كل أنواع السفالة... أنا لا أتعاطى مع أي منهم...

ولخّص كل شيء في كلمة واحدة:

- بعض دمامل...

وأوضح لإيبامينونداس:

- لا فائدة من الكتابة إلى الدائرة في سان باولو شاكياً، فكل منهم لديه عرّاب صغير، ولا يولون اهتماماً لهذا الذي هنا. منذ سنتين وأنا ألتمس نقلي. وقلت لهم في الرسالة الأخيرة إنهم إذا لم ينقلوني، فسأتخلّى عن المركز وأرسل كل شيء إلى الغائط... أعطيت مهلة لنفسي بالذات: حتى نهاية الشهر الجاري... وأخيراً رأيت تعيينك، فقد وصلت إلى المكتب. وإذا لم أتخلّ قبلاً فلأنني أشفق على البائسين الذين، بلا طبيب هنا، لن يسافر أي منهم. حتى ولا القليلون الذين يصلون في حالة تصلح لمواصلة الطريق...

- لقد نقلت إلى سانتوس..

- أعلم... لكن فات الأوان كثيراً أكثر من اللازم. فلن أنهض بعد... وإن هذا الذي هنا أنهاني دفعة واحدة، هل تعتقد بأني كنت أحتسي الخمرة قبل المجيء إلى هنا؟ حسناً، لم أكن ممتنعاً. كنت أتناول كأساً من مرة إلى أخرى، جرعة قبل الغداء. كأي شخص آخر...

نادى النادل:

- ضعه على الحساب، أيها الغائط...

وألقى بقطعة فضة على الطاولة، فتمتم النادل بشكر.

- إني أزعجك بهذه الأحاديث. لكن من الأفضل أن تعرف حالاً كيف هو الحال ههنا، فلا تدخل تلك العيادة بأوهام، كما حدث لي... كنت أفكر في تحقيق عمل ذي عمق اجتماعي في الإسعاف الطبي للمهاجرين... - هزّ يديه - خطط... كل ذلك كان أكذوبة!

نهضا. وكانت الشمس تسطع على الشلال. فسارا إلى تلك الأنحاء. وعجب إيبامينونداس من أن ديوجينيس لم يكن يكبو، فقد احتسى كثيراً ومع هذا يمشي هكذا، مستقيماً. كان ظهره فقط مقوّساً ويداه ترتعدان، لكنه لاحظ أن الأخير يتفحصه بطرفيْ عينيه:

- لم أتناول بعد جرعتي... - ضحك - في الليل أكون ممتلئاً.

ثم ضحك أكثر:

- لا يوجد وسيلة أخرى للنوم إلا أن تصبح ثملاً...

- هي الحرّ؟..

- أي حرّ... إنهم هم وحكاياتهم... وعيونهم... تجعل لديك الرغبة في القتل..

وفي الليل رأى إيبامينونداس الطبيب ثملاً، يرقص في الكاباريه. كان يعرف كل الناس، ويبدو أنهم يحبونه، رجال المرفأ القساة، فتيان التجارة، والشاعر المذكور الذي كان خلاسياً صغيراً هشاً، وملاحو السفن. وعرض النساء على إيبامينونداس:

- لا تذهب مع أي منهم بدون أن تكلمني. إني أعرف اللواتي هن مصابات بالسيلان واللواتي هن معافيات. إنهن زبوناتي الوحيدات، خارج نطاق المهاجرين...

كانا في المساء قد بقيا في العيادة. وأوضح له ديوجينيس الأمور، وقام بتقديم هزلي لآميليا:

- فرس الماء هذا، هو الممرضة. الحيوان الأشد وحشية الذي خلقه الله في الدنيا... بعد ذلك انتقل إيبامينونداس مع آميليا إلى الجانب الآخر من الدائرة. فتكلم مع الموظفين الآخرين. وتعاملوا معه بشكل جيد، فكان هو السلطة الكبرى، واستقبل دعوات إلى الغداء، ووضعوا أنفسهم بتصرفه. ولم يقل أحد شيئاً حول ديوجينيس ولا القليل جداً مما كان مستعداً لتحمل قوله عن الطبيب.

أكلا معاً في الفندق، وهناك أشار إلى نساء، خلاسيات سوداوات البشرة بلا جمال:

- تلك أنا فحصتها! كانت سليمة، لكن بقية العائلة لم يستطيعوا السفر. فأخذوا يتسوّلون هنا، وهي سقطت في الحياة... والآن هي مريضة جداً كالآخرين...

كان يعرف قصة كل واحدة. وحتى هناك مهاجرون يأتون للبحث عنه. وفي الكاباريه كان لإيبامينونداس أول احتكاك بأولئك الذين سوف يصطفون منذ اليوم التالي، في عيادته سعياً لبطاقات الصحة. فقد وصل رجل مع ولدين، اقترب من طاولة الدكتور ديوجينيس فرمقه بعينيه الخاليتين من البريق، وكان صوته الآن ثقيلاً بسبب الكاشاسا:

- ما الذي تريده يا كاردوزو؟

- أن تفحصني حضرتك غداً من جديد... فأنا سليم، لا أحس بعد بشيء...

- وهل تعتقد أن كهفاً في الرئة يغلق بين يوم وآخر؟

- لم يعد بي سعال... ولا حمى...

وهناك بالذات وضع سمعه على ظهر الرجل. ضرب على أضلاعه بأصابعه المجموعة. ثم التفت إلى إيبامينونداس:

- أنظر أنت!

وفحصه أيضاً:

- الرئتان...

وكلّم ديوجينيس المهاجر:

- ليس الآن يا كاردوزو. لكن لن يتأخر الأمر... مرْ غداً على العيادة لأعطيك دواء...

- غداً تفحصني بشكل أفضل أيها السيد، يا سيدي الدكتور...

وابتعد الرجل.

- لن يلبث أن يموت...

وبسط ذراعيه مجدداً على غرار حركة المساء نفسها، ولخّص كل شيء في كلمته الأثيرة لديه:

- إنه غائط...

وأدار كأس الكاشاسا. وإيبامينونداس أيضاً شرب. وتلك المرة لم تبد الكاشاسا قوية جداً.

4

لأي شيطان أمر بأن يدخلوا جميعاً دفعة واحدة؟ فذلك الأمر بأن تتعرّى الفتيات الجميلات فيفحصهن بتمهل، تحوّل لديه إلى عادة قاهرة. لم تكن إلا ملامسات خجولة. لكن ليلاً حين اضطجع مع فيلو عادت صورة الفتاة التي رآها في العيادة إلى مخيلته فكان يشبه حيواناً وقت احتدام الغلمة... وقالت له فيلو:

- إن كلباً متلبس فيك اليوم...

كانت عائلة جيرونيمو أمامه. فسمع سعال الرجل، وشخّص المرض في نفسه:

- مصدور...

وتألف المخطط لحظتئذٍ في دماغه تقريباً. كانت آميليا لا تزال واقفة هناك. أتى بحركة فخرجت مغلقة الباب. وجلس إيبامينونداس على الكرسي وبدأ يطرح الأسئلة، وعيناه تتنقلان من فرد إلى آخر من أفراد العائلة. سجل الأسماء والأعمار، ومن أين أتوا:

- وصلتم اليوم؟

- وصلنا حالاً، قيل إنه يوجد أناس كثيرون ينتظرون القطار، ونحن نريد أن نرى ما إذا كنا نخرج حالاً...

- إذن لنقم بهذه المعاينات. فاذا كنتم جميعاً بصحة جيدة ستصبحون طليقين مني اليوم بالذات... وسوف تتسلّمون أذوناتكم غداً... والآن بالنسبة إلى ركوب القطار، عليكم انتظار الفرصة. إنه حسب النظام... الذين يتسلّمون الأذونات قبل الآخرين يسافرون أولاً...

رمق مارتا:

- في كل الأحوال في الإمكان تدبير وسيلة بأن تدسوا أنفسكم في القطار قبل آخرين...

كانت جوكوندينا هي التي أجابت:

- إذا تمكنت حضرتك من هذا، ليباركك الله... فنحن مضطرون للوصول حالاً، فنقودنا التي جلبناها هي في نهايتها.

- هيّا نبدأ الفحص...

من مخططه أن يجري قسماً من الفحص، على الطفل أمام مرأى الجميع وبعد ذلك يفحص الآخرين، واحداً واحداً، وهكذا بوسعه التلصص وربت جسد الفتاة التي كانت خافضة العينين، ويداها متصالبتان على ركبتيها.

- أولاً الصغير، هنا... ما هو اسمه حقاً؟ - نظر إلى دفتر ملاحظاته، كان ودوداً وطيباً - أنطونيو...

فأوضحت جوكوندينا:

- نحن نناديه طونيو...

- حسناً جداً، يا سيد طونيو. هيّا نرى، انزع ثيابك كلها...

انكمش طونيو على نفسه في إحدى الزوايا، متمسكاً بسروال جدّه. وعندما اقترب الطبيب بدأ بالبكاء:

- لا تخف أيها الفتى... أين رأيت رجلاً يبكي؟ فلن يحدث لك شيء سيّىء...

لكن كان لازماً أن يسحبه جوان بيدرو إلى وسط القاعة بالقوة، وأن تعرّيه جوكونديناا، بين تعنيف وتهديد. كان طونيو يبكي كشخص يائس.

أضجع الولد على طاولة المعالجات.

- إنه هزيل، هيه؟

- هو الوحيد الذي بقي... - كان في صوت جوكونديناا نبرة حزينة، بحيث أن إيبامينونداس تأثر كثيراً.

- كانوا ثلاثة، ولدان وابنة اسمها نوكا... لم يبق إلا هذا... إنه الأكبر، فتحمل أكثر...

تلك الأقاصيص... المتكررة كل لحظة... من كان مصيباً هو ديوجينيس، فذلك العمل يصفّي أي فرد، وهنا تُفقد الكبرياء والحشمة كلها.

- ممَّ مات الآخران؟ - رفع رأسه، مبعداً أذنه عن ظهر الولد حيث كان يضع السماعة.

- كانت نوكا متقيّحة القدم. شُقت في الطريق، فتعفّنت، وقتلتها الحمى. والآخر في الباخرة...

- ديزنطاريا أم ملاريا؟

- المدعوة ديزنطاريا... كان رضيعاً فلم يحتمل مرق السمك... كان يوسخ نفسه طوال اليوم...

هزّ رأسه مجدداً وتابع الفحص الدقيق. وكان طونيو لا يزال ينتحب، محرّكاً جسده الصغير القذر تحت يديْ الطبيب. ورأى إيبامينونداس القمل يسرح في رأس الولد. إنه هزيل لكنه صحيح الجسم. فذلك لم يكن عنده شيء...

صفعه على مؤخرته:

- تستطيع ارتداء ثيابك أيها الفتى...

وقال لجوكونديا:

- ليس به شيء... ما يلزمه هو أن يأكل كثيراً... ربما لديه ديدان..

- التفت لينادي طونيو، ففحص عينيه - لديه، أجل. عندما تصلون إلى سان باولو أعطيه مسهّلاً قوياً للديدان... واحلقي له شعره ههنا بالضبط، فيتخلص من هذا القمل...

- نعم يا سيدي...

ملأ البطاقة:

- هذا له الحق في الإذن. والآن هيّا نرى الآخرين... أخرجوا جميعاً، يكفي أن يبقى واحد... - أشار عرضاً إلى جوان بيدرو:

- أنت، اعمل معروفاً...

فتح الباب وخرج الآخرون، أحس جوان بيدرو بكثير من الخوف مثل طونيو.

- اجلس على الطاولة... - ومضى ليأتي بالأدوات:

- انزع السترة...

وضع جوان بيدرو السترة على الكرسي.

- والقميص أيضاً.

كان الجذع العاري للقادم من السرتون قليل اللحم وذا لون برونزي. ليس لديه ملاريا، أقله، لم يكن وقت النوبة.

- قل ثلاثة وثلاثين...

لا شيء في الرئتين. لكنه أراد أن يتأخر في الفحص كيلا يفاجأوا عندما يكون مع الفتاة.

- قل مجدداً. استمرَّ في القول حتى أقول لك يكفي...

وردد صوت جوان بيدرو الخائف:

- ثلاثة وثلاثون... ثلاثة وثلاثون... يكفي...

نهض ففحص قلب المهاجر، وجذع جوان بيدرو، ثم كشَّر:

- ما هنالك يا دكتور؟

- لا شيء... - ابتسم - لا تخف... أنت تستطيع السفر...

وفيما هو يملأ البطاقة، أمره:

- تستطيع ارتداء ملابسك...

أعطاه الشهادة:

- أدخل السيدة....

بقيت جوكوندينا لصق الباب. ولاحظ إيبامينونداس قدميها من خلال الحذاء المثقوب، وقد ظهرت أصابعها.

- انزعي الفستان. بوسعكِ البقاء بالغلالة... - أدار ظهره منتظراً:

- هل أنتِ مستعدة؟

- ليس بعد...

في الواقع لم تكن قد بدأت. فالحياء يحرق وجهها. قالوا لها إن الأطباء العصريين يعرّون الشخص.

- هيّا يا دونا، بسرعة... لا لزوم لنزع الغلالة...

وأمرها بالجلوس على سرير المعالجات، وبعدها بالاضطجاع. شاهد الجسد الهرم والمترهل، كم سنة تستطيع أن تدوم؟ كان يقوم بتلك الحسابات مرات كثيرة في اليوم...

- زوجك هو الأكثر هرماً، أليس كذلك؟ هو الذي يسعل؟

والفتاة ابنتكِ؟

- نعم يا سيدي...

- والآخر هو سلفكِ؟ والفتاة ابنتكِ؟

- نعم يا سيدي... والولد هو حفيدي...

- حسناً جداً...

فحصها بتمهل، ليمضي الوقت. فالمخطط ينمو في رأسه. كان الهرم مسلولاً بالتأكيد. لن يستطيعوا السفر...

- قولي ثلاثة وثلاثين...

كان يصغي بأذنه المسندة إلى ظهر العجوز. بعد ذلك ضرب بأصابعه على أضلاعها:

- علينا أن نجري فحصاً للبلغم. عليكِ أن تعودي غداً، وسأكلم الممرضة...

- ما هنالك، يا دكتور؟ قل حباً بالله...

- ليس بالأمر المهم... إنما فقط لنضمن أنكِ. لا تشكين من شيء...

بدت محطمة. فسعى إيبامينونداس لأن يطمئنها:

- لا تضطربي، إنها مستلزمات فقط. غداً أو بعده على الأكثر، يكون كل شيء قد حُل...

وسألها:

- هل زوجكِ يسعل منذ وقت طويل؟

- منذ شهرين... فقد توقفنا في مزرعة، وبدأ يشكو ألماً في الظهر...

- ألم يبصق دماً قط؟

- حينما وصلنا إلى جوازيرو... لكن الأطباء هناك أعطوه دواء وأصبح سليماً..

- حسناً... - وفيما كانت تضع ثوبها بسرعة، نادى هو:

- آميليا! آميليا!

ودخلت الممرضة.

- فحص البلغم غداً. اتفقي معها خارجاً. كان يكفي أن يتطلّع إلى جيرونيمو، أمره بأن يخلع السترة والقميص. فظهر صدره الضعيف. هذا لا وسيلة له. فحصه لكنه يعرف التشخيص مسبقاً.

- عليك بالمجيء غداً لتجري فحصاً على البلغم. وستوضح لك الممرضة خارجاً. إنه شيء تافه، لا تتأثر...

- ألن تعطيني الورقة يا دكتور؟

- ليس الآن. بعد الفحص...

رأى الرجل ممتقعاً كأنه ميت، كأنه شخص تسلّم خبر موت قريب عزيز جداً.

- تشجّع... إنها مسألة تأكيد فقط بأنك لست مصاباً بشيء. غداً تأخذ بطاقتك...

هكذا كان يفعل في الأوقات الأولى. يمضي أياماً مضللاً، ولا يزف النبأ المرعب إلا حينما لا يكون لديه وسيلة بعد. وبعد ذلك يفقد المشاعر العاطفية، فيقوله بوحشية. لكن حضور الفتاة في القاعة الأخرى منعه هذه المرة. فتصنّع كمن لا يذكر:

- هل بقي أحد؟

- بقيت ابنتي، كان الصوت مختفياً.

- أدخلها.

مضى معه إلى الباب:

- هذا أيضاً يا آميليا. فحص غداً.

ودخلت مارتا، فابتسم إيبامينونداس:

- انزعي ثيابكِ واضطجعي هناك، أشار إلى سرير المعالجات.

عاد إلى النافذة، ليتركها حسب رغبتها.

- اعلميني عندما تصبحين مستعدة... كان الغسق يهبط، ولن تتأخر أضواء الشارع في الإنارة والعتمة تخيم على القاعة المسدلة الستائر. وأدار محوّل الضوء:

- مستعدة؟

لا جواب. فالتفت. كانت تتطلّع إليه والثوب بيدها، من دون شجاعة على نزع الغلالة.

- هيّا، انزعي كل شيء لا تخافي، إنه من أجل الفحص فقط... بوسعك أن تغطي نفسكِ بتلك الملاءة، عندما تضطجعين...

فحصها أولاً بالفعل. لم يكن بها شيء. بعد ذلك شرع في مهمته الدنيئة. كان مشحوناً بالرغبة ويداه ترتجفان مثل يديْ الدكتور ديوجينيس حينما كان ثملاً. «لكل واحد بؤسه». فكر، وأدار الفتاة إلى الأمام. وأنزل الملاءة حتى البطن. كان الثديان منتصبين وصلبين، جميليْ الرؤية. فأسند رأسه ولامست أذنه البشرة الناعمة. وكان ثمة غبطة مفعمة.

وهكذا لمس ورأى وعرف ورغب في جسد مارتا. وحينما قال: «بوسعك ارتداء ثيابكِ...» كان ذا عينين متضرجتين بالدم وأسنانه تصطك بعضها ببعض.

انكمشت مارتا وهي تضع ثيابها عليها، ولا تنظر إليه.

- اجلسي هنا، هيّا نتحدث قليلاً...

جلست، خافضة الوجه، ويداها فوق ركبتيها، في حركة حماية.

- لم أشأ التكلم مع أمكِ، لم أرد أن أسبب لها إزعاجاً. لكنكِ شابة وسأقول لكِ الحقيقة...

بُعثت الثقة الآن. بالتأكيد كان محتاجاً بالفعل ليكثر من لمسها من أجل الفحص... فرمقته للمرة الأولى، كان شاباً جميلاً، ذا عينين طيبتين.

- ابوكِ مريض جداً...

- ما الذي يشكوه؟

- سل...

- هل هو مرض الصدر؟

- إنه كذلك، أجل... وبهذه الحالة لا يستطيع السفر...

- لا يستطيع... وما الذي نستطيع فعله؟

- عليه أن يتعالج أولاً... بعدها سوف نرى... وأمكِ، لا أدري... قد لا يكون بها شيء... حسب الفحص... وأنتِ بحاجة إلى بعض الحقن...

كانت مسؤولية كبيرة بالنسبة إليها، والحقيقة أنها شيئاً فشيئاً تحوَّلت إلى شخص يعمل أكثر ويحل أمور العائلة. لكنها الآن أصبحت خرقاء، بدون أن تدري ماذا تفعل.

- سأساعدكم قدر استطاعتي... عودي غداً مع أبيكِ وأمكِ. وسنرى الفحصين. وأنتِ تأخذين حقنكِ...

ووجه التوصية الأخيرة:

- لا أحد منكم يجب أن يشرب من الوعاء نفسه الذي يشرب منه أبوكِ... ولا يأكل في الصحن عينه، أهذا مفهوم؟ وأمسكها من ذقنها برفق:

- سوف أساعد بسببكِ... فقد أحببتكِ...

في تلك الليلة تناول جرعتين من الكاشاسا في الكاباريه، وانتهى بضرب فيلو بعض اللطمات، إذ كانت مشحونة بالتدلل رافضة جسده، جاعلة إياه يتضرّع إليها.

5

المتسوّلون يملأون المدينة. يهاجمون المسافرين القادمين بالدرجة الأولى ويتخذون مواقف لهم في المحطة وأمام الفنادق. إنه حشد هائل مقروح ووسخ. متحف أمراض... قال أحدهم ذات مرة عند نزوله من القطار قادماً من بيلو اوريزونتي، كانوا فضلات المهاجرين، الذين لم يكن بوسعهم مواصلة السفر إلى سان باولو ولا العودة إلى السرتون. فبقوا ههنا، الأقل مرضاً انتهوا إلى العمل في القرى والمزارع القريبة، يحصلون كأجرة وحيدة، على الطعام والمسكن، منتظرين الموت. والآخرون انخرطوا في فيلق الشحاذين، جامعين النقود اللازمة لبطاقات السفر الى سان باولو، وهم، حتى هنا، لم يفقدوا وهم الولاية الغنية والمترفة. وحالما يجدون النقود اللازمة يستقلون القطار، فيذهبون ليموتوا في سان باولو. وآخرون يرجعون إلى جوازيرو فيسلكون من جديد دروب الكاتنغا، ليموتوا في السرتون. وبعضهم بقوا إلى الأبد في بيرابورا. ينامون على ضفة النهر، في الأدغال، مشيدين أكواخاً في الناحية الأخرى للجسر، يسرقون، حتى إنهم يسلبون.

لم يكن سهلاً، مع هذا، إذا لم يكن الصارخ من صوت ضارع، تمييز الشحاذين من المنكوبين الآخرين. وكانت المدينة تذكر بجزء من سفر الرؤيا مع تلك المئات من الرجال

الممزقي الثياب والجياع، الذين كانوا ينتظرون القطار، والذين لم يكونوا قد فقدوا الأمل في الحصول على بطاقات الصحة، الذين قد عادوا من سان باولو، والذين كانوا يصطفون أمام مركز الهجرة. أطلق الأطفال في الشوارع، ملتصقين بالمتسوّلين، وأصواتهم الناعمة مختلطة بالأصوات الخشنة الوقورة من الطاعنين في السن.

الشاعر المذكور الذي تكلم عن دروب الجوع والذي كان تشكيكياً - وهو موظف في إحدى شركات الملاحة، يشعر بالمرارة لأنه لم يتوصل قط إلى نشر قصائده في صحف العاصمة - قال إنه في بيرابورا يستطيع إجراء تصنيف لمائة من الأنماط المختلفة للمتسوّلين. فهناك الدائمون، أولئك الذين يتسكعون في الشوارع منذ سنوات، وأصبحت وجوههم معروفة، وأمراضهم كذلك. العميان والمقعدون الذين يتأخرون ليموتوا ولديهم زبائن معيّنون للصدقات. وهناك الطارئون في هذا القطاع البدائي. إذ إن الطارئين قسّموا أنفسهم في جماعات متعددة. أولاً الأطفال، وجميعهم يريدون إحساناً، حتى أولئك الذين كان آباؤهم يحملون نقوداً. وعندما وصلوا وجدوا الآخرين يمدون اليد إلى المارة فراحوا يفعلون مثلهم، كتسلية رابحة. وتبعتهم النساء مع أبنائهن الصغار بين أذرعهن، يرتدين أسمالاً، حيث أن أزواجهن قد ماتوا أثناء السفر في السفينة أو بعد الوصول إلى بيرابورا، ولم يعدن يعرفن الطريق الذي يجب أن يسلكنه، إذا كانت المتابعة إلى سان باولو أو الرجوع إلى السرتون، فيبقين في بيرابورا. الأقل تقدماً في السن توزعن بين البغاء والتسوّل، وأكثر اللواتي هن بلا قدرة حتى على السقوط في الشوارع كبنات هوى كن مستهلكات.

والرجال، في النهاية، كانوا في تجمعات مختلفة، منهم المرضى تحديداً، الذين سرق منهم إيبامينونداس جميع الآمال في السفر والذين يحاولون إخفاء نقود معدنية صغيرة يجمعونها ليدفعوها لقاء بطاقات السفر في القطار الذي يواصلون به مسيرتهم، أو في الباخرة العائدة. الذين كانوا مصابين بالملاريا ويتناولون حبوب الكينا وما يزالون واثقين بالحصول على البطاقة والإذن. والذين وصلوا من سان باولو بلا نقود من أجل الباخرة، فيسرق بعضهم بعضاً، متدافعين في المحطة وعلى رصيف المرفأ، وعند أبواب الفنادق، متعرضين للشمس في الساحة، ملتهمين فضلات الطعام، باحثين عن أشياء في صفائح القمامة. في الصيف يجرّون أنفسهم بشكل أفضل تحت الشمس التي لا ترحم، لكن عندما يحين الشتاء بأمطاره التي تدوم نهارات وليالي، فإنهم آنئذٍ يهربون إلى الأكواخ المرتجلة بعجلة، مختبئين في المزارع حولهم، ويموتون بالدزينات.

كانت كمدينة للشحاذين، ولو كان للشاعر بعض الموهبة وأقل مرارة، لربما تمكن من كتابة شعر خالد، لكنه، في الأوقات الأخيرة، كان يفضل نظم عدد من السوناتات في الحب للعاهرات،

وهكذا ينام بلا مقابل مع أقلّهن دمامة.

في البنسيون، حيث كانوا يدفعون ثلاثة آلاف ريس في اليوم على كل واحد منهم، للنوم والأكل (فاصولياء وشريحة كبيرة من القديد)، حسبوا النقود مجدداً، وخرج جوان بيدرو سعياً للعمل، كان يوجد دزينات من الرجال يفتشون عن عمل. وكان طونيو قد أصبح بين الأولاد متسولاً. وضربه جيرونيمو، فما فكر أبداً أن شخصاً يخصّه سوف يمد يده طالباً إحساناً من العامة. لكنه الآن يرى أنه ربما لن تكون لهم وسيلة أخرى. وكانوا يستجوبون أنفسهم حول ما قاله الدكتور. وحدهما جوان بيدرو وطونيو اللذان لدى كل منهما بطاقة.

أخبرت مارتا جوكونديا بمرض أبيها:

- قال إنه لا يبدو على حضرتكِ أنكِ مصابة بشيء... لكن أبي مريض بالفعل... لكن سوف يساعده...

كانت جوكونديا، رغم قنوطها، لا تزال تعثر على كلمات لتثني بها على الدكتور:

- إنه رجل طيب...

- سينتهي بنا الأمر الى أن نطلب إحساناً...

وتذكرت الفتيان الثلاثة. فلو كانوا هنا لاختلف الأمر، هل يختلف حقاً؟ ربما الأفضل أن يكون الأمر هكذا، كما قد حدث، أقله فإن أولئك الثلاثة لن يتسوّلوا في الشوارع، وتذكرت جوكونديا أيضاً غريغوريو الذي أطلق النار على أرتور:

- ليته ليس سجيناً... حبذا. فإن ما فعله كان عملاً طيباً... للأسف لم يكن الدكتور أوريليانو هو الذي أصيب...

وفكرت مارتا في أوريليانو الذي كان يتلمسها مثلما فعل هذا الآخر، الطبيب في العيادة، كانت تشعر برعشة في الصدر، تبعد الجوع والحزن، وتجعلها ترى أنوار المدينة. وفيسنتي، أين مآله؟ لم يكن قد لمسها قط. وهو الذي تحبه مارتا.

6

رجعوا جميعاً إلى العيادة، أمرتهم آميليا بالانتظار، فظلوا في القاعة المزدحمة، ينظرون إلى الباب يُفتح ويُغلق، يدخل منه أناس ويخرجون، بعضهم فرحون بالبطاقة التي تمكنهم من

الحصول على البطاقة المجانية، وآخرون محبطون، نساء بعيون حمراء من البكاء، أخيراً دُعي جيرونيمو وجوكونديناً للفحوصات، وقال إيباميندناس إن عليهما العودة في اليوم التالي للحصول على الإجابة. ووعد:

- سأقوم بالفحص اليوم بالذات...

- دكتور، إني أتوسل إليك حباً بأمك، بأن تسرع... ها قد أصبحنا بلا نقود، وغداً يجب أن نغادر البنسيون. ولا تكفي النقود التي بحوزتنا للدفع عن هذا اليوم...

- غداً بالذات سوف تحصلان على النتيجة... والآن ابعثا بالفتاة لتأخذ الحقنة. إنها تعاني فقر دم شديداً، لكن ببعض الحقن ستتقوّى وسأستطيع إعطاءها الشهادة.

انتظر غير مصطبر، دخول مارتا. فلقد غلى الحقنة والإبرة. وأخيراً، سوف تجعله يشعر بالتحسن حقاً.

ألقت عليه تحية المساء وابتسمت بحياء.

- غداً سأحصل على نتيجة فحصيْ البلغم لوالديكِ... أتمنى أن ينتهي كل شيء على ما يرام... لكن أريد إشعاركِ بأني أشك بألا يكون العجوز مصاباً برئتيه.

- وإذا كان مصاباً، ألا يستطيع السفر؟

- أقله لا يستطيع على حساب الولاية... وإذا كان ذلك على حسابه الخاص فلن يحصل على أي من التسهيلات للعمل، والضيافة حتى يغدو متعاقداً، المساعدة، لا شيء من هذا. عملياً لن يحل ذهابه على حسابه المشكلة.

- لو استطعت يا سيدي مساعدته...

- ما أستطيع فعله يا ابنتي، سوف أفعله.. فأنت تستحقين...

ابتسمت، وخفضت عينيها. لم تفهم جيداً ما كان يبغي، لكنها تعرف أن كلماته ونظراته تستلزم غرضاً معيّناً، حيث أن معناها الأعمق يفوتها. فشكرته.

لم تكن تدري ما عليها أن تفعل، فأوضح لها:

- إنزعي سروالكِ وارفعي الفستان. فالحقنة في الورك...

- أين؟

- في المؤخرة...

مرر القطن مع الكحول ، وضغط على البشرة القاسية واغرز الإبرة، فأنّت بشكل خفيف.

- إنها لحسرة أن يُجرح شيء جد جميل... لم تقل مارتا شيئاً، شعرت بوخزة الإبرة التي سحبها، لكن يديه استمرتا تدلكان الموضع:

- كيلا تشكل دملة... ورماً...

انزلقت اليدان على فخذيها، وصعدتا مجدداً إلى الوركين، واحتضنتا البطن، ولمستا وسطها بالذات... فارتعشت وصعدت الحرارة إلى وجهها، فحرّكت جسدها متخلّصة منه.

نهض إيبامينونداس، وهو خائف من أن يكون قد أخافها، وحالاً غيَّر الحديث إلى ناحية أخرى، فيما كانت مضطربة تتجنب النظر إليه.

- قالت لي أمكِ إنكم بلا نقود لتدفعوا للبنسيون، وإن لديكم فقط نقوداً لهذا اليوم...

- العم جوان بيدرو يفتش عن عمل. قلّب إيبامينونداس محفظته، وسحب ورقة نقدية من ذات الخمسين ألف ريس وبسطها لها:

- هذا ليساعدكم إذا اضطررتم للتأخر، لستِ ملزمة بأن تقولي لأمكِ بأني أعطيتكِ إياه...

أرادت أن ترفض. لكنها كانت تعرف أن النقود على وشك النفاد ولن يكون لهم مكان يبيتوا فيه ولا ما يأكلون، ومع الأب في تلك الحالة... فقبلت:

- حضرتك طيب جداً...

فجازف:

- بوسعكِ الحصول على أكثر من ذلك، لكن مارتا كانت قد مدت طرف أصابعها الوجلة بوداع.

في البنسيون أخبرت جوكونדينا بأن الطبيب أعطاها تلك النقود. لكنها سكتت بصدد اليدين اللتين لمستا فخذيها وبطنها. وتأثرت جوكوندينا:

- ليعطه الله الحظ... فيا له من شاب طيب...

- قال إن لا أمل من أبي...

- كيف سيغدو الحال يا ابنتي؟

وكان جيرونيمو يسعل بانفعال، وجوان بيدرو لم يعثر على عمل، حتى ولا لقاء الطعام، فالمهاجرون يفيضون في المدينة والمزارع الموجودة في الجوار كانت ممتلئة أكثر من اللازم.

7

رغم أنه كان معتاداً ذلك المشهد، فإن إيبامينونداس كان يخشاه دائماً.

- هل أجريت أنت حضرتك الفحصين؟

- أجريتهما، أنتِ ليس عندكِ شيء - كان يوجه الكلام إلى جوكونديna - والآن أنت يا صديقي العجوز لديك الرئة مصابة. وفي هذه الحالة لا تستطيع السفر...

- ألن تعطيني الورقة أيها السيد؟

رأى أنه ليس من السياسة الحميدة أن يقطع كل الآمال:

-أقله هذا مستحيل في الحال. ستجري علاجاً سريعاً وقاسياً: حقن يومية، راحة وتغذية. ومع بعض الوقت، ربما أستطيع إعطاءك الشهادة...

- وكيف سنعيش حتى ذلك الوقت؟ ورفع جيرونيمو رأسه...

- أيها السيد الطبيب، كن صريحاً معي... إذا لم يكن من وسيلة قل لي، لأنهم هكذا - عرض له العائلة - سيذهبون، وأنا أبقى وحيداً. وبعد أن يصبحوا هناك، ويعمل جوان بيدرو والاثنتان أيضاً، يرسلون إليّ النقود فأركب القطار...

في تلك اللحظة كان على حافة التنازل عن مارتا، ويقول للعجوز إنه لن يستطيع أبداً إعطاءه البطاقة، وسيتدبّر في الدائرة أمر سفر جوان بيدرو والمرأتين في أول قطار، ويعطي بعض النقود ليساعد جيرونيمو في الحصول على بطاقة سفر، لكنه يشعر أن في يديه حرارة ردفيْ مارتا:

- ربما تستطيع أنت الذهاب، مع علاج جيد أقوم به مجاناً... بالنسبة إلى العمل، أستطيع أن أتدبره لمارتا. فإذا كانت تحسن الطهو، بوسعها، خلال الوقت الذي تقضونه هنا، أن تطهو طعامي في بيتي... إنها مساعدة. وأستطيع أن أجد لكم مكاناً تبقون فيه. أظن أن الأفضل هو أن تنتظروا... وحالما تصبح أفضل حالاً سأعمل على ترحيلك في أول قطار...

- حضرتك طيب أكثر من اللازم... فالله قد وضعك في طريقنا.

أوجعته الكلمات كأنها توبّخه وتصفعه. ولكنها كانت ساعة إعطاء الحقنة لمارتا وملأت الغلمة عينيه مجدداً. «كل الحشمة» كان ديوجينيس من قال ذلك.

8

كان يوجد بعض الزنوج في إحدى زوايا الشارع يدينون له ببعض الفضل، في الواقع أنقذ السوداء حينما أصيبت بالتيفوئيد. وهم يسكنون كوخاً كبيراً وقديماً، وهناك أسكن إيبامينونداس جيرونيمو وعائلته.

لقد سُرّ السود بإسداء معروف له. ولم يريدوا تسلّم العشرين ألف ريس التي أعطاهم إياها.

- إنهم أناس أوصاني بهم صديق...

ولم يطلب الزنوج إيضاحات كثيرة. ومارتا الآن تذهب إلى مسكن الدكتور، فتعد له الطعام، وترتب البيت. ودهشت الزنجية التي كانت تجيء قبلاً للعطلات التي أعطاها لها الطبيب، فذلك أمر لم يعرفه أرباب البيوت. ومع مرور الأيام أدركت مارتا الدوافع التي حدت إيبامينونداس لمساعدتهم. فلم يترك فرصة إمساكها والضغط على ثدييها وفخذيها تفوته.

كانت ترفض الجسد لكنها لم تستطع إمساك نفسها دائماً، وأكثر من ذلك، كانت ثمة ساعة الحقنة التي أخذ يعطيها إياها في البيت. وكان في كل مرة يغدو أكثر جنوناً بالهجينة، مستعداً لامتلاكها مهما كلف الأمر. وذلك الاهتمام بمارتا جعل فيلو تشتعل غيرة، واغتنم هو ذلك ليقطع علاقته بالفتاة.

كان يقضي كل وقت فراغه في المنزل، دائراً من القاعة إلى المطبخ، منادياً مارتا بذريعة أي تفاهة، وصار يدور حولها حين تكنس الفتاة القاعة فيجرّها من يدها.

وأدركت هي ذلك. في البداية أرادت الفرار، والتخلّي عن كل شيء، وإعلام جوكونDينا. لكنها قلّبت الأمر ورأت أنه لن يبقى لذويها شيء، لا البيت حيث يعيشون، ولا تلك الأربعون ألف ريس التي سيدفعها لها الطبيب في الشهر والكثير الذي يقدمه لطونيو ليوصل رسائله، والأسوأ من كل شيء، اختفاء أي إمكانية لوالدها في السفر، وإذا لم يذهب والدها معهم، كيف سيتدبّرون أمرهم في سان باولو؟

فكرت مارتا في كل هذا. أدركت أنه يستحيل الفرار من الطبيب. وشيئاً فشيئاً بدأت تحب تلك اللمسات. فإيبامينونداس كان شاباً جميلاً، وتعرف أنها لن تقاوم لأمد طويل، فقررت آنئذٍ انتزاع كل ما تستطيع اغتنامه من هذه الحالة. وهي تعرف أن جيرونيمو إذا اكتشف الأمر فلن يتعرف إليها. إنها لا تخدع نفسها بالنسبة إلى إيبامينونداس، فهو لن يلبث أن يطلقها ههنا، ولن يتزوج منها حتى ولا أن يتخذها عشيقة. إنه دكتور، وخاطب في سان باولو، وصورة ماريبيتا إلى جانب السرير، مع إهداء حنون هجأته مارتا: «إلى محبوبي إيبامينونداس، مع كل الاشتياق اللامحدود من خطيبتك الصغيرة ماريبيتا».

عندئذ صممت ببرود تقريباً، على أن تسلّمه نفسها لقاء الإذن لوالدها بالسفر والأذونات للجميع، باستثنائها بالطبع. فإذا اختارت بينها وبين أبيها، فالأفضل أن يسافر هو. وعلّمتها غريزتها كامرأة أن أفضل تصرف هو أن تهيّجه إلى أقصى الحدود، وهذا ما فعلته... فصارت شرسة وصعبة، تبتسم من بعيد، وتلقي عليه نظرات واعدة، وجسدها بعيد دائماً. وبات إيبامينونداس في كل مرة أشد جنوناً.

أخيراً أمسكها ذات مساء، فجرح شفتيها بالقبلات. وتمكنت من الإفلات منه بجهد، كان عليها أن تتغلّب على الإحساس بالحرارة الذي كان يجتاح جسدها، وبدأت عندئذٍ المطاردة. فكان يتعقبها كل لحظة وهي تهرب، والاثنان دون أن يتكلما، وأحست مارتا أن اللحظة كانت تقترب... وأحياناً كانت تبقى ليلاً في البيت، وحينما ترى أباها وأمها وابن اختها وعمها، وتذكر أنها لن تحبهم، فإنها تعرف مصيرها: شوارع النساء، الكاباريه التي كانت تعمل ليلاً. لكنها كانت مصممة. إنما تتحسّر لكون فيسنتي لم يملكها في جوازيرو. وهكذا كانت تبقي للدكتور الفضلات فقط. فهو لا يستحق أكثر من ذلك.

9

دخل طونيو المنزل راكضاً:

- جدتي! جدتي!

فجاءت جوكونديـنا. كانت تعتني بجيرونيمو، بحسب تعليمات الدكتور. وكان طونيو يرتدي اسمالاً وعيناه قلقتين، وقدماه حمراوين من غبار المدينة.

- ماذا هنالك؟

ضحك ضحكة صبيانية:

- رأيت الدكتور يقبّل خالتي مارتا...

أخذته من هناك كيلا يسمع جيرونيمو. وجعلته يروي المشهد برمته، موصية إياه بعد ذلك بالتزام الصمت.

- كنت قادماً لأطلب توستوناً من خالتي، فكان الدكتور ممسكاً بها، مقبّلاً إياها من فمها... خرجت راكضاً، وهما لم يرياني...

حينما جاءت مارتا تلك الليلة، كانت بحالة إرهاق، تسير كما لو أنها تحس بآلام، لكنها تبتسم. وفي يدها البطاقة التي تقول إن جيرونيمو رجل بصحة كاملة وهو صالح للسفر. وفكرت جوكونديـنا في التحدث معها ومعرفة حكاية تلك القبلات. لكنها حينما رأت البطاقة فهمت ما حدث فارتعشت وهي منشطرة القلب ألماً.

استشفّت مارتا أن والدتها فهمت الأمر فظلتا صامتتين، فيما كان الرجلان يعلّقان:

- ها قد صار باستطاعتنا الذهاب الآن..

- أمامنا أناس كثيرون.

- سوف يدبّر الدكتور أمر ذهابنا قبلهم.

وناما أخيراً. ناموا جميعاً في القاعة نفسها الملأى بالثقوب على حصر. وانتظرت جوكونديـنا إلى أن نام الجميع، ثم لمست كتف مارتا. كانت الفتاة متشنجة. فخرجتا إلى مقدم البيت، ومارتا خافضة العينين، لكنها لم تكن بحاجة حتى إلى الكلام. لكن جوكونديـنا قالت:

- أخبريني!

وبما أنها لم تجب، فقد سألتها:

- هل أساء إليك؟

هزّت رأسها.

- ألم يعط البطاقة إلا بعد ذلك؟

تطلّعت إلى أمها بعينين مبللتين. وانتظرت كلمات التوبيخ وأعدت نفسها لذلك. لكن جوكونديـنا لم تقل شيئاً. ظلت مقرفصة مطلقة اليدين، مفكرة، وبعدها تناولت يد ابنتها وأقدمت على شيء لم تقدم عليه منذ سنوات: قبلتها من جبينها. واضطربت الدموع في عينيها.

بعد ذلك كان ما قالته:

- إذا توصل أبوكِ إلى معرفة الأمر فقد يقتل الدكتور... ويطردكِ خارجاً...

- سوف ينتهي به الأمر إلى أن يعرف.

لم يكن لديهما شكوك حيال هذا، فقالت جوكونديـنا:

- لو كان بوسعنا الذهاب حالاً... اطلبي ذلك منه.

لم تكن تشعر حتى بالحقد على إيبامينونداس. فذلك لا بد من حدوثه. إنه القدر. كما أنه من حسن الحظ أن لا يكون الأولاد الثلاثة هنا، نظراً إلى الطبع الذي يحوزونه. فهم قادرون على إحداث كارثة.

- اذهبي لتنامي يا ابنتي...

وبقيت هي هناك. تستمع إلى هدير النهر، والسماء المتلألئة بالنجوم تترك نوراً فضياً يتساقط على شعرها الذي ابيض كله في الرحلة.

10

أراد إيبامينونداس استبقاءهم قدر استطاعته، فلم يشبع بعد رغبته، حدد إذن السفر لهم في القطار الثاني للمهاجرين. بعد ثلاثة وعشرين يوماً. الآن وقد أقدم على حماقته بإعطاء الشهادة، عليه الاستفادة من الهجينة بأكثر ما يستطيع. كانت هي المرة الأولى التي يعطي شهادة لمهاجر

مريض. فقد قاوم كل التوسلات، فأي مسلك أخلاقي بالإمكان أن يكون لدى الموظفين الآخرين في الدائرة؟ آميليا عرفت نتيجة الفحص، والموظفون عقبوا على الأمر، فلم يعد سراً. وحالما وصل إلى علم المهاجرين فإن أحدهم وكان قد تلاسن مع جوان بيدرو، قذف بوجهه الحدث:

- حضرتك لا تساوي شيئاً.. أعطيت شرف البنت من أجل شهادة للعجوز...

أصيب جيرونيمو بنوبة غضب عندما علم بذلك. ولو لم تكن جوكونداينا قربه لقتل ابنته، إذ انهال عليها بقطعة خشب:

- انصرفي من هنا أيتها العاهرة عديمة الحياء! الشقية! الشقية! الشقية! إني رجل عجوز وهذه الشقية تلوّث شيخوختي.

وخرجت مارتا مجروحة الوجه، تركض في الشوارع. كان الوقت عند هبوط الليل. وثمة مهاجرون منتشرون في الجوار، وصراخ جيرونيمو مستمر في الداخل، وجوكونداينا تحاول تهدئته، وأخيراً أصيب بنوبة سعال، واضطر إلى النوم.

عند ذلك حاولت جوكونداينا الدفاع عن مارتا. لكن جيرونيمو لم يشأ سماع شيء، معلناً أنه لا يرغب مطلقاً في رؤيتها ومنع أي اتصال من العائلة بها.

وحالما تحسن من نوبة السعال أمر بإعداد كل شيء ليغادورا ذلك البيت، فلن يلبث هناك حتى ولا دقيقة واحدة بعد الآن، في ذلك البيت الذي قدَّمه الطبيب عشيق ابنته، وأقاموا تحت بعض الأشجار، حيث خيّم مهاجرون آخرون، وكان الزنوج ينظرون إلى ذلك ولا يفهمون شيئاً. والمهاجرون يتلصصون عليهم بدون أية كلمة.

11

لم تستطع مارتا البقاء أياماً طويلة في بيت إيبامينونداس. فالمسألة متداولة كثيراً في الدائرة وخارجها بالذات (حتى الشويعر قد تكلم مع الطبيب عن الموضوع) وشاع أنه خصص بيتاً للهجينة. ومن ناحية أخرى فقد فترت حماسته، فكانت جاهلة في الأمور الجنسية وإيبامينونداس اعتاد بنات الهوى، العليمات بكل الفواحش. ووصلت بغي جديدة من جانواريا، واحدة جاءت من باهيا مع رقيب ثم تركته لتصير مومساً. وكان إيبامينونداس يصوِّب عينيه عليها.

وأخذت مارتا طريق الكاباريه وشارع البغايا. ولأنها جديدة هناك، جاءها زبائن كثيرون، وبعد أيام أصيبت بالمرض، لكن نال منها الجهد قبل أن تعلم بذلك. فلم تكن تفهم شيئاً عن هذا

الأمر. وإيبامينونداس هو الذي عالجها (ورث أولئك الزبائن من ديوجينيس) لكنه كان بعيداً جداً وبارداً بحيث لم يبد أنه الرجل المشتاق في الأيام الخمسة عشر الماضية. وهزلت مارتا وهي الآن تضع المساحيق على وجهها وشفتيها وصنعت فساتين واشترت بعض الأحذية.

12

كانت هي التي تعيل العائلة. إن جيرونيمو وطونيو يتسولان، لكن الشحاذين كثيرون. واصلوا العيش تحت الشجرة، في اختلاط مع دزينات من المهاجرين الآخرين، وكلهم بانتظار القطار أو الإذن. ولم يعد جيرونيمو يتكلم مطلقاً مع ابنته، لكنه استشفّ بصورة مبكرة أن النقود التي تشتري جوكونديتا بها الطحين والفاصولياء والسكر والقهوة والقديد مصدرها هي، من الرجال الذين يضاجعونها.

في تلك الرحلة لم يجرحه شيء أكثر من ذلك. ولا شيء أحزنه أكثر من تلك الطريقة. فقد كان يحب تلك الابنة. وحتى الآن، مع أنه قد أطلقها، فإن صورتها هي التي يحملها في قلبه.

حينما عرف أن النقود كانت مارتا هي التي تزوّدهم بها، كان له مشهد عنيف مع جوكونديتا.. لكنه بعد ذلك توقف عن الاحتجاج. هل كان يتركهم يموتون جوعاً، كلهم؟ إن الطعام مرّ في فمه وأصبح صدره في كل مرة أكثر تقعّراً، والسعال يتزايد.

كان يراها، عندما تخرج جوكونديتا للقاء ابنتها، وحين تعود، مع المواد الغذائية، فإن عينيها حمراوان من البكاء. ولم يقل شيئاً.

13

أخيراً وصل القطار، وسيرحلون في اليوم التالي. وفي الليل مضت جوكونديتا تودع مارتا في الشارع حيث تسكن. إنها المرة الأولى التي تراها بثياب الليل، تلك التي تتردد بها إلى الكاباريه، والمساحيق على خديها وعطر عدواني في عرفها.

- سنذهب غداً...

احتضنت كل منهما الأخرى وهما تبكيان. كانت جوكونديتا قد جاءت بطونيو ورافقها جوان بيدرو. لقد دعت جيرونيمو للذهاب معها:

ـ ألا تريد أن تودع المسكينة؟ لكنه لم يجب. كان دامي القلب محني الرأس، ولديه رغبة في أن يموت حالاً، في أن ينتهي ذلك كله.

تحدثتا وقتاً طويلاً. أخبرتها مارتا أن فيسنتي قدم بالباخرة التي وصلت عشية أمس. وكان في الكاباريه. لكنها لم تخبرها بأنه حالما لمحها وكان يحتسي الخمرة مع بعض الرجال، انسحب حتى من دون أن يتكلم معها.

أعطتها كل ما لديها من نقود. وكانت جوكونديتا تجهش بالبكاء. فقالت مارتا.

ـ غداً سأذهب إلى المحطة. أريد رؤية أبي...

14

كانوا ينظرون إلى القطار الذي يتصاعد منه الدخان. والمهاجرون يصلون جماعات والعربات الثلاث الأخيرة محجوزة لهم، عربات من الدرجة الثالثة. ولن يغادروه إلا في سان باولو، أخيراً سوف يصلون إلى هناك، إلى تلك البلاد ذات الترف والثراء، كانوا جميعاً راضين، يبدو أنهم نسوا كل ما مرّ بهم. والذين لا يستطيعون السفر ينظرون إليهم بحسد، ويمدون يداً تستعطي من مسافري الدرجة الأولى.

جلس جيرونيمو على مقعد خشبي طويل إلى جانب جوكونديتا. وكانت هي إلى جانب النافذة، ويدرك العجوز أن رغبتها هي في النهوض، فمارتا يجب أن تكون موجودة في المحطة، غير أنه لم تكن لجوكونديتا الجرأة على التطلّع، فكانت تخشى زوجها. وجوان بيدرو وطونيو على المقعد المقابل، لهما هيئة تآمرية ووجلة. فقد حاول الصبي مرتين النهوض لكن جيرونيمو أجبره على الجلوس:

ـ ابقَ ههنا، وإلا فسأحطمك كلياً يا ابن أمك ...

نصب مهاجرون أراجيح في القطار، وآخرون كانوا قد قاموا بتلك الرحلة، يعلّمونهم. العربة مزدحمة. يمرّ أناس ويخرج أناس، وأشخاص يزعقون بأسماء، بسباب، وثمة أحاديث. وفي وسط هذا الاضطراب اكتشف جوان بيدرو (كانت عيناه تبحثان عن مارتا) غريغوريو بين الذين يتمشون في المحطة:

ـ أنظر من الذي هناك! إنه غريغوريو!

- من؟

أرادت جوكوندينا النهوض، لكن يد جيرونيمو المرتاحة على كتفها، منعتها.

ونادى جوان بيدرو زاعقاً:

- غريغوريو! غريغوريو!

ميّزهم غريغوريو، فاندفع بين المهاجرين، وأتى بجهد فتسلل إلى القطار.

- وصلت البارحة بالباخرة. ولم أكن أعرف أن حضراتكم ههنا... وإلا كنت قد بحثت عنكم.

رمق الوجه الهزيل لجيرونيمو، ولاحظ فقدان كثير من أفراد عائلته، وسألته جوكوندينا.

- ألم يحدث لك شيء؟

- لقد خصيت القط ودسست نفسي في الغابة، وقمت بدورة كبيرة حتى وصلت إلى جوازيرو. كان عندي مبلغ من المال...

أخبرهم بأنه قد أجرى الفحص:

- ها قد حصلت على الإذن، سأذهب من هنا بعد شهر...

- إبحث عنا هناك.

صفّر القطار، وقبل أن ينطلق، سأل غريغوريو جيرونيمو:

- وبقية العائلة؟

وكادت السعلة تحول دون الإجابة:

- أكلهم الجوع في الطريق...

ولهث القطار وبدأت الآلة في السير ببطء، وزادت من سرعتها. فقفز غريغوريو. ثم نهضت جوكوندينا عند ذلك وأبعدت يد جيرونيمو التي كانت تمسك بها، وقذفت بنفسها إلى النافذة. ونهض جيرونيمو أيضاً ليجبرها على الجلوس. لكنه بدلاً من ذلك، شبك ذراعيه معاً، فوقها، طوال

الوقت ليرى أيضاً، في ركن المحطة، مارتا بفتسان أحمر، تشير بيدها. وكان القطار يصفّر عند المنعطف.

الجزء الثاني
طرق الأمل

جوزيه

1

ارتمى جوزيه، الذي ينادونه زيه تريفوادا، على الأرض. لقد مرت الرصاصة وهي تئزّ، على الارتفاع الذي كان فيه رأسه لو لم يكن سريعاً. فانبطح على شجيرة علّيق، لكن الثياب الجلدية التي كان يرتديها حمت جسمه، إضافة إلى كونه معتاداً. صوّب عبر الشجيرات، ولم يطلق الرصاص في الحال. بقي واضعاً عينيه على شارة التصويب في البندقية. وحينما دفع الزناد، أطلقت في الوقت نفسه صرخة حادة كصرخة حيوان ثائر، وسُمعت صرخات أخرى عبر الكاتنغا وحشية وغريبة. ورأى زيه تريفوادا الرجل ممدداً، ويداه تنتفضان في الهواء، تاركاً سلاحه. فأبلغ لوكاس آرفوريدو الذي كان متمدداً هو الآخر:

- صفّيت واحداً...

ابتسم لوكاس آرفوريدو. كان قلقاً حيال السلاح، فلم يكن يريد إضاعة الطلقات خصوصاً الآن حيث زيه تريفوادا يسدد بندقيته إلى أحد رجال الشرطة الأشقياء.

- سأذهب إلى هناك.. - صاح أحدهم وعرف صوته من الجانب الآخر، حيث كان جنود الشرطة. فقد انطلقت الرصاصة، ونجا الملازم بمعجزة. وأحس الجنود خلال ثانية بالرغبة في ترك السلاح والهرب، لكن ذلك كان للحظة فقط. فالملازم أعطى الأمر:

- أطلقوا النار!

وبدأ اطلاق الرصاص مجدداً، وكانت الرصاصات تتسلل من بين شجيرات العلّيق، فتجفل الأفاعي والعظاءات. وتشجع الجنود مجدداً بأمل تصفية لوكاس آرفوريدو وعصابته من الجاغونسوس.

كان الجريح يئنّ أنيناً مكتوماً، فالرصاصة دخلت البطن، وظهرت الدماء وقطع من الأمعاء على ردائه العسكري. وأعطاه جندي عجوز يدعى كانديدو ماء. لم يشأ الملازم النظر إلى تلك

الناحية. إنه ولد تقريباً، فمشهد الرجل الذي يحتضر كان يشعره بالغثيان، ولم يكن قد مضى على تخرّجه وقت طويل في مدرسة الشرطة العسكرية في ولايته. ولكونه متزوجاً وأنجب ولده الأول، فإن الآمر الذي يحبه لسلوكه الحسن ولمواظبته على دروسه، تدبّر له تلك الوسيلة بأن أوكل إليه هذه المهمة كملازم، فأرسله إلى مدينة في الداخل مع حامية صغيرة. وعاد الجنود إلى إطلاق النار، ولم يرد الكانغاسيرو عليهم.

وفكر الملازم:

هل هربوا؟

كانت تلك معركته الأولى، و لا يعرف أي شيء عن طرق الجاغونسوس. وكان الجندي العجوز هو الذي أبلغه بأن الأمر مجرد بداية. وينوي الملازم محاصرتهم، فأمر بأن يهبطوا دائرياً بممر كان إلى جهة اليمين، ليهاجموا لوكاس من الخلف.

هزّ كانديدو رأسه، لكنه لم يقل شيئاً. فقد اعتاد طاعة الأوامر. وترك الجندي الذي كان يحتضر ليكون في مقدمة الدورية التي ستتبع طريق الممر.

لم يكن الملازم يعلم ما إذا كان قد حالفه الحظ أو النحس. فعشية أمس مساء (وصل منذ أسبوع فقط إلى المدينة وساعد زوجته في إعداد المنزل، فخوراً بابنه الصغير) حملت الخبر شاحنة محمّلة بالإسمنت. وأخبر السائق أنه التقى عصابة لوكاس على بعد أربعة فراسخ من هناك. أوقفوه وهددوه بالسلاح. والمدعو زيه تريفوادا وضع الحربة في عرفه. طلبوا معلومات عن المدينة وعدد جنود الشرطة والأسلحة التي بحوزتهم. وأخبرهم، من لا يخبر؟ فأخذوا منه ساعتئذٍ النقود التي كان يحملها، وتفحصوا حمولة الشاحنة، وحينما رأوا أنه إسمنت، أمروه بالانصراف. ليس بإمكانهم أن يكونوا بعيدين. وعندما غادرت الشاحنة اختلس السائق النظر إليهم، فرأى أنهم دخلوا الكاتنغا.

لم يقل الملازم شيئاً لزوجته. ذهب ليتحادث مع المحافظ. وجد أن من الأفضل الذهاب لملاقاة لوكاس ومهاجمته في الكاتنغا، فيقتله أو يلقي القبض عليه، وأقله يحمله على الفرار بحيث ينتزع منه الرغبة في المسير إلى هذه الأنحاء. ووافق المحافظ. كانت عصابة لوكاس على وجه العموم تتجنب مدينة محصّنة جيداً بحامية. فلو ذهب الملازم مع الجنود، لاعتقد لوكاس أن هؤلاء هم مجرد طليعة الفرقة المعسكرة في المدينة. حتى لو لم يكن الملازم يبغي القتل، فهو بالتأكيد سوف يركن إلى الفرار. وفيما يحدث هذا، يكون المحافظ قد جمع رجال المدينة، فيسلّح الأكثر

إقداماً وعلى سبيل الافتراض لو قدم لوكاس، فهم سوف يواجهونه. واقترح أيضاً أن يوفدوا أناساً برسالة إلى المدينة المجاورة طالباً أن تأتي دورية من هناك. إنما بين الذهاب والإياب ستتأخر أكثر من يوم، إذ إن طريق السيارات مقطوعة من قبل لوكاس، وعلى الرجل أن يذهب سيراً على الأقدام في الكاتنغا. ورأى الملازم أن لا لزوم لكل ذلك. فلديه ثمانية عشر رجلاً يكفون لهذه العملية. ويستطيع المحافظ أن يسلّح حوالى ثلاثين رجلاً في المدينة. وليس لدى عصابة لوكاس، برأي الجميع، أكثر من عشرين رجلاً...

قال المحافظ:

- أقلّ... فعندما دخل غراوونا كان لديه أحد عشر من الجاغونسوس.

- فإذن...

لم يقل لزوجته إلا عند ساعة الانطلاق فقط. رآها ممتقعة. حين اقترح الآمر نقله وترقيته، لم تكن تريد الموافقة. فتلك المدينة النائية الضائعة في السرتون، تقع عند حدود الأرض التي يسيطر عليها لوكاس آرفوريدو. وكان المدعو لوكاس يسمي نفسه «حاكم السرتون». ومنذ أكثر من عشر سنوات اجتاز الكاتنغا وهو يسرق ويقتل ويغتصب، وعمت شهرته الدنيا، ولم يتمكنوا من القبض عليه. مرة وحيدة لم تخطئه رصاصة، فأصابته بجرح في الفخذ. لكنه الآن معصوم من الإصابة بالجروح بعدما أغلق الطوباوي استيفان جسده. بات الآن أشد شراسة منذ لقائه الطوباوي الذي أمضى في صحبته أربعة أيام. وقد تركه منذ أقلّ من أربعة أشهر وانطلق في مسيرته في الكاتنغا.

لم يعرف الملازم ما إذا كان محظوظاً أو منحوساً. قد تكون الترقية في رتبة نقيب لجدارته والصورة في الجرائد والتكلم عنه حتى في ريو دي جانيرو، إذا اعتقل أو قتل لوكاس آرفوريدو، وقد يكون موته أيضاً. فالكانغاسيرو في عصابة لوكاس لم يعتادوا أن يخطئوا التصويب. والملازم كان شاباً، ولديه خيط من شارب فوق الشفة، ويعشق البزة التي يرتديها ويحلم بالمجد. إن اسمه إيزكييل دا سيلفيرا، والجنود يحبونه ويرون أن ذلك كان شؤماً.

حين بدأ إطلاق الرصاص فكر الملازم في ابنه. عندما يكبر قد يصبح فخوراً بأبيه الملازم الذي كسر لوكاس آرفوريدو.

وبقي واقفاً بين الشجيرات، غير مكترث للجندي العجوز الذي كان يعامله كابن له والذي يتضرّع بأن يتمدد على الأرض. لكنه لا يجيب فيبقى واقفاً وهو يبتسم، ويدير المعركة.

خرج عشية أمس عند حلول الليل وفي الصباح عُثر على أثر لوكاس في طريق السيارات. فدخلوا عميقاً في الكاتنغا، والرجال يعرفون اقتفاء آثار الكانغاسيرو . كانوا يمضون على هذا المنوال. يدرسون الأغصان المكسورة والأوراق المسحوقة. وحينما أطلقوا الرصاصات الأولى لم يستطيعوا أن يروا على الأثر أين مصدرها.

- ها هم... - قال الجندي العجوز.

كانوا يتحصّنون خلف الأشجار الكثيفة المتشابكة. وعيّنوا أماكن وجود الكانغاسيرو . إنها في الجهة الأمامية. في سياج الشجيرات، حيث فتحوا ممراً وإلى هناك ذهب الجندي العجوز مع ستة رجال.

- عندما تصل إلى هناك أطلق ثلاث رصاصات بالتعاقب، معلناً. بعدها انتظر خمس دقائق وتقدم - كانت هي أوامر الملازم.

أدّى الجندي العجوز التحية ومشى في طريقه. كان يعتبر نفسه رجلاً ضائعاً، لكنه يبدي تحسّراً على الملازم. إنه فتى طيب جداً، ما زال فتياً. إن تلك المحاولة في الحصار حماقة. فلوكاس يعرف الكاتنغا كما يعرف كف يده، ولا أحد يحاصره هنا وبرجال قليلين جداً. ولو كان الملازم ميراندا لما فعل هذا قط. إنما يحاول إخافة الكانغاسيرو فيدفعهم بعيداً.

شاهد رجال لوكاس الجنود يتحركون، فأبلغوا الزعيم. وفهم لوكاس ما الذي يريده الملازم:

- يريد محاصرتنا.

ووضع خطته للمعركة:

- أولاً ننتهي من الذين هم هنا، وعندما يصبح الآخرون في منطقة الممر، لا فائدة هناك من أن يأتي أحد لنجدتهم... بعدها نقبض على الآخرين، ونصفِّي هؤلاء القردة جميعهم.

جاءت الطلقات من حيث كان الملازم موجوداً. مرّت الرصاصات عالية، ولم يرد رجال لوكاس. فقد أخذوا موقعهم وينتظرون الإشعار بأن الجنود الذين هم بقيادة الجندي العجوز كانديدو غير بعيدين عن الممر. وسُمع صفير يشبه صفير عصفور ينادي رفيقته. كان ذلك هو الإشعار.

فانتشروا آنئذٍ وبدأوا يقفزون ويزعقون كأنهم شياطين. كانوا يطلقون الرصاص ويقذفون بأنفسهم إلى الأرض، ويصيحون كأنهم الجان، في ضجيج يسبب رعباً لأشد الرجال شجاعة. وهكذا كانوا يتقدمون إلى حيث كان الملازم. لقد سقط ثلاثة جنود. والآخرون سوف يهربون في أية لحظة. واستشفّ الملازم الخوف عند الذين هم بإمرته ومازال لديه أمل ضئيل بأن يصل كانديدو ويهاجم لوكاس من الخلف. لكنه يعرف أن الوقت لم يكن كافياً ليصل ولا ليعود آتياً بنجدة. وكان الجنود ينظرون إليه، وقال واحد منهم:

- لنذهب وإلا سوف نموت جميعاً. واقترب زعيق الكانغاسيرو، والطلقات قريبة على وجه التقريب. وأجاب الملازم:

- أهربوا أنتم إذا أردتم، أيها الجبناء. فأنا باقٍ ولن أتخلّى عن كانديدو والجنود الذين ذهبوا معه...

وأكد أحدهم:

- أنا أبقى مع ملازمي...

حرش آخر رأسه، ورفع سلاحه. لكن الباقين لاذوا بالفرار، مختبئين في الكاتنغا، متخلين عن بنادقهم.

كان لدى لوكاس آرفوريدو الوقت الكافي ليصوّب بكل اطمئنان. فمزقت الرصاصة صدر الملازم. وحين شاهده الجنديان يسقط، رميا سلاحيهما وتواريا.

وكان زيه تريفوادا أول الواصلين إلى مقربة من الجرحى. لقد مات الملازم لكن لا يزال اثنان على قيد الحياة، فانتهيا بطعنات الحربة. وبعد أن استعرض لوكاس الرجال، تفحص البنادق:

- أسلحة جيدة...

ضعوا الذخيرة المتروكة في مكان آمن. هكذا كانوا يتزوّدون بالذخيرة. على هذا الشكل وعبر أشخاص نافذين محدَّدين منتشرين في السرتون يشترون الرصاص للوكاس وعصابته.

- والآن هيّا لننتهي من الآخرين.

كان الممر هناك، لكنهم دخلوا الكاتنغا. أي شخص آخر لم يكن ليعبرها. لكن رجال لوكاس معتادون أن يقطعوها بين الأشواك. إنهم يرتدون جميعاً مثل رعاة البقر، ينتعلون أحذية من القنب وأحزمة الذخيرة فوق السترات الجلدية. كانوا يسيرون صامتين، ويبدون كنمور الأونسا في خطاهم التي لا تحدث ضجيجاً.

وحدث أن كان كانديدو جندياً عجوزاً، فعندما سمع إطلاق الرصاص، استنتج أن لوكاس علم بأمر مغادرته وعرف خطة الملازم. ومع هذا واصل السير لأن العودة مستحيلة. ولو حالفه الحظ لتمكن من مهاجمة العصابة قبل أن تنتهي مقاومة الملازم. وكان على وشك بلوغ النقطة المحددة حين سكت إطلاق الرصاص. وخمّن بما جرى، فسمع رصاصة أخيرة:

- إنهم ينتهون من قتل أحد...

وتقدم مع رجاله إلى طريق السيارات. هناك لن يهاجمه لوكاس. كان يسير بأقصى سرعة ممكنة، ويصيح بالجنود الآخرين. لو يستطيع لرجع إلى حيث كان الملازم، ليرى جثته.

وعندما وصل إلى الطريق كان الكانغاسيرو يصوّبون عليه من الكاتنغا لكن كما تنبأ هو، لم يجتازوها. يطلقون عليهم الرصاص من هناك. وحثّ كانديدو على السير إلى الأمام. عندئذٍ أمر لوكاس رجاله بأن يرافقوهم بشكل متوازٍ، من داخل الكاتنغا. وهكذا أسقطوا جندياً. لكن كانديدو كان محظوظاً، إذ التقى شاحنة قادمة، فجعلها تعود، حاملة الجميع.

وصل نبأ مسير لوكاس إلى المدينة قبل وصولهم. فالجنود الذين تخلّوا عن الملازم صاروا في المدينة ورووا الوقائع. وبدأ الأهالي الفرار.

ذهب كانديدو مباشرة الى بيت الملازم. كانت المرأة شابة ذات عينين كبيرتين، رقيقة وذات جمال حزين.

_ ألم يصل الملازم؟

- هل حدث شيء ما؟

همّ كانديدو بالكذب، لكن المحافظ قدم باحثاً عنه، ولتأكده من أن السيدة قد علمت بالنبأ، تقدم ليعزيها. فأغمي عليها. وأسرع المحافظ لإسعافها. وقال مضطرباً:

- وهذه أيضاً!

أضجعاها على السرير، وتركاها برعاية الخادمة. وأعلن المحافظ:

- الأفضل أن نذهب إلى الغابات... أن نخرج من المدينة...

وقال كانديدو:

- اجمع الرجال المتبقين، واذهب وانتظرني في المحافظة...

الناس يركضون في الشوارع والتجار أغلقوا الأبواب وأناس ينقلون مقتنياتهم القليلة إلى الريف المحيط بالمدينة. ولم تكن السيارات القليلة الموجودة عملياً تصلح لشيء، إذ إن أحداً لم تكن عنده الشجاعة ليأخذ طريق السيارات. وكان بعض الرجال يخرجون مسلحين في اتجاه المحافظة.

2

ألقى لوكاس آرفوريدو الصورة جانباً، بعدما نظر إلى وجه المرأة وإلى هيئة الطفل الملفوف بالأقمطة. اهتم بها زيه تريفوادا، فاختلس النظر الى المرأة. وبعدها نظف الصورة بذراعه، وأودعها جيبه. كانت الصورة قد انتزعت من محفظة الملازم.

وعلّق زيه تريفوادا!

- إنها بغلة جيدة...

دخلوا المدينة وهم يطلقون الرصاص في الهواء. وكانت الشوارع مقفرة، والرجال المسلحون الذين جمعهم المحافظ والقاضي قد تواروا في لحظة. في الواقع إنهم لم يؤمنوا كثيراً بقدوم لوكاس. وفكروا بأن الكانغاسيرو بعد تبادل إطلاق الرصاص قد اتخذ اتجاهاً آخر. وقاوم الجنود المتبقون قليلاً. تمكن اثنان من الفرار ومات الآخرون سريعاً. ومع أن الثلاثة استسلموا، وحتى لا يهدر ذخيرة (لم يكن لديه فائض) فإن لوكاس أمر بقتلهم بالحربة، وبقوا ممددين في الشارع والدم يسيل من الجروح. ثم قطعوا لسان كانديدو، وانتزعوا عينيه، فمنذ مدة طويلة ولوكاس يبحث عنه.

وتأخر تاجر في إغلاق أبوابه بسرعة. فأدخل لوكاس البندقية:

- إفتح هذا الغائط...

كان الرجل يرتعد وراء طاولة البيع.

وألحّ لوكاس:

- إفتح كل الأبواب...

واجتاح الضوء المتجر، وهناك كانت أمسية من الأماسي السرتونية ذات الشمس الساطعة والسماء الصافية الزرقاء.

- هكذا أفضل. فبوسعنا أن نرى الأشياء...

قبل كل شيء مضوا إلى العطور، لم يكن يوجد منها الكثير. بعض القوارير، لم تكف الذين كانوا داخل المتجر، وأقلّ من ذلك للذين كانوا ينصبون أنفسهم حراساً في الباب. أزالوا السدادات عن قوارير الكولونيا، قوارير الطيب، قوارير زيت الشعر، وسكبوها على رؤوسهم وعلى أجسادهم. كانوا نادراً ما يستحمون، مدفونين في الكاتنغا الخالية من الأنهار. وتنبعث منهم رائحة حموضة يحس المرء بها من بعيد. ومع امتزاجها بالعطر باتت أيضاً أشد رعباً، ومع هذا فهم يحبونها:

- إني أتضوّع كامرأة مومس...

فتح الدرج حيث يودع الرجل نقوده. لا يوجد توستون واحد. فأتى بإشارة إلى زيه تريفوادا، واستلّ هذا خنجره ومرره على بطن التاجر:

- فك وثاق النقود...

انتزع الرجل النقود من جيبه، رزمة من أوراق نقد فوقها ورقة نقدية من ذات الخمسمائة ألف ريس:

- حباً بالله، لا تقتلني...

تسلّم زيه تريفوادا المال، وسلّمه إلى لوكاس. ثم خرجوا من المتجر متجهين إلى المحافظة. كانت فارغة، لا وجود لأي شخص. فجلس لوكاس آرفوريدو على مقعد المحافظ المرتفع وقهقه قهقهة ممتعة. وضحك الآخرون أيضاً. لكنهم قفلوا عائدين. وفي الشارع اعتقلوا أربعة أو خمسة أشخاص.

- سأقتل الجميع إذا لم يظهر المحافظ.

عبر النوافذ المغلقة كانت عيون تتلصص مرتعبة. فأطلق لوكاس بعض الطلقات في الهواء. وتعهد أحد المعتقلين بجلب المحافظ.

- ولا تهرب، لأن هذا سيكون أسوأ...

وجاء المحافظ مع القاضي البلدي - القاضي كما يدعونه هناك - وضيعاً على وجه التقريب، عثر عليه تحت السرير، فحيّا لوكاس بتواضع، وشد على يد زيه تريفوادا.

- لماذا هربت حضرتك؟ هل كنت خائفاً؟

أوضح بأن لا، كان يهيّيء نفسه للمجيء حينما وجده الرجل:

- أعلم أنك أيها السيد لست شريراً...

- لن تشتريني حضرتك بكلمة شكر. فإذا كنت لا ترغب في رؤية كثير من الشقاء في المدينة، اعمل على تدبير ثلاثين كونتو وسلّمها إليّ حتى الساعة السادسة. وإلا فلست مسؤولاً عما يحدث...

وجد المحافظ أنه مبلغ كبير من المال وتجارة المدينة ضئيلة، أناس ذوو ممتلكات قليلة، فكيف سيتدبّر ثلاثين كونتو؟ وتحسّر بصوت فاقد الوعي، وتذكر امرأة الملازم. لقد تركها فاقدة الوعي، هل هربت إلى الغابة؟

وألحّ لوكاس:

- لا أريد أن أعرف أي حديث ولا تباكياً.. وعند مرورك أبلغ التجار بأن يفتحوا متاجرهم حيث أنني سأقوم بمشتريات أنا ومن معي. فإذا فتحوا نشتري وندفع. وإذا لم يفتحوا فنحن نفتح بالقوة ولن ندفع...

انسحب المحافظ، وذهب معه القاضي محتفظين ببقية من تصنّع في الشيء.

فنادى لوكاس:

- أيها الدكتور.

التفت القاضي:

- هل تتكلم معي أيها السيد؟

- مع حضرتك بالذات... قد تكون دكتوراً وتعرف كثيراً، لكنك بالنسبة إليّ لا تساوي شيئاً. وقد لا تعرف حتى أن تطلق رصاصة... إفعل معروفاً للوكاس إذا أردت أن تعيش: مرّ على الفندق وقل لهم أن يعدوا وجبة لي ولرجالي لأننا جائعون. سنأكل هناك.

توزعوا آنئذٍ على المتاجر. كان الفريق الأكبر مصحوباً بلوكاس، ومضى الآخرون مع زيه تريفوادا الذي كان ضرباً من النائب له. وكان زيه تريفوادا قد نسي الصورة، إنما تذكرها فقط في ساعة العشاء.

دخلوا المتاجر، اشتروا الأشياء غير المعقولة، عقوداً ومحفظات من الجلد وخواتم زائفة وقطع حرير وهدايا للعشيقات في الأماكن النائية التي يلجأون إليها، وفي الدساكر حيث يدخلونها مرة إلى أخرى.

عرض شيكو غوغو عليه حلية صدر ذات زجاج كثير:

- سأحملها إلى نايير، سوف يسيل لعابها...

دفعوا نقوداً قديمة ومتسخة. وفي أحد المتاجر وجد زيه تريفوادا أن التوركو يريد أن يسرقه وهو مصيب. فغضب:

- سأهشّم هذا ولن يدفع أحد شيئاً...

كان التوركو يتوسل حباً بالله بلغته السيئة النطق. لكن الرجال بدأوا باحتساء الخمرة، فأمتعوا أنفسهم في تمزيق قطع القماش، مهشّمين اللُّعَب وغارزين الحراب في القبعات.

3

كانت ثمة بطة صغيرة ذات زنبرك، تعبأ بتحريك الزنبرك، فتمشي وتحرّك منقارها وتصدر نقيقاً، هي التي أنقذت التوركو من الموت. لا بد أن البطة كانت مشحونة لأنها عند ارتطامها بالأرض بدأت تعمل. خطت البطة بضع خطوات، تفتح منقارها وتغلقه، آتية بطقوسها الصغيرة المضحكة. فصفّق زيه تريفوادا:

- يا له من شيء جميل!

لكن الآلة توقفت بعد قليل، وبقي الحيوان مفتوح المنقار. وكان العربي قد دس نفسه تحت طاولة البيع، فوخزه زيه تريفوادا بالحربة:

- أخرج من هنا أيها الغرنغو (أي الاجنبي) ابن العاهرة...

ظهر العربي أخضر اللون من الخوف.

- إجعلها تمشي...

فبحث عن مفتاح الزنبرك بين الحطام. وكان زيه تريفوادا قلقاً والآخرون يتجمعون حوله:

- سترون أي جمال...

لم يجد العربي المفتاح بين الحطام على الأرض، وفي بحثه شاهد القماش الممزق، الأشياء المهشّمة، فكانت لديه الرغبة في البكاء. فدس زيه تريفوادا يده في جيبه، وأخذ مائة ألف ريس:

- هذا من أجل البطة الصغيرة، ولن أدفع الباقي، أيها الغرنغو اللص. وسيجعلك هذا سعيداً...

التقى لوكاس الذي كان آتياً في الشارع، والرجال محمّلين بأشياء مشتراة فأدار زنبرك البطة، وجعلها تمشي على الأفريز وضحك لوكاس وهو يصفّق بيديه:

- تبدو كأنها حيّة!

ههنا، حول البطة الصغيرة ذات الزنبرك لم يعودوا يذكرون أنهم الكانغاسيرو المرعبون، قطاع الطرق فاقدو الرحمة في السرتون، والجاغونسوس الذين قتلوا وسرقوا. فقد كانوا مجدداً الريفيين السذَّج، الأنقياء مثل الأطفال سريعي الإيمان والواثقين. توقف الزنبرك فانفجر لوكاس غيظاً:

- قُطعت...

- يا لها من شيء...

مشت مجدداً، والكانغاسيرو يمضون وراءها، يلمسون بعضهم بمرافقهم، مثيرين الانتباه إلى خطى البطة، وإلى المنقار الذي يفتح ويغلق، وإلى الصراخ الأخن. يرتدون الجلد وهم مسلحون

حتى الأسنان بمسدسات وبنادق، وحراب. وجوههم ضارية واللحى نامية، ورائحة نتنة، أكثر براءة وأنقياء، يضحكون متعجبين، سعداء كالأطفال أمام اللعبة المنتظرة.

4

جعلت البطة ذات الزنبرك - هي الآن في جيب زيه تريفوادا - لوكاس آرفوريدو ذا مزاج حسن. وكانت المدينة هي الرابحة. إذ إن المحافظ تدبّر فقط ثمانية عشر كونتو.

كان لوكاس ورجاله يتناولون العشاء (حرس اثنان أبواب الفندق وهما مسلحان ويقظان) حينما ظهر المحافظ. لقد توارى الضيوف عن الأنظار.

وحده بائع جوّال من تغلّب فضوله ورغبته في أن يلمع في العاصمة على الخوف، فشارك لوكاس في العشاء مرتوياً من الجعة والنبيذ، موجهاً أسئلة، يجرّ الكانغاسيرو إلى الحديث، فيروي تبجحات وأحداثاً فظيعة.

كان الحديث ودوداً وحيوياً عندما دخل المحافظ. وصاحب الفندق كليمنتي يقوم هو نفسه بالخدمة، لأن النادل - خلاسي مخنّث - اختبأ في الفناء ولم يتمكن أحد من الإتيان به إلى القاعة. وسمع المحافظ وهو لا يزال في الممر سؤال البائع الجوّال:

- لماذا أيها السيد لا تجمع المال الذي لديك وتتجه إلى الغرب، فتعبر الحدود وتصبح صاحب مزرعة في بوليفيا؟

وقد أصبح في القاعة حينما أجابه لوكاس:

- لماذا، أيها السيد الشاب؟ إني أعيش حياة قاطع الطريق هذه لكي آخذ أراضي والدي. إنهم لم يقنعوا، فقتلوا آنئذٍ العجوز المسكين الذي لم يأت قط بأي إساءة إلى أحد... وكانت قذارة أرض لا تبلغ مساحتها فدانين ... هل أريد أرضاً ليأخذوها مني مجدداً؟.. إني قاطع طريق منذ إحدى عشرة سنة، وسأموت على هذا المنوال من الحياة. أموت قتلاً لأن أي قرد لن يقبض عليّ وأنا على قيد الحياة، إذا ساعدني الله...

بقي المحافظ واقفاً لصق مقعد لوكاس الذي كان على رأس الطاولة الطويلة في الفندق وإلى جانبه البائع الجوّال. كان ينتظر انتهاءه ليتكلم.

- مساء الخير يا سيد لوكاس...

التفت وهو في مقعده وابتسم. كان مرحاً في تلك الليلة. والكاشاسا التي احتساها في الحوانيت عند المساء، والنبيذ الذي يجرعه الآن لم يكونا هذه المرة قد استحضرا أمام عينيه صورة والده القتيل على أيدي قبضايات الكولونيل، وهي رؤية تجعله غاضباً وحاقداً. فالبطة التي تمشي على الافريز والحديث مع البائع الجوّال، والود المذعور من كليمنتي، كل هذا جعله يغدو ذا مشيئة طيبة. وكان رجاله يرافقونه في مشاعره وأشدهم مرحاً زيه تريفوادا الذي كان يحمل البطة في جيبه.

عندما انتهوا من العشاء أدار الزنبرك في الحيوان، ووضعه ليمشي فوق الطاولة. كان سيحمله الى ماريكوتا، وهي هجينة بدون أسنان كانت تحبه، وتعيش في مزرعة أحد حماة لوكاس. وهو عضو مجلس الشيوخ في الولاية. فلدى لوكاس حماة أشداء. أحدهم كان الكولونيل جوان باتيستا، والد حاكم إحدى الولايات.

- إنه حضرتك؟ خذ مقعداً وتعال فخذ لقيمة...

- شكراً جزيلاً، لقد تعشيت. - كانت أكذوبة، لكن المحافظ يريد أن يحل الموضوع بأسرع ما يمكن.

- إذن، خذ كأس نبيذ. أم تريد جعة؟

قبل الجعة، لأن الرفض سيكون خطراً، فهو يعرف ذلك جيداً. لوكاس سوف يُهان وحياته عندئذٍ لن تساوي ريالاً. فجلس إلى جانب الكانغاسيرو واحتسى الجعة. ولحسن الحظ كان لديه متسع من الوقت ليرسل زوجته وابنته إلى مزرعة صديق له وإلا فإن لوكاس قد يشاء تقديم نفسه إليهما. وقد سمع كلاماً عن الحديد الذي يجلبه الجاغونسو معه والذي به يسم النساء اللواتي يغتصبهن، كمن يسم قطيعاً. وكان يقول: بقراتي...

سكت البائع الجوّال بانتظار أن يتكلم المحافظ. وكان على علم بالمال المحصّل، وهو نفسه قد ساهم بمائتي ألف ريس. وفكر في ما إذا كان عليه أن يتدخل، في حال انزعج لوكاس. هل يعطيه الحديث إلى الطاولة اعتباراً كافياً لهذا؟

وضع المحافظ الكأس. الصعب هو أن يبدأ. وأبعد لوكاس طبقه (ومثلما هو كان رجاله، إذ أكلوا بأيديهم، فالشوك والسكاكين والملاعق لا يهتمون بها) ونادى صاحب الفندق:

- اجلب حلوى... كل ما لديك... هذه الحلوى من الصفيحة هي التي أحبها... ثم تطلّع آنئذٍ إلى المحافظ:

- هل جلبت الصرّة؟

وضع النقود على الطاولة. كانت متفرقة بأكوام من الكونتوات.

- لم أحصل إلا على ثمانية عشر... فالناس الذين ههنا فقراء، لم يستطيعوا اعطاء أكثر. وأنت أيها السيد ستتحلى بالصبر وتفعل إحساناً إذا رضيت بهذا...

نظر لوكاس إلى الناس الجالسين إلى الطاولة، وتريّث في النظر إلى البائع الجوّال، وقبل أن يجيب أصدر أمراً:

- بوربوليتا وجوان تايينا! لفت اثنان من الكانغاسيرو رأسيهما إلى ناحيته...

- أنتما كلا الحلوى، ثم اذهبا لتهتما بأمر الباب، وابعثا بآرويرا وروبين ليأكلا...

سحب السيد كليمنتي الأطباق، ووضع الحلوى. وكانت يداه ترتجفان والجاغونسوس يبتسمون وهو يرتعد خوفاً.

سأله زيه تريفوادا:

- هل أنت خائف يا عماه؟ لسنا وحوشاً، نحن أناس مخلوقون مثل أي كان...

امتقع السيد كليمنتي، فترك صحناً يقع من يده، فتكسّر شظايا. وضحك لوكاس ضحكة عريضة:

- لا تخف الرجل يا زيه، وإلا فبوسعه أن يتغوّط ههنا بالذات، أمام نظر السيد المحافظ.

قهقهوا، وضربوا بأيديهم على الطاولة، ملقين الزجاجات الفارغة أيضاً، وسُمعت صيحة:

- نبيذ أيضاً...

واتجه لوكاس إلى المحافظ:

- أحسب أنت حضرتك... هنا سبعة عشر رجلاً، ويوجد اثنان عند الباب، يصبحون تسعة عشر... كونتو لكل واحد وستة لي، إنها خمسة وعشرون، فتدبّر السبعة الناقصة، وأنا لا أعترض

أحداً.. كلّمه لوكاس آرفوريدو...

تضرّع المحافظ:

- مستحيل! لا يوجد لديّ من أسعى إليه لجلب سبعة كونتوات بعد. ربما أتدبّر اثنين. اجعلها عشرين يا سيد لوكاس، فنحن فقراء، إنه إحسان...

تدخل البائع الجوّال، وطلب هو أيضاً. فالناس هنا كلهم بدون موارد كبيرة. وأصحاب المزارع الذين يستطيعون تقديم مساعدة جيدة يعيشون بعيداً.

فقال لوكاس:

_ أنا أهتم بأمر هؤلاء. وبما أنك أيها السيد طلبت ذلك، فسأتركها عشرين.. - أودع المال جيبه - اذهب واجلب المال الناقص، وأنا أنتظر هنا...

لكن قبل أن يخرج المحافظ، سأله:

- من هو صاحب دار السينما؟

- إنه الدكتور جنتيل، صاحب الصيدلية.

- قل له إني أريد أن أشاهد السينما اليوم، حيث يعرض فيلم جميل لرجال يطلقون النار على الهنود...

فصفّق الكانغاسيرو . وبدأ لوكاس يأكل حلوى المشمش، ولحس العصارة التي بقيت في الصحن:

- هل لديك بعد؟

قدّم السيد كليمنتي حلوى. فحرش لوكاس رأسه. وسرح القمل حتى على رقبته، وكان قملاً كبيراً وأسود. وأخذ يستجوب البائع الجوّال فيما هو يأكل:

- هل تحب حضرتك أن ترقص؟

- أرحب بذلك...

- لا أحب ذلك كثيراً، لكن رجالي يحبونه جداً... - التفت إلى زيه تريفوادا - هيّا نقوم برقصة صغيرة يا زيه؟

- هيه! هيه!

عند ذلك تذكر زيه تريفوادا الصورة، فدس يده في جيبه، لمس البطة، وسحب الصورة من جيبه، وعرضها على الحاضرين:

- سأرقص مع هذه السيدة...

عرف البائع الجوّال زوجة الملازم، فقد نزلا في الفندق عندما لم يعثرا على بيت، فأحس انزعاجاً. وواصل زيه تريفوادا كلامه:

- امرأة القرد المتخرج في المدرسة العسكرية. سوف ترى اليوم من هو الرجل الفحل في الحقيقة.

وأراد لوكاس أن يعلم البائع الجوّال أية قاعة للرقص أفضل في المدينة؟

- أين يمكن أن تكون؟

- جيدة فعلاً، تليق لك أيها السيد، لا توجد أية واحدة - كان البائع الجوّال يحاول منع إقامة الحفلة الراقصة - ولا واحدة تصلح...

- أية قاعة تصلح لكي يجرّ الناس أقدامهم.

- ألم تقل أيها السيد إنك تريد أن تخرج باكراً من المدينة؟

- أيها السيد الشاب، الفتيان بحاجة إلى لهو... فحياتنا هي في الغابة، إننا نتوارى سائرين في الكاتنغا، ممزقين بالأشواك. فنحن بحاجة إلى تنشيط أجسادنا، هيّا نغتنم هذا اليوم...

قدّم السيد كليمنتي القهوة وواصل لوكاس الكلام:

- ستلهو حضرتك معنا... سوف ترى كيف نرقص بشكل أفضل من فتيان المدينة...

- والنساء؟ أين ستتدبرونهن؟ جاءته فكرة أخرى فغيَّر الحديث:

- يوجد قليل من البغايا، لكنهن مناسبات...

- لا نريد عاهرات.. فنحن اليوم سنرقص مع فتيات وسيدات المدينة. يجب أن يذهبن جميعهن... نحن سنأتي بهن...

وسأل زيه تريفوادا:

- أين تسكن هذه السيدة؟

أطرق البائع الجوّال. وكان السيد كليمنتي هو الذي قال له بصوت متأتئ، كأن أحداً يضغط على حلقه.

5

كان البائع الجوّال يترقب أن يُتاح له وقت ليبلغ الأهالي أثناء العرض في السينما. فقد عاد المحافظ بالكونتوين الناقصين، وقال إن دار السينما يمكنها العمل خلال نصف ساعة. فوضع البائع الجوّال خططاً: الكاشاسا سيبقى أقله ساعة ونصف ساعة. بوسعه إبلاغ الأزواج والآباء بأن يخبئوا بناتهم بأن يأخذوهن إلى الغابات. وكان سيذهب ليأتي بزوجة الملازم. إنه يعرف مكاناً لن يعثر عليه الكانغاسيرو أبداً. لكن لم يدخل في حسابه أن لوكاس قرر أن يأخذ الجميع إلى دار السينما. وحالما زفّ المحافظ النبأ، قال لرجاله:

- إجمعوا أهالي المدينة للذهاب إلى السينما... الجميع أيّا كانوا، نساء ورجالاً بالغين... الجميع بدون أن ينقص منهم أحد... وحضرتك - أمر المحافظ - قل لجوقة الموسيقى أن تهيّىء نفسها، فإن لوكاس آرفوريدو يريد أن يرقص اليوم.

- لكنك أيها السيد، ألم تقل إنك مع العشرين كونتو سوف تنصرف؟

- قلت إني لن أقتل أحداً ولن أقتل. لكنني لم أقل بأني لن ألهو... ها إنكم تريدون رؤيتي من وراء ظهري؟ - ومرّ بريق من الغضب في نظرته.

كان بعض الرجال سكارى، والآخرون ينقصهم القليل ليصبحوا سكارى. فتطلّع المحافظ إلى البائع الجوّال، لكن هذا كان مغتماً لاستحالة تحقيق خطته. فقال بدون اقتناع:

- ليس هذا...

- أيها السيد الشاب، أطبق فمك... لا تدس نفسك حين لا تكون مدعواً. فأنا الذي أجيب عن السؤال الذي طرحه. أين هو أفضل مكان لنرقص فيه هنا؟

- صالون الفيلار مونيكا .

- إذن، ستكون الحفلة الراقصة فيه... أعلن ذلك أيها المحافظ.

تردد المحافظ آنئذٍ، لكن رجلاً اقترب منه، فخرج مترنحاً كأنه ثمل. وناداه لوكاس:

- وخذ عائلتك...

- ليست هنا. فهي خارج المنطقة.

- هربوا؟...

- كلا. فقد مضى على ذهابهم أكثر من شهر...

- بوسعك الذهاب. وسر بسرعة.

لم يعد بعد ذلك طيب المزاج. بقي رجلان فقط في القاعة، وغادرها الآخرون. بقي اللذان كانا يحرسان وحدهما. وانتظر لوكاس حتى انتهيا من الأكل.

وسأل كليمنتي:

- بكم أنا مدين لك؟

- الذي تريد أن تدفعه أيها السيد... وضع ورقة نقدية من فئة الخمسمائة ألف ريس على الطاولة:

- هل تكفي؟

- إنها حتى لأكثر من اللازم...

- ضع سترتك عليك للذهاب إلى الحفلة. وزوجتك، أين هي؟

- إنها مريضة... - كان كليمنتي يرتجف.

- كانت هنا عندما وصلنا... قل الحقيقة. فركع كليمنتي ومدّ يديه:

- يا سيد لوكاس! خذ مالك، إني أقدم لك العشاء... لكن اصرف النظر عن زوجتي، فالمسكينة مريضة، وهي قد تموت إذا عرفت...

احتفظ لوكاس بالنقود، ودفع الفندقي بقدمه، فأضاع كليمنتي توازنه ووقع أرضاً.

- أغرب عن ناظري... إن ما تستحقه هو أن تكون زوجتك عجوزاً قبيحة حتى ولا القرد يريدها...

كان متبقياً في الخزانة زجاجات كاشاسا ونبيذ. فأمر لوكاس الرجال بأن يجمعوها.

- لكي نجعل الحفلة مرحة...

والتفت إلى البائع الجوّال:

- هيّا أيها السيد الشاب. فحضرتك مدعوي أنا... لست ملزماً بأن تخاف، فحضرتك عازب.. باستطاعتك اختيار المرأة التي تريد...

تخيّل البائع الجوّال ما سيحدث لأرملة الملازم. سوف تتألم عضلات وجهها حين يجهد هذا الوجه نفسه ليضحك من النوادر التي سيرويها لوكاس آرفوريدو في الطريق إلى دار السينما، وندم الآن لكونه لم يهرب مثل النزلاء الآخرين. وكانت تُرى في الشارع عائلات تسير تحت حراسة بنادق الكانغاسيرو مذعورة، نساء منبوشات الشعر ورجال مرتعبون، في اتجاه دار السينماء. وكان أحد الكانغاسيرو يغني أغنية قديمة من السرتون تتغنى بمآثر لوكاس آرفوريدو:

«ها قد جاء لوكاس آرفوريدو

متمنطقاً بخنجره...

فيدخل الخوف في الرجال

وللنساء غصن الورد.

ها قد جاء لوكاس آرفوريدو

متمنطقاً بخنجره...

فيا أيتها الصبية لا تخافي

فلن أسيء إليك».

كان الرجال والنساء مدفوعين إلى دار السينما. فضلاً عن الصالة، كانت هناك بعض القمرات الجانبية وفي أولها تمركز لوكاس مع جاغونسو والبائع الجوّال. وانكمش في الصالة حوالى خمسين شخصاً في مقاعدهم. وأشار لوكاس إلى القاضي الذي أضاع إلى جانب زوجته وبناته كل ما تبقَّى من تصنّع. وصاح لرجل فأتى ثلاثة:

جيئوا بالقاضي إلى قمرة...

كانت زوجة القاضي بدينة جداً، وبناته ثلاثاً بين العشرين والثلاثين سنة، كن يصحبنه بسخاء الجسم، أثداء ضخمة تتقدم إلى الأمام. وكن يبكين جميعهن. فتجهّم لوكاس حين رآهن:

- يا لهن من ثيران هندية!

ابتسم البائع الجوّال مكرهاً. وتحت حراسة أحد الرجال صار القاضي في القمرة المجاورة. وبعد دقائق جيء بالمحافظ أيضاً إلى هناك. وبانتظار أن يبدأ الفيلم، تفحّص لوكاس النساء الباكيات في الصالة. وثبّت نظره على واحدة ترتدي سترة وتنورة من النوع نفسه، زرقاوين وخداها مشرقان وشعرها أشقر. لم تكن جميلة في أعين فتيان المدينة، لكن ما سحر لوكاس كان الشعر الأشقر المرسل على الكتفين، والمقصوص في ثنيات فوق الجبين، محيلاً وجه الفتاة أكثر نحولاً وشحوباً.

سأل البائع الجوّال:

- من تلك؟

- إنها مدرّسة في المدرسة الابتدائية...

فأشارة إلى القبضاي الذي كان إلى جانبه:

- اجلبوها إلى ههنا...

وصلت الفتاة، جُرّت تقريباً، بين نظرات الآخرين المرتعبة. كان الحضور يؤلفون زمرة مذعورين، ولا يعرف أي منهم ماذا يمكن أن يحدث له ولذويه. ويعتبرون أنفسهم سعداء إذا تمكنوا من إنقاذ حياتهم. فتاريخ لوكاس آرفوريدو أنه مقترف جرائم واغتيالات وأعمال نهب في المدينة وهتك أعراض الشابات.

حين وصلت المدرّسة إلى القمرة، قال لوكاس:

- لا تبك أيتها السيدة، فلست وحشاً من وحوش الغابة... اجلسي على المقعد وكفّي عن هذا البكاء...

جلست الفتاة على المقعد إلى جانبه، وانكمشت على نفسها كلياً في الزاوية. وعاجلها لوكاس بيده الثقيلة ذات الثآليل والتي ما زالت متسخة من الأكل، وأمسك بشعرها الناعم الأشقر، الأملس كالحرير، واغرز أصابعه في لذة سرت في جسمه كله حتى أخمص قدميه. فضحك لها، كان ذا أسنان قليلة، فانكمشت الفتاة على نفسها أكثر. ثم أنزل يده فاستقرّت على عنقها النحيف، وعاد ليعبث بشعرها.

دخل زيه تريفوادا وهو يجرّ أرملة الملازم، كان يدفعها بذراعيه، وقد صفعها بعض صفعات في الطريق، لقد وصلت كما كانت في البيت، بالخفين، منبوشة الشعر، تشهق، فألقاها كأنها حمل، على أحد المقاعد:

- ابقي هنا أيتها البغلة...

كان الحضور ينظرون بصمت من الحقد والرعب. والنساء يضربن وجوههن بأيديهن، ماذا سيحدث لهن؟ وحدها كينكينا وهي عانس في الأربعين تقريباً لم تبد خائفة، فعندما أخذها الكانغاسيرو من البيت في الطريق إلى السينما، ابتسمت له، معجبة بشبابه. إنه بيكو دوسي، أحد قطاع الطرق الأكثر بعثاً للرعب في النفوس بالرغم من أنه لم يكن إلا في العشرين من العمر.

وجد لوكاس أن العرض تأخر في البدء وخشي من مكيدة، فأمر بتعزيز الحراسة حول دار السينما، ووضع رجلاً عند كل جهة. وقال للمحافظ وللقاضي:

- إذا ظهر قرد ههنا، فإني أصفّيكما أنتما الاثنان على الفور - وعرض امرأة القاضي وبناته - وهذه البقرات أيضاً... وهناك أكثر. فإذا لم تبدأ السينما حالاً، فإني سأتفاهم مع صاحبها...

نهض المحافظ واقفاً في القمرة (لم تكن لدى القاضي قوى للنهوض) فتلفظ باسم جنتيل. وجاء صاحب دار السينما:

- السيد لوكاس يريد أن يبدأ العرض حالاً.

- كنا ننتظر إصدار الأمر من قبله...

أُطفئت الأنوار. ولاحظ البائع الجوّال تحرك لوكاس، وهو يترك شعر الفتاة، ممسكاً بالمسدس. واغتنمت المدرّسة الفرصة لتبتعد وهي على المقعد قدر الإمكان. كانت مضغوطة إلى ألواح الخشب في القمرة. فلم تر إلا الإعلان عن الفيلم.

كان فيلماً عن رعاة البقر من زمن السينما الصامتة، فسينما وتياترو ركس لم تكن قد حازت جهازاً صوتياً. لكن بالنسبة إلى لوكاس ورجاله فالأمران سيان. فهم يحبون رؤية إطلاق الرصاص وجري الخيل، وتوم ميكس (الذي لم يعرفوا اسمه) مهيمناً على خصومه.. فكانوا يصفّقون عند المشاهد البطولية صائحين مشجعين «الفتى». وكانوا مجدداً كالأطفال الذين أعجبوا قبلاً بالبطة ذات الزنبرك.

ووصل الأمر بلوكاس إلى حد نسيان شعر الفتاة الذهبي إلى جانبه. كان ثمة مشهد معركة فيها واجه توم ميكس حوالى عشرين رجلاً وتغلّب عليهم جميعاً بذراعه القوية. ولم يقاوم لوكاس، أراد أن يرى مرة ثانية، فأمر بأن يمر المشهد ببطء، ببطء شديد. وتابع الحضور وهم صمّ، المغامرات على الشاشة، فقطاع الطرق أولئك الذين يطاردون خطيبة توم ميكس كانوا مضحكين إلى جانب لوكاس وعصابته. وفي هذا الحضور المخيف للكانغاسيروس في العتمة، لا يرون جيداً، لكنهم يحسون بالرائحة المنبعثة منهم، حموضة ونتانة، ويستمعون إلى الضحكات والتعليقات:

ـ يا له من ابن عاهرة، ذلك ذو الشارب... عندما انتهى العرض وعادت الأنوار ثانية، لم يكن لوكاس مكتفياً بعد. فأصدر الأوامر بأن يعرض الفيلم مقلوباً رأساً على عقب. كانت تلك إحدى تسلياته المفضلة. عندما يدخل مدينة فيها دار للسينما، كان يحب مشاهدة الفيلم بالطريقتين، ويبدأ العذاب للحضور. وحدها كينكينا ضحكت عند رؤية الشخصيات وأقدامها إلى فوق، تسير بشكل معكوس، والأرض حيث يجب أن تكون السماء.

وكانت أيضاً أفلام لتشارلي تشابلن وضحكوا من صروف الدهر التي يتعرض لها المتشرد. وكان القروي عملاقاً وقوياً وعندما بدأ بضرب تشارلي تشابلن، لم يقاوم أحد الكانغاسيرو ، فأطلق ثلاث رصاصات على الشاشة. وقد أغمي على نساء، لكن القروي استمر في أداء مهمته.

ـ لا تضرب الرجل الصغير يا ابن البغلة...

وأخيراً أضيئت الأنوار. وكانت أرملة الملازم ذاهلة عما حولها. فألقاها زيه تريفوادا على كتفه وخرج بها. وجمع الكانغاسيرو الحضور وساقوهم جميعاً إلى صالون الفيلار مونيكا.

كان لوكاس يتأبط ذراع المدرّسة، وقرّب أنفه من شعرها الذهبي، وتنشق عطر الفتاة، ثم ضحك راضياً.

وأرادت إحدى بنات القاضي الهرب، وقد اختلط عقلها من الخوف، فألقاها أحد الكانغاسيرو أرضاً بصفعة، وأنهضتها أمها وهي تبكي. واغرورقت عينا القاضي أيضاً بالدمع وبدأ الموسيقيون في الفيلار مونيكا في العزف حينما ظهروا عند الناصية، وجيء من البار بكل المخزون من الكاشاسا والنبيذ. وكان القمر يتلألأ في السماء مستديراً وأصفر، على ارتفاع منخفض من البيوت، مرسلاً ضوءه على شعر المدرّسة الذهبي، معطياً إياه درجات جديدة في اللون أكثر جمالاً.

7

في الحقيقة، لا يمكن القول إن الحفلة كانت حيوية أو القول إنها غير حيوية. قد يكون التعبير الدقيق المحدد لتصنيف حفلات الرقص التي يقيمها لوكاس آرفوريدو في المدينة التي يغزوها، بأنها كانت مثل مراسم دفن مع موسيقى مرحة، سامبا وفوكس - تروت. نصف الموسيقيين تقريباً قد جمعوا، الذين كانوا في المدينة ولم يسنح لهم الوقت للسقوط في الغابة. نحو من ثلاثين امرأة بين طاعنة في السن وفتية، كن يتحركن في القاعة، مدفوعات من قبل فرسان، في معظمهم جاغونسوس من العصابة. وأراد لوكاس رؤية الجميع يرقصون، وقد أكره القاضي والمحافظ والبائع الجوّال على الرقص، وأمر بتقديم المشروب للموسيقيين، جاعلاً النساء يحتسين الكاشاسا، وكانت المدرّسة تمضي معه، فيدوس قدميها، وهي غير قادرة على التفكير، وقد سُلّم حظها إلى القدر.

- ليكن ما يشاء الله - كانت تتمتم: وُجد عريس في المدينة، لكنه كان يشعر بأن شيئاً بعيداً، حلماً يتلاشى أمام الواقع الجديد. فلوكاس قبّل العروس من شعرها.

كانت حفلة راقصة جهنمية، ولو لم يكن قس المحلّة من أوائل الفارّين حينما أعلن مجيء لوكاس، لكان في الإمكان أن يصير موضوعاً جيداً لعظة في تلك الحفلة الراقصة التي هي بدون فرح، لكن برقصات سريعة، وقطع موسيقية يتخللها إطلاق رصاص وصيحات وزجاجات تفرغ بسرعة، ونساء مخنوقات بالكاشاسا.

وكان زيه تريفوادا يجرّ أرملة الملازم وهي، كأنها فاقدة الإحساس، تحرّك قدميها على إيقاع الرقصة، بدون أن تحفل بذلك. فتفكيرها كان في الزوج الميت، في الإبن الذي تركته وحيداً في البيت، فلا شيء مما يحدث لها هناك يستطيع إلحاق الإهانة بها.

حينما سكتت الموسيقى وتوقف الجميع، أخذ رجال المدينة يختلسون النظر إلى زوجاتهم وإلى بناتهم وهن يرتعدن في أحضان الكانغاسيرو ولوكاس يتلفظ بكلمات مشؤومة، بحيث أن تجار المدينة وسكانها ارتجفوا عند سماعهم في لحظة ما:

- الطقس يغدو حاراً جداً، هيّا ننزع الملابس...

وصفّق بيديه:

- الجميع، من دون استثناء... واتجه إلى المدرّسة:

- وأنت أيضاً، يا ذات الشعر الذهبي... صار الرجال والنساء جامدين. حاول البائع الجوّال التدخل، فكشّر لوكاس:

- تجرّد من ثيابك أنت أيضاً...

وتحت حراب الرجال، بدأوا التجرّد من الثياب. كانت امرأة القاضي فيلاً لشدة ما هي بدينة، وثديان يضربان بطنها، والزوج في المقابل كان قضيباً هزيلاً، تظهر عظام أضلاعه، وتخيّل لوكاس الاثنين يرقصان، عاريين وسط القاعة. فأصدر الأوامر للفرقة الموسيقية بأن تعزف رقصة فالس. ووضع حربته على بطن زوجة القاضي، فأخفت المرأة وجهها بيديها، لم تفكر بأن تشعر بخجل شديد كهذا.

- أنتما الاثنان، ارقصا...

وضحك الكانغاسيرو ، ولم يستطع التاجر إلا أن يضحك، رغم أن زوجته أيضاً كانت هناك، عارية مثل الأخريات. كان القاضي وزوجته يمشيان أكثر مما يرقصان في القاعة، وكان المشهد مضحكاً، سمنتها نقيض هزال الزوج في كل شيء. وعيون الاثنين مغرورقة بالدموع.

ماتت رقصة الفالس في النوتات الموسيقية الأخيرة، وجاءت رقصة السامبا، فقال لوكاس:

- ليرقص الجميع.

وتناول يد المدرّسة، وأحس بالجسد العاري وقد خارت قواه بين ذراعيه، وكان زيه تريفوادا يمسك بأرملة الملازم بعدما نزع ملابسها بالقوة، وهي تتطلّع إليه بعيدة وصامتة.

واستمرت الحفلة الراقصة طويلاً، والكانغاسيرو يغدون في كل مرة أشد سكراً، والرغبة داخل نفوسهم، فكل واحد منهم قد اختار المرأة المفضلة لديه. وحين جرّ لوكاس المدرِّسة إلى القاعة الداخلية، بدأوا يأخذون النساء، هناك بالذات، على مرأى من الجميع. كان مشهداً لا يمكن تصوّره، من الصراخ. وبعض الرجال حاولوا التحرّك، لكنهم حُبسوا في إحدى الزوايا بسلاح اثنين أو ثلاثة من الجاغونسوس.

كان الأشد رعباً حين طرح زيه تريفوادا أرملة الملازم أرضاً. وعندما أدركت ما كان يحدث، باتت مجنونة كلياً وراحت تركض في القاعة، وهو يركض وراءها، ثملاً جداً. فتعثر بالمقاعد ووقع، لكنها فقدت قواها فأمسك بها مجدداً. خدشته بأظفارها وعضته، وأدارت جسدها، وكان يصدر عن النساء الأخريات أنين ألم عند نكاحهن بالإكراه.

أمسك بها زيه تريفوادا من ذراعيها، وساقاه فوق ساقيها:

- امرأة القرد، سوف ترين من هو الفحل...

وسمعت الآن بكاء ابنها آتياً من بعيد. فكان لديها على حين غرة، لحظة صحو من الجنون، ثم تخلّصت من الكانغاسيرو الذي كان يهيّيء نفسه ليمتلكها، ونظرت إلى عينيّ السكير:

- أليس لك أمّ أيها الشقي؟

كان السؤال غير متوقع بحيث أن زيه تريفوادا لم يفهمه على وجه التقريب، فمن النادر أن يتذكر العجوز جوكونديتا. لكنه لم يكن يريد التفكير فيها في تلك اللحظة.

- دعي العجوز بسلام...

- إذا كان لديك أمّ أيها السيد، فكّر فيها وفكر بأنني أيضاً لي ابن، ألا يكفي أنك قتلت زوجي؟ دعني أنصرف، لخير أمك...

كانت جادة وواثقة أمامه. ولم تكن تخفي أي جزء من جسمها. فرأى زيه تريفوادا العجوز جوكونديتا تسير في البيت، توبخهم، ناظرة إليهم بحب. واستمرت المرأة:

- إني أتوسل إليك حباً بأمك... إذا لم تشأ أن تفعل ما تلعنك من أجله... إني لن أجري، فأنت أيها السيد من يعلم ماذا عليه أن يفعل. إنه لخير أمك...

مرر زيه تريفوادا يده على عينيه. لم يستطع إبعاد رؤية العجوز جوكوندينا:

- انصرفي.. وبسرعة، قبل أن أندم...

خرجت المرأة من الباب، وفي طريقها تلقفت قطعة من فستان ملقى في القاعة، وغطّت به جسدها وأسرعت في الشارع.

بقي زيه تريفوادا واقفاً، دون أن يدري ماذا يفعل، كان لا يزال يرى العجوز جوكوندينا والآن يراها عارية وسط القاعة، فأبعد رجلاً من طريقه:

- أخرج، أيها الوباء الشرير...

وأمسك بزجاجة كاشاسا.

هناك داخل القاعة حيث كان لوكاس، انبعثت صرخة مخيفة. وتسرّبت رائحة لحم مشيط إلى قاعة الرقص، وقال جاغونسو:

- وسم لوكاس المرأة البيضاء...

أحسّ البائع الجوّال بدوار، فجلس على المقعد وهو لا يرى أحداً أمامه، وظهر لوكاس في القاعة والميسم الحديدي جمر في يده، وهو يجرّ الفتاة من شعرها، وحرف «ل» من الدم على كتفها البيضاء التي لا يضاهيها الحليب بياضاً. وهناك ألقى بنفسه مجدداً عليها، ولم تتحرّك.

نظر زيه تريفوادا إلى القاعة. لم يبق إلا الأكبر عمراً والأشد قبحاً. فندم لأنه ترك المرأة تنصرف، ولم يعد يرى أمامه بعد جوكوندينا. واستبدت به الرغبة مجدداً. لا أحد يريد ابنة القاضي البدينة. فصاح بها زيه تريفوادا:

- تعالي إلى هنا أيتها البطة... أرادت الفتاة الجري، فوقعت أرضاً. ثم وضع الحربة على عنقها:

- إذا تحركتِ فسأغرز السكين...

وأخذت رائحة اللحم المحروق تختفي ببطء. فهرب الموسيقيون من النافذة وكانت الأوركسترا الآن أوركسترا تأوهات، وشهقات وأنين، فقد انتهت حفلة لوكاس آرفوريدو الراقصة.

خرجوا عند الفجر في الشاحنة. ومسدس بيكو دوسي مسند إلى أضلاع السائق، وبعد فراسخ عديدة، عندما أصبحت الشمس في قبة السماء، أمروه بالتوقف، وأطلقوا الرصاص على العجلات، ثم اختفوا في الكاتنغا.

8

توغلوا في أعماق الكاتنغا. لأنهم يعرفون أن الهجوم على المدينة سيكون له صدى، ويؤدي كنتيجة، إلى التشدد في المعركة ضد عصابة الكانغاسيرو . وكتبت الصحف، وألقى نواب المعارضة خطباً ضد الحكومة، وسارت فرق من الشرطة ضد لوكاس آرفوريدو. والذين عانوا ذلك هم أهالي السرتون وليس أصحاب المزارع الأثرياء المقدّرين من الشرطة التي ضمنت لهم ممتلكاتهم، والمقدّرين أيضاً من لوكاس حيث كانوا حماته ولا يرفضون إعطاءه المال المطلوب، وكان لوكاس حينما يرفضون، يحرق الحقول والبيوت الكبيرة ويقتل بعضهم، فيفرض احترامه.

لكن المزارعين الصغار، أصحاب المزارع الصغيرة، والفلاحين المتعاقدين وأهالي السرتون الفقراء، هؤلاء يعانون، سوءاً من مرور عصابة لوكاس! - وأكثر من ذلك – من الشرطة. فالملازمون، النقباء، المكلّفون تعقب لوكاس يَثْرون خلال سنتين يقضونهما في السرتون، يأخذون نقوداً ليدفعوا ثمن الطعام والجياد، لكنهم يسخّرون الفلاحين الفقراء، فيسلبونهم ويغتصبونهم مثل الكانغاسيرو أو أكثر منهم. ويخشى أهالي السرتون بزة الشرطة التي تتغيّر هناك فيرتدي الرجال سترات الجلد فوق البزات الرسمية، مبدلين القبعات بقبعات رعاة البقر، وبثياب الجلد التي يرتديها الكانغاسيرو .

كانت للشرطة حقوق، فيستولون ويقتلون وينتهكون الأعراض بالاستناد إلى القانون، ولا يلجأون إلى الهرب مثل الكانغاسيرو . فحيث يوجد ثيران ودجاج هم حاضرون، فينام الملازمون مع الهجينات الصغيرات الأكثر جمالاً، ويفعل الجنود ما يحلو لهم.

وكان كثير من الجنود متطوعين من هناك بالذات، وكان بعضهم في ما سبق كانغاسيروس وهم الوحيدون في الواقع الذين يفيدون في تعقب العصابة، الوحيدون الذين يحسنون التحرك في الكاتنغا المغلقة، الملازمون والنقباء يريدون الاحتفاظ بأقصى ما يستطيعون بالمبالغ التي يتسلمونها من أجل الإغارة. فيعطون الحرية للجنود ليتدبّروا أنفسهم مثلما يشاؤون، ولينقضّوا غاضبين على أهالي السرتون، على مقتنياتهم وعلى بناتهم، وقطعانهم.

كما أن الكانغاسيرو لا يعفون أحداً. فبالرغم من أنهم قد خرجوا من بين أهالي السرتون الأشد فقراً، ضحايا بشكل دائم للإقطاعات وللصراعات غير المتكافئة مع الكولونيلات الذين يأخذون أرضهم، وثمرات البيئة الاجتماعية، لم يكونوا مع هذا، يحتفظون بتعاطف خاص مع الذين عانوا ما قد عانوه هم. والكانغاسيرو أيضاً كانوا يسرقون وينتهكون، ويقتلون ويخصون، الفرق الوحيد بين الكانغاسيرو والشرطة هو أن هذه كانت تحترم جميع أصحاب المزارع الكبيرة، فيما لوكاس يهاجم هؤلاء أيضاً.

توغلوا في الكاتنغا، وراحوا يعسكرون في مخبئهم الأكثر خفية. فهناك لا يصل إلا الجواميس الذين يأتون بالأخبار للوكاس. وتحرك الجنود من جميع الأنحاء، ومن حدود خمس ولايات. فكانت خطب المعارضة هذه المرة أشد عنفاً. فمسألة الاستيلاء كان لها صدى حتى في المجلس الاتحادي ، ونشرت الصحف صورة المدرِّسة التي أصيبت بالجنون، مع الكتف الموسومة بالحديد المحمّى، وحرف «ل» من اسم لوكاس، علامته لقطيعه الغريب، النساء اللواتي يضاجعهن. ونشرت أيضاً صوراً لأرملة الملازم، التي التمس لها أحد النواب راتباً تقاعدياً خاصاً من الحكومة، ومقابلة روت فيها كيف تحررت من يدي زيه تريفوادا. والصحافي المحقق الذي كان يحب منهج التأثيرية (كان شاباً طموحاً ورقيق المشاعر) أعطى المقابلة عنواناً حرّك مشاعر العائلات: «وخز الضمير شلّ يدي قاطع الطريق».

ملأ جنود الشرطة الطرق، وحاصروا منطقة من الكاتنغا حيث كان لوكاس مع رجاله. لقد جاؤوا من جميع الجهات، وفي وقت قصير سوف يكون الحصار كاملاً. وسُلّمت إمرة التجريدة لنقيب في الجيش، مفوض برتبة كولونيل، وهو قبل الرحيل إلى السرتون، قد أجريت معه مقابلة للصحف، فقال إن ذلك كان نهاية لوكاس آرفوريدو وعصابته من الكانغاسيرو . حتى أن هذه الصحيفة جُلبت إلى لوكاس، وتهجّأ تصريحات النقيب، وتطلّع إلى وجه الرجل ليحتفظ به في ذهنه جيداً، واستودع قبراً له.

حينما وصل النقيب مع جنوده الكثيرين، إلى الكاتنغا، كان لوكاس بعيداً جداً، يخلد إلى الراحة باطمئنان في مزرعة أحد حماته، وهو كولونيل ذو نفوذ في السياسة وعضو مجلس شيوخ الولاية، كان يلقي خطباً يتكلم فيها عن الدفاع عن الحضارة المسيحية. وكان يستفيد من لوكاس في طرد أولئك المزارعين من أراضيهم المجاورة لأراضيه التي يبدي اهتمامه بامتلاكها، وبعد أن يهرب الناس ولا يستطيعون العودة، يحصل هو على الأراضي بمبلغ زهيد. وفي مجلس الشيوخ في ولايته، يصغي إلى الخطب ضد الحكومة التي لا تصفّي لوكاس، ويقول في حلقات القهوة:

- لو كانت لديه الجرأة للظهور في مزرعتي فستكون نهايته... وقد صوّت للاعتمادات التي تخصص للشرطة لكي تتعقب الجاغونسوس. وكان يعرف أن تلك المطاردة كانت لها غاية واحدة: إثراء بعض الملازمين والنقباء.

وبما أنه لم يعثر على لوكاس آرفوريدو ولا يرغب في العودة، نشر النقيب جنوده في السرتون، فسلبوا وانتهكوا وقتلوا، ونسبت الصحف هذه الجرائم أيضاً إلى الكانغاسير لوكاس آرفوريدو.

9

عندما وصل الشيخ ذهب لوكاس لتحيته، مصحوباً بزيه تريفوادا. كانوا معسكرين تحت سقف من الطين قرب المنزل الكبير، وقد استدعوا نساء جانحات من الدسكرة، عشيقات يمتلكونهن في تلك الأنحاء. وفي كل مرة يلجأ لوكاس وعصابته إلى هناك، يكون في المزرعة ما يشبه الاحتفال. فيأتي عازفو القيثارات وعازفو الهارمونيكا، فتقام حفلات رقص في الليل، ويقرر بعض العمال التخلّي عن الفأس والمعول ليلتحقوا بعصابة لوكاس، من أجل المغامرة بالحياة في الكاتنغا، طليقين من التزاماتهم.

شدّ الشيخ على اليد التي مدّها إليه الكانغاسيرو. وكان ثمة مقعد طويل من الخشب في الشرفة، فجلسا هناك وتحدثا. خلع قبعته الجلدية وركّزها على الأرض بين قدميه. وجلس زيه تريفوادا القرفصاء أمامهما. وكان الشيخ يدخن سيكاراً معطراً. فتنشق لوكاس كأنه يطلب تقريباً. وأمر الشيخ بجلب الصندوق بدون أية رغبة، فكل سيكار من ذلك يكلّفه ثمانية آلاف ريس. أعطى لوكاس واحداً، وآخر لزيه تريفوادا، فخبأ هذا السيكار في جيبه:

- سأعطيه لماريكوتا... - كانت العشيقة معه هناك.

أراد الشيخ الاحتجاج. ففي تلك المرة ذهب بعيداً جداً. فلوكاس تجاوز الحدود. وقد ينتهي ذلك بالضرر عليه أكثر من أي من الحماة، إذ إن أحداً ليس في مكانته المرموقة. الحقيقة أنه يعرف أن الكولونيل جوان باتيستا أبا حاكم إحدى الولايات المجاورة، كان أحد الذين يحمون لوكاس. لكنه في المقابل منعه من دخول أي مدينة من مدن ولايته الصغيرة. وكان لوكاس لا يتجه إلى مزرعة الكولونيل جوان باتيستا إلا إذا كان في ضيق شديد. فهناك لا تذهب الشرطة أبداً، وفي المقابل، فإنه لم يكن يطلب الحماية في أي جهة مثلما كان يطلبها بكثرة في مزرعة الشيخ. ويقع الذنب على الشيخ نفسه، فقد كان يستدعيه مرات كثيرة، محتاجاً إليه ليستولي على أراضي الآخرين.

في الشرفة فكر الشيخ بأن لا يستعين بعد الآن بلوكاس آرفوريدو:

- يا سيد لوكاس، اعذرني لصراحتي، لكنك تسيء التصرّف... وهكذا فإنك سوف تنتهي بشكل سيىء ولن أستطيع أن أفعل شيئاً لمساعدتك...

- رفع الشيخ إصبعه بتحذير.

فألقى لوكاس عليه عينين بريئتين:

- عمَّ تريد حضرتك التكلم؟ أنا لا أعرف شيئاً... فأنا أتصرّف بهدوء، من جهتي في هذه الأوقات...

- أنت تعلم عما أتكلم... فأي حاجة لك في وسم تلك الفتاة المسكينة بالحديد المحمّى؟ - لقد رأى الشيخ الفتاة وكان لا يزال غير متحرر من ذلك التأثير.

- كنت ثملاً قليلاً، واللعينة جعلتني حيواناً. وأنت أيها السيد تعرف ما هو الهياج، فلم أتحمل...

ساد الصمت خلال بضع دقائق.

- كان عملاً سيئاً جداً. وهكذا سوف تنتهي يا لوكاس بسوء... سيقبضون عليك يوماً...

تعلم حضرتك جيداً أن أحداً لن يلقي القبض على لوكاس وهو على قيد الحياة. فهذا الهجين الذي ههنا لن يُضرب على جنبه في السجن... وقبل ذلك من الأفضل أن أموت وأنا أقاتل... فلست قاطع طريق لأترك نفسي يُقبض عليّ...

- والضمير؟ - سأل الشيخ، وهو قليلاً ما يتذكر ضميره. سيكون من المبالغ فيه القول إنه أحياناً وأثناء ليالي الأرق، فيما هو تعب من النساء الفتيّات، ما كان يحس برعدة. وكرر - والضمير؟ ألا يؤلمك؟

- إذا ما كنت أذكره؟ فيا أيها السيد الشيخ، حضرتك تعرف جيداً أنني مارست هذه الحياة بإرادتي. فقد كنا قانعين بأرضنا، فجاؤوا وأخذوها، هكذا كما تفعل حضرتك أيضاً... وقتلوا أبي العجوز بطلق ناري، فما لزوم ذلك؟ لقد قتلت الرجل، وسلكت طريق قطاع الطرق فكيف أشعر؟...

إني أنتقم، والآخرون أيضاً. وتعلم حضرتك أن هؤلاء الناس في السرتون أشد بؤساً ومعاناة من طائر البغاث نفسه، وهو حيوان لا يأكل إلا الجيف... أقله توجد جيف ليأكلها...

لم يحبّ الشيخ ذلك التلميح إلى سلوكه. فلوكاس يصبح كل يوم أكثر جرأة، وقحاً، يفقد الاحترام له كلياً. فصمم على اختصار المحادثة:

- هل ستتأخر ههنا؟

- بضعة أيام فقط ريثما يرتاح الرجال وتطمئن الشرطة. يقال إنه يوجد في الكاتنغا من الجنود أكثر مما فيها من أشواك المانداكارو...

- يوجد كثير من الجنود، لكنهم قد تفرقوا، وهم منتشرون في السرتون. والأفضل لك هو أن تعبر النهر، فتذهب إلى الجهة الأخرى - بوجود لوكاس في الولاية الأخرى سيشعر هو أنه بات أحسن حالاً.

- ربما يكون هذا أفضل حقاً... منذ مدة لم أذهب إلى تلك الأنحاء، ولديّ بعض حسابات تتطلّب التصحيح هناك. لن ألبث إلا بضعة أيام، الوقت الذي يكون فيه القرود قد اختفوا...

- حسناً جداً يا لوكاس. ارتحت لرؤيتك بصحة جيدة. والآن سأخلد إلى الراحة قليلاً وأعطي بعض الأوامر لليكورغو.

- كان يتكلم عن المتصرّف في شؤون المزرعة - وتعال لرؤيتي قبل ذهابك. لكن لوكاس لم ينهض:

- كنت أريد التكلم في موضوع مع حضرتك...

- ما هو؟

- لديّ قليل من الذخيرة...

- من أين سأتدبّر ذلك؟ - كان واقفاً واعتراه شيء من الغضب لطلب لوكاس - أنت تعرف أنه ليس سهلاً الحصول على ذخيرة.

- قال لي ليكورغو إن لدى حضرتك أكثر من ثلاثمائة رصاصة بندقية تحتفظ بها في المنزل...

«سيعلم ليكورغو ذلك، هذا المساء كم يكلف المرء كونه ثرثاراً...» لقد كان الشيخ يحتفظ بالرصاص على سبيل الاحتياط لحاجة ما، والسياسة في السرتون تصنعها أيضاً طلقات الرصاص والصراعات.

- إني لا أتذكر. لكن لا أستطيع التنازل لك عنها كلها... إنما عن قسم منها... فأنا مضطر للإبقاء على الذخيرة. ولا أحد يعلم شيئاً عن المستقبل...

- لن يقترب أحد من حضرتك، لأن لوكاس لن يسمح بذلك... سوف أرسل رجلين ليجمعا الرصاص.

- هذا صحيح، سأخلد إلى الراحة. إلى اللقاء في ساعة أخرى...

نهض لوكاس، وكان زيه تريفوادا واقفاً. فمد الشيخ أطراف أصابعه. كان يرتدي بيجاما من الحرير، مقلّمة. وبقي لوكاس متوقفاً. كان ينتظر بكل وضوح أمراً ما. فسأله عندما رآه في ذلك الموقف:

- ماذا بعد؟

- ألن تدعوني حضرتك إلى العشاء؟ كل مرة كنت تدعوني حضرتك، ويصبح لوكاس راضياً...

ابتسم قسراً:

- تعال غداً، سآمر بذبح عجل خصي للرجال...

بقي متطلّعاً إلى قاطعيْ الطريق وهما يسيران إلى جانب الكوخ الكبير. لقد بات لوكاس آرفوريدو مزعجاً. وفي النهاية، لا يزال بإمكانه أن يكون مفيداً إذا اضطربت الأمور في السياسة أكثر، كما كان يبدو أنه سوف يحدث... والأفضل من كل شيء، هو ألا يعود إلى المزرعة أبداً. وإذا صفّته الشرطة فسيشعر الشيخ أنه أصبح راضياً. وللمرة الأولى فكر في أن يغدر بالكانغاسيرو، في أن يسلمه إلى رجال الشرطة. وبدأت الفكرة تنمو في دماغه.

10

كانت الليالي في الكوخ الكبير ليالي احتفال. فلوكاس قد أرسل في طلب عازفين على الهارمونيكا والقيثارات ذوي شهرة. فرقصوا حتى الفجر، والنساء كنّ يعلمن أنهن بعد أن يقضي

رجالهن شهوراً وشهوراً مدفونين في الكاتنغا، سوف يصرن ذوات حنان، وتأوهات تصبح مثل موسيقى أيضاً.

وكلّم أحد عمال المزرعة لوكاس عن أحد عازفي الهارمونيكا، كان قد سمعه منذ بضع ليال في إحدى المزارع المجاورة. كان في طريقه مسافراً إلى الجنوب في اتجاه جوازيرو، في ولاية باهيا. فمنذ أيام وهو مع عائلته، وقد بقي في المزرعة يمسك بالمعول ليكسب بعض النقود يواصل بها السفر.

وقصّ العامل روائع عن الرجل. فلم ير عازفاً مثله البتة. والاستماع إليه أمر مطرب، ويستأهل من لوكاس أن يأمر بجلبه.

- إلا إذا كان قد رحل... فقد كان يمرّ من هنا فقط، وسيمضي إلى الجنوب، في طريقه إلى سان باولو...

بعث لوكاس برسالة، وفي تلك الليلة جاء باستيون مع الأرمونيكا. ترك عائلته وجاء بمفرده. كان ذلك أكثر ضمانة. فقد سمع كثيراً مما يروى حول لوكاس، وموبقاته، لكن أيضاً عن سخائه حينما يحوز شخص أو شيء رضاه. وقد سمع من يقول إن جوزيه بن جيرونيمو كان منخرطاً في العصابة. وأحب أن يراه، وأن يروي له ما حدث في مزرعة الكولونيل إيناسيو. وصل والأرمونيكا تحت ذراعه، مصحوباً بالعامل الذي حمل الرسالة. وكان رجال ونساء ينتظرون العازف ذا الشهرة. وعرفه زيه تريفوادا على الفور:

- لكنه باستيون...

وسأله لوكاس:

هل تعرفه؟

- إني أعرفه جيداً. فهو يقيم مع أهلي في مزرعة المرحوم الكولونيل إيناسيو.. حيث مررت أنت تلك المرة، حينما جئت أنا إلى العصابة... هل تتذكر؟

تذكر لوكاس. كيف يستطيع أن ينسى شخصية زيفا المتنبئة بالمستقبل، المهددة العالم والناس؟ لكنه لم ير باستيون، فالزنجي هرب مع عائلته ولم يظهر إلا بعدما غادر جمع الكانغاسيرو .

ومن فم باستيون وقف زيه تريفوادا على أخبار المزرعة وذويه. علم بالبيع الذي أجراه الدكتور أوريليانو، وكيف أخذوا أراضي الفلاحين، والرحلة، والطلق الناري الذي أطلقه غريغوريو على أرثور الذي لم يقتل المتصرف. وآخر خبر لدى باستيون بصدد أهل جوزيه هو الذي نقله بعض الرجال الذين التقوهم بعيداً وراء الكاتنغا، وقالوا إن العائلة قد اقتصرت على ولدين، مارتا والعجوزين وجوان بيدرو ستة أشخاص يبدون كحيوانات.

- والبقية؟

- كان وجه زيه تريفوادا معتماً وعيناه صارتا صغيرتين وشريرتين.

- قيل إنهم ماتوا في الطريق. وأنا أيضاً فقدت ولدين في هذه الرحلة.. إنها موبقة تلك التي فعلوها بنا...

عزف طوال الليل والرجال يرقصون والنساء سعيدات. يا له من عازف! تحمس لوكاس. فقد كان لباستيون صوت عذب، فغنّى أغاني السرتون وحوارات زجلية. أنشد تلك التي تتكلم عن منجزات لوكاس آرفوريدو، ورجال العصابة يرافقونه في جوقة:

«ها قد أتى لوكاس آرفوريدو

متسلحاً ببندقيته

السرتون يرتجف خوفاً

فقد قتل أكثر من ألف.

ها قد أتى لوكاس آرفوريدو

متمنطقاً بحربته

الأثرياء يتغوطون خوفاً

فطلق لوكاس الناري مميت.

ها قد أتى لوكاس آرفوريدو

متسلحاً ببندقيته

فيا أيتها البنت لا تخافي

فلقبي لطيف...

ها قد أتى لوكاس آرفوريدو

متمنطقاً بحربته

الوحوش وحدها لا تخاف

فتأكل من خرجه.

ها قد أتى لوكاس آرفوريدو

متسلحاً ببندقيته...».

كانت الأصوات تعبر الحقول، وتوقظ العصافير على الأغصان، وترتعش الأشجار. فاسم لوكاس أرفوريدو يعني القول: دماء وموتاً وحزناً وحداداً. وأنغام الأغنية بصوت الكانغاسيرو الأجش، هي كإشارة للرحيل. وعند سماعه باستيون، فكّر لوكاس أن لحظة السير قد حانت. فهم ههنا منذ شهر وعشرة أيام، والكاتنغا بانتظارهم، وإذا لم يزوّدهم بما يتكلمون عنه فوراً، فلسوف ينسونه. وإن آخر، أكثر جرأة منه سيأخذ مكانه في أحاديث أهالي السرتون، وفي أفواه عازفي القيثارات.

ها قد انتهى الليل، وانسحب عديدون من نسائهم إلى الزوايا أو إلى الغابات. ولوكاس نفسه وسنان. وجهّز باستيون نفسه للرحيل، فاحتضن زيه تريفوادا الذي أمضى الوقت كله مطبقاً، منكمشاً على مقعد خشبي طويل، بدون أن يغني أو يرقص، ولم تكن لدى ماريكوتا الجرأة لتناديه. وحين دعته ليذهبا إلى النوم، تطلّع إليها بتينك العينين بحيث أنها ابتعدت ورمقته من بعيد. ماذا جرى له؟ ماذا قال له هذا الزنجي عندما تحدثا؟

واقترب باستيون ليودعه:

- إلى أن نلتقي يا جوزيه...

الاسم هكذا كاملاً، وبما أن لا أحد هناك يلفظه، فقد زاد أيضاً من ألمه، كأنه يقرّبه من الطفولة في المزرعة.

- إذهب وأنت مرتاح يا باستيون. فلن أترك هذا الأمر على هذا النحو. سأتكلم مع لوكاس، فنحن سوف نذهب إلى هناك، والذين هم في البيت الكبير.. لن نذهب إلى هناك من أجل المال.. إنما لكي نقتل فقط...

أعطى مائة ألف ريس للزنجي العجوز. ولوكاس أعطاه مائتين. اعتقد باستيون أنه أصبح غنياً. إنها تكفيه ليصل إلى جوازيرو وتفيض وأكثر من المال، كان إطراء لوكاس آرفوريدو، وذلك النبأ الذي زوّده به جوزيه قد أفعم قلبه. فهذه المرة لن ينجو أرثور. ومن يدري، فقد يأتي الدكتور أوريليانو إلى هناك حتى ولو في زيارة... وفي طريق العودة كان لا يزال يغني ويفعل ذلك بمحض اقتناع:

«ها قد أتى لوكاس آرفوريدو متمنطقاً بحربته»..

11

انتبه لوكاس إلى أن زيه تريفوادا في أحد الأركان كأنه مريض. كان الأثير لديه. لم ينس قط أول تبادل إطلاق رصاص اشترك فيه جوزيه حيث استحق اللقب. حين رأى الآخرين يقفزون ويصيحون، حسب تكتيك المعركة الذي يقوم به لوكاس في عمليات الإغارة، الصيحات والقفزات أشدّ رعباً من طلقات الرصاص. وكان جوزيه يطلق تلك الصرخات بصوت مرتفع جداً بحيث تبدو رعداً بالفعل. فقال أحد الرجال:

- يبدو راعداً.. فأنت هو زيه تريفوادا.

وبقي الاسم. لكن الشجاعة والانغماس كانا هناك. وفي الحال ميّزه لوكاس من الآخرين، ووثق به بمهام صعبة، وأرسله إلى المزارع لتسلّم الحصص التي كان المالكون يدفعون بها الحق كيلا يهاجموا. فهو يثق به ويقدّره. ولهذا اتجه إلى ناحيته عندما رآه متوارياً تقريباً في عمق الكوخ الكبير. فقد شعر أثناء الحفلة بغياب جوزيه. لكن بما أن الآخر كان متمسكاً بماريكوتا، فقد ظن أنه كان نائماً مع المرأة.

وكانت ماريكوتا هي التي سألته بالذات:

- ما الذي أصاب زيه؟

- لا أدري أي حيوان عضّه... إنه بهيئة الموت...

- ما الذي أصابك؟

فرفع زيه تريفوادا رأسه:

- أريد أن أعرف إذا كنت تلبي لي طلباً...

- حالما تتكلم..

- قيل إنهم طردوا أهلي من أرضهم، أبي وأمي، وعمّي أيضاً. كل من كان يعيش ومن له أرض في المزرعة، فذلك العازف من هناك، وطردوه أيضاً. وقيل إن أهلي نزلوا إلى سان باولو، وهم يموتون جميعاً في الطريق... أنت تعرف هؤلاء المنكوبين لا يصل منهم النصف إلى جوازيرو...

- ما الذي تريده؟

- الذهاب إلى المزرعة والقبض على المالك، ذلك الذي اشتراها ثم المتصرف، لقد أطلقوا عليه رصاصة لكنهم لم يقتلوه..

- عمتك هناك؟

- طردوها أيضاً. قيل إنها ماتت في الطريق، بقي خمسة فقط...

- طردوها؟ كان عليهم ألّا يفعلوا...

- وهل هم يهتمون؟

- سنخرج غداً. اخلد اليوم إلى الراحة، لكي تستطيع المشي بسرعة أكثر. خلال عشرة أيام سنكون هناك، إذا لم يحدث أي مكروه. والأفضل أن تنام، فقد اتخذت قراري..

لم يتمكن جوزيه من النوم. عاد يرى جوكوندينا تسير في البيت، وتتجاوب الأصوات في الحظيرة. ومارتا اليافعة لا تزال تجري في الفناء، وجيرونيمو في الحقل. والبيت حيث ترعرع والذي لا يدري متى، لكن لم يكن مهتماً، أجل كان مهتماً، بأن يعرف أنه موجود، وأن بوسعه العودة إذا أراد، وأن يحتضن أمه، ويطلب البركة من أبيه، وأن يمسك بالمعول ويمضي إلى حقل المنديوكا. يقبض على الحربة بشدة. فلن يهدر رصاصة بأولئك الناس.

حينما عادوا من الإغارة على المزرعة، كان لهم لقاء مع دورية من الشرطة. فجرح بوربوليتا في ساقه وذهب لوكاس آرفوريدو إلى أحد حماته ليترك الجاغونسو هناك، برعاية أحد الأطباء. ولم يعثروا في المزرعة على أرثور الذي كان مسافراً، ليشتري بقراً. وكان المالك الجديد ينقل قسماً كبيراً من الممتلكات إلى اسمه في دوائر السجل العقاري. وقد استبد بهم الغضب لعدم عثورهم على المتصرف فأشعلوا عند ذلك النار في البيت الكبير، وقتلوا كل ما استطاعوا من البقر. وأضرم زيه تريفوادا النار في حقول المنديوكا والذرة التي تحيط ببيته. ودخل البيت مثيراً الرعب في عائلة أحد العمال. ثم نظر إلى الجدران المشيدة بالطين المعالج. لا شيء بعد يذكره هناك بحضور جيرونيمو وجوكونديتا. فكر في إضرام النار في المنزل أيضاً. لكن العمال لم يسيئوا إليه أيما إساءة. فسأل إذا كانت الأغراس لهم أم لصاحب المزرعة.

- نحن مأجورون فقط...

أضرم النار. واشتعل المنزل الكبير، ولم يكن زيه تريفوادا راضياً. ولم يلبث أن علم الدكتور أوريليانو كان على مقربة من هناك. فقد حل ضيفاً في المزرعة منذ يومين، وتكلم زيه تريفوادا مع لوكاس آرفوريدو، فاتفقا على بعض الخطط. ثم انصرف وحيداً. على أن يلتقي العصابة في مكان محدد.

أطلق النار على أوريليانو في ذلك اليوم بالذات، لكنه لم يكن متأكداً من أنه قد قتله. وبقي يجول في الجوار حتى عرف أنه جرح فقط رفيقه القديم في سباقات الركض العفوي حينما كانا ولدين. وقد حملوه إلى الدسكرة ومن هناك إلى المدينة في سيارة.

وانهال زيه تريفوادا باللعنات حتى أنه فكر في الذهاب إلى المدينة ليقتله ولو اعتقل. لكنه اعتبر في ما بعد أن ذلك لا يستحق العناء. ولن يعدم الفرصة، حتى ولو كان عليه أن يعود كل سنة إلى تلك الأنحاء كمن يفي بوعد.

توغل في الكاتنغا، وبعد يومين التقى العصابة. في تلك الليلة بالذات، تبادلوا مع مجموعة من الشرطة إطلاق النار في خلاء لم يرق لوكاس. ومن حسن حظهم أن فريق الجنود كان مؤلفاً فقط من ثمانية جنود. ومع هذا أصيب بوربوليتا بجرح ولاذ الجنود بالفرار دون أن يصابوا بأذى.

غيّر لوكاس اتجاهه وهو مندهش من التقاء أولئك الجنود بشكل لم يكن متوقعاً. ماذا يفعلون ههنا؟ لم يكن لديه نبأ عنهم وكان يسير دائماً وهو مجهّز جيداً بالمعلومات، فلديه جواسيس في السرتون كله.

قرر الخروج إلى ولاية أخرى، وبدأوا المسيرة المتسارعة، أياماً وليالي عبر الكاتنغا يتوقفون فقط ليجددوا المؤن في مراكز المزارع. وجرت في إحدى المزارع مقاومة مسلحة. فصاحب المزرعة أقسم بأن لوكاس لن يأخذ شيئاً من أراضيه على الإطلاق. فغضب لوكاس وقتل العائلة كلها.

وعندما خرج نهائياً من الكاتنغا ليجتاز النهر الذي يحدد حدود الولايتين، عرف لماذا التقى الشرطة في الطريق. لم يكن الجنود وحدهم الذين تبادل معهم إطلاق الرصاص يسيرون في الاتجاه نفسه، كانوا دزينات ودزينات من جنود الشرطة يمضون كلهم لتصفية الطوباوي استيفان ومن معه. وحسبما قالوا فإنهم أكثر من ألف شخص من أهالي السرتون الذين تجمعوا حول النبي. وقررت الشرطة الانتهاء من ذلك كله دفعة واحدة.

كانت لدى السرتوني الذي أخبره معلومات أكيدة. فسحب لوكاس من فمه قطعة التبغ الذي يُجدل على شكل حبال والتي كان يمضغها:

- لكن الطوباي رجل طيب جداً، فلماذا يريدون أن يفعلوا ذلك به؟ فهو لا يقوم إلا بالصلاة ويعظ من يريد الإصغاء، فلماذا يرسلون الشرطة ضده؟

لم يفهم. أن يتعقبوه هو، هذا حق، فهو قتل ونهب، كان قاطع طريق، مجرماً خارجاً على القانون. لكن الطوباوي لم يفعل شيئاً من هذا القبيل. دعا الناس بأن يكفّروا عن خطاياهم لأن نهاية العالم اقتربت.

تقدم إلى الأمام أكثر. فزوّده سرتوني آخر بأخبار أكثر. هذه المرة لم تشر الأخبار إلى الطوباوي. أجل، أشارت إليه بالذات.. لوكاس آرفوريدو، قال له إن جميع الممرات إلى النهر كانت الشرطة قد أحكمت قبضتها عليها، وإن الجنود ينتظرونه منذ أيام، إن أحداً قد خانه.

- أحد ما يعرف أن حضرتك ستنتقل في النهر إلى الجانب الآخر... إنهم يتكهّنون بأنك لن تستطيع..

صرف لوكاس الرجل، ونادى زيه تريفوادا وبيكو دوسي فتحدثوا طويلاً. بعدها جمع كل الآخرين وقال لهم:

- أيها الرجال، لقد غُدر بنا ووحده الشيخ كان بمقدوره ذلك.

أبدى البعض عجباً، لكن لوكاس آرفوريدو تابع:

- وحده الذي كان يعلم أننا سنعبر... حتى إنه هو الذي نصحني بذلك قائلاً إن الوضع قاتم في هذا الجانب... ولم يعطني إلا قذارة من الذخيرة... كان يجمع الوقائع، وبدا له الأمر واضحاً:

- عرفت أنه حالما غادرنا سافر. ذهب إلى المدينة. ما المهمة التي سيقوم بها؟ يرسل الجنود...

بقي الجاغونسوس محتفظين بصمت الترقب. كانوا فقط يتحركون على الأرض حيث جلسوا، راغبين في الرحيل بأسرع ما يمكن. وكان لوكاس آرفوريدو يتحسس بما يشعرونه بالذات:

- لكننا سنعلّم ابن العاهرة هذا... فلن نخوض في النهر، إنما سنعود إلى مزرعته.

- وإذا لم يكن هناك؟

- ننتظر حتى يعود، فلا بد أن يعود يوماً...

عادوا إلى تنكب طرق الكاتنغا وأخذوا يجدّون السير. ويعيد لوكاس آرفوريدو جمع الوقائع في رأسه. كان الشيخ يعرف بكل دقة أنه إذا عبر النهر إلى الولاية الأخرى، فسيكون اتجاهه مزرعة الكولونيل جوان باتيستا التي تقع على الحدود مباشرة. وأثناء قسم كبير من الرحلة كانت تقلقه معرفة ما الذي قد يكسبه الشيخ من تسليمه. وها قد اكتشف الآن ذلك: فالشيخ لم يكن على علاقات طيبة مع حاكم الولاية المجاورة وإذا قُبض على لوكاس أو قتل في مزرعة أبي الحاكم، فالحماية هناك ستكون فضيحة، ضرباً من «ربّ أغثني»، وليس من شيء آخر. هكذا فكر.

بدأ المسير على جانبي طريق السيارات إلى أن التقوا شاحنة، فسافروا فيها قسماً كبيراً من الطريق ليتوغلوا مجدداً في الكاتنغا حين أصبحت الطريق أكثر حركة، كانوا يمضون بقلوب مفعمة بالحقد، يجترّون مشاريع مختصة بالقبور، فيما هم يسيرون. وكان لوكاس يقول لنفسه إنه سينتظر الشيخ حتى ولو شاخ في المزرعة.

13

لم يتسنّ له الانتظار. فحينما اقترب من الملكية، عرف فوراً أن الشيخ قد رجع، إذ كان بدء الموسم. بقي أياماً قليلة، حسب ما ثبت لديه، لإعطاء الأوامر والتأكد من أن كل شيء سيسير بشكل جيد خلال الشهور التي سيكون الشيخ محجوزاً، في العاصمة.

وصلت العصابة قبيل المساء. ولم تنتظر النساء، فكان ثمة مسابقة عفوية في الركض. واندفعت ماريكوتا إلى ذراعيّ زيه تريفوادا. بيد أنهن رأين على الفور شيئاً ما غير عادي قد حدث، يكفي النظر إلى وجه لوكاس.

ذهبوا مباشرة الى البيت الكبير. ولم يكن الشيخ قد انتهى من تلقي الإشعار بوصول العصابة في غير أوانه. فجاء إلى الشرفة مرتدياً روباً أنيقاً، وفي إصبعه يلمع خاتم سوليتير.

- أنت هنا يا لوكاس؟ هل من خبر ما؟

تقدم لوكاس، صاعداً درجات الشرفة، ووقف أمام الشيخ. وقبل أن يتكلم بالذات، فهم الآخر أن الكانغاسيرو قد عرف. فامتقع وتراجع خطوة. اجتاز رأسه تفكير ما: «ماريا التي فكرت في المجيء مع جايمي» زوجته وابنه الطالب في كلية الطب في الجامعة.

- حضرتك سلّمتنا إلى الشرطة...

احتج، لكن صوته كان ضعيفاً:

- أنا... أنا صديقك...

- صديق الكلب وليس صديق لوكاس آرفوريدو...

وشهر مسدس البارابيلوم فصاح الشيخ:

- لوكاس، هل أنت مجنون؟ لا تفعل هذا...

- خذ، يا ابن العاهرة... أفرغ سلاحه، وسقط الرجل، وركض الناس من جميع الجهات، عمال، نساء وفلاحون أجراء، وظلوا يتطلّعون من بعيد، مقموعين من الكانغاسيرو .

أخذوا نساءهم وجمعوا بعض حيوانات المزرعة، جياد وحمير، ومضوا إلى محمية أخرى أكثر بعداً، وأكثر ضمانة أيضاً. سافروا بدون توقف، نهاراً وليلاً، ولوكاس يعرف الآن أن الشرطة كلها تتحرك وراءهم.

14

هدأت المطاردة مثل المطاردات الأخرى، اختفت عصابة لوكاس حوالى شهرين، وكان حاميها في ذلك الظرف الطارئ صاحب مزرعة صغيرة قد أنقذ لوكاس حياته في إحدى الرحلات.

وهناك سيأتي مبعوث الطوباوي استيفان ليلتقيهم، كان قد استعد ليعود إلى الطريق، ليندفع مجدداً إلى السرتون، يجتاح قرى ومدناً، يمضي ليجلب مالاً من المزارع. حينما وصل الرجل في ليلة بلا قمر، جاء متكئاً على عصا، فقد سار طريقاً طويلاً، وكلفه اكتشاف المكان الذي اندس فيه لوكاس كثيراً.

- الشرطة - التي أرسلت لمطاردته ولجلب لوكاس - حاصرت الطوباوي عند مشارف جوازيرو، أكثر من ثلاثمائة رجل مع استيفان، لكن ليس لديهم أسلحة تقريباً ولا أية خبرة في القتل. والأمل الوحيد الذي لديهم هو مساعدة لوكاس آرفوريدو.

- أبي استيفان أرسلني لأقول أن تأخذ حضرتك ما تستطيعه من الرجال، وكل ما لديك من أسلحة، حيث أن الجمهور كبير...

قبل أن يغادر لوكاس، أوفد مبعوثون ليجمعوا أناساً، عرّابين له، فلاحين يقدّرونه، أناساً كانوا من مرة إلى أخرى قد اشتركوا مع العصابة، وآخرين يعرف أنهم لو تُركوا لقتلوا أنفسهم من أجله. وجاء أناس كثيرون، البعض لأداء خدمة، وآخرون لأن ذلك من أجل الدفاع عن الطوباوي استيفان. لم يروا الطوباوي البتة، لكنه بالنسبة إليهم كان قديساً، وبصوته كان صوت الله يتكلم.

انطلقوا عند الفجر، تاركين النساء، آخذين من المزارع حيث يمرون جميع الأسلحة الموجودة. وموفد الطوباوي، وهو زنجي ذو شعر جعد ضارب إلى البياض، كان يحثهم على السير، لكنهم كانوا يسيرون بسرعة معيّنة بحيث أن الزنجي نفسه كان لا يصحبهم إلا بصعوبة. وخلال ستة نهارات وست ليالٍ كانوا يتقدمون بين الأشواك إلى أن تبيّنوا في الليلة السابقة مشاعل معسكر الطوباوي.. وكانت الريح تأتي بصخب العظات التي يرتلها الشعب الذي يتبع استيفان. فتوقف لوكاس، ثم ثنى ركبتيه على الأرض. وقلّده الكانغاسيرو الآخرون. ورسموا إشارة الصليب على صدورهم، وعندئذٍ فقط، تقدموا بتواضع.

جاون

رفع جوان الذي ينادونه جاون، رأسه، وعيناه في تعبير استفهامي، صاغياً إلى ذلك الترتيل في نهايات المساء، التي تمتد أكثر عند بدء الليل وقد أصبح مألوفاً. فتناول البندقية ومشى حتى أعلى مرتفع صغير، حيث توجد بيوت كبيرة للنمل مهجورة.

جلس هناك مكتشفاً أفقاً رحباً، شاهد أكواخ «الحجاج» المصنوعة من الطين، والحركة بينها، وأكبر هذه الأكواخ، المسوّر بالناس، هو كوخ الطوباوي استيفان، وكان النسيم الرقيق يدغدغ وجه جاون الخلاسي، فخلع قبعته ليبترد رأسه. وتحسس الغموض الجاد في الغسق، لكن المشهد الذي أثاره كان إضرام النار في الشعلات في مخيّم السرتونيين. ففي معسكر قوات الشرطة أيضاً أضرمت النار في الشعلات، بيد أنها كانت صغيرة ولا تفيد إلا للطهو وإبعاد الأفاعي. في المخيّم كان لها فائدة أخرى، فلم تكن ببساطة قطعاً من حطب يطهون فوقها العشاء ويغلون الماء للقهوة، فإن لها معنى دينياً، تقدمات النار إلى الله الذي سيدمر العالم ويعاقب البشر، مركزة بتناسق، وبرقم محدد، دائماً إحدى وعشرين، وحده الطوباوي يعرف لماذا...

وكان الموكب المتباطئ الذي يجوب شوارع المخيّم عند الساعة السابعة، يتوقف أمام كل شعلة، والأصوات المنشدة تحتفظ بحجم أكبر، وتطاول الظلال الأضواء الحمراء. وأمام الشعلة الأخيرة المركزة في وسط الساحة، وأمام بيت الطوباوي كان استيفان يعظ مكرراً على الدوام تقريباً كلمات التهديد والضعة نفسها، وبعد ذلك انفرط الموكب، ويعرف جاون أنها كانت الساعة التاسعة، ولن يلبث الجندي المولج بالمراقبة أن ينفخ في البوق الرنان معلناً الإنذار بالهجوع.

هبط عند ذلك الربوة الصغيرة، وسار بتمهل، وهو لا يزال يسمع أنغام التراتيل الحزينة المكرسة للعذراء مريم والتي كان الحجاج يرتلونها، وعندما تهب الريح كان بإمكانه أيضاً تمييز كلمات الطوباوي في عظته، وفي قلبه الريفي كانت ترن. إنه يعتقد بصحة الأخبار التي تناقلتها. كان جندياً طيباً، يفي بواجباته، مطبقاً أوامر رؤسائه، وسيطلق النار على الطوباوي إذا أمره الملازم، لكنه سيقترف بالتأكيد أعظم الذنوب. فالطوباوي هو رجل الله، لماذا يُحاصر كأنه مجرم؟

كان جاون يرتقي الرابية كل مساء. يصحبه بعض المرات جنود آخرون، فيبقون منتظرين إضرام النار في الشعلات. ويتبيّنون بعده ضجيج الناس وهم يؤمرون بأن يصطفوا في صفوف للموكب، وتحسّر الأصوات في العظات:

«لتكن مباركة إلى الأبد»..

لكن في تلك الليلة، عندما كان نصف الموكب يصطف عبر الشعلات، والطوباوي في المقدمة مرتدياً قميصه الأبيض مثل كل يوم، بدا له أنه يسمع بعض أنغام مختلفة آتية من الناحية الأخرى، مختلطة ومتصادمة مع رتابة إيقاع الترتيل، كان لحناً آخر، يبدو كأنه احتفالي وذو افتخار، جد مناقض لتلك العظة. كأن صوت نفير يقطع نغماً موسيقياً رصيناً من أرغن، تصوَّر في البدء أنه كان مخدوعاً، وأن ذلك زئير حيوان في الغابة، إحدى تلك الصرخات من الطيور الليلية. لكن اللحن استمر. وشيئاً فشيئاً بات مهيمناً على أصوات الحجاج.

شمخ جاون برأسه ورفع كتفيه، وأصاخ السمع. فتبينت عيناه المعتادتان ظلمة الليل هيئات ليست هيئات الحجاج، تصل من وراء المخيّم، كانوا هم الذين ينشدون اللحن الذي صار أكثر وضوحاً، وبدأ جاون يفهم كلمات الأنشودة الشعبية، وتوقف قلبه عن الخفقان، بدا أنه يتكهن بما يحدث. فشاهد خيال الطوباوي، وذراعيه المنفعلتين، ورأى الموكب يأخذ اتجاهاً آخر، محطماً التقليد كله، والأصوات التي كانت تصلّي قد سكتت بحركة من استيفان. وفي هذا الصمت المباغت استطاع هو أن يتبيّن الكلمات التي أخذت حجماً عند توقف الصلوات:

«ها قد أتى لوكاس آرفوريدو متسلحاً ببندقيته...»

رأى كيف أن الموكب، بعد لحظة تآخى فيها حجاج وكانغاسيروس، انتظم مجدداً بشكل اكبر الآن، وتواصلت الصلوات، رأى كيف وصلوا إلى الساحة، واعتلى الطوباوي الصندوق الكبير الموضوع عند باب كوخه، والريح تلوح بقميصه الأبيض المنسوج من القطن. وشحنت قلب جاون انفعالات غريبة، تحت بزته الجندية، وفي الوقت نفسه الذي فكر في التحوّل الذي اعترى الحصار، مع وصول الكانغاسيرو التابعين للوكاس آرفوريدو - تاركاً إمكان اصطياد الرجال العزل يتحوّل إلى معركة ضد الجاغونسوس الأكثر إقداماً في السرتون - شعر برضى لا يمكن إخفاؤه. وبدون أن يتخلّى عن كونه، ولو حتى للحظة، جندياً للأوامر التي يتلقاها، منفذاً الدوريات، قائماً بالحراسة، مستعداً للتقدم ضد أبناء السرتون الذين هم مع الطوباوي، شعر أنه مأسور إلى الجانب الآخر، ولو لم يكن مرتدياً بزة الشرطة، لصار أحد رجال الطوباوي، ولصلّى في مواكبه، طالباً منه البركة، خافضاً الرأس عند سماع كلماته. ولم يستطع التخلّي عن الشعور بأنه راض إذ يرى أن الطوباوي لم يكن بعد مهملاً بدون قدرة على مقاومة الحصار، وعليه أن يستسلم كيلا يموت جوعاً، فالآن حيث لوكاس آرفوريدو معه قد تبدل الأمر، ولم يعد بوسع الملازمين الضحك، وفقد الكولونيل الكثير من جبروته. فهذا الكولونيل هو ذلك النقيب في الجيش الذي فوّض إليه تعقب لوكاس. والآن يتزعم حصار الطوباوي استيفان ويبتهج مقترباً كل ليلة بعض الأمتار، مختصراً

كل أربع وعشرين ساعة، الأرض التي لا يزال الحجاج يجلبون الماء منها ويصطادون حيوانات ليأكلوها. فقد صمم على أن يخذلهم بالجوع، ويعتقل الطوباوي ومساعديه، ويبعثر البقية في المزارع.

وكان يقول:

- سنجبر هؤلاء الصعاليك على العمل.

- ماذا سيفكر هو الآن؟ وصل مع لوكاس أكثر من خمسين رجلاً. وكان جاون يحسب من خلال الحركة التي يشاهدها. يوجد ثمانون جندياً من الشرطة، لكن معظمهم فتيان من العاصمة، أناس لا يصلحون للقتال مع لوكاس آرفوريدو. وكان جاون يشعر أنه مسرور، رغم أن ذلك ربما يكلّفه ذلك.

سمع دق النفير، مستدعياً. فنزل من الرابية بدون رغبة، وكانت خطواته مجرجرة، وقد انتهت عظة الطوباوي أيضاً. وصدحت الآن مئات الأصوات، وملأت الأغنية بمآثر لوكاس الأجواء، وهذه المرة سمعها جميع الجنود:

«ها قد أتى لوكاس آرفوريدو

متمنطقاً بحربته...».

وهبّت ريح المطر، آتية بالكلمات متكاملة، وانتشر اللحن في طريق جوازيرو، وضاع في اتجاه النهر الكبير، حيث كان ريّاس القوارب يغنون أيضاً بعض ما تعلّموه من المهاجرين الذين يقيمون وقتاً طويلاً على رصيف الميناء ينظرون إلى السفن والماء.

ووصل جاون وهو يسير ببطء، وقلبه يخبط متسارعاً. والجنود يركضون عند سماعهم صوت النفير، وعُززت الحراسة. والكولونيل يعبر الرجال وخطوته منفعلة، وملازمان يسيران إلى جانبه فيناقشون الوضع. ولمع وجه جاون الخلاسي بابتسامة، منزعجاً من اللحن الآتي مع الريح.

2

ذات يوم في عمق السرتون القاحل، حيث الجوع يقتل البشر، والأنهارجافة بسبب الشمس المحرقة، والكولونيلات يأخذون أرض المزارعين، مصدّرين الأوامر بتصفية الذين يناقشونهم،

والمهاجرون يرحلون في دفعات متلاحقة نحو الجنوب، وتبقى الجثث في الطرق، حيث يموت أطفال بالمئات، والذين يكبرون كانوا مرضى ومكتئبين، عندما انتشرت الملاريا كأنها رداء حداد والجدري الأسود ترك اسمه المميت على ألوف الوجوه، حينما انبسطت حمَّى التيفوئيد كما لم ينبسط النجيل الرديء، عندما لم يتبق بعد أي أمل في القلب المتعب لأهالي السرتون، ظهر الطوباوي.

لا أحد يدري من أين جاء، ومن هو، ومتى وصل، ولا عمره، ولا اسمه كاملاً. كان يدعى استيفان، وليس له اسم عائلة. وعصاه التي تشبه أفعى الكاسكافيل، تجلب معها غباراً من الطرق الكثيرة التي جابها، وخفّاه المصنوعان من القنب عتيقان وممزقان وقميصه ملطّخ بذرات الملح الجافة منذ أيام. اللحية مشرقة بياضاً، شعثاء وليست شديدة الكثافة ويهبط إلى صدره شعر طويل أبيض، مرسل فوق العنق حتى بداية الظهر. وينحدر القمل من الشعر إلى القميص، وتغطّ الطيور عند الظهيرة والمغيب على كتفي الطوباوي وتقرص أذنيه اللتين تخفيهما خصلات الشعر.

لقد ظهر قائلاً إن العالم سينتهي، فشرور البشر بلغت حدها الأقصى، وانتهت الشفقة من قلب الله. فحدود صبره قد نفدت وجاء الآن العقاب الرهيب. حانت ساعة التوبة. فأوّاه للذين لا يدثرون رؤوسهم بالرماد ولا يتخلّون عن كل شيء، البيت، العمل، أرباب العمل والمحاصيل، من أجل الصلاة... والذين لا يفعلون هكذا ليس في الإمكان إنقاذهم عندما تدق الساعة، بلا رحمة.

كان صوته موحياً ورقيقاً، يشبه صوت طفل أكثر منه صوت امرئ عجوز، لكن في ساعة قذف اللعنات يتحوّل إلى صوت عنيف، موجع كصفعة سوط، في هذه اللحظات ينسون جميعاً أنه عجوز منحن فوق عصا عابر طريق. إنه يشبه شجرة مهيبة، نهراً غزير المياه، شلالاً هادراً، عيناه الزرقاوان وهما عادةً طيبتان وحارتان، وتدعوان وتفيضان حيوية، عندما تصبحان جامدتين ضائعتين في المدى، تريان أشياء لا يراها الآخرون، حين تبعثان الخوف والبرد. طويل وهزيل جداً بحيث كان يهتزّ إزاء الريح كخيزرانة، ولديه صلابة الحديد ويسير متقدماً فراسخ وفراسخ في خطى سريعة، ومن الصعب متابعته. «يأكل أقل مما يأكل العصفور». تقول النساء ويحكين حكايات خيالية حول الطريقة التي بها يغذّي ربّنا الطوباوي ليلاً فيجدد قواه.

يدعى استيفان، لكن الجميع ينادونه بالطوباوي استيفان، ويستخدم الحجاج التعبير الحنون لـ«أبي»، وكانوا يحنون رؤوسهم ليتقبلوا بركته عندما يمرّ وهو رافع يده، وكلماته لا يمكن سماعها تقريباً، وكانت بركته تأتي بالمعجزات، تشفي أمراضاً والجروح تندمل، يتجنب الحشرات،

والحيوانات تبرأ من الآفات، وتطرد الأرواح الشريرة وتغلق أجسام البشر أمام لسعات الأفاعي السامة والرصاص القاتل.

كيف يُشكك في قدرته الخارقة، في قداسته، إذا كانت الأفاعي الأكثر جرأة - الكاسكافيل، الجاراكوسو، الكابيساده بلاتونا، الجاراراكا - تخرج من طريق خطاه وترافقه في الطريق وتتركه يمسك بها وتفهم اللغة المضطربة التي يتكلمها؟ كيف يُشكك، إذا كان يتكلم عن جوع البشر، عن جميع النكبات التي تحدث، إذا كان يقول أن لا من كولونيل، ولا أحد من أصحاب المزارع الكبيرة سينجو من غضب الله، من العقاب الصارم؟

لا تستطيع أي كلمة أن تنال منه، حتى ولا كلمات القساوسة التي ترتفع لتدين الطوباوي. ويعرف السرتونيون أن القساوسة لا يعمّدون أحداً ولا يجرون زواجاً بلا مقابل، إنهم يعيشون في المزارع، لكن في ضيافة البيوت الكبيرة، يأكلون حتى التخمة إلى مائدة الكولونيلات، وعظاتهم لم تنفع شيئاً حيال الأرض السليبة، تجاه الأجور التي لا تكفي حتى لسداد ما يتوجب عليهم للمخزن. ففي عظات القساوسة الزاخرة بنار جهنم، كانوا يلعنون الذين يتخذون عشيقات لهم، والذين لديهم أولاد للعمادة، والذين يطأون الحيوانات لأنهم لا يحوزون النساء ليناموا معهن. وكان الطوباوي يتكلم لغة أخرى. فلا أية كلمة ضد الفتيات الجانحات، ضد الرجال الذين لديهم نساء بدون أن يتقبلوا بركة الكاهن المولج بالرعية، ضد الذين يستخدمون إناث البغال والحمير، كان يصرخ في المقابل، ضد خطايا الأغنياء، يتكلم كيف أنهم يقتلون الفقراء جوعاً، على الربا الذي يمارسونه وجشعهم، يوزع غضب الله، بأن يقرر إنهاء العالم. ما توقف قط ليرتاح في أحد البيوت الكبيرة. والمرات القليلة التي التقى فيها عقيداً إنما ليقذف في وجهه اللعنات الأشد عنفاً، ليدعوه إلى أن يسلّم الفلاحين المنهوبي الأراضي المستولى عليها، ليدفع المسروق من حسابات المخزن إلى عماله. وتهرَّب أكثر من كولونيل من حضوره، متأثراً من شخصية العجوز، أن تطاله بالعصا. ولحيته تطفو إزاء الريح، والطيور المغردة على كتفه، والأفاعي السامة تزحف في إثره.

عندما ظهر كان وحيداً يتكلم حتى ولو لم يكن ثمة أحد، كأنه الأشجار نفسه الأشواك في الكاتنغا، والعظاءات والأفاعي وطيور البغاث جائعة وقادرة على فهم ما الذي يقوله، لكن حالما انتشرت كلمته، حملتها أذن إلى أذن، وأخذ الحجاج يتوافدون ويجتمعون حوله، ويتبعونه في مسيرته، لم يكن لديهم إلا القليل ولا شيء ليخسروه حينما تخلّوا عن الفأس والمعول، حين هربوا من المزارع ليبحثوا في عيني الطوباوي الزرقاوين عن بقية لأمل، وبالرغم من أنه كان يعلن

مخاوف جديدة، فإن السرتونيين أحسّوا بأنهم مرتاحون إلى جانبه، في حرارة صوته، تحت الحماية اليومية لبركته.

أول الذين وصلوا كانت أرملة جاءت بأبنائها الخمسة الصغار. لكن في النهار ذاته وصل رجال وتبعوه. وكان يمشي دائماً، متوقفاً فقط في أيام الآحاد حين ينجز مواكب ويغطي شعره الأبيض بالرماد الفائض عن الشعلات، وينطلق باتجاه البحر، حيث تقبع المدن الكبيرة، حيث تجري القطارات وتغادر البواخر التي لم يكونوا قد رأوها البتة، والتي يعشقون تصوُّر شكلها وحجمها ولونها في الليالي الرتيبة في المزارع.

كانوا قلّة في البدء، بيد أنه مع خطاه راح الرجال يتركون كل شيء، منتعلين خفافهم، معتمرين قبعاتهم الجلدية، ورافقوه، يريدون الإصغاء مرة أخرى إلى تلك الكلمات الموجهة ضد شرور الكولونيلات، ضد سرقة الأراضي، ضد الأجور البخسة، وكان الطوباوي يعظ كل ليلة، والرجال يفتحون قلوبهم أيضاً، يقصّون عليه حكاياتهم المؤلمة، ويتقبلون بركته المسالمة، ويحرصون على طعامه، مضرمين النار في الشعلات في ليالي الأحد، راقدين إلى جانبه في الطرق وفي العراء، وهكذا جاؤوا عبر السرتون، وعددهم يزداد دائماً، السرتونيون الذين تركوا أعمالهم كما أوصى هو، ليتوبوا، مرضى بجميع الأمراض أيضاً، وقد وصلوا سعياً للصحة التي كان الطوباوي يوزعها مع بركته.

ومن بقعة إلى أخرى في السرتون، في هذا البلد الشاسع ذي البؤس الكثير والثراء الكثير، وفي كل دروب الحمى والجوع، جرى اسم الطوباوي استيفان وارتحل حجاج من جميع الأطراف بحثاً عنه. قطاع طرق وعازفو قيثارات وعميان وقبضايات اقترفوا جرائم قتل كثيرة، رجال أخذت أرضهم التي كانوا يحرثونها، عمال مأجورون مدينون للمخزن، طاعنون في السن وفتيان، نساء مع أبنائهن، وشابات لم يكنَّ قد عرفن الرجال بعد، مسلولون مصابون بالملاريا، بالجذام ومجانين، أتوا جميعهم مالئين الدروب، سارقين ليأكلوا، سائرين نهاراً وليلاً، مقتفين أثر القديس.

وحده الذي يشفي ويؤاسي، ويواصل الطوباوي سيره من دون أن يحفل بعدد الحجاج الذين يصحبونه، مصلّياً صلواته، مذيعاً نبوءاته، لكن لكل واحد منهم كانت لديه كلمة مختلفة، لكل قصة يسمعها حل يهدئ كبلسم على الجرح.

وبأسرع مما مشى، وصل اسمه إلى المدن، وظهر في الصحف، واضطرب الكولونيلات، وترك العمال الحصاد وبات الفلاحون ثائرين. ونهض القساوسة ضده، فكان التهديد بطائفة تعتقد

بالخرافات وتهزّ مكانة الكنيسة. واستمر الطوباوي غير مبال، لم يعرف إلا أن اسمه يثير كثيراً من النقاش، وجاءت الطيور لتحط على كتفه، وعازفو القيثارات يغنون على شرفه، والنساء يقبِّلن طرف قميصه، والأفاعي تلتف على ذراعه الهزيلة، وترقد في صدره المحفور. هذه الأشياء مرت في السرتون حيث الجوع يخلق قطاع طرق وقديسين.

3

كان بعيداً عن تفكير جاون أن أخاه جوزيه الأصغر منه بسنة كان في عصابة لوكاس آرفوريدو يقوم بالحراسة مع بعض الكانغاسيروس في مواجهة المكان الذي هو فيه، وجاون يقوم بالحراسة مع بعض الجنود. كان هو الأول في الرحيل، فهجر العائلة والمزرعة، باحثاً عن تحسين وضعه لأنه لم يكن يرى مستقبلاً هناك، في الأرض الصغيرة التي كان يشغلها أبوه. وعندما انضم جوزيه إلى لوكاس آرفوريدو في ليلة الهجوم على المزرعة، كان قد صار جندياً في الشرطة في عاصمة بعيدة، ولم يعرف إلا بعد وقت طويل أن أخاه غادر أيضاً، لكن من دون أن يعلمهم بمصيره، وعندما تلقى الخبر، في إحدى الرسائل النادرة جداً التي كانت زوجة عمه دينا تكتبها، بقي أياماً يقظ العينين في شوارع المدينة، على أمل اكتشاف جوزيه. لكن الوقت كان ينصرم، فصرف النظر عن ذلك البحث غير المجدي، أن شقيقه يجب أن يكون عاملاً في أية مزرعة، أو عاملاً بالأجرة في إنشاء السكة الحديدية التي لا نهاية لها. فعدد لا يحصى من الفلاحين كانوا يهجرون الأرض ليصيروا عمالاً في إنشاء وصيانة السكك الحديدية، إنه عمل مرهق، لكنه دائماً بأجر أفضل من أجور المزارع.

وعرف في ما بعد أن نينين، أصغر الثلاثة، وأكثرهم معرفة، ذلك الذي كان يقودهم في الألعاب، قد ارتحل، وبقي فقط أغوسطينيو الذي كان طفلاً تقريباً، وهو أيضاً - فكر جاون - سوف يرحل يوماً ما حينما يكبر. كيف يبقى في قطعة الأرض التي بالكاد تنتج ما يكفي للعجوزين والنساء؟

تذكر هروبه، مسيرته حتى المدينة، دهشته أمام جمالات العاصمة، سائراً في الشوارع فاغراً فمه، وما شجعه على أن يهرب، كان الوصف المسموع من العمال الذين أقاموا هناك، فكانوا يقصّون روائع وجاون كان يحلم في الليالي بتلك الأحاديث. ويبدو له العمل في الحقل في كل مرة إرهاقاً وبلا مستقبل. لكنه بقي يساعد أباه في الزراعة من دون أن يتحلّى بالشجاعة على التصميم، كان عمره تسع عشرة سنة، هجيناً قوياً، وكانت المومسات يتنازعن عليه حين يذهب إلى الدسكرة. فيرقدن معه حتى عندما لم يكن لدى جاون مائتا ألف ريس ليعطيها لهن عند الانصراف، وفي هذا

الوقت بدأ يغازل ابنة العجوز مانيكا، وكان يلتقيها خلف الحظيرة، وكان عندئذٍ النفور من جيرونيمو، فلم يعد بوسعه البقاء في البيت، فكر أولاً في البحث عن الفتاة فيخطفها من بيتها ويطلب من أرثور مكاناً له كعامل، أو يسعى إلى ذلك في مزرعة أخرى، لكن نداء المدينة، بأنوارها التي تفوق التصوّر، كان أقوى من جسد الفتاة الحبيبة. فرحل عاملاً هنا وهناك للحصول على المال لبطاقة السفر بالقطار، ماشياً في الليل متوقفاً في النهار في المزارع، طالباً عملاً.

وعمل أكثر من شهر أجيراً في أشغال السكة الحديدية وهو عمل شاق للغاية. فجمع بعض النقود، وارتحل مجدداً، وقد أصبح خفاه بلا فائدة وقدماه الحافيتان تشققتا في الطريق. لكنه وصل إلى المدينة ذات يوم، وبدت له تستحق التضحية كلها، فالبحر كان يغويه أكثر من أي شيء، إنه ذو لون متبدّل، آناً أخضر وطوراً أزرق، وأبيض من الزبد على رمال الشاطئ، إن جمالاً كهذا لم يكن قد شاهده البتة، وجلس على أحد المقاعد المستطيلة، متملّياً منه، فالبواخر الهائلة كانت موثوقة إلى الرصيف تشبه وحوشاً شاسعة الامتداد، والصواري كأنها أشجار بلا أغصان وأوراق، وحين تصفّر باخرة ينهض جاون مذعوراً وهو يرتجف. فيبتسم بعد ذلك ويرى بانفعال، الباخرة وهي تبتعد عن الرصيف والناس الذين يشيرون بحركات الوداع، والذين يردون عليهم ويبكون. يشاهدها كيف تبحر إلى الأمام، إلى الماء الذي لا حدود له، وتزيد من سرعتها، فيبدو له كل ذلك سريعاً جداً، وحينما تصبح الباخرة نقطة ضائعة في البحر، كان مع هذا، يرى صورتها في عينيه، متوقفة عند رصيف مرفأ، تلفظ دخاناً مع مدخنتها.

هناك لم يكن ثمة غسق، في الحقل كان طويلاً وباعثاً على الحزن. وتتباطأ في نهاية المساء. ويتأخر الليل في الحلول، فيكون انفصال عميق جداً بين ضياء النهار الأخير وأول الظلال الليلية. لكن هنا لا يوجد غسق، إنما تميل الشمس فقط والأفق فوق البحر يضيء أحمر، والأنوار الكهربائية تلمع ثم يخيّم الليل، كأن الأضواء تدفعه بسرعة أكثر، وهو مختلط ببقايا الضياء، لم تكن موجودة تلك الساعة الغامضة عندما يبدو كل شيء هادئاً في لحظة، وحين يشعر المرء أن نهاراً آخر قد انتهى، فلأن في المدينة لا شيء ينتهي فعلاً، لا يحدّد الغسق حدوداً لأشغال معينة فالحياة تتواصل أشد أو أكثر في الشوارع المسعورة.

لم يكن لجاون مكان ينام فيه، وليس بحوزته أمتعة، وتتلخص كل نقوده باثني عشر ألف ريس.

أحس بالجوع وهجر رصيف الميناء، فجاب الشوارع الأكثر حركة حيث كان يمر رجال أنيقون ونساء جميلات، وسار يتهيّب متوقفاً أمام الواجهات، قبعته الجلدية بيده ومن يراه يضحك

منه، ولم تكن لديه الجرأة ليدخل المطاعم ولم يهدأ إلا عندما تسلل إلى الشوارع الخلفية، الشبيهة بشوارع الدسكرة قرب المزرعة. النساء الجانحات أنفسهن، زنجيات، ومن أصوات بعضهن ميّز بنات السرتون، إنهن قادمات مثله، من الداخل.

وصل إلى حيث يستطيع أن يأكل بعشرة توستون، وينام بثلاثة آلاف ريس. في هذه الليلة بالذات أقام علاقات، ففي إحدى الحانات سمع قصته أحد أبناء السرتون الذي كان مستخدماً في أحد الأفران. فشربا الكاشاسا معاً، ووعده الرجل بإيجاد عمل له، وعيّنا موعداً للقاء في اليوم التالي، وذهب هو يعمل في منزل أحد البرتغاليين، يقوم بإيصال الرسائل، ينظف الحديقة، يدهن أرض البيت بالشمع، فتصبح برّاقة تبهج النظر. وشيئاً فشيئاً بدأ يعرف المدينة، متعاطياً مع الناس، مع جنود الشرطة الذين كانوا يعاقرون الخمرة ليلاً في الشوارع الخلفية، يقومون بمشاجرات، ويتعاطون مع النساء، والتقى بينهم معارف له، جيراناً في المزرعة، فتياناً كانوا قد رحلوا قبله، اهتموا بمصيره، فقدّموه إلى الرقيب. وعيّن نفراً، كان يقوم بتمارين رياضية، وعلموه القراءة بشكل صحيح، وعندها فقط كتب إلى عائلته يخبرهم أين كان موجوداً.

وحين رأى نفسه مرتدياً البزة العسكرية أحس أنه رجل آخر، كان لا يزال متهيباً، يجهل كثيراً من تصرفات الجنود، لا يحسن الصياح بالفتيات الجانحات، لا يحسن الصعود إلى الترام وهو يسير والقفز منه وهو في أقصى سرعته، لكنه كان مزهوّاً بالبزة. ولم يلبث أن اتخذ عشيقة تعطيه نقوداً، وتعلّم كل ما ينبغي للجنود أن يعلّموه إياه. وسيطرت عليه المدينة شيئاً فشيئاً، وكل مرة كان السرتون يغدو أكثر بعداً، لكنه لا يزال، مع هذا، يحب سماع أنغام قيثارة وصوت أعمى ينشد أي أغنية من أغاني السرتون، وكان يستعيد آنئذٍ مشاهد من المزرعة، الوالدين العجوزين في العمل، العمة زيفا وهي تقول شؤونها غير المفهومة، مارتا تركض في الفناء، أخته المتزوجة ترحل مع زوجها، وكان لديه اشتياق، وفي تلك الليالي يحتسي أكثر من الكاشاسا، كائلاً الصفعات للفتاة الجانحة، ويدخل مع جنود آخرين إلى بيوت النساء، فيطردون الفلاحين بإطلاق الرصاص.

خدم في مدن قريبة، لكنه تمكن دائماً من الرجوع إلى العاصمة، فكان يتدبّر وسيلة، حماية من أحد الملازمين، وكان ما يأسره أكثر من كل شيء، تلك البواخر التي تصل وتبحر ورؤية الماء الذي لا نهاية له، والألوان المتعددة.

وضع في السجن، خدم حمّالاً لأمتعة أحد النقباء. كانت أوقات راحة. فنفير الفيلق لم يعد يصلح له. وكان النقيب يأمره بتلميع جزمته، وزوجته تأمره بالقيام بالمشتريات من السوق، وابنته

التي كان لها ستة عشر عاماً من العمر وهي رائعة الجمال، تطلب منه أن يحمل رسائل إلى حبيبها، وهو طالب حقوق ينظم أشعاراً ينشرها في الصحف.

هكذا كانت تمرّ السنون. وفكر بأن يتقدم لمسابقة للحصول على رتبة عريف، لكنه كان يؤجل ذلك، فلم يحبّ الدراسة، وحياة الجندي حسنة، لديه امتيازات، فلا يدفع في الترام، ويفرض احترامه بالبزة، وبين الفينة والأخرى كانوا يتشاجرون مع جنود الجيش، ويحدث تبادل إطلاق رصاص في الشوارع التي تتسكع فيها النساء الجانحات ويخرج بعض من تلك الحوادث ميتاً أو جريحاً، فيجري التعقيب على هذه الحالة، ويجتمعون ويهندسون خططاً، وتعيش المدينة فترات رعب لكن رؤساءهم يتخذون تدابير، فتلغى الإجازات، والجميع في الثكنة في ساعة النوم، وينسى الحادث ويعودون في أحسن حال مع جنود الجيش. حتى إنه قد فوجئ برحيله مع فرقته لتصفية الطوباوي استيفان، وما كان اسم الطوباوي غريباً عليه. فمنذ شهور تسرّب الى الثكنة من خلال أخبار الصحف، ومن الحكايات التي يرويها السرتونيون حديثو الوصول. وبالنسبة إليه كان كقديس، لكن الأوامر لا تُناقش.

4

رجع إلى رؤية الكاتنغا القاسية، مشاهد من طفولته ومراهقته، وبعد قليل ترك قبعة الجندي واستعمل القبعة الجلدية التي يعتمرها رعاة البقر. كان يعرف كيف يتحرك هناك بشكل أفضل مما يتحرك في المدينة، والجزمة خلفها الخفّان، والملازم يستدعيه أحياناً ليطلب رأيه حول الممرات التي دخلوها في الكاتنغا. وكان يضحك من الرجال الذين وُلدوا في المدينة ولا يعرفون السير بين الأشواك، والذين يهمهمون ويكيلون اللعنات طوال اليوم، كان الأمر بالنسبة إليه كأنه يعود إلى منزله. إنما الآن يحمل بندقية وحربة، ويرتدي البزة ويوجّه أسلحته ضد أبناء السرتون الذين هم مع الطوباوي.

كان يفكر في هذا حين اقتربت ساعة الغسق، مهيبة وكئيبة، هنا، أجل، يمتدّ الغسق بعيداً فوق الأرض. لم تكن الأنوار الكهربائية تسرّع الليل، وتتأخر النجوم في الصعود إلى السماء بلا غيوم. والطوباوي بالنسبة إليه كان رجلاً قديساً، لا يؤذي أحداً، الملازم يضحك من نبوءاته ومن أن العالم سينتهي. وكان ضرورياً أن يصلي ويهيل الرماد على شعره، لكن جاون لم يكن يضحك. فقد كانت قشرة الشرور هشّة والمعارف التي غلّفته بها المدينة قد اضمحلت عند الاحتكاك بالكاتنغا، في ساعة المساء، وعند نعيب البوم المتشائم. بيد أن جاون لم يكن وحده. فكثير من الجنود الآخرين القادمين منذ سنوات من السرتون، كانوا يفقدون كل يوم ينصرم هيئة الجنود،

ويبدون كعمال في المزارع أكثر منهم جنوداً، كفلاحين من الكاتنغا، واستبدلت البزة بسترات الجلد، والكلمات التي تعلموها في الثكنة وفي شوارع المدينة، قد أصبحت منسية، وتجددت لغة السنين الماضية البعيدة، فعادت لتصير تلك اللغة العاثرة ذات المفردات القليلة لأهالي السرتون. والسرتون يستعيد أبناءه. فلماذا الهجوم على الطوباوي؟ يحاصرونه، هذا إثم سوف يقترفونه.

كان يفكر في كل هذه الأمور، فيما هو مكلف الحراسة، دون أن يتصوّر أن أخاه جوزيه كان في الجانب الآخر، في قيادة فريق صغير من الجاغونسوس، يراقبون تحركات جنود الشرطة. وفي السماء السرتونية كانت متبقية بعض نجوم، وجاون يتطلع إليها، ففي سماء المدينة لم تكن تتألق بهذه القوة، والمصابيح الكهربائية تحجب كل شيء، فكانت سماء لا يلتفت إليها البشر إلا قليلاً.

ينظر إلى النجوم فيتحسس رائحة الأرض التي تصل مع رياح الليل، ويتذكر البيت في المزرعة مع الحظيرة القريبة، حقل الذرة في عمق الأرض، أين يسير والداه في هذه الساعة؟ فقبل الرحيل تسلّم رسالة من دينا وفيها أخبار الرحلة إلى سان باولو. لقد قضى والده أكثر من عشرين سنة في حراثة تلك الأرض، ساكباً عليها عرقه، مستنفداً هناك حياته. ولا شيء من هذا قد أخذ بالحسبان. فالطوباوي هو الذي على حق، وهذا الذي يفعلونه هو الإثم، مضيّقين الحصار حول استيفان والحجاج الذين يتبعونه. والآن كل شيء قد أعد للهجوم النهائي، وقد قرر النقيب أنه مع وصول لوكاس آرفوريدو لن يعود بالإمكان الاستغراق في التأملات. كان ينتظر فقط أن يكتمل الحصار، فيغلّف رجال الطوباوي في دائرة، ليصفّيهم بتلك الطريقة دفعة واحدة، كما كان ينتظر وصول التعزيزات المطلوبة بسرعة.

روى رقيب في جمع من الجنود حيث يوجد جوان، أن النقيب والملازمين اجتمعوا في مجلس، وقرروا الهجوم. كانوا قبلاً يفكرون في اختزال الطوباوي بالجوع. وبما أن الحصار مازال غير مكتمل، فبوسع الحجاج الخروج ليلاً سعياً للمؤن، بشرائها من الحوانيت، أو سرقتها من مخازن المزرعة، وكانت خطة الشرطة اكتمال الحصار ومنع خروج الذين سيأتون بالسلع، ثم الانتظار، ينتظرون أن يسلّم الطوباوي نفسه، فيعتقلونه هو والرجال الأكثر فاعلية في زمرته، ويبعثرون الآخرين، ويوجهونهم إلى المزارع التي هي بحاجة إلى عمال. وهم يعرفون أن بدل العمل سوف يتدنّى، لكن ذلك القليل ذو أهمية لهم. وكان النقيب يعامل الذين تآلفوا مع الطوباوي ككسالى متشردين، وكلماته كمجنونة، لأنهم لا يعرفون، وإذا كلّمه أحد عن الجوع، عن الأراضي

المستولى عليها، عن الأمراض التي ليس لها علاج، عن كل نكبات السرتون، فيضحك بوجهه. إن كل شيء بالنسبة إليه يلخص بالكسل.

ومع وصول لوكاس قرر تغيير التكتيك، فلم يعودوا زمرة من الكسالى فقط. فهم الآن كانغاسيروس مرعبون، ومع هؤلاء الرصاصة وحدها هي الحل. ولأن ملازماً انبرى له باعتراضات وجلة، سأله بخشونة: لماذا استدعى الطوباوي لوكاس آرفوريدو، إن لم يكن يريد رؤية دم البشر وهو يُراق، وكان بوسع الملازم أن يجيبه بأن الطوباوي فعل هذا دفاعاً عن النفس، بعدما راحت دوريات الشرطة تقتل بدون تحسّر أو شفقة، أي حجاج يلتقونهم وهم في مهمة التفتيش عن مؤن، بيد أن الملازم لم يقل شيئاً، فاستمع إلى بقية الخطة بصمت.

فكر جاون أن يتفهم ما يمرّ به النقيب، الشديد الاعتزاز بكونه مكلفاً كعقيد في الشرطة، اعتقال الطوباوي، وفك ارتباط السرتونيين به، سيكونان بلا شك عملاً له صداه، لكن إنهاء وظيفة لوكاس آرفوريدو، الكانغاسيروس ذي السنين الاثنتي عشرة من الإقدام والجرائم في السرتون، فهذا سيكون عملاً مجيداً، سيجعل اسمه معروفاً في البلد كله. ولم يكن جاون ينتقد بأفكاره الكئيبة، نقيبه. فلو كان مكانه لتصرّف بالطريقة نفسها. لكنه لم يكن النقيب المفوض كعقيد، كان جندياً بسيطاً، وحتى أقل، فهنا يشعر فقط أنه مجرد فلاح شديد التصديق وساذج، متضامن في أعماق قلبه مع الطوباوي استيفان، مؤمن بكلماته الزاخرة بالوعيد، كان يخشى لوكاس، إنها الحقيقة، لكنه لا يحقد عليه، فهو واحد منهم، خرج من الألم نفسه ومن الشقاء نفسه اللذين خرج منهما أهالي السرتون الآخرون. وإذا قتل وسرق، إذا اغتصب وسلب، فلأنهم قتلوا أباه وأخذوا أرضه، فكان رجلاً بما فيه الكفاية ليثأر لنفسه ويقع في أعمال قطع الطرق. وجاون ربما فعل الشيء نفسه لو كان في البيت حين طردوا العجوز جيرونيمو من أرضه ودفعوهم إلى انتكاب الطرق التي تقودهم إلى سان باولو، إن رسالة دينا تقصّ بأن غريغوريو أطلق رصاصة على أرثور المتصرف وربما يكون الآن مع عصابة لوكاس، وقد يكون أحد أولئك الكانغاسيروس الذين دخلوا المخيّم، قاطعين عند العشية، الموكب بأناشيدهم. إنما الذي لم يكن جاون يعرفه هو أن أخاه جوزيه كان هو الذي يتكلمون عنه باسم زيه تريفوادا، مساعد لوكاس آرفوريدو، والذي هو في مواجهته، على مسافة ليست بأكثر من خمسمائة متر، والذي يراقب خطوات دوريته، مستعداً لقطع الخطى، إذا هم تقدموا، لكنه لم يكن ليفاجأ إذا عرف، ولن يبدي الحسرة على أخيه ولن يفتح فمه ضده.

هبط الطوباوي السرتون واجتاز الكاتنغا، مندفعاً في الدروب، ومخيّماً عند مشارف الدساكر. وكان الجمع يتكاثر دائماً، كانوا عشرة، ثم عشرين، وحانت اللحظة التي صاروا فيها مائة، وواصلوا المجيء من جميع الأنحاء رجالاً ونساءً، في البحث عنه، والتقوه مخيّماً، وعندها جثموا على قدميه، وتكلموا عن احتياجاتهم وعذاباتهم، رووا حكاياتهم، وطلبوا البركة والنصح، وبقوا، وفي اليوم التالي غادروا معه إلى الأمام. والتقاه آخرون في الطريق وهو يسير في مقدمة الجميع، متكئاً على عصا كأنها أفعى الكاسكافيل، متمتماً بجمل طليقة، وعيناه تنظران إلى الأفق، وكانوا يعرفون أنه لن يلبي طلباتهم أثناء المسيرة، فانخرطوا في الجمع الذي كان يصحبه، مطيعين طقوس المخيّم حين يتوقفون، ولم يأت أحد بملاحظات للحجاج الجدد، فيقدمون لهم ما يأكلونه، وماء ليشربوه، ولا يسألون القادمين ولا يريدون معرفة أسمائهم، أما هم فيأتون ليلاً ليقبلوا قميص الطوباوي، ملتمسين حمايته. ولم يكونوا يتخلّون عنه، أسرى عينيه الزرقاوين وصوته الهادئ والحار، وكلماته التي تخفف الألم.

لا أحد يعرف بالضبط العدد الصحيح للذين وصلوا إلى مشارف جوازيرو، قد يكونون مائتين، وربما ثلاثمائة مع رجال لوكاس، وكانت صحف معيّنة تكتب عن الوقائع، قالت إنهم كانوا أكثر من خمسمائة، ووجد مع هذا، من يضمن بأنهم لم يصلوا إلى أكثر من مائة وخمسين.

كان حشداً قذراً من المرضى والبؤساء رجالاً ونساءً وأطفالاً، هجناء قاتمي البشرة وخلاسيين سوداً. وكانوا يسرقون، إنها الحقيقة، والذين جلبوا معهم نقوداً كانوا يشترون طعاماً قدر إمكانهم. وعندما تنفد النقود فلا وسيلة أخرى لديهم سوى سلب مخازن المزارع، طالما أن صيدهم كان هزيلاً وصعباً في الكاتنغا. إنهم يسرقون الدجاج والماعز، والخنازير وقطعاً كبيرة من القديد وأكياساً من الفاصولياء، وحينما يمرّون يحدث السلب فيقتلعون الآيبين والبطاطا الحلوة، والاينامي والذرة حين تكون حبوبها نامية. لكنهم كانوا يسرقون فقط ما يكفي ليأكلوا. فالطوباوي منعهم من أخذ أي شيء شططاً، وبالنسبة إلى استيفان لم تكن تلك سرقة، يقول إن ثمار الشجر هي للجميع. فالله أنبتها للفقراء. وللجميع الحق في أن يصيبوا منها. ومع هذا فهو لا يسمح بأن يمدوا أيديهم إلى أي متاع، أن يسرقوا صحناً أو كأساً أو سترة أو نيكلاً. وكان يقول: «هذا لهم، وأخذه إثم»! أما الطعام فلا وكذلك الحيوانات التي تولد طليقة في الأرض، والأشجار التي تنمو بنفسها وتتغذى من نسغ الأرض، فالأرض أم وافرة العطاء وطيبة، لديهم الحق فيها. ولم يكن الطوباوي يرى أن السياجات التي ترسم حدوداً للممتلكات، ولا يهتم بسندات التملك المسجلة في دائرة السجل العقاري: «ذلك كله وهم، خيلاء الأغنياء». ويردد: العالم في طريقه إلى الزوال، فالله تعب وهو على عرشه

في السحاب، من مشاهدة كل هذا الشر لدى البشر، وسيزيله، فماذا تهم السياجات والسندات، لا شيء ولا أحد ولن يكونوا إلا طعاماً لنار جهنم، تصيب الأشرار، وملاذ السماء للفقراء، أولئك الذين جاؤوا للتوبة، الذين هجروا مناجلهم ومعاولهم.

قبل أن يلمسوا أحداً بسوء، وحين يعلم أن امرءاً من الحجاج طعن موظفاً في أحد المخازن بسكين لم يشأ أن يبيعه علبة ثقاب، فإنه يطرده، ولا يريده في معيته بعد ذلك، ولا يكون قاسياً معه ولا يرفض تزويده ببركته. لكنه منع مَن يتبعه أن يريق دم رجل بعد أن بدأ التوبة، فهذا إثم محظور في شريعة الطوباوي.

ولم يكن يهمه ماذا فعل المرء قبلاً، فقد جاء سفاحون معروفون، قبضايات وكولونيلات قتلوا لقاء عشرة آلاف ريس وزجاجة كاشاسا. يروون على الطوباوي أفعالهم، الميتات التي تقشعرّ لها الأبدان، الشرور بلا سبب، فيزوّدهم بالبركة، ويمنعهم من الإقدام على القتل منذ الآن فصاعداً. حتى سيريلو الذي قتل بدافع غيرة لا أساس لها، امرأة وابنيه الاثنين، وفرّ بعد ذلك ليعيش وحيداً كأحد الوحوش في وسط الغابة، وكان من قبل جاغونسو لدى الكولونيل براغانسا وهو ذو سمعة سيئة، ويحمل ميتات كثيرة على ظهره، وكان اسمه يرعب الأطفال ويخيف النساء.. حتى هو، استحق غفران الطوباوي. فقد وصل ذات مساء وعرفوه في الحال، لكنهم لم يقولوا شيئاً وتركوه يسير بينهم. كان سيريلو مسلحاً بحربة وبندقية حربية، حربته وبندقيته اللتين بهما تسبب بكثير من النكبات، وحين رافقهم في الليل كانت النساء يجلبن له الطعام أسوة بجميع الآخرين الحديثي الوصول. فأكل صامتاً ومنعزلاً، ورافق فوراً الموكب حول الشعلات محاولاً ترديد كلمات الصلاة، صاغياً إلى موعظة الطوباوي في ختام القداس الاحتفالي.

لقد دقّت الساعة التي فيها يقدم الحجاج الجدد أنفسهم ويقبلون قميص استيفان ويقولون له ما يرغبون منه. ولم يكن سيريلو أول من ذهب إليه، لكن عندما ركع تطلّع الجميع إليه وسمعوا ما قاله:

- يا أبتاه، حضرتك قديس فضع يدك على رأس هذا الزنجي الشرير وحرره من الشر، واغفر لي يا أبتاه حيث أن ظهري ينوء بحمل هذا الإثم الكبير، بحمل مثل هذا الشقاء الشديد! لم أعد أحتمل الثقل وإذا لم تزله حضرتك بسرعة، فلسوف أموت آثماً، ولن يقيّض لي الخلاص.

رمقت عينا استيفان الزرقاوان شعر الزنجي الجعد وهو مقوّس الظهر أمامه. ووضع يده على كتفه، فرفع الزنجي عينيه، وعثر على إشفاق كثير وعذوبة كثيرة في عينيّ استيفان الذي

كانت لديه قوى ليفتح بها القلب ولينتزع منه الشر كله، وكل تبكيت للضمير أيضاً، كمن ينتزع شوكة ومعها الألم الذي يحدثه وجودها.

- يا أبتاه، سأخبرك بأني قتلت أناساً كثيرين من أجل المال، من أجل صداقتي للعقيد... قتلت من أجل السرقة، قتلت بلا سبب، قتلت من أجل القتل.. زنجي سيىء يا أبتاه، زنجي شرير لم تر مثله البتة...

وقصّ أيضاً عن المرأة:

- وقتلتها، يا أبتاه، لم أكن مصيباً، كانت مستقيمة، وما نظرت قط إلى أحد ما. قتلتها لمجرد الخوف من أن تتطلّع ذات يوم إلى أحد ما، من أن تتخلى يوماً عن الزنجي، لأنني كنت أحبها... أحبها كثيراً، أحبها كثيراً لدرجة أني قتلتها. وقتلت الولدين ظناً أنهما قد لا يكونان ولديّ، قد يكونان ولديْ رجل آخر، يجب أن يكونا ولديْ رجل آخر لأن الزنجي سيىء وهي لا تستطيع أن تكون شديدة الطيبة بحيث تتحمل الزنجي من غير أن تخدعه... كان كل ذلك كذباً، فقد كانت امرأة مستقيمة. لم توجد امرأة مستقيمة أكثر منها، قتلتها بدافع الشر، لأني كنت أحبها كثيراً، جداً، أراها تضحك، الأسنان البيضاء، الشفتان رقيقتان، والعينان اللتان تضحكان بهما أيضاً، وأراها تضحك للآخر، تعض بأسنانها للآخر، وعيناها على الآخر... وكيلا تفعل يوماً ما، قتلتها، كنت غاضباً جداً فقتلتها وقطعتها إرباً إرباً كيلا أرى العينين تضحكان، والشفتين تضحكان...

شهق بصوت مرتفع. وكان جميع الذين سمعوه حيارى إزاء ما يقوله للطوباوي.

وحنى سيريلو رأسه مجدداً.

- إن ظهري مثقل بمثل هذا الشقاء الفظيع الذي أقدمت عليه، أنا لا أحتمل الثقل أكثر من ذلك، فخلّصني منه يا أبتاه.

- لقد دفعت عقوبة ما فعلته، ولن تفعل شراً بعد الآن، فأنت الآن كعصفور طيب جداً...

رفع يده وبارك الزنجي. وخرج سيريلو من أسماله، نظيفاً من كل ألم، سعيداً كل السعادة، وانضم إلى رجال الطوباوي، ماشياً وراءه، حارساً خطاه، كعبد يتبع سيده.

ليلة أخرى من التأثر. عندما توقف أبناء السرتون الذين يذهبون مع استيفان وظلوا صامتين، فذلك عندما ظهرت زيفا، فقد وصلت عند بدء الموكب، وانضمت إليه بدون أن يلحظها أحد. واختلطت بنسوة كن يصلّين.

وعندما بدأ الطوباوي خطابه كانت هي قد صارت في الصف الأول، وتقلّصت ملامحها عند سماع الكلمات، وضحكت ولوّحت بيديها، وجسمها كله ينتفض، وفمها يصدر جلبة تذكّر بصوت الماء في بقبقته. ولاحظ الذين كانوا على مقربة أكثر منها، انفعال زيفا، ورأوا أنها جديدة بينهم، وينبغي أن تكون قد وصلت خلال المساء.

كان الطوباوي يتكلم، ويبدو أنه لا يتبيّن أحداً أمامه. وكان لهب الشعلات يغلفهم بهالة حمراء. وكان هو بالنسبة إلى زيفا طليقاً في الهواء، سحابة من نار، منحدراً في السماء. لقد عرفته، إذ كانت تراه مرات كثيرة في أمسيات هذيانها. وها هي الآن مرتاحة، فكل الماضي قد تبخر من ذاكرتها كأنها إلى جانب استيفان منذ بداية العمر، وحين انتهى الطوباوي من كلامه ورفع يده يبارك الحشد، وثبت أمامه، استدارت إلى الناس، وشعرها يلوح في الهواء، ممتلئاً بالدخان، والزبد في فمها، وقالت:

- الرب هو الذي أرسله، جاء في سحابة من النار، ومن لا يطيعه فهو مدان. إنه قديس الله، ولسان الله وعينا الله. فمن لا يطيعه هالك وسيموت متعفناً ولن تخرج روحه من جسمه، ويغدو مقيّداً في الأرض، إنه هو سمع الله، سمع ما في داخل البشر، يسمع حتى الجنين في بطن أمه قبل أن يولد... إنه قدما الله تسيران في الدنيا، إنه يدا الله تغفران الذنوب، ومن لا يطيعه فهو ضائع...

ركضت أمام الطوباوي وقبلت حاشية قميصه، وبعدها انتصبت واقفة إلى جانبه. فرفعها السرتونيون وأدركوا فوراً أنها مختلفة عنهم، أعلى منهم مرتبة، أقرب إلى استيفان من أي منهم. أقرب حتى من سيريلو الذي لم يكن يترك الطوباوي ولا دقيقة واحدة ومن ينام عند قدميه والحربة فوق صدره.

وضع استيفان يده على شعر زيفا الأشعث وقال:

- لست خاطئة، أنتِ تكفّرين عن الآخرين، أنتِ قديسة وعلى الجميع أن يحترموكِ... كنت أنتظركِ، وأنتِ الآن ستباركين الماء الذي نشربه، والطعام الذي نأكله، فما هو اسمك؟

قامت بجهد لكي تتذكر:

- أدعى زيفا...

قال استيفان للناس:

- إنها تعرف الحقائق، فهي في بركة الله... عندها دست زيفا يدها في الشعلة حيث الجمرات ما زالت تفرقع، وملأتها بالرماد، وأهالته على رأسها وجلست القرفصاء على الأثر إلى جانب الطوباوي، وقدمت النسوة وجثمن أمامها. فباركتهن، وأصبح الآن ثمة قديسان.

7

طويل هو الليل، يستمر طويلاً حتى ينقضي. ويقولون إنه يوجد بلدان طقسهما بارد جداً، وأن الماء يتحول فيهما جليداً. والقيام بحراسة في أرض كهذه يجب أن يكون عذاباً. ويسير جاون من جانب إلى آخر، وعيناه تجتازان العتمة، تجوسان الأخيلة في مخيّم الطوباوي. كل شيء صامت هناك، في هذه الليلة سيكون الحصار مكتملاً، وسوف يحتل الجنود كل المعابر، ولن يعود بوسع أي رجل الخروج لجلب المؤن. وقد وصل لوكاس آرفوريدو في اللحظة الأخيرة. فلو كان ذلك بعد أربع وعشرين ساعة لما كان بوسعه العبور وضم رجال الكانغاسيروس إلى حجاج الطوباوي. ستكون الشرطة بينهم. وخلال بضعة أيام من التقدم ببطء سيكونون أمام الآبار وسيقطع الماء عن المخيّم فلقد دقت آنئذٍ لحظة الهجوم، والنقيب سيُرقى، وبدلاً من كونه مفوضاً كعقيد في الشرطة، سيغدو رائداً في الجيش أكثر فعالية وذا تنويه في الأمر اليومي.

في تلك البلدان حيث الماء يتحول جليداً في الشتاء، كيف يصبح حال الجنود في الحراسة؟ يجب أن تكون المعاطف ساخنة، وربما يشعلون ناراً، لكن كيف تشتعل النار فوق الجليد؟ يقولون إن الأرض كلها تصير مغطاة بالجليد، ويسمونها ثلجاً. وقد شاهد جاون في صورة بتقويم ما، لوحة جميلة تظهر الأرض أشد بياضاً من القطن، من جليد الشتاء. في الكاتنغا لا يبرد الطقس، ولو كان ذلك لمات أهالي السرتون جميعاً لأنهم يرتدون أسمالاً، سراويل من قماش عادي فقط، قمصاناً من القطن. ففي الكاتنغا الطقس حار، وفي الليل يهب النسيم، وفي فصول الشتاء الجيدة يهطل المطر، وفي فصول أخرى لا تمطر، والشمس نفسها شمس كل نهار، حارة كالجمر. كالجمر الذي لا يزال يتوهج في مخيّم الطوباوي. وبقايا الشعلات التي حولها يصلّون، حيث يتناولون الرماد الذي فيه يمسحون وجوههم. إنها إحدى وعشرون شعلة، وهناك من يقول إن ذلك هو سحر الطوباوي. وإلى الدائرة التي تتشكل منها - إنها تقوم في المكان نفسه يومياً حيث يأوي الحجاج في اللحظة الأخيرة.

لا الجنود ولا الرصاص يعبرون هذه الدائرة المسحورة، وإن من هنا لن يستطيعوا أبداً طرد استيفان. هكذا قالوا وجاون يؤمن به، فالطوباوي يمتلك قوى فوق مستوى إدراك الجنود البسطاء.

أين رأيتم أحداً يمشي وأفعى في صدره؟ فالأفعى حيوان غادر وشرير. وجاون شبٌّ وهو يتخذ الأفاعي أعداء، وحين يمشي في الغابة يراقب خطاه، وسمعه متيقظ لأقل ضجة. فهو يعرف كيف يميّز في صمت الكاتنغا أصوات كل نوع من أنواع الأفاعي، أصوات الجاراراكا والسوروروكو والكاسكافيل، والبيكو ده جاكا، وليس لديه شفقة عليها، فلو رآها لسحق رؤوسها السامة وكسر ظهورها اللدنة، والطوباوي يداعب الأفاعي، يعاملها بالحنان نفسه الذي يستقبل به الطيور الجميلة التي تأتي لتحط على كتفه، وتقرص أذنه. فيحمل خلال أيام، أفعى كاسكافيل في شعر صدره، فتبقى هناك، نائمة كأنها حيوان بري، ولا يعرف جاون رجلاً فعل مثل هذا الأمر. فلن يغدو متعجباً إذا لم يستطع اجتياز دائرة الشعلات، وإذا عادت الرصاصات إلى الجنود. تحدث أشياء كثيرة تبدو أكذوبة. فلو لم يكن قد رأى التقويم لما صدق مثل هذا الأمر المذهل جداً.

يمشي من جانب إلى آخر. وإذا جعل الطوباوي الماء يتحول جليداً حوله، فراسخ وفراسخ من الجليد، ألن يقتل البرد الجنود والملازمين والنقيب؟

أحسّ جاون فجأة أنه مقرور، هل هو من التفكير، أم هي الملاريا التي ستحل؟ فتلك المياه ههنا، قرب سان فرانسيسكو، تصيب الجميع بالملاريا. لكن حرّ ليل الكاتنغا يعود. لا يوجد ثلج في أي مكان، والطوباوي يعرف التعامل مع النار، تلك الدائرة التي لن يستطيعوا اجتيازها. والرصاصات سوف تعود إلى صدور الجنود، كل رصاصة إلى مطلقها. كل واحدة إلى ذاك الذي أطلقها. وجاون لا يعتقد أن الطوباوي سيموت، آه من الرجل الذي سيشهر السلاح ضده... أين رأيتم من يطلق النار على قديس، نبي يأتي بكلمات الله؟

لا يؤمن النقيب بهذه الأشياء، وسوف يعطي الأمر بإطلاق النار. وكل ما يرغب فيه جاون أن لا تكون اليد التي تطلق النار هي يده، السلاح الذي يصوّب إلى صدر الطوباوي، إنه يفضل أن يموت قبل ذلك في المعركة، يسقط جريحاً من قبل أحد رجال لوكاس، يفضل أن يموت قبل ذلك، حينما يكون في نوبة الحراسة بطلق ناري منطلقاً من الكانغاسيروس الذين هم في الجانب الآخر، يقومون بالحراسة أيضاً، ربما أحدهم يكون غريغوريو الذي أطلق النار على أرثور، ولن يكون حاقداً عليه إذا قتله، فلماذا جعل من نفسه كانغاسيرو، إذا لم يكن ذلك لقتل جندي الشرطة، ولماذا أنشئت الشرطة إذا لم يكن لمطاردة الجاغونسوس في الكاتنغا؟ كانت حرباً بلا نهاية، بلا وجه حق. يفكر الجندي جاون الذي يقوم بالحراسة. بلا وجه حق لأنهم شديدو الشبه، هم

والكانغاسيروس ، في الحقيقة كانوا متساوين، فأي فرق يوجد؟ حتى ولا في البزة التي يرتدونها الآن: رداء من الجلد وخفّان، فأي ثياب أخرى وأحذية أخرى لا تقاوم في الكاتنغا. لا يوجد أي فرق، لكن العالم هو هكذا بالفعل، زاخر بالأشياء التي لا يمكن تفسيرها، لماذا البعض أغنياء، لديهم مزارع هائلة، قصور في المدينة، سيارات وخدم، وآخرون فقراء جداً ليس لديهم شيء، إنما الأمراض فقط؟

لم يحاول جاون الإيضاح. فكل ما يعرفه هو أن الليل طويل، ويستمر طويلاً حتى ينتهي، وأن من الإثم أن يطلق النار على الطوباوي، ويفضل أن يموت قبل ذلك برصاصة في الصدر.

8

عندما وصل الطوباوي إلى مدينة جوازيرو، وبعد أن اجتاز في رحلة استغرقت أكثر من سنة، السرتون كله، كانت مئات من الحجاج يرافقونه. فشهرة معجزاته انتشرت في الكاتنغا برمّتها، وأكثر من المعجزات، تلك الكلمات حيث اختلط اليأس والأمل، والتي تنذر بنهاية العالم بنكباته والحياة في السماء بجمالاتها، تجذب الفلاحين المتعبين من كل شيء. جاؤوا لسماعه أكثر مما جاؤوا ليطلبوا منه شيئاً، الإصغاء إلى سرد الوقائع التي ستمر بهم، السرد الذي يكرره الطوباوي يومياً في نهاية المواكب. والذين سمعوه مرة ومائة مرة لم يتعبوا من الاستماع إليه ويشعرون بالتأثر الكثيف نفسه، من الخوف والفرح، من الرعب والسعادة. فلن يتبقى شيء من العالم، حتى ولا الأكواخ المشيدة من الطين المطروق حيث يقطنون، ولا البيوت الكبيرة في المزارع مع قاعاتها وغرفها، وكنائسها الخاصة، ومطابخها الفسيحة. ولا الكولونيلات. ففي تلك الساعة النهائية سيغدو الجميع متساوين، إذ سوف ينطلقون عراة، ولن يأخذوا شيئاً من الأرض، ولن يستطيع أحد أن يميّز الفقير من الغني لأن الأمراض تكون قد انتهت إلى الأبد. وسيسود الأرض صمت لن يقطع أبداً، وبعيداً جداً عن الأرض كانت السماء والجحيم.

أرسل ربنا الطوباوي لكي يبلغ، ليدعو الناس إلى أن يتوبوا. تلك هي مهمته، وأهالي السرتون يهيلون الرماد على رؤوسهم، يصلّون، يسيرون معه. يسرقون من المزارع، ولديهم صدامات مع كتائب الشرطة التي تنطلق للقبض على لوكاس آرفوريدو. ولوكاس نفسه قدم للقاء الطوباوي، تحدث معه، وتقبل بركته. ورأى الجميع أن الطوباوي لم يمنع لوكاس من الاستمرار في حياته كقاطع طريق في الكاتنغا. فقد تركه يغادر من دون أن يوصيه بألا يقتل أبداً بعد ذلك، ولا أن يجرح، وخلال بعض الوقت لم يفهموا لماذا، إنما بعد ذلك بوقت طويل، حين كانوا محاصرين تقريباً، وجدوا السبب، فالطوباوي يتنبأ بما سيحدث. والآن رجع لوكاس، يستطيع أن يقتل ويجرح،

كان هو من سيدافع عنهم ضد الشرطة. ربما يأمره الطوباوي بعدها بترك البندقية، وإطلاق الحربة، ويقذف الرماد على رأسه. عندما يكون الجنود قد غادروا، تحت نيران لوكاس. كان الطوباوي يتنبأ، يرى المستقبل، ولم يكن ثمة سر في الزمن بالنسبة إليه. وكان يقول:

- لا لزوم لجلب الماء اليوم، لأن السماء ستمطر في الليل...

لا غيمة في السماء، ولا وعد بالمطر، وفي الليل تساقط المطر فجأة، فلا شيء غير تركيز القدور والصفائح، وإصلاح الأمر بالماء المنهمر من السماء، المطلوب من استيفان، كيف يُشكك إذن بأن العالم سينتهي، وأن الجميع سيموتون بلا إحساس ليحاسبوا أمام الله عن مساوئهم في الأرض؟ كان الطوباوي يردد كل ليلة، محاطاً بنور الشعلة، ويبدو كمن يحوم فوق الأرض:

- لن يبقى جذع من الخشب، حتى ولا عشب، ولا طمي مبلول، لن يبقى لا عصفور، ولا حشرة أرض، حتى ولا حيوان في المياه، ولا سمك ولا ضفدع، ولن يبقى أي حي... فسيموت الجميع في الساعة نفسها، أولاً هي، وبعدها البشر، الصالحون والسيئون، الأغنياء والفقراء، الأصحاء والمرضى، إنه الله الذي أرسلني لأقول هذا...

وكصدى، رددت زيفا:

- إنه الله الذي أرسله ليقول هذا...

- كلّ سيؤدي حساباً، نقطة فنقطة. ولن يستطيع التخفّي حتى ولو شاء، لن يستطيع الكذب، من يستطيع الكذب على الله الذي يرى كل شيء؟

ورفعت زيفا ذراعيها:

- من يستطيع الكذب على الله الذي يرى كل شيء؟

كان استيفان ينتظر أن يحتضر صوت زيفا من بعيد، وواصل وعظه:

- الله قد تعب، وعيناه أغلقتا، وهو كئيب لرؤية الناس على هذا السوء. يأتون السيئات لأبنائه... إن عيني الله كانتا تريان السرتون، ولا تريان غير الشقاء، أطفالاً يموتون لأنهم لا يجدون ما يأكلونه. الرجال يموتون لأنهم لم يجدوا علاجاً. الرجال الذين هم بلا أرض يتصببون عرقاً في أرض الآخرين... أناس لديهم كل شيء، وأناس ليس لديهم شيء... فالله رأى ذلك سيئاً، لم يكن عملاً مستقيماً...

- الله رأى ذلك سيئاً، لم يكن عملاً مستقيماً... - ذلك الصوت الثاني كان يساعد على حفر الحقيقة في قلوب الناس.

- لقد دعاني الله، أمر بأن آتي. يا استيفان قل لهم إن العالم سينتهي، فمن يتب ينقذ نفسه، ومن لا يفعل فلن يكون له خلاص. إنه الله من قال...

- من لا يفعل فلن يكون له خلاص، إنه الله من قال...

- أدع الفقراء فقط، فالأغنياء كلهم هالكون، فقد أتوا أموراً مذهلة، ولا أريد رؤيتهم. الأغنياء مدانون، ولن ينجو أحد منهم...

- لن ينجو أحد منهم...

- لقد تمتعوا في الحياة، والفقراء تألموا فمرهم بأن يتوبوا، إذ إنني سأنهي العالم دفعة واحدة، بالحيوانات، وجذوع الخشب، الفراشات، وبالبشر... هكذا قال الله وكان غاضباً، غاضباً على الأغنياء، غاضباً على البشر...

- كان غاضباً، غاضباً على الأغنياء، غاضباً على البشر...

- يا أبنائي، إني أقول لكم إن العالم لن يدوم، فوقته انقضى، والنهاية آتية، فلسوف ينتهي، إن الأجل قريب، ولن يستطيع البشر أن يتعادلوا. إنه الله الذي قرر. فقد تعب من رؤية كل هذا الشقاء...

- تعب من رؤية كل هذا الشقاء...

- حتى أن عينيه قد أغلقتا لكثرة ما رأى... فيا أبنائي، إني أقول لكم إنه أصبح قريباً وقت التوبة، ومن لا يفعل فلن ينجو... إنما لهذا قد جئت، ولن أتكلم إلا للفقراء، لن أتكلم للأغنياء، فالكلام معهم لن يجدي...

- الكلام لن يجدي...

- سوف يعاقبون، الذين أخذوا أرضاً في هذا العالم حين يصلون إلى هناك فوق، سيعطون أراضيهم للذين ليس لديهم شيء. وسيبقون أشد فقراً من عميان سوق الفيرا... الذين قتلوا أناساً سيموتون كل يوم بالموت قتلاً... والذين سرقوا سيعطون كل ما لديهم، مال الآخرين ومالهم أيضاً... فهم سيعاقبون، ولن ينجو أحد...

- لن ينجو أحد...

- الله قد تعب من كل هذا الشر... فيا أبنائي، حانت الساعة، والعالم سينتهي. هيّا نصلّي، نتوب، ننقّي أنفسنا من الخطايا لكي يغفر الله لنا...

- لكي يغفر الله...

- ليباركِكم الله جميعاً - كان يرفع يده، والحجاج يخفضون رؤوسهم المتسخة بالرماد، ثم يخرجون صامتين إلى أكواخهم، وكانت زيفا تسير بينهم، فينظر إليها باحترام وود، هي أيضاً تأتي بمعجزات. وحده الزنجي سيريلو بقي إلى جانب استيفان. وحينما دلف هو إلى الكوخ، تمدد الزنجي في الباب، صدره إلى الأرض، والبندقية في متناول يده، والحربة تحت قميصه. ونومه خفيف، فأقل جلبة توقظه، يستيقظ ويده على الحربة.

ترك العمال أدوات الحراثة، وعندما احتج أصحاب المزارع قالوا إن العالم سوف ينتهي، ولا يفيدهم في شيء، إذا قُتلوا في الحقول ليكسبوا الشقاء. وطلقوا المعاول، وهربوا ليلاً، سعياً إلى الطوباوي، وكانوا ينظرون إلى الكولونيلات بدون ذلك الاحترام المعتاد، فهم يعرفون ما يقوله استيفان عنهم في مواعظه. فهم جميعاً مدانون، ولا أحد منهم سينجو. وفي كنائس الدساكر بدأت العمادات تتناقص، ولم يعد يأتي الأزواج أيام السبت لمراسم الزواج بلا احتفالات. فالطوباوي أيضاً كان يعمّد ويجري مراسم الزواج ولا يتقاضى شيئاً. كان ذلك مجاناً، ونشرت الصحف في العاصمة مواضيع تقول إن الطوباوي كان يحرّض الرجال في السرتون على الفوضى، وإن خطراً يتعرض له موسم الحصاد في تلك السنة بسبب النقص في الأيدي التي هي أكثر مبادئ الحضارة المسيحية صحة، والتي مع كل تلك التضحيات الكثيرة، كان القساوسة المتفانون قد حملوها إلى داخل الكاتنغا بالخرافات، فخاطروا وهلكوا في تلك الموجة من الاعتقاد بالخرافات التي انتشرت بسرعة في السرتون الشمالي الشرقي، وبات ضرورياً وسريعاً اتخاذ تدبير فعّال من قبل السلطات. واتخذت صحف موالية للحكومة ومعارضة للطوباوي، وقد نشر صحافي محقق صوراً وتعليقات مستغلاً ما في المخيّلة عن استيفان وطقوسه، وأكد مديرو تحرير في مواضيع ذات عمق، أنه ستصل اللحظة التي يوضع فيها الطوباوي في أحد المصحات العقلية ويُعاد سوق الفلاحين إلى المزارع المهجورة مكرهين على العمل، وإلا فإن خسائر المزرعة ستكون كلية في ذلك العام. فقد صفّى الجفاف جزءاً من المحاصيل. وأهالي السرتون لا يقرأون الصحف، وعموماً فهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، لكنهم يصغون إلى كلمات الطوباوي. ولكونهم يائسين فقد استمروا في كل حين، وفي أعداد كبيرة، يتركون المناجل والمعاول والفؤوس والمذاري، إنما الذي لم يتركوه فهو

السكين الكبير فقط، لأنه السلاح الذي يمتلكونه. فاجتازوا السرتون بحثاً عن خطى استيفان، لم يريدوا أن ينتهي العالم من دون أن يتقبلوا بركته.

خيّم استيفان على بعد بضعة فراسخ من جوازيرو، لا يزال في الكاتنغا، بعيداً عن الطرق، وهناك يوجد بعض آبار ماء، وانهال السرتونيون بالسكاكين الكبيرة على الشجيرات فقطعوها ورفعوا أكواخاً مرتجلة، وعلى ما يبدو فإن الطوباوي يفكر في التريث هنا، لا أحد يعلم بمخططاته، حتى ولا زيفا التي هي قديسة أيضاً، هل سينزل إلى المدينة، فيسلب قطاراً ويتجه إلى العاصمة؟ أم لعلّه يبقى هناك إلى الأبد، مسقبلاً الحجاج، يأتي بالمعجزات ويبرئ المرضى؟ إذا كان الأمر هكذا فلن يلبث أن تشاد مدينة في تلك الغابات.

كان الناس يسيرون في دروب الكاتنغا بأعداد غفيرة، ليس إلى مدينة بون جيسوس دالابا ولا إلى جوازيرو وسيارا حيث يقوم الأب سيسيرو بإجراء القداديس بثياب احتفالية. هل يعود على عقبيه ويتوغل في السرتون مجدداً، يطوف فيه مرة أخرى؟ الأكثر تأكيداً هو أنه أراد انتظار اللحظة التي يعلن فيها أن العالم ينتهي، في ذلك المكان، فكان يقول ثمة مكان سيهبط الله فيه للدينونة النهائية، بالتأكيد كان هو ذلك المكان، بآباره السبع، لقد توقف استيفان أمام كل واحدة منها، بصحبة زيفا، مباركاً المياه حتى لا تجف.

وهناك وصلت حملة الشرطة لملاقاته. وتتابعت تجمعات السرتونيين وفي مناسبات معيّنة وصل أكثر من مائة دفعة واحدة، وكان من الضروري توفير الطعام مهما كلف الأمر، والمخازن لا تبيعهم سلعها، فكان ثمة أمر بذلك من أصحاب المزارع. والوسيلة هي السرقة، ذبح البقر في الحقل، وإعداد اللحم هناك بالذات، والإتيان بالأفخاد والآباط إلى المخيّم، وقد تخصص حجاج في السطو، والطلبات باتخاذ الاجراءات تغدو كل حين أكثر تواصلاً.

ووصلت الشرطة أخيراً، ثمانون رجلاً جيدو التسليح، فدرس النقيب الوضع وخلص إلى الاعتقاد بأنه إذا حاصروهم فلا بد من أن يستسلموا بسبب النقص في الطعام، فتلك كانت لعبة أطفال.

لكنه بدأ يضع العراقيل أمام الحجاج الآتين، كانوا يريدون المرور، فقد جاؤوا من بعيد سعياً للبركة المنقذة من الطوباوي، وكانت الشرطة تقطع الطريق من جانب واحد، فيصرّ الحجاج، وتنشب معارك صغيرة، فيتساقط بعض أهالي السرتون قتلى وجرحى، ويواصل رجال الطوباوي

الخروج للسرقة، لم يهاجموا الشرطة قط، لكن عندما يهاجمون فإنهم يدافعون عن أنفسهم ببسالة، وحدثت عمليات فرار بين الجنود.

بدا لإستيفان خلال بعض الوقت أنه لا يعبأ بقوة الشرطة التي تحاصره، لكن حينما بدأت الميتات وضيّق الحصار عليه الخناق، فكر أن بإمكان الجنود أن يقتلوا السرتونيين بدون دفاع. فكان أن أرسل سيريلو ليأتي بلوكاس آرفوريدو.

أولئك هم الجنود المرسلون من قبل الأغنياء الذين لن يقيّض لهم الخلاص، إذ إنهم لا يريدون سماع كلمته، بأن يتوب البشر. فلم يكن الصراع ضدهم إثماً. لكن من يستطيع أن يفعل ذلك غير لوكاس آرفوريدو الكانغاسيروس؟

الحصار يشتد وسيريلو لم يعد مع لوكاس، حتى أن السرتونيين قد ذهبوا بعيداً جداً آتين بهم ويدلونهم على الطريق، فليس هم الذين يتيهون في منعطفات الكاتنغا، في التوغل في الأشواك.. لكن أحداً لا يعرف أسرار الكاتنغا مثل لوكاس آرفوريدو، فقد كان آتياً في الدروب وسوف يصل قبل أن تعلم الشرطة.

خرق حجاج الحصار في الليل، جاؤوا ليقبلوا قميص الطوباوي. جاؤوا من خمس ولايات مختلفة، فقد مشوا فراسخ وفراسخ، ولن تستطيع الشرطة منعهم من تقبل بركة استيفان. لقد تركوا نساءهم وأبناءهم في الجانب الآخر، وزحفوا في الكاتنغا، ودخلوا مخيّم الطوباوي. ولن يخرجوا منه لأنه كان ضرورياً الدفاع عن استيفان. ولديه سكاكين كبيرة وطبنجات، وما كان إطلاق النار على الجنود خطيئة، فالعالم سينتهي حقاً ومن يهتم بمن يموت؟

أصبح الخروج الحر إلى الحقول أقل وأكثر صعوبة يوماً عن يوم، والجنود يكسبون كل ليلة بعض الأمتار، فكان لازماً الكثير من المهارة والحيلة، وخطوة الهر، الأونسا.. للمرور بين الدوريات، والذهاب إلى المزارع والإتيان بالعجول المذبوحة والماعز النافق، وشرائح القديد الكبيرة، وكان البعض يصاب برصاصة في الصدر، لكن الطعام للحجاج لم يكن ينعدم في مخيّم الطوباوي استيفان.

10

لم يمشِ لوكاس آرفوريدو بمثل هذه السرعة قط. فالزنجي سيريلو الذي ذهب والذي طُلب منه الإسراع، لم يستطع اللحاق به على وجه التقريب. شاهدوا أضواء الشعلات في مطلع الليل،

فركضوا، ورسموا إشارة الصليب وبدأوا يدوسون على أرضاً مقدسة، شاعرين بأنهم متخففون من خطاياهم، وإذ يدافعون عن الطوباوي، فإنهم يعتقون من الجرائم المقترفة.

عندما نهض لوكاس، بدأ زيه تريفوادا ينشد الأغنية التي تتحدث عن مآثره، ورافقه الجميع معلنين للطوباوي وصولهم:

«ها قد جاء لوكاس آرفوريدو متسلحاً ببندقيته...».

كان القسم الجانبي من الكانغاسيروس يبرز في الليل، لم يكن طويلاً جداً، لكنه يعطي انطباعاً بالقوى الهائلة بملابسه الجلدية، وشعره الطويل، وبندقيته المنتصبة. كانوا فوق مرتفع لم يتسن له أن يصير رابية، ومن هناك يكشفون أيضاً شعلات الجنود، وقال لوكاس:

- يوجد الكثير من القرود – يقصد الجنود - لكي نحرقهم، وكان زيه تريفوادا يشعر أنه مرح، فلا يغبطه أكثر من قتل جندي من الشرطة، وإذا كان متخرجاً في المدرسة العسكرية، يكون ذلك أفضل أيضاً.

ساروا إلى الأمام، وساد الغناء أصوات الحجاج، كان نشيد حرب. وتغيرت الأمور الآن في المخيّم، وتلك كانت آخر ليلة من ليالي السلام.

عندما وصل لوكاس، كان الطوباوي بانتظاره، واقفاً أمام الشعلة والحجاج حوله والحشد صامت وقذر، أشعث الشعر ومعتل الصحة. وكان فخذا وإبطا البقرة المعدة للطعام قد شويت على الشعلة ورائحة اللحم المشوي تتصاعد في الهواء، وإلى جانب استيفان كانت زيفا، وتقدم سيريلو وأخذ مكانه قربه قبل أن يفعل ذلك أي كانغاسيرو. فركع لوكاس، لكن استيفان أنهضه:

- لقد وصلت يا بني ونعم الوصول. لقد أرسلت في طلبك لأن البشر الأشرار أرسلوا الجنود ليهاجموا أبناء استيفان الذين سينقذون، وأنت أيضاً ستنقذ، لكن الأمر معك ومع رجالك بطريقة أخرى، فأنت ستقاتل، ستنتهي الجنود... إن استيفان لم يكمل مهمته، ولا يستطيع أن يقطعها... وهم لا يتركون الحجاج يصلون ليأتوا ويقوموا بالتوبة، ولا يتركونهم يمرون، وهكذا يبقون بلا بركة، وسيُدان الجميع... فالله لا يريد هذا، أنت ستنتهي...

وردد صوت زيفا بصدى:

- الله لا يريد هذا، أنت ستنتهي... ورنّ ذلك الصوت أليفاً في أسماع زيه تريفوادا. وحاول أن يتبيّن بين الدخان الأسود المندفع. من تراها التي تكلمت هكذا بصوت معروف جداً منه؟ وأجاب لوكاس آرفوريدو استيفان:

- يا أبتاه، أنا ابنك لأطيع أوامرك. قيل إنه يوجد كثير من الجنود، ولقد أتى معي سبعة وأربعون رجلاً، لا يوجد كثير من الذخيرة، لكننا نتدبّر الأمر... فيا أبتاه، حيثما تذهب فلوكاس يذهب أيضاً ورجاله معه. فيا أبتاه، مر أنت فقط ونحن جاهزون...

- الله راضٍ بوصولك...

- الله راضٍ بوصولك... رددت زيفا.

ارتعد زيه تريفوادا، بدا له الصوت صوت مارتا، كان النبرة نفسها، إنما كان أشد خشونة، وأقل شفافية، من تكون يا ربي؟ مشى بعض خطوات إلى الأمام.

أمر الطوباوي بأن تجمع، في لحظة، بنادق الكانغاسيروس . وباركها، يده مرتفعة، وعيناه تائهتان، عيناه الزرقاوان اللتان كانتا تبعثان الخوف وتوحيان بالثقة. وبدأ الموكب من جديد. لكن قبل أن ينطلق، اقترب زيه تريفوادا من عمته جوزيفا، لم تكن عمته بعد، إنما معتوهة تتلبسها الأرواح، تلك التي كانوا يضحكون ويسخرون منها حينما كانوا غلماناً. تبدو الآن أخرى. حتى إنها لم تنظر إليه. فالماضي لم يعد موجوداً بالنسبة إلى زيفا. هي الآن قديسة، قديسة تقريباً بقدر ما هو استيفان اللسان الثاني لله، كما يقول الحجاج. وانحنى زيه تريفوادا أمامها، وأخبر الكانغاسيروس الآخرين وهو فخور بأنها عمته، واسمها زيفا، وأنها منذ سنين كثيرة تقوم أيضاً بترديد القول إن العالم سينتهي ومن الضروري القيام بالتوبة. كان ينظر إليها كأنه منوّم مغناطيسياً. وارتاح فقط حين وضعت زيفا يدها الملأى بالرماد على رأسه وأهالته على شعره. لقد شعر أنه خفيف، مسامح حتى من السخريات التي كان يعاملها بها حينما كانت لا تزال في بيتهم، وها قد أصبحت قديسة، لكنه لم يكن يعرف ذلك.

وأشار الكانغاسيروس إلى زيفا بإصبع احترام:

- إنها عمة زيه تريفوادا...

كأنها كانت قريبة لهم جميعاً، نوعاً من قديسة مرتبطة بالحشد، وقد جاءت خصوصاً للجاغونسوس في عصابة لوكاس آرفوريدو. ولم يكن زيه تريفوادا ليشعر بالحيوية إلا إذا سأل

عمته عن مصير جيرونيمو وجوكوندينا، لكنها لم تكن من هذا العالم، بيد أنه، هناك في المخيّم، بين الشعلات المقدسة والآبار السبع المباركة، حيث يصغون إلى نبوءات الطوباوي، لا يبدو أنهم ما زالوا في عالم كل الأيام. كان الأمر مثل أضغاث أحلام، فك حدود بين الواقع والخيال.

جمع لوكاس جماعته، وتداولوا خططه. وكان الجنود قد أكملوا الحصار.

11

جرى كل شيء بعد ذلك بسرعة، كانوا محاصرين، ومن بين الآبار السبع، ثلاث كانت واحدة هناك عند الجنود. وكان عليهم قطع الحصار كل ليلة، والحجاج الآن أصبحوا محميين برجال لوكاس والمعارك تتكرر، ويسقط قتلى في الجانبين. لكن كلمات الطوباوي عنيفة كل ليلة، ولصوته سحر جديد، ويزبد فمه على وجه العموم بكثير من العذوبة، وزيفا تردد الجمل، وأبناء السرتون يحفظونها في قلوبهم، ووصلت التعزيزات إلى الشرطة.

انقضت أيام قليلة، فإذا بالجنود يغطون البئر تلو الأخرى. وظمأ لوكاس الآن هو الذي قرر القيام بهجوم ليطردهم. وعندما خيّم الليل جمع عشرين رجلاً. فخلال النهار كان قد درس الموقف هو بالذات مصحوباً بزيه تريفوادا.

أمام إحدى الآبار يوجد فقط ثمانية رجال. ولم تكن هي البئر الكبرى. لكن أياً من الآبار لم تكن ذات ماء جد نقي مثل تلك. إنها عين وفيها ما يكفي لتزويد المخيّم.

خرجوا بعد الموكب، كانوا عشرين رجلاً مختارين، أفضل مطلقي النار الذين لا يخطئون التصويب، لقد مضى بيكو دوسي وسابيا، بوربوليتا وشيكو مارتينس. ذهبوا بهدوء، زاحفين بين العلّيق، غير محدثين أي جلبة أكثر مما تحدثه الأفاعي. يحملون بنادقهم تحت أذرعهم، وأخذوا مواقعهم.

انفجر إطلاق الرصاص. فقد أخذوا الجنود بغتة. بعض هؤلاء ميّزوا الصرخات الشيطانية، وصاحوا بالآخرين.

السلام يا آرفوريدو..

كانوا ثمانية جنود فأصبحوا ثماني جثث حول البئر، وجاء الحجاج وأخذوا الماء لأيام كثيرة.

في الجانب الآخر سمع النقيب إطلاق النار. إن مائة وثلاثين رجلاً ليسوا كثيرين للقيام بذلك الحصار. لكن مع التعزيزات جاءتهم مدافع رشاشة، وسيكون من الأفضل ألا ينتظروا. يجب الهجوم دفعة واحدة، وإذا لم يفعل فمن الممكن أن يكسب لوكاس المواقع المحصّنة بجنود قليلين، فيشق طريقاً، وإذا تسلل هو والطوباوي إلى الكاتنغا فلن يقبض عليهما أحد بعد الآن، ووداعاً للترقية، التنويه في الأمر اليومي، الاسم مع الإطراء في الصحف.

عقد اجتماعاً للملازمين من أجل المناقشة.

وفي الليلة التالية، حاول الجنود استعادة البئر، لكن رجال لوكاس ردوهم واحتفظوا بالموقع. فوضع النقيب خططاً وتفقد الجنود. تحدث مع الرقباء القدامى. وعرف منهم أن من الأفضل أن تجري المعركة في حقل مفتوح فيها جمعهم في المخيّم، بعيداً عن شجيرات العليق، وهكذا فقط يستطيعون التغلّب عليهم.

وقال ذلك الملازم الهيّاب للنقيب:

- وعقب أخيل ...

لكن النقيب كان ثائراً على هؤلاء الناس المتأدبين الذين يعرفون جملاً واستشهادات وعند ساعة المعركة لا يعرفون إلا الركض.

ثلاثون رجلاً سيهاجمون من الخلف، أولاً، يفتحون النار الكثيفة، مستدعين إلى هناك رجال لوكاس. والخمسون الآخرون يتسللون عند ذلك إلى المخيّم للمعركة المكشوفة. ونصحه رقيب أن ينتظروا ليلة بلا قمر، فهي ستسهل التحركات، ومع التعزيزات الواصلة فقد وصل أيضاً مراسلو الصحف في العاصمة.. سوف يتحققون من أن نهاية الطوباوي قد اقتربت.

12

النهاية تقترب، نهاية العالم. كان يقول الطوباوي استيفان، تلك كانت ليلة القديسة جوزيفا، وأمر بأن يدور الموكب دورتين بدلاً من دورة واحدة. وكانت زيفا تشبك بعض أغصان من إكليل

الجبل في شعرها. ويتقبّل الحجاج الوريقات فيضعونها على الجروح فتلتئم.

لم يمر التحرك في معسكر الجنود من دون أن يتبيّنه لوكاس آرفوريدو. كان الحجاج يأتون بالأخبار، كانت دوريات الشرطة تخلي مواقعها. والجنود يتجمعون في حشد كبير، ودزينات من الرجال يسيرون ما وراء المخيّم، متخفين بظلال الليلة غير المقمرة.

استدعى لوكاس زيه تريفوادا، وعهد إليه بعشرين رجلاً وأوفده إلى تلك النواحي:

- إنهم يريدون الهجوم، فقد رأوا أن لا ميزة في التجمعات الصغيرة... أريد أن أراك تنهي هؤلاء الناس...

- هل تفكر أن بوسعنا التحمل؟

- الذخيرة قليلة... لكن إذا أبقيناهم بعيدين، نستطيع أن نشق طريقاً ونعبر مع الطوباوي...

- وهل يريد هو الذهاب؟

- قال إنه سيذهب... هو واثنا عشر رجلاً معه، والآخرون يبقون، سوف يذهبون في ما بعد ليلتقوهم...

سار زيه تريفوادا مع رجاله، وكان هناك قادمون من بين الكاتنغا، وجاون معهم، تحت إمرة ذلك الملازم الهيّاب الذي يستشهد بأقوال. وكان النقيب ينتظر سماع إطلاق رصاص ليأمر جنوده بالتقدم نحو المخيّم، أوامره هي بإطلاق النار بدون رحمة، بدون تمييز بين الحجاج والكانغاسيروس .

كان جاون راضياً لأنه اختير ليأتي من الخلف، فهكذا لن يتوجب عليه إطلاق النار على الطوباوي ولا على السرتونيين العزل. كانوا يتقدمون بصعوبة بين شجيرات العلّيق.

وبخطى ماهرة وهادئة وصل الكانغاسيروس الذين كانوا يظنون أنهم سيباغتونهم، من الجانب الآخر، وكانوا على مسافة أمتار قليلة، يشاهدون الملازم ذا النظارتين، والجنود يسيرون. لم ير زيه تريفوادا وجه جاون. رأى فقط السروال الخالي من البزة المقيتة. فأمر رجاله بأن ينبطحوا أرضاً وينتظروا، وعندما يصبح الجنود قريبين جداً، عندها أجل..

انبطحوا أرضاً، ومرت فوهات البنادق بين الجذوع الرقيقة للشجيرات، كان الليل معتماً، بلا قمر، لكن عيني زيه تريفوادا تجيدان الرؤية في سواد الليل، فشاهد ساقي الجندي وهو يمشي. لم يكن يعرف أنه شقيقه جاون الذي كان قد انطلق قبل الآخرين، يحسب بخطوته اللحظة التي فيها يجب، أن يقفزوا ويطلقوا النار وهم يصيحون صيحاتهم التي تبعث الرعب، صيحات حرب الكانغاسيروس .

وتمرّ الآن إشارة من رجل إلى رجل، وتقطع الصيحات الكاتنغا. صرخات حيوانات هائجة مرعبة، تجعل القلب يتوقف.

رفع زيه تريفوادا البندقية، وفي وهج الطلق الناري، رأى جاون وجهه، كان هو شقيقه جوزيه، وهمس باسمه، لكن زيه تريفوادا قد انطلق إلى الأمام، وأطلق الكانغاسيروس النار. رأى جاون الجنود يركضون، وسمع صوت الملازم يصرخ بالأوامر، لكنه كان يسمع كل شيء بشكل خفيض ويرى من خلال سحابة تغطي عينيه. الشيء الوحيد الذي رآه بدقة كان وجه أخيه جوزيه وهو يطلق النار من بندقيته، الفم المفتوح في صرخة، العينين الضيقتين من الغضب. في لحظة الموت بالذات أدرك جاون أن جوزيه كان هو المدعو زيه تريفوادا، مساعد لوكاس آرفوريدو، ومع هذا كان بوسعه أن يرغب له في النجاة بحياته، والطوباوي أيضاً، آه! الطوباوي أيضاً...

تواصلت الطلقات، وفي الجانب الحدودي للمخيّم كانت خطوات الجنود في هجوم، وكان زيه تريفوادا يطلق صرخاته، صرخات الحرب، وجاون يموت مبتسماً.

13

الآن، كان إطلاق الرصاص كثيفاً في المخيّم. فقد تسلل الجنود. والطوباوي وضع نفسه وزيفا والحجاج في دائرة الشعلات وأخذ يعظ كأن لا شيء يحدث، والرصاص يمزق الرجال، ويختلط الأنين بالكلمات. وكان سيريلو يدعم الطوباوي ببندقيته من الخلف، وكان لوكاس ورجاله يواجهون الجنود، لكنهم لا يجيدون القتال هكذا، وحين سقط لوكاس جريحاً في رأسه، تراجع رجاله، تراجعوا وظهورهم إلى حيث يوجد الطوباوي، توقفوا أمام الحجاج. والجنود يتقدمون، حوالى خمسة عشر منهم قد سقطوا قتلى أو جرحى بالرصاص. لكن خسائر الكانغاسيروس كانت أكثر. وفي حمى المعركة نمت الرغبة في القتل لدى كل جانب. فتناول الحجاج أسلحة الذين سقطوا وأخذوا أماكنهم، وكان الجنود يطلقون النار بدون تمييز على الكانغاسيروس والحجاج. أولئك الذين ولدوا في المدينة حاولوا إصابة الطوباوي الذي تراكمت حوله الجثث.

أصبحت المعركة الآن جسداً لجسد. كان الكانغاسيروس يسحبون حرابهم، والطلقات مسموعة آتية من بعيد، من قتال زيه تريفوادا مع الجنود الذين هاجموا من الخلف.

سدد الجندي إلى صدر الطوباوي، وانطلقت رصاصته في الوقت نفسه انطلقت رصاصة سيريلو، وقد خرج الطوباوي على جثث السرتونيين، ووقع الجندي أرضاً حيث تنتشر الجمرات. عند ذلك تقدم سيريلو الى الأمام، ترك البندقية واستلّ الحربة. وأمسك الجندي بزيفا من رأسها، فانتفضت محاولة التخلّص منه وعضته وخدشته بأظفارها ورفسته ثم بصقت في وجهه. فضربها على وجهها بعقب بندقيته. وحين سقطت أرضاً خفض الجندي سلاحه وأطلق النار.

جاء زيه تريفوادا من القطاع الخلفي، بعد أن صفّى الجنود. لكنه التقى الكانغاسيروس الآخرين يركضون إلى حيث كان آتياً، وقالوا له إن لوكاس والطوباوي قد قتلا، وكذلك عمته زيفا.

كانوا ينظرون إليه مترقبين الأوامر. من العشرين رجلاً الذين أخذهم، أربعة فقط كانوا خارج المعركة. وحوالى عشرة وصلوا إلى المخيّم، ولم يعد لديهم أكثر من ذلك ليفعلوه، فعادوا راكضين، والجنود يتعقبونهم، لكن زيه تريفوادا وصل إلى الكاتنغا في الوقت اللازم، وعندما داس وجه الجندي أطلق شتيمة، لكن جاون كان يبتسم دائماً، حتى لشتيمة أخيه.

ونسي السرتون اسم الطوباوي استيفان، نسي اسم لوكاس آرفوريدو. لكن إسم زيه تريفوادا بقي كل مرة أكثر شهرة. فشروره وجرائمه تركت وراءها لمسافة بعيدة، شرور وجرائم جميع الكانغاسيروس الذين سبقوه في الهيمنة على الكاتنغا. قالوا عنه إنه لم يكن لديه قلب بالفعل، وإن رجلاً بهذا القدر من السوء لم يظهر قط، حتى ولا فيرغولينو فيريرا لامبيون. إنه لم يغفر لجندي البتة، وما أنزل توستوناً قط من الإتاوات التي كان ينتزعها من المدن التي يسطو عليها. وقالت الأغنية عنه:

«تريفوادا قد وصل

سيراق دم كثير...».

14

بأمر من النقيب، قطعوا رؤوس الطوباوي استيفان ولوكاس آرفوريدو وزيفا، وكانغاسيروس آخرين وبعض الحجاج أيضاً، ليزيد العدد. أخذوها كغنائم وعرضوها في المدن،

واصطف مئات من الفضوليين، ورقي النقيب، ونوّه به في الأمر اليومي، وبالرغم من أنه لا يحب الأدب، ألّف كتاباً عن الحملة، وضع له عنواناً: «الفوز الجديد».

في المخيّم، عند الفجر، كانت الجثث مكوّمة، ومع الحرّ أخذت تفسد وتتعفن. ثم جاءت طيور البغاث من الكاتنغا كلها وغطّت الشمس بسوارها. كانت بحجم الظلام الذي يبدو وكأنه العالم الذي سوف ينتهي.

نينين

1

استمع جوفينسيو الذي يدعونه نينين في صمت مركزاً الانتباه إلى الرجل الطويل الذي كان يتكلم، إنه يعرف قليلاً عن ذلك الرفيق، مجرد أنه جاء من الجنوب، ربما من بيرنامبوكو وكان يتجه في اتجاهه نفسه. هكذا قال له الإسكاف حين جاء ليبلغه بالاجتماع:

- مع رفيق مسؤول، وصل إلى ههنا، يقاد الرجال بثقة مطلقة... أما الناس المرتابون فلا... إننا لا نستطيع المجازفة بضمانة الرفيق...

وحمَّله المسؤولية:

- المسؤولية هي مسؤوليتك...

فيما هو يستمع، متيقظاً لأنه كان يرغب في فهم كل شيء يقال، ويتعلم جيداً مدلول كلمات الأمر، كان جوفينسيو يتفحص المسؤول. ففي الرجل شيء ما يجعله ثقيل الدم للوهلة الأولى، شيء ما يحول بينهم وبين الذي يستمعون إليه دون أن ينشأ مثل هذا التعاطف السهل والتفاهم اللذين يساعدان على الاستيعاب كثيراً. ويحاول جوفينسيو أن يستشف أي شيء سيكونه هذا، فلم يشعر بارتياح، بذلك الإحساس الملزم في الصدر. كي يتمكن من حل الكلمات المتماسكة التي كان الرجل يقولها - ويقولها بتشديد وببعض وضوح - بعدم تعاطف يستشعره إزاءه؟ ربما ينقص التشديد والوضوح في الرجل تلك النار المتولّدة من الاقتناع العميق. ومن هنا برودة القاعة. في ذلك الوقت، لم يكن الحزب فقط هو الذي بدا له مقدساً وغير ممكن الوصول إليه. إنما الرفاق المسؤولون أيضاً.

لا يزال جوفينسيو يخلط الحزب بالرجال، وفيهم، في إخلاصهم وطاقتهم على النضال، ويسعى للعثور على صدقية الحزب. وما يتحسسه من خلال النضال ونتائجه، كان يتحسسه في المناضلين وخصائصهم. فقد انقضى عليه في الحزب أكثر من سنة بقليل، وبضعة شهور من هذه السنة قضاها في أمازونيا وسط الغابة، بدون أي اتصال بالرفاق، وكان الرجل يستشهد بلينين وستالين، بالكتب التي لم يقرأها جوفينسيو، عبارات صعبة عليه. فكل ما قرأه، بالاضافة إلى المواد السرية كان كتاباً لماريا لاسيردا مورا، فتحمس له. إنه يعجب الرجل بدون شك، يبدو أنه يعرف أشياء كثيرة ويسحقهم - ذلك الجمع من العرفاء والرتباء - بالاستشهادات بأقوال لينين وحتى بأقوال ماركس. وهمس جوفينسيو لنفسه بالذات بنتيجة ملاحظاته:

- إنه مغتر بنفسه...

في السجن، بعد ذلك بوقت طويل، في السجن، أُتيحت له الفرصة أن يعرف من كثب آغنالدو - الذي كان هناك في الاجتماع يستخدم الاسم الحركي تاديو - وأن يتعلم كلمة من الأفضل أن يحددها: الاكتفاء الذاتي. لكن حينما حدث هذا كان العريف جوفينسيو قد ميّز كلياً الحزب من الرجال الذين يؤلفونه.

كان البيت الذي يعقدون فيه الاجتماع في إحدى ضواحي مدينة ناتال، ومن خلال كوى النافذة المغلقة كان يدخل نسيم الليل. وكان جو القاعة موبوءاً بدخان السجائر الرخيصة، وفي لحظة ما أحس جوفينسيو بأنه يختنق، ولم يستطع متابعة كلمات آغنالدو، لقد تاه في دراسة ملامحه وأوقعه ذلك الصوت المصفّر الذي يتأخر في لفظ آخر المقاطع كأنه مدرِّس يعلّم الأولاد على التهجئة، فقام بجهد أكبر، وركز انتباهه مجدداً:

- ... على كل رفيق أن يكون مستعداً، متفهماً لمسؤولياته، للدور التاريخي للطبقة العمالية وخليقاً بمواجهة الموقف...

كان الرجل ذكياً، لا ينكر أحد ذلك، وهو يحدد الآن الإطار السياسي للبلد وأصبح جوفينسيو متحمساً، أن كلمات آغنالدو مليئة بالتفاؤل، وحسب ما كان يقول، فإن الحكم تقريباً بين يديه، كثمرة ناضجة على شجرة، يكفي الوصول إليها بالوقوف على طرفي القدمين وقطفها.

كانت كلمة «التحصين» معروفة لدى جوفينسيو وهو نفسه يوظفها بخشونة حين يتلقى - لينقلها إلى الإدارة المحلية - معلومات العرفاء من كل كتيبة، ومن الرقباء ومن الجنود. وحين كانت

الأنباء تبدو له متفائلة أكثر من اللازم (كان ماسيدو يروي دائماً عن ضابط وهو موثوق بهمن قبلنا) فإنه يعيدها بقسوة:

- أنظر إلى هذا التحصين...

سمع قبل ذلك ببضعة أشهر، في اجتماع آخر كلمات مثل تلك، إنما أكثر تحديداً، عندما تكلم أيضاً أحد المسؤولين القادم من الجنوب، لم يستطع جوفينسيو اختلاس المقارنة، فالآخر لم يكن متدفقاً جداً كهذا، كان يتوقف مفتشاً عن الكلمات، متعثر الصوت قليلاً، كأنه ليس متعاطفاً مع مقولاته لكنهم لم يكونوا غير مستوعبين كلياً له فقط، إنما يتبيّنون معنى كل جملة، كأن التوجيهات التي ينقلها إليهم تبقى محفورة في أعماق كل منهم، ويخرجون من هناك ليوفوها حقها. وكان ذلك المسؤول فتياً أيضاً، وذا ابتسامة خجولة وقد احتضنهم جميعاً في ساعة الوداع. لقد أضاع وقتاً وهو يشرح جملاً من المادة التي أتى بها، جملاً ليس بوسعهم في الواقع أن يفهموها بالقراءة البسيطة وحدها.

لقد أحبه جوفينسيو، كان آغنالدو مسيئاً في التصرفات، مع كونه سهل الكلمة إن مسافة تمتد بينه - المسؤول - والرجال في القاعة. فينظر إليهم من فوق، كأن لديه تهديداً خفيفاً في كل تأكيداته، حتى عندما يصوغ ذلك الإطار التفاؤلي، يبدو أنه يحمّل رقباء وعرفاء الفيلق مسؤولية أي فشل يحصل حتى ولو حصل في ريو غراندي دو سول وليس في ريو غراندي دو نورتي ، وكان الإسكاف وهو من الإدارة المحلية، ينظر إلى آغنالدو بضعةٍ، وهذا ما يزعج جوفينسيو أيضاً، لأنه ذو طبيعة متمردة وقليل الخضوع للتملق.

بدأ المسؤول دراسة الوضع المحلي، وكان جو القاعة قد تحول إلى جو غير محتمل، فقد مضى على اجتماعهم ثلاث ساعات، وكانت القاعة صغيرة ولا كهرباء فيها، ودخان السراج يتمايل فوقهم ممتزجاً بدخان السجائر المتعاقبة، وتبيّن جوفينسيو أن ماسيدو تخلّى عن الانتباه، رغم أن عينيه كانتا مثبتتين في آغنالدو، هو يعرف جيداً تلك النظرة من الرفيق، يعلم ماذا تعني: كان ماسيدو بعيداً عن المكان ههنا، متخيلاً أشياء، مشاهد كان فيها هو البطل. أقله كان يفكر في انتفاضة، في البطولات التي سيحققها، في طلقات الرصاص التي سيطلقها، في الأعمال الجريئة التي سيقدم عليها، كان ماسيدو هكذا، لكن في المقابل، يستطيع الوثوق به، فكان رجلاً للساعات الصعبة، وجوفينسيو يعرف كل واحد من أولئك العرفاء والرتباء، كأنه ولد من الرحم نفسها التي ولدوا منها، وإلى جانبهم قد ترعرع، هنا كان فالفيردي، القصير القامة والدائم الابتسام، القادر على

القيام بأكبر الحماقات، لكنه امرؤ لا يخون أبداً، من هؤلاء الذين يموتون لكنهم لا يتكلمون. أما فرانسيسكو كونسييسون فهو كثير الوساوس ولا تجاريه في هذا امرأة مطرزة مع إطاراتها، إن جوفينسيو قليل الثقة به، فهو لا يعرف ماذا بوسعه التصرف في موقف صعب. أما الآخرون فكانوا يحبون كونسييسون كثيراً، ويرونه رائعاً لأنه من أكثر الذين يتدخلون، زاخر بالتفاصيل، ولديه حلول خاصة لكل أمر، بيد أن لجوفينسيو ذاك الشعور بأنه سيفشل عندما تحين اللحظة الحاسمة، وكان يراه ممتقعاً ومرتعداً ينضح جبينه عرقاً، حين أمرّ إليه ذات صباح قبل القيام بالتدريبات، وعلى مرأى من الملازم، ورقة كأنها أمر، وكان الملازم على مقربة منهما، لكن جوفينسيو اختار اللحظة المضبوطة، وهي الوحيدة التي تسنّى له فيها في ذلك النهار الاتصال بكونسييسون، فالمهمة كانت عاجلة، وينبغي أن تنفذ في ذلك الصباح بالذات، كان عليه أن يجازف، ولو لم يبدُ الآخر شديد الخوف، لما تبيّن الملازم شيئاً.

لكن كونسييسون ارتجف فارتاب الملازم، ومشى إلى الجهة التي كان فيها العريف، وكان كونسييسون يحمل الورقة بين أصابعه، وشعر جوفينسيو بأنه سيتركها تقع، فسار إلى الملازم عارضاً عليه مسألة ما، وقطع عليه اتجاه تفكيره وخطواته، وأعطى للآخر وقتاً ليخبىء الورقة، وعندما ترك الملازم، كان هذا لا يزال ينظر إلى حيث كان كونسييسون، لكنه أصبح بدون ذلك الحدس، ووجد أن لا شيء في الأمر.

واحتج جوفينسيو على فرانسيسكو كونسييسون، لكنه أجاب بأنه كان سيبتلع الورقة ولسوف يفعل ذلك. وكان جوفينسيو يفكر بأنها تبجحات، لكن كونسييسون برأي الآخرين من دون استثناء، كان محترماً وخليقاً بأن يتبعوه، فحوله لم يكن ثمة رأيان.

حرّض ماسيدو ليبذل العريف انتباهاً:

- الأمر معنا الآن... - همس بصوت خفيض، لكن مع هذا، فإن آغنالدو أدرك الأمر، فتوقف ثم نظر إليه بذات لوم وسأله:

- هل لدى الرفيق جوفينسيو ملاحظة يبديها؟

«إنه امرؤ بهيمة». بيد أنه انتهزها فرصة ليحتج على الجو غير المحتمل في القاعة:

- كنت أريد القول للرفيق إنه سيكون عملاً حسناً إذا استطعنا التوقف بضع دقائق لنفتح النافذة ليخرج هذا الدخان. فعلى هذه الحال لا أستطيع بذل الانتباه...

وبما أنه رأى أن الآخر سوف يعارضه ووجد أنه من غير المفيد خلق مشكلة ما، ولسوف يحصل على ما أراد، فقد أكمل:

- بيان الرفيق جدِّي كثيراً، ونحن لسنا موجهين مثل الرفيق. إننا قليلو التسييس، يجب أن نكون متيقظين جداً وألا نضيع أي بيان شديد الأهمية...

رأى جوفينسيو الإسكاف منزعجاً، مشيراً إليه بعلامات اللوم من عينيه وشفتيه، فابتسم. وأهال على «طاقة الرفيق تاديو» كثيراً من عبارات الثناء، وكان مقتنعاً بذلك. وبطريقة أخرى فهو نفسه أحب أن يرتاح قليلاً، ويشرب كوباً من الماء، فقد جفّ لسانه. إذ كان يتكلم منذ أكثر من ساعة، وافق ثم نهض الجميع وانتقلوا إلى القاعة الداخلية. ولم يبق إلا صاحب البيت وهو الرقيب الذي فتح النوافذ وتنشق هواء الليل النقي.

في القاعة الداخلية، استراحوا متكاسلين، وهم يثيرون التعليقات، وبكى طفل في الغرفة، ربما أيقظه صوت ماسيدو الذي كان يدلي برأيه الحماسي:

- رائع! رائع!

شرب آغنالدو ماء من دون أن يختلط بهم، وانتحى بالإسكاف مكاناً قصياً وأخذا يتوشوشان، لم يتناولا شيئاً مهماً، كان آغنالدو يريد فقط معرفة تفاصيل عن شوارع المدينة التي لا يعرفها.. حتى لا يضيع عندما يسير بمفرده. لكن الإسكاف اصطنع هيئة غموض كي يظن الرقباء والعرفاء - كما كانوا يفكرون - أن هناك مسائل سامية للحزب كانا يحلّانها. كان جوفينسيو يحب الإسكاف، فهو رجل طيب يجلّه كما يجلّ مسؤول الحزب. على كل حال فذلك الإجلال الذي كان عظيماً في البداية، فور وصوله إلى ناتال، بدأ يتناقص، نسبة إلى مضي الوقت وإلى كون الاتصال بينهما أصبح أكثر.

كان جوفينسيو كائناً يرغب في التعلم، ويعيش طارحاً أسئلة، ولم يكن الإسكاف يستطيع الإجابة عن كثير منها. ومع هذا لم يكن يجيب قط بـ «لا أعرف». كان يخلط الكلمات، في حديث طويل لا يأتيه التفسير. وأحياناً، بعد أيام، في لقاء جديد يأتي بالحل ويغدو جوفينسيو مقتنعاً:

- هذا المتوحش يجب أن يدرس...

ذات يوم أحد تناول الغداء في بيت الإسكاف، فتعرّف إلى زوجته وأبنائه الثلاثة، ورأى الرف الصغير المصنوع من خشب صندوق حيث تنام نصف دزينة من الكتب. نظر إليها

جوفينسيو بحسد. رأى العناوين، والبعض بالإسبانية. كانت أعمالاً للينين، كدسة أوراق، ملخصاً لكتاب رأس المال. وكان الإسكاف إلى جانبه يشعر بالفخر. فسحب من الرف مجلداً بالإسبانية كان هو «ما العمل» للينين:

- هذا هو حقاً كتاب ما العمل؟ إنه للينين... يفسر كل شيء... وإذا كنت لا أعيرك إياه فذلك فقط لأنك لا تعرف الإسبانية...

لكنه لم يشأ أيضاً أن يعيره الأوراق المطبوعة بالبرتغالية. فقد يضيعها جوفينسيو وكانت كتباً صعبة، لا توجد في المكتبات. وصلت بوسائل غير شرعية. وبما أن جوفينسيو ضمن له بأن يتخذ كل حرص، وأن يتحمل مسؤولية إعادتها، فقد استخدم الإسكاف ذريعة أخرى. كتاب من هذه الكتب في يديْ عريف في الجيش كان خطراً، سواء في الكتيبة أو حتى في البيت. وإذا رآه رجعي ما؟ والاستفزاز الذي سينتج... والآن بالذات... لا، لا يستطيع إعارته.

ثقلت الذريعة على جوفينسيو، فلم يكن لديه ما يقوله. لكن خلال أيام كانت رؤية تلك الكتب تطارده: متى يستطيع قراءة كل ما يرغب فيه؟ حين خرج من الحقل سعياً إلى المدينة، قبل أن ينخرط في الشرطة العسكرية ويتابع طريقه إلى سان باولو، كان لا يكاد يحسن تهجئة ورسم اسمه، فواظب على الدراسة برغبة حديدية. ولم يكلفه كثيراً. تعلم القراءة والكتابة بشكل صحيح، والكتابة بدون تعثر، حتى أن خطه كان جميلاً وتوقيعه يبدو كتوقيع دكتور، مع تنميق في الأسفل. في سان باولو أعطاه الرفيق تافاريس، زيه تافاريس، وهو أحد أبناء سان باولو، كتاباً ليقرأه، كتاب ماريا لاسيردا مورا وهو رواية حول حياة العمال في الريف. وبعدها دعاه إلى الانخراط في الحزب، وأخبره فيما هما يسيران في الشوارع متسكعين، عن مهمة الشيوعيين، كيف يناضلون وماذا ينوونه، فتحمس:

- لكن هذا هو الذي كنت أبحث عنه... لم يستطع بعد ذلك قط أن يقرأ كتاباً وتوصل إلى حد حيازة كتاب ما، حالما نزل من السفينة في ناتال، وكان فالفيردي هو الذي جاء به في الكتيبة، لم يكن ثمة عنوان أكثر منه إيحاءً. «أ ب ث الشيوعية»، فقرأ بشراهة الصفحات الأولى، وحينما ظهر الإسكاف ورأى الكتاب أخذه من يديه، وأبلغه أن تلك الطبعة ليست جديرة بالثقة. كانت كلها مشوهة، عملاً من أعمال التروتسكيين. فسلّمه جوفينسيو له شاكراً تحذيره. وشاهده يمزق الكتاب:

- كيلا يسمم رفيقاً آخر...

تكلم بعدها حول تروتسكي، والسوء الذي ألحقه بالثورة. كيف أن التروتسكيين خرّبوا جهد الحزب وخانوا الطبقة العمالية. وههنا في الشمال كانوا نادرين لحسن الحظ، أما في الجنوب حيث يوجد الكثيرون، فقد انضموا إلى صفوف الحزب ليدمروه فقط، وصار جوفينسيو يزن كلمات زيه تافاريس ويستنتج بأنه لا يستطيع أن يكون تروتسكياً.

- التروتسكي والشرطي هما الشيء نفسه... - لخص الإسكاف الأمر وهو يمزق الصفحات الأخيرة من الكتاب المدان.

وفي السجن، بعد ذلك بوقت طويل، أتيح لجوفينسيو الوقت ليقرأ وليكون لديه رأي تجاه التروتسكيين - الشديد التأثير فيه بسبب التأثر الذي كان الإسكاف يتكلم فيه - ولسوف يعززه بالبراهين والوقائع. وقرأ أيضاً «أ ب ث الشيوعية» في هذه المرة طبعة تستحق الإيمان بها. وفكر أنه لو حدثت على كتب في تلك المناسبة لربما كانت أمور كثيرة قد حصلت بطريقة مختلفة.

انقضت عشر دقائق منذ علّق الاجتماع، رأى آغنالدو أن الوقت قد حان لعودتهم إلى القاعدة، وقد خرج الدخان عبر النافذة المفتوحة، فجلسوا على الكراسي وعلى المقاعد المستطيلة وهم بحالة أخرى، وقال الإسكاف الذي ترأس الاجتماع:

- سيواصل الرفيق تاديو بيانه...

وسمع الصوت المتحذلق للأخير:

- إذن يا رفاق، كما كنت أقول، هيّا نحلل الآن ظروف حزبنا والتحالف القائم هنا... وسنبدأ بالتحالف الوطني التحرري...

ابتسم العريف جوفينسيو لنفسه بالذات مندهشاً من ماسيدو وفالفيردي حينما يحدثانهم عن التحالف التحرري، فحين وصل جوفينسيو من أمازونيا مع ذات أسطورة تحيط باسمه بسبب أحداث الحدود، سيطرت شخصيته على تجمع عرفاء ورقباء الكتيبة، وفي الحال بحث عنه ضابط وجس نبضه حول امكانية اتصالات لإقامة «ديكتاتورية جمهورية»... انقلاب سيكون بزعامة اللواء مانويل رابيلو. ولم يناقش جوفينسيو:

- موافق...

كلّفه الضابط إغواء الرقباء والعرفاء وإنشاء روابط. وكان جوفينسيو في تلك الفترة في الحادية والعشرين من العمر. وفي نقد ذاتي سابق حول حركة 35 المحققة في السجن، لم يكن لديه شك في أن يعرف في ذلك الوقت وفي تلك الحالة بأنه انقلابي، إنما يؤمن حقاً بقوة السلاح وبالانتفاضات العسكرية. وأكثر من ذلك فقدَ الاتصال كلياً بالحزب منذ أن نُقل من سان باولو، وراح يتحرك على حسابه الشخصي.

بعد ذلك ببضعة أيام، فتّش عنه موسيقي في الفرقة الأولى هو كيرينو، وعرض عليه خطاب تفويض من الحزب الشيوعي، ووجَّه إليه بعض الأسئلة:

- ألست أيها الرفيق عضواً في الحزب؟ ولم يكن لديك ارتباطات في سان باولو؟

أحس جوفينسيو بفرح مراهق يلتقي حبيبته الأولى، فقد نمت مكانته في عيون العرفاء والرقباء. كانوا يحبون رؤيته وهو يتعامل مع الضباط، بدون خيلاء، لكن بدون أية دونية، أنوفاً، فالأشهر التي قضاها في أمازونيا، في ليتيسيا، قد علمته أن الضباط مخلوقون من اللحم نفسه المصنوع هو منه، وأنه في اللحظات الصعبة يستطيع معرفة الرجال بشكل دقيق، فهناك في الغابة المذهلة، يظهر الضباط والجنود والعرفاء البعض في مواجهة الآخرين، كما هم في الواقع، مجردين من جميع التصنّعات، عراة كما هي شخصيتهم الحقيقية. تعلم هناك، خلال النضال ضد أهالي سان باولو في العام 1932، أن يأخذ القرارات بسرعة، وأن يتحمل المسؤوليات، ولا يخاف الظروف. وفي أقل من شهر في ناتال كان هو الذي يقرر المسائل لدى أغلبية العرفاء والرقباء، ومشورته في الأمور الأكثر تنوعاً، وقد تشكل التجمع حوله، مع ماسيدو فالفيردي في المقدمة، وكانوا جميعاً معه في المؤامرة من أجل «الديكتاتورية الجمهورية».

وكان كيرينو وبضعة آخرين غيره من الذين لم يقتربوا كثيراً من جوفينسيو ينظرون إليه من بعيد بالاحتراس نفسه، إلى أن وصلت من الجنوب تلك المعلومات. فقد قررت الإدارة المحلية التحدث مع جوفينسيو، ومعرفة مكانته، وإذ لم تثق به آنئذٍ كثيراً، فقررت أن ترى ما بإمكانها الاستفادة منه، فتكسب هكذا ذلك التجمع الكبير من العرفاء والرقباء.

وكان كيرينو في تلك المحادثة غامضاً وكاتماً لبعض الحقائق. فسأل كثيراً، وتكلم قليلاً. وكان جوفينسيو يريد اتصالاً في الحال مع الحزب ومعرفة الإرشادات، كلمات الأمر، وقطع كيرينو المحادثة معطياً إياه عدداً من «الطبقة العاملة»: ووعد بأن يبحث عنه في اليوم التالي.

لكن في اليوم التالي لم يتمكن جوفينسيو من التكلم معه، فلم يعطه كيرينو إمكانية لأية محادثة. وبقي جوفينسيو، المنعزل والأنوف، مرتاباً حيال ذلك. ترى ماذا حدث؟

قرأ الصفحات الأربع من «الطبقة العاملة» مرات متكررة. ها قد سمع كلاماً في التحالف الوطني التحرري. بعض اصدقاء كيرينو ينتسبون إليه، لكنهم كانوا قلّة. أناس «الديكتاتورية الجمهورية» كانوا أكثر عدداً بكثير، ومرّ أسبوع هكذا، هو يسعى إلى كيرينو، والآخر يتجنب الحديث، ويتوارى حين يراه، مقدماً أعذاراً غير مقنعة، وأخيراً في يوم سبت اقترب منه مبتسماً وقال:

- أريد أن أصطحبك اليوم إلى مكان ما... وكان جوفينسيو حانقاً فقال:

- إني مشغول اليوم... كنت رهن أوامرك الأسبوع برمته... ليس من سبيل إلى ذلك إلا في يوم آخر.

تكلم كيرينو جدياً وكانت هذه العبارة التي قالها لجوفينسيو قد جعلته أكثر تقديراً:

- إنها أوامر الحزب... وليست قابلة للنقاش، وإذا لم أتحدَّث معك أيها الرفيق قبلاً، فلأنني لم أكن مخوّلاً بذلك... إنه الحزب الذي يستدعيك أيها الرفيق...

- لن أناقش... بوسعك تعيين الموعد، عيّن كيرينو موعداً للقاء في ضاحية نائية عند الساعة التاسعة ليلاً. وكان اللقاء تآمرياً، وأبلغه:

- انتظر خمس دقائق فقط. وإذا لم أصل، توار وترقب إبلاغاً آخر...

أحب جوفينسيو ذلك. فهو يثير مخيلته. وشدّ على يد الرفيق، وبعد ذلك كانت معركة لإقناع فالفيردي بأنه لا يستطيع الخروج معه تلك الليلة، حسب رغبته، لزياة كونسيبسون حيث تمتد صداقته له لسنوات.

- ربما أصل في وقت متأخر.. إذا أتيح لي الوقت...

- إلى أين تذهب أنت؟

- إلى مكان ما...

- لكن أين؟

- ههنا...

كان فالفيردي مشحوناً بالحساسية:

- هل هو سرّ؟

فوضع جوفينسيو يده على كتف الآخر:

- ستعلم في ما بعد...

وتذكر فالفيردي «الديكتاتورية الجمهورية» المؤامرة تسير على مهل، لكن بين الحين والآخر كان لجوفينسيو لقاءات مع ضباط ملتزمين. يجب أن يكون أمراً من هذه الأمور، فطلب منه فقط:

- حاول أن تقفز إلى هناك.. وإلا فإن كونسيبسون سيكون منزعجاً...

وستذهب الزمرة بأجمعها إلى هناك، وسيكون رقص ومائدة عامرة بالحلوى.. وعليك أن تأخذ معك لورديس...

- سأقول للورديس أن تذهب، وإذا تسنّى لي وقت، سأصل متأخراً في حوالى الحادية عشرة والنصف ليلاً...

عند التاسعة كان في الموقع المحدد، يدخن لفافة، وينظر إلى الشارع المقفر. مجرد عاشقين عند ناصية مستندين إلى جدار. وقرع جرس الكنيسة الساعة التاسعة وبعدها في الحال ظهر كيرينو في الظلام، وهو يصفّر. وحين وصل إلى جانبه قال:

- هيّا...

مرّا بالعاشقين، ولاحظ جوفينسيو أن الفتاة أدارت وجهها كيلا تُرى. وفكر:«هل هي جميلة؟» وكان كيرينو يسير صامتاً. وبعد قليل انعطفا عند زاوية، ودخلا زقاقاً غير معبّد حيث يتكدس الوحل. وكان هيكل شخص مرئياً أمامهما. وعاد كيرينو إلى الصفير، وبصوت أشدّ ارتفاعاً الآن. وخفف الرجل من خطواته حتى التقياه. لم يكن ثمة مصافحة بالأيدي، وقال كيرينو فقط:

- الرفيق جوفينسيو... الرفيق بيدرا... فكر جوفينسيو فيما هو يحاول تفحص الرجل إلى جانبه: إنه الاسم الحركي. لديه خمسون عاماً من العمر، أصلع ومحمرّ الوجه ذو هيئة تنم عن

شخص هادئ ومتواضع. فأظهر لثته في الفم الأدرد. وتمتم كيرينو عندما وصلوا إلى الجهة الأخرى بدون كلام، متمنياً لهما ليلة طيبة بصوت خفيض، ثم اختفى.

وسارا بصمت بضع خطوات إلى الأمام وقال الرجل:

- لماذا لم تقدم نفسك أيها الرفيق إلى الحزب حينما وصلت؟ فأنت شيوعي...

- وأي شيطان يجعلني أخمّن المكان الذي يندس فيه الحزب؟

- ألم تجلب أية رسالة ارتباط؟

إلا إذا كانت من الهنود، فقد وصلت من أمازونيا - كان يروي - وعندما خرجت من سان باولو إلى ماتوغروسو ، أعطوني رسالة ارتباط إلى أشخاص هناك. وفي كامبوغراندي قدمت نفسي، لكن ردة الفعل كانت قاسية، فقد أمروني بالانتظار. وبقيت متعثراً ولم يزودوني قط بأي أمر. وحينما يأتون، فلكي يجلبوا نقوداً. وقد تدبّرت بعضاً منها في الفيلق، لكنني لم ألبث إلا وقتاً قصيراً هناك، فذهبت إلى أمازونيا. وزودوني برسالة ارتباط إلى ماناوس لكنني ذهبت إلى الحدود مع كولومبيا، في ليتيسيا...

- ها قد علمت بالقصة...

بات جوفينسيو مشوش التفكير قليلاً، ظانّاً أن الآخر يتصوّر أنه سيروي أحداث الحدود. فتابع بدون رغبة شديدة:

- من هناك جئت إلى ههنا... فكيف بوسعي البحث عن الحزب، كنت لا أعرف أي شيوعي؟

أضاف وأحس الآخر في صوته صدقاً:

- كنت مجنوناً من أجل اللقاء...

- أنت أيها الرفيق متورط في مؤامرة من أجل «الديكتاتورية الجمهورية» أليس كذلك؟

- أنا متورط. فقد قلت لكيرينو...

- إنه خطأ، فأنا أقبل أن لا يستطيع الرفيق البحث عن الحزب. فلم يكن من السهل اكتشافه في الواقع.. - ضحكة اقتناع، فخوراً بإتقان الخروج على الشرعية - لكن أن يدس شيوعي نفسه في

مؤامرة بورجوازية، تحمل طبيعة المغامرة، فهذا لا أعرف كيف تستطيع أيها الرفيق إيضاحه...

- لن أحاول الإيضاح. قد يكون خطأ، ولن أناقش. والمسألة هي أنني كنت مشبوك الذراعين، تائهاً... فدعوني وقبلت، إنها غلطة فظيعة...

- أحب صراحتك، لا تأتني بأعذار سخيفة... فالشيوعي يجب أن يعرف كيف يقوم بالنقد الذاتي... والآن إن ما ينبغي لك فعله، قبل كل شيء، هو القفز خارج هذه الحماقة...

- هل هو أمر؟

هزّ الأصلع رأسه. وسارا بضع خطوات أكثر، وعاد هو إلى الكلام:

- أنت أيها الرفيق لديك نفوذ على عديد من العرفاء والرقباء. وحسب ما أعلم الحزب، فأنت أيها الرفيق العريف الأكثر تقديراً في الفيلق كله...

فكر أولاً بأن يُظهر تواضعاً، لكنه أجاب فوراً:

- إنها الحقيقة... فالناس يحبونني...

وشعر الآخر أيضاً أنه لم يقل ذلك غروراً، إنما كان فقط يبرهن عن واقع. فالإسكاف، إذ أن بيدرا هو الإسكاف لويس، يترك نفسه متأثراً بذلك الصدق وبتلك التصرفات الخشنة، لكنها طبيعية بالنسبة إلى العريف.

- بإمكانك أن تقوم بعمل جيد... فالخلية في الفيلق صغيرة - كان يلوح بيديه للإيضاح - إن العمل قد بدأ فقط. وأنت بمكانتك، تستطيع أن تأتي بأناس كثيرين إلى الحزب... أو على أقله إلى التحالف.

- هل هو التحالف الوطني التحرري؟

- لقد سمعت به، أليس كذلك وإنها حركة فعّالة... ومع بريستس في المقدمة، ستكون رائعة...

أراد جوفينسيو معرفة الفرق بين الحزب والتحالف، وما هي الروابط بين المنظمة الواحدة والأخرى. فأوضح الإسكاف مطولاً، الموضوع كان مألوفاً له، إذ كان عليه أن يقدم هذا التوضيح مرات كثيرة. وكان جوفينسيو يستمع بصمت.

ترك الإسكاف (بالنسبة إليه كان بيدرا ما يزال مجهولاً، حيث أن سلطته في الحزب لم يكن يعرفها، إنما كان يستشفّ وحسب أنه يتعامل مع شخص مسؤول) وكان هناك متسع من الوقت للذهاب إلى بيت كونسيبسون. وهناك كانت الزمرة كلها. وقد استُقبل بالصراخ والهتاف، وقدموا إليه الكاشاسا والجعة، وابتسمت لورديس الجالسة على أحد المقاعد في القاعة، وهي تنظر إلى أزواج الراقصين. وقد بدأ بطنها يكبر. وبالنسبة إلى الآخرين، فهي لا ترقص إلا مع جوفينسيو. وإليها اتجه أولاً:

- هل جئت بهدية لألزيرا؟ - كانت عشيقة كونسيبسون التي يحتفل بعيد ميلادها.

- جلبت صندوقاً من الصابون المعطّر...

- حسناً... هيّا نرقص...

وفي منتصف الحفلة، استدعى فالفيردي وماسيدو إلى أحد الأركان، وقال لهما بصوف خفيض:

- ذلك الشأن حول «الديكتاتورية الجمهورية» قد انتهى...

- انتهى؟ تخلّوا عن اللعبة؟ - كان فالفيردي متكدراً.

واحتج ماسيدو:

- هكذا إذن... وأنا الذي كنت أعد نفسي لترقية... فقد كنت أحلم بشارات الرقيب، وأنتظر الحصول عليها مع الانقلاب...

- لم يتخلوا، كلا... نحن الذين تخلينا...

- نحن؟ - لم يفهم ماسيدو شيئاً.

- نحن، نعم... فمعهم لا شيء بعد الآن... إنها مغامرة... ونحن لا ندس أنفسنا في مغامرات.. لقد انتهينا منهم...

- وما الذي سنفعله؟

- نحن الآن في التحرري...

- تحرري؟ أي شيء هذا؟

- التحالف الوطني التحرري...

- آه! - تنهد فالفيردي - يوجد ملازم تابع له... إنه شخص طيب...

- لكن لماذا هذا؟ - أراد ماسيدو أن يعرف.

- ألست شيوعياً؟ - كان الجميع يقولون إنهم شيوعيون منذ أن عرفوا أن جوفينسيو شيوعي، فالعريف منذ انتسب إلى الحزب لم يتخلَّ قط عن أن يقدم نفسه كشيوعي حتى عندما كان فاقداً أي اتصال بالمنظمة.

- أنا شيوعي طبعاً...

- إذن فالشيوعيون هم مع التحالف. وعلينا أن نستعد، لأن الثورة آتية إلى هنا ولن تتأخر...

- تريد القول إنه التحالف...

- إذا لم يشأ بعضكم الدخول حالاً في الحزب، في الحزب الشيوعي، وهنا الأمر الأشد خطورة...

قال فالفيردي:

- إن ما أريده هو الحزب...

- وأنا أيضاً...

وأتى كونسييسون:

- ماذا هنالك؟

أراد جوفينسيو أن يغيّر الموضوع، لكن فالفيردي الذي كان ثرثاراً، قال في الحال:

- لقد انتهينا من «الديكتاتورية الجمهورية».

- والآن؟

- إنه التحالف الوطني التحرري...

الذين يحوزون ثقته هم أكثر من غيرهم، أخذهم جوفينسيو إلى الحزب وبدأوا العمل الدؤوب في الفيلق. كان كيرينو هو الشخص الأكثر مسؤولية، وكان على أقله إسمياً، حتى الانتفاضة. لكن في الواقع كان العريف جوفينسيو هو الذي يدير الخلية والمنظمة التحالفية.

الآن في القاعة الضيّقة، سمع بيان ذلك الرفيق القادم من الجنوب. والرجل يتكلم عن أمور يعرفها عن فيلقه، ولم تكن كلماته تنطبق على الواقع. فهناك مبالغة بديهية في ما يقوله. فرمق جوفينسيو كيرينو، هل هو المسؤول عن هذه المعلومات؟ أم هو تاديو بالذات، ليؤثر بشكل أفضل في الرجال؟ وإذا كان هذا، فليس حقاً، ولن يكسب شيئاً في إخفاء الوضع الحقيقي عن الرفاق. فلديهم قوة في الفيلق. كثير من العرفاء والرقباء معهم، لكن ليسوا من الكثرة بالقدر الذي كان الرجل يقول. كان جوفينسيو يعرف الضابط جيداً ولا يعرف أن أكثر من نصفهم يتعاطف مع التحالف. خلافاً لذلك، كان يعرف قوة الموالين للشرعية.

أنهى الرجل بيانه، وقال إنه يجب عليهم أن لا يحرّضوا على الانتفاضة. لكن إذا كان الجنود والعرفاء غير راضين عن الوضع. فيجب أن يهدفوا إلى جعله أكثر سوءاً وحسب. ويظهرون لهم الميل إلى الثورة، وعند ذلك سوف يؤيدون.

كان يتكلم بتلك الطريقة بحيث يبدو، بين السطور، راغباً في الانقلاب.

وحينما انتهى، أذن لويس، الإسكاف، الذي كان يرئس الاجتماع بالكلام. فساد صمت زاخر بالنظرات من شخص إلى آخر. وأخيراً أخذ كيرينو الكلام:

- جميعكم استمعتم إلى الرفيق تاديو، فقد عرض الوضع بشكل جيد، وكلنا تعلمنا كثيراً وعرفنا الآن كيف يجب أن نتحرك. وأنا أيضاً أرى أن الأمر قد نضج، وأنه إذا شئنا، انتفضنا بالفيلق وهيمنّا على الولاية في دقيقتين... إنّي أجد بيانه رائعاً... ولقد أظهر الرفيق أنه مسؤول حقاً...

سكت. وأيّده الآخرون برؤوسهم، فقال لويس:

إذا لم يشأ أحد الكلام، فعندئذٍ...

- إني أريد الكلام أيها الرفاق...

نظر الجميع إلى جوفينسيو، وضيّق آغنالدو حاجبيه. فهذا العريف وقح بعض الشيء...

وشرع جوفينسيو في الكلام، قال إنه تعلّم أشياء كثيرة من البيان. بيد أن الرفيق تاديو كان مزوّداً بمعلومات خاطئة بالنسبة إلى ناتال.

-أقله في الفيلق ليس الأمر بهذه الروعة التي قال... لدينا قوة، هذه حقيقة. لكنني أرى أن الرفيق لا بد تسلّم بعض البيانات المسندة. فهؤلاء الضباط لم أرهم قط هناك... ليست الحقيقة أن جميع العرفاء معنا. وأقل منهم الرقباء أيضاً... وأكثر من ذلك، فإني لم أفهم بشكل صحيح: هل علينا القيام بانتفاضة أم لا؟ إن الرفيق لم يوضح بدقة. فإذا كان علينا أن نجعل الفيلق ينتفض، فهيّا إذن نتداول هذا الأمر لنفعل شيئاً مضبوطاً. وكما قال الرفيق، ليس هو سمكاً ولا لحماً...

لم يكن آغنالدو يحب هذا. لكن بالنسبة الى جوفينسيو فقد كان قليل الاهتمام به. هكذا كان يفهم هو إخلاصه للحزب: أن يفتح صدره ويقول ما يشعر به. وعاد جو الغرفة خانقاً. وضوء المصباح الأحمر يطيل ظلال المتآمرين.

2

عندما وصل إلى منزله في تلك الليلة، تعباً من الاجتماع، وجد لورديس بحالة سيئة، كانت ضعيفة، وعلى وجهها الهجين ذي الشعر الطويل الأسود والمنبوش، امتقاع ما، وضاعف الحمل من هيئتها العليلة.

- تأخرت... وأنا لا أتحمّل...

غضب فجأة. فقد جلب معه ذلك الانفعال، وأفرغه في المرأة:

- حماقة... دعي المظاهر فهي ليست للفقراء...

لم تقل شيئاً، لكنها تطلّعت إليه بعينين مندهشتين، وطرف من حزن ارتسم على زاوية شفتها. واعتراه الندم في الحال:

- لا تكترثي لما قلت... فأنا تعب جداً... وأفكر في أمور كثيرة... ماذا بك؟

عاد مجدداً إلى الاعتناء بما يفيض حناناً، وعيناه - كان ذا عينين شقيتين، كعيني طفل ضاحك وكثير الدعابة - كانتا زاخرتين بالانتباه وبتأنيب الضمير. واضطجع إلى جانبها ثم قبلها:

- ماذا بها الزنجية؟

وكرر تلك المزحة التي كانت تحبها كثيراً.

- أنتِ زنجية، سيئة، سوداء.. (كانت مجرد هجينة ذات قسمات رقيقة، أرق من ملامحه، ومع أنه صبيح اللون، وأكثر بياضاً من كل أشقائه، فإن ملامح التهجين مازالت ناطقة عليه). لقد لقحتِ من أبيض، لكن عليكِ أن تكوني مستقيمة...

ضحكت:

- إني بحالة سيئة في الحقيقة... فقد تقيأت. رأسي يدور، ولا أستطيع الوقوف...

- إنكِ تعملين كثيراً... تنهكين نفسكِ أكثر من اللازم... ونحن لا نستطيع اتخاذ خادمة، ولا أدري ماذا سيحدث، فأنتِ بهذا البطن المحشو...

تاه في أفكاره. ماذا سيكون؟ كان يقول دائماً لفالفيردي وماسيدو:

- الشيوعي يجب ألا يتزوج...

وكان الاثنان الآخران عازبين. وإذا ماتا فلذلك قليل أهمية. أما هو فلديه امرأة وتحمل ابناً في بطنها. ولم يكن متزوجاً. كان يرى أنه يجب ألا يتزوج. هذا مفهوم راسخ، إنما في السجن، عند الاحتكاك بالرفاق الآخرين، عرف أن الرأي هو أن لا يتزوج بالعرف. فقد قطعت لورديس علاقتها بعائلتها لتجيء وتسكن معه، فالغزل بينهما تولّد في مساء كانت الشمس لا تزال قائمة، وهو في عطلة، يزهو ببزته المكويّة جيداً. وهي ترتدي ثوباً أزرق قادمة من العمل في مشغل الخياطة. فتبعها في الشوارع قائلاً لها عبارات غزل، وعيّن مكان البيت حيث تسكن. وذهب ليلاً يتنزه هناك، وكانت لورديس أمام النافذة، فضحكت له. وبعدها خرجت لتقوم بدورة تنزّه مع بعض الصديقات، واقترب هو وجرّها إلى الحديث. وعاد في الليلة التالية.

عندما عاد إلى نفسه، كان قد هام بها. وراح يحلم بها في الليالي، ويتوقف في الثكنة ليلقي نظرة على صورتها التي أعطته إياها، ووضعها في حافظة نقوده. ولم يكن قد تحدث مع كيرينو. كان آنذاك قد دس نفسه في الانقلاب من أجل «الديكتاتورية الجمهورية». لكن الزواج كان ضد مبادئه، فالشيوعي لا يأتي باستثناءات تجاه هذه المفاهيم الراسخة... لقد أوضح للورديس بين القبلات. وتذكر كتاب ماريا لاسيردا مورا، ولم يكن يعرف من هي ولا هو كان في ذلك الوقت شيوعياً، كانت لورديس تتنبأ بمعارضة أمها. إنها يتيمة الأب، تعيش مع أمها وإخوتها. هربت من

البيت ذات ليلة. وجوفينسيو الذي حصل على إعفاء من الإقامة في الثكنة واستأجر بيتاً صغيراً، قدم إليها تحذيراً حقيقياً:

- إذا أردت فالأفضل أن تقرري...

قضت الأيام الأولى وهي تبكي. لقد بعثت برسائل إلى المرأة العجوز ولم تحصل على جواب. ومع هذا، عرفت من إحدى الجارات أن العجوز أعلنت بصوت مرتفع:

- لن أدخلها إلى هنا، في مصاريع هذا البيت، إلا مع وثيقة الزواج... وإلا بالنسبة إليّ فهي ليست أكثر من بغي...

كانت المرأة العجوز عندما مات زوجها، مستعدة لتلقي بنفسها في خضم العمل بدون تردد. فكانت تغسل ثياباً للآخرين، صرراً هائلة، كان ابنها الأكبر ذو الإحدى عشرة سنة يحملها إلى بيوت الزبائن. ومع هذا لم تتمسك بذلك الرأي. فعندما سجن جوفينسيو وكانت ابنتها في أيام الوضع، تركت كبرياءها جانباً وراحت تبحث عنها. شتمتها كثيراً، هذه حقيقة. لكن عندما حانت مناسبة الوضع ولم تعد لورديس قادرة بعد على الذهاب إلى المستشفى، تحمل الطعام إلى جوفينسيو، وضعت الشال على رأسها، والزوادة بذراعها، وأخذت طريق المستشفى العسكري حيث سُجن جوفينسيو. وقد شفي ببطء. فأبدى عجباً لرؤيتها. ورمقها بعينيه الخبيثتين، ثم ضحك بابتسامة ولد مشاكس:

- حضرتك ههنا...

لم تمد ذراعها ليضغط عليها:

- لنر عندما تخرج، أن تخجل وتتزوج فالآن أنت والد لابن...

- ولد؟ ذكر؟

- أنثى لتتعذب كما تعذّبت أنا بابنتي... وأردفت:

- أنت حقاً ليس لديك عقل... لماذا دسست نفسك في هذا التمرد؟

- لكيّ أحسّن حياة الناس التي هي أسوأ من حياة الكلب... حضرتكِ ترين أنني فعلت سوءاً؟

رمقته من كثب:

- كلا.

وهكذا تصالحا.

لكن في الشهور التي سبقت الانتفاضة، فكر جوفينسيو مراراً في ما ستؤول إليه المرأة إذا مات فجأة. فلن تستطيع الرجوع إلى بيت أمها. حتى ولو لم تعترض المرأة العجوز، فجوفينسيو يعرف لورديس، فهي لديها كبرياء عنيدة، ولن تعود. ومع ذلك الجنين في بطنها لن تستطيع ممارسة الخياطة، وكيف ستدفع للقابلة، وتطعم الطفل حين يولد؟ إن الرفاق سوف يساعدونها من دون شك. لكن النقود قليلة والحزب يناضل بصعوبات كثيرة...

«الشيوعي يجب ألّا يتزوج...» كان يقول لفالفيردي وماسيدو في ساعات المحادثة في الثكنة. في الإمكان أن يموت بين ساعة وأخرى في تلك الحياة اللاشرعية، في صدام مع الشرطة، في احتفال خطابي حيث تنطلق رصاصة، في تمرد كالذي يحضرونه. ومع هذا لم يندم ولا لحظة واحدة لكونه أتى بلورديس لتكون إلى جانبه. فقد أمدته بالحيوية والثقة. حين جاءت كانت لا تزال تصلّي، وتختلف إلى الكنيسة في أيام الآحاد. لكنها تركت نفسها من أجل إيمان جوفينسيو الجديد، ليكون إيمانها أيضاً، فتقرأ المواد التي يجلبها هو إلى البيت، بصمت وبقليل من التساؤل، مدركة أن له أسراره.

لكنه قال لها منذ اتصل بالحزب مجدداً:

- هناك شيء لا أستطيع أن أقوله حتى لكِ... والأفضل ألّا تسأليني...

توددت لورديس كثيراً للإسكافي لويس الذي كان يأتي أحياناً. وكانت تعدقهوة ساخنة جداً للأصلع، تسأل عن أخبار الزوجة والأولاد، وتعلمه وصفات الشاي لنزلات البرد والزكام لدى الأطفال. وكان جوفينسيو يقطع حديثها بأساليبه الفظة، لكنها كانت تتحسس ذلك الحنو خلف تلك الكلمات القاسية:

- اخرجي، إذ إن الحديث الآن جدي... فتخرج، أحياناً تشدّ على أذنه، فيعيد جوفينسيو يدها، لكن إصبعه الصغرى تقوم بملاطفة صغيرة وعذبة على رسغها في الوقت نفسه.

وإذ تضطجع على السرير، يرمق جوفينسيو وجه امرأته الشاحب، وشعرها الأسود الذي يحمل رائحة زيت شعر رخيص، وهو منسرح على الوسادة، وفكر بأن ذلك ضعف. وهي حامل كما هي، يجب أن تغذّى جيداً، لكن أين المال لشراء الطعام؟

كان يخصص لها قليلاً من الوقت. ولا بد أنها تستاء من هذا أيضاً. مسكينة لورديس، ماذا سيكون مآلها حين ينفجر التمرد؟ كان يجب ألّا ينتزعها من بيتها ويأتي بها إلى حياته التي لا تنتمي إليها... فتضع له ابناً في بطنها. ابتسم للتفكير في الابن الذي سيولد... سيكون ذكراً، وسيتعلم منذ الصغر، من أبيه بألّا يتحمل المظالم، وأن يتمرد على الشقاء في هذا العالم. وسيعلّمه بأن يغلق قبضته ويحمي الحزب مثل ابن لويس الأكبر، الذي يجيب عندما يسألونه من هو:

- شيوعي... - بصوته المتأتئ في تهجئة الكلمة الطويلة...

تئن لورديس بصوت خفيض. وتنطلق نوبات التقيؤ مجدداً. وجوفينسيو الذي يعود إلى التفكير في الاجتماع، وتذكّر بيان آغنالدو، ينحني عليها:

- ماذا هنالك؟

يزداد الشحوب على وجه المرأة. فتحني رأسها إلى الأرض، ويركض هو ويأتي بالمبولة ثم تتقيأ. ماذا سيحدث لها إذا مات برصاصة، إذا انتهوا منه في التمرد؟ ولم يجعله التفكير يتردد لحظة واحدة. إنه يخشى عليها بقلق، لكن من دون أن يجعله هذا في أية لحظة يفكر في التخلّي.

يسند رأس لورديس، ويضعه على الوسادة. وتغلق عينيها:

- إني أشعر بدوار...

- سأعد لك شاياً...

غداً يجب أن يكلم ذلك الملازم من «الديكتاتورية الجمهورية». فالمؤامرة تموت كلياً. من يدري إذا لم يتقبل التحرري؟

أوقد الموقد. ومن الفناء الخلفي تصل رائحة الأرض. ويتذكر فجأة، السرتون، المزرعة، بيته، مع الفناء المزروع أمامه، والحظيرة إلى الأمام قليلاً. ويفكر في أمه وفي العجوز جوكوندينا. كانت ستحب لورديس لو عرفتها... وفي الحزب. ترى هل كانت تحبه. يكفي أن يكون شيئاً منه، أو من أخويه، لتحبه، أخوه جوزيه كان كانغاسيرو في عصابة لوكاس آرفوريدو، وما سمع من العجوز جوكونديناً قط، كلمة ضد عصابة الجاغونسوس التي أخذت ابنها.

وصل صوت لورديس من الغرفة:

- نينين! نينين! لا لزوم لذلك بعد الآن... فقد صرت أحسن حالاً.

3

وكان بوسعه هو أيضاً في هذه الساعات أن يكون من عصابة لوكاس، مرتدياً ملابس الجلد، التي كان الجاغونسوس فيها يسيرون في الكاتنغا، بدلاً من بزة العريف في الجيش. حين هرب من البيت، لم يكن تفكيره إلا في السعي للوكاس آرفوريدو. فيقدم نفسه إليه، ويطلب مكاناً في عصابته. لقد سمع من يتكلم بأن لوكاس كان على مقربة منهم، فقضى أياماً وأياماً في البحث عنه في الكاتنغا. وعندما استخلص بأن ذلك لم يكن حقيقة، صمم على أن يذهب إليه حيثما يكون. قالوا له في إحدى أسواق الفيرا المتنقلة أسبوعياً في الأحياء، إن العصابة موجودة في ولاية مجاورة، وهنا السبب في أن نينين، بدلاً من الانخراط في الشرطة العسكرية في ولايته، تطوّع جندياً في بلد آخر. لأنه في بحثه عن لوكاس، اقترب من البحر، بعد عبوره حدود ولايته التي وُلد فيها. وقد اختفى لوكاس آرفوريدو كأنه ابتعد في أحد الأركان. لا بد أنه كان محتمياً في عمق السرتون، في الوقت الذي كانت الأخبار تحدد مكانه في خمس أو ست نواح مختلفة. لكنه كان يستخدم أحياناً هذه التكتيكات: يرسل تجمعات من الكانغاسيروس ، من عشرة أو اثني عشر رجلاً، للإغارة على مزارع في اتجاه ما، تجمعات تجتاز حلقة قوات الشرطة، فيما يدخل القسم الأعظم من العصابة مدينة مهمة.

لقد غادر شقيقه جوزيه لأن رؤية الكانغاسيروس بمرحهم البربري والشديد الجلبة، وحريتهم المدافع عنها بطلقات الرصاص يومياً، كانت لا تقاوم. كيف يمكنه البقاء في المزرعة بعد أن تسنّى له رؤيتهم؟

كان جاون الشقيق الأكبر، قد غادر قبله. فلا مستقبل في الحقل، في تلك القطعة من الأرض التي كان الوالد يحرثها. وحدثت تلك المشاجرة بسبب ابنة مانيكا. وكان جوفينسيو أثناء هذه الأحداث مجرد فتى يافع. لكن الرغبة في الرحيل قد غرست بذوراً في قلبه إزاء نموذج شقيقه.

وحينما كان يغادر عند الصباح إلى الحقل والمنجل على كتفه، كان مثل عبد يحمل قيوداً في يديه. فتلك الأرض لم تكن تخصّهم، حتى أن حقه في أغراس المنديوكا والذرة، يمكن أن يناقشه فيه الكولونيل في أية لحظة. وكان يوم العمل المجاني للمزرعة يبدو له استغلالاً أكثر من اللازم. أما كان يكفي الإكراه ببيع منتجات الحقل للعقيد، بالسعر الذي يحدده هو، وعليه شراء مايحتاج إليه من المخزن؟

كان يسمع قصص الاستيلاء على الأرض، قصص الجرائم، جرائم الفلاحين الذين يقتلون أصحاب المزارع، الهاربين في الغابات، والآخرين المحكومين بعقوبات طويلة الأمد، ذاهبين إلى فيرناندو نورونيا. وكان ينبض في عروقه ظمأ للانتقام والعدالة وكان يبدو لوكاس آرفوريدو مع عصابته من الجاغونسوس المنتقم الذي لا يخاف لأناس السرتون. كان الحق معه. فإذا كان عليهم العمل نهاراً وليلاً من أجل إحدى المزارع، يولدون ويموتون فوق المعول، بلا أي إمكانية أخرى، عندها لا يبقى له شيء إلا التخلّي عن كل شيء وأخذ بندقية سريعة الطلقات والمضي إلى حيث يستوفي في المزارع والمدن - حسب ما يقول نينين - ما كانوا مدينين به له. كان سيصبح كانغاسيرو لو التقى لوكاس في بحثه القلق في الكاتنغا. كانت تستيقظ فيه، كما في الآخرين من أبناء السرتون، تلك الثورة بلا اتجاه، على الحياة التي كانوا يعيشونها. ولو بدأ الطوباوي استيفان وعظه عند فراره، لربما صار جوفينسيو أحد رجاله. فهناك في الكاتنغا، التمرد على الجوع يحمل الرجال على قطع الطرق، أو على التصوّف البائس، لكن نينين، بدلاً من التقاء عصابة لوكاس، أغوته السكة الحديدية واستماله صفير القطار، فدس نفسه في شاحنة القطار، ونزل منها في العاصمة. كان آنئذٍ في الثامنة عشرة من عمره، وأقل قليلاً من ذلك. فانخرط في الشرطة العسكرية - مصير إلزامي تقريباً للفلاحين حديثي الوصول - وبالمصادفة تقريباً، تورّط في مشاجرة في الشارع، إلى جانب عريف وجندي من الشرطة ضد مفتشين من مفتشي المرور وحارسين مدنيين. لم يكن يعرف الدافع، لكنه رأى أنهم كانوا أربعة ضد اثنين. الحقيقة هي أن الشرطي والعريف لم يكونا على حق، فقد كانا ثملين، يقومان بمظالم، وكان على الحارسين أن يتدخلا، وجاء المفتشان ليساعداهما، وانتهى الأمر بتدخل دورية من الشرطة العسكرية التي اعتقلت الجميع، العريف والجندي والحارسين والمفتشين، والفتى الذي كان ينزف.

كان آمر الشرطة العسكرية فخوراً بجنوده، وقد اعتاد القول إنه لم ير رجالاً يضاهونهم في المدينة، حتى ولا جنود الجيش، وأقله بحارة مدرسة طلاب البحرية. وغضب آمر الحرس المدني لسجن الحارسين اللذين ألقي بهما في سجن الشرطة العسكرية، هدفاً لمناكدات الجنود، وقد خلق الحادث قضية سياسية صغيرة وفي أفضل وسيلة فإن الحاكم رأى، لمعالجة كل شيء، أن يأمر بتمرير إسفنجة على الأحداث. فأعيد الحارسان والمفتشان إلى كتيبتهما، والعريف والجندي استقبلا بشتيمة هي نصف ابتسامة من الآمر. وبقي جوفينسيو. فحين كان سجيناً أنشأ صداقة مع الجنود والعرفاء الذين رووا قصته، اشتراكه في المشاجرة، في فناء الثكنة. فاستدعاه الآمر:

- لماذا حشرت نفسك في المشاجرة؟ وكان رقيب قد أرشده إلى الاجابة:

- كانا جنديين من الشرطة ضد أربعة حراس... وما أردت رؤية جندي يُضرب...

- هل تحب الشرطة العسكرية؟

- نعم يا سيدي...

كان للآمر تقدير ما لأبناء السرتون. فقد كانوا جنوداً ملائمين، مقدامين، الوحيدين الصالحين لمطاردات الكانغاسيروس في الكاتنغا، غير القادرين على السرقة، المفعمين بإحساس معيّن بالشرف، ومن الصعب العثور على رجال مثلهم بين المتطوعين في المدينة.

- هل تريد أن تصبح جندياً؟

- أريد يا سيدي، نعم...

وكان قد حصل على البزة منذ وقت قليل حينما اندلعت الثورة الدستورية في سان باولو، لم يكن جوفينسيو يعرف شيئاً عن السياسة، لكنه دس نفسه في النقاشات في الثكنة، وبميل طبيعي، كان مع الثوار ضد الحكومة. يشعر أنه ضد النظام القائم، لكن بوسيلة غير واعية وفوضوية. وبالرغم من خفة الروح التي يتمتع بها، فقد ركب راضياً الباخرة التي حملتهم إلى الريو. كانوا سيقاتلون ضد أهالي سان باولو. وتغلّب فيه حب المعركة على الخيارات الساحقة مع الدستوريين، وفضلاً عن هذا، كانوا قد قالوا له إنهم سيقاتلون ضد الإيطاليين الذين يريدون السيطرة على البرازيل واستعباد البرازيليين.

كشف عن نفسه في الجبهة، جسوراً مثل القلة من الرجال. وفي وقت سريع كان عريفاً. وأنهى الحملة كرقيب أول. دخل منتصراً عاصمة سان باولو، وسار في عرض عسكري في شوارعها، وكما جرى لكثيرين، أسرته المدينة، بحركتها، بتلك الحياة التي تغلي والمختلفة كثيراً عن مدن الشمال الشرقي. خلال طفولته ومراهقته كلها، في الحقل، كان ذلك الاسم سان باولو يرنّ في أذنيه، ككلمة سحرية. إلى ههنا كان يتجه كل سنة ألوف الفلاحين سعياً وراء حياة فضلى. هنا يوجد ثراء بلا حساب، عالم أكبر بما لا يقاس. في الشرطة العسكرية، ومع إصرار كان يحوز إعجاب رؤسائه، كرّس نفسه للدروس الابتدائية فقرأ وكتب بشكل صحيح، واجتاز متقدماً كثيرين غيره كانوا قد بدأوا أولاً...

وفي الجبهة، في الأشهر الثلاثة التي قضاها مقاتلاً، كسب خبرة بعض سنوات، وبسنيه الأكثر قليلاً من الثماني عشرة، كان يشعر أنه رجل كامل، قادر على مواجهة أي شيء. فتمرده

الغريزي ذاك لم يختف. وهو يعرف الآن أموراً معيّنة، يحيا دائماً داسّاً نفسه في التآمر الأزلي للعرفاء والرقباء في كل فيلق. غير قانع من دون أن يعرف بالفعل لماذا هو ضد كل شيء وضد الجميع.

في العشية السابقة لركوب القطار إلى مرفأ سانتوس ، حيث الباخرة التي ستقلّهم إلى الشمال الشرقي تنتظرهم، اختفى الرقيب جوفينسيو دون أن يترك أثراً. وبما أن أهالي سان باولو كانوا يقتلون في الشوارع المعتمة التي يمارس فيها البغاء، الجنود المنتصرين، فكروا أن هذا ما حدث له. وتحسّر الآمر على ما حدث. فقد كان يحب جوفينسيو، ويفكر في الحصول على مكان له في مدرسة ضباط الشرطة، ليجعله ضابطاً.

كان زيه تافاريس هو الذي عثر عليه مصادفة، وقد عرفه رغم بزة الحارس المدني، وكان قد رآه منذ ثماني سنوات عندما كان زيه تافاريس عاملاً أجيراً في المزرعة، وحال دون أن يموت جوعاً. فأخذه إلى بيته، وقدم له الطعام. وصار يفكر في تدبير مكان له في الحرس المدني، لكن الأمر لم يكن سهلاً.

وانتهى الأمر بجوفينسيو بالانخراط في الجيش. كان ذلك حينما ارتبط بالحزب. ومن سان باولو أرسلوه إلى ماتوغروسو. فالمعركة في الحدود، بين بيرو وكولومبيا كانت محتدمة. وقد أوفدت كتيبة إلى ليتيسيا، تحت إمرة ملازم أول. وانضم جوفينسيو الذي انتهى بأن رُقي إلى رتبة عريف مديناً لمعارفه العسكرية التي تعلمها من الشرطة وفي المعركة، إلى هذه الكتيبة. وأعطاه الحزب توصية بالارتباط في ماناوس. لكنهم لم يمروا في ماناوس. فقد مضوا إلى الداخل. وبات السرتون في كل مرة أكثر بعداً في ذاكرة جوفينسيو. ومع هذا، أحياناً، كان يذكر الحقل والبيت، العمة المجنونة، جيرونيمو الهرم مع صرخة راعي البقر. وفي وسط الغابة الأمازونية، حينما يأتي الليل، ويضغط على الأفئدة ذلك الخوف من المجهول، يجد نفسه، مراراً، مفكراً في ذويه. عندما كان فتى يافعاً، في المزرعة، مع التمرد الذي قذفه للبحث عن لوكاس آرفوريدو لينضم إلى عصابته، كان يفكر بأن لا شيء أشد شقاءً يمكن أن يوجد في الدنيا من الكاتنغا في الجفاف والجوع. ففي أمازونيا، في قلب الغابة، إلى جانب الأنهر الكبيرة، وهو يرى الشعب عارياً، فلاحين ليس لديهم ما يرتدونه وهم يشقّون شجرة المطاط، أدرك أن الشقاء كان عاماً لدى الجميع، وكان الشيء الوحيد الموجود بوفرة في كل الأنحاء.

مات الملازم الأول من الحمى. ومات الرقيب فيسنتي وبعض الجنود بسهام الهنود، كان كل يوم يسقط واحد، ميتاً بأيدي الهنود غير المرئيين في الغابة، أو تقضي عليه الحمى. فالملاريا مستوطنة هناك، وهي أشد رعباً من ملاريا الكاتنغا، وكانوا يبدون مهملين من العالم. الملازم الثاني هو الآن في القيادة. وكان يرسل إشارات لاسلكية فوق إشارات لاسلكية، ولا جواب واحداً، ولا أي استجابة، كأنهم قد نسوا كلياً أولئك الجنود الذين يحرسون الحدود.

وكان الهنود يأتون ليلاً، فيسرقون المواد الغذائية القليلة المتبقية، ويخربون ويقتلون. والملاريا حاضرة نهاراً وليلاً. وحين مات المولج بالاتصالات اللاسلكية والبرقية، استبد الرعب بالملازم الثاني. وصمم على الانطلاق مع بضعة رجال طلباً للنجدة. وبقي رقيب في القيادة، مع عشرين رجلاً، ثم غادر الملازم عند الفجر، آخذاً معه ستة رجال وقسماً كبيراً من الذخيرة وصفائح الطعام المعلب وابتلعتهم الغابة إلى الأبد، فما نُمي عنهم أخبار إطلاقاً.

كان الأمر بالاقتصاد في الطلقات، فلم يكن لديهم الكثير ويستعملونها عند اللزوم في الصيد ليوفروا الطعام. وأثناء النهار، عند ضفة النهر كان الجنود يصطادون السمك. لكن الملح لم يكن متوافراً والطعام يصبح مقرفاً بلا نكهة. وتحوّل الهنود إزاء العناد في رد الجنود، عدائيين أكثر وصاروا يقتربون كل مرة أكثر. وكانت محطة الاتصالات المعطلة تبرهن لهم يومياً أنهم كانوا منفصلين عن بقية البلد. وعندما افتقدوا الدخان اعتقدوا أنهم سوف يصابون بالجنون. وبات المرضى كل مرة أكثر عدداً. وانتظروا أياماً وأياماً عودة الملازم. لكن ذات مساء، وقد ابتعد جندي في الصيد، وصل ومعه بعض الجزمات وقبعة جندي والخبر بأن عظاماً منثورة وُجدت حول مكان كانت توجد فيه آثار نار.

وساد الإحباط الرجال. وذات ليلة، عندما كان الهنود قريبين جداً منهم، أصابت الرقيب نوبة من نوبات الجنون، فأمرهم بأن يهاجموا جميعاً. فقتلوا بعض الهنود لكنهم تناقصوا إلى عشرين رجلاً تحت قيادة العريف جوفينسيو، حيث أن الرقيب كان أول من قُتل، إذ خرج راكضاً إلى الجهة التي كان الهنود موجودين فيها.

حلّ الخوف مع الليل. فالأشجار الكبيرة في الغابة جدُّ مختلفة عن نباتات وشجيرات الكاتنغا، وهي تخفي غموضاً مميتاً، وكانت خطى الهنود أكثر خفة من خطى الحيوانات. وخلف كل واحدة من تلك الشجيرات قد يكون الموت متوارياً.

واجتمع الجنود الأصحاء والمرضى في جمع مكثف. وكان البرد الناتج من الملاريا مرعباً، لكنهم كانوا يخشون إشعال النار التي تحدّد مكانهم لأبناء الغابة. وكان جوفينسيو يفكر بأنهم سيموتون جميعاً هناك ويحسّ بحقد عميق للإهمال الذي كانوا قد تركوهم فيه.

وأشعرهم فقدان الدخان بالقنوط أكثر من فقدان الملح والفاصولياء والطحين. أكلوا لحم الطرائد، المشيطة على بعض الجمرات، وأجسامهم مثخنة بالجروح. ولم يعد البعوض يزعجهم. في الأوقات الأولى كان ذلك مريعاً. وكان الرجال ذوي أذرع وسيقان متورّمة من وخز اللسعات. لكنهم اعتادوا والآن لا يأبهون لذلك، الأسوأ كان سهام الهنود، ذلك الصفير المسموع متأخراً أكثر من اللازم، حين يكون ممكناً الفرار منه.

فكر جوفينسيو طوال الليل. وفي النهار التالي جمع الرجال، أصحاء ومرضى. أعفى فقط اثنين لم يتمكنا من التحرك، فاقتلعوا بعض الأشجار وجعلوها تحصينات حول المعسكر. وقسم الطلقات التي بقيت، وانتقى الرجال في زمرة لاصطياد الحيوانات خارج التحصينات. وبدأ المقاومة المنظمة أمام هجمات الهنود. وأطاعه الرجال لقدرته وشجاعته، أكثر حتى من شارات العريف، وهناك كان الاحترام مختفياً... وفرار الملازم الثاني (هكذا كانوا يعتبرونه) لم يحدث نظيره لكون الشارات والكتافات ولّدت احتراماً. لكن مع جوفينسيو كان الأمر مختلفاً. فهو أول من يخاطر بنفسه، ولا يتهرب من العمل، فيذهب إلى الصيد مع الزمر المعيّنة لذلك، ويقضي ليالي ساهراً، عيناه تراقبان كوى التحصينات. وحين يقترب الهنود - الأسماع الآن أكثر تجربة وصارت تميّز الحفيف الرقيق لخطواتهم - كان يُعنى بتعيين مواقعهم ولا يضيّع الرصاصات. مضت خمسة أيام دون أن يموت أحد منهم، وخلال ثلاث ليال لم يهاجم الهنود. وظن بعض الجنود أنهم قد تخلّوا عن ذلك وأرادوا الخروج، يشقّون طريقاً سعياً للنجدة. لكن جوفينسيو كان يتنبأ وهو لا يتوقع تراجعاً من الهنود، إنما الإعداد لهجوم عام استعد له معززاً التحصينات، وأمر بحفر كمائن حول المعسكر. وعندما جاء الهنود، مثلما توقع، استقبلوا بإطلاق رصاص عنيف، وغرقوا في الكمائن، فكسروا سيقانهم وسقطوا بالرصاص. فالرجال قد كسبوا تجربة ولم يهدروا رصاصة. ومع هذا فإن الهنود وصلوا إلى جانب التحصينات وحاولوا تسلّقها. قتل ثلاثة جنود في المعركة، لكنهم احتفظوا بموقعهم، واستطاعوا، للمرة الأولى منذ أن حلوا هناك، اعتقال أسرى، هنود سقطوا في الكمائن. فقتلوهم لأنهم لا يستطيعون إطعامهم، وأيضاً لأنهم كانوا مشحونين حقداً، وحين وصلت النجدة، بعد ستة أيام كان جوفينسيو مع خمسة رجال، اثنان منهم كانا جريحين، لا يزالون يدعمون الموقع.

استدعاه الإسكاف بصفة عاجلة. كان مع اثنين آخرين من الرفاق وكلاهما من الإدارة. وقد غادر آغنالدو عائداً. ومرّ من هناك مسؤولون جدد. وشعر أن اللحظة اقتربت.

جرت المحادثة في بيت الإسكاف. النوافذ مغلقة، والباب غير موصد، وهم يسكتون عند كل ضجة تحدثها خطوات يسمعونها في الشارع. تكلم أحد المسؤولين، وهو مستخدم في التجارة:

- إنهم يسرّحون الحرس المدني بالجملة... الوضع يتفاقم للدرجة القصوى... ومن الممكن أن يثور الحرس...

فقال جوفينسيو:

- لا أعتقد...

وبدت من الآخر إشارة بأن ينتظر.

- هناك أكثر من ذلك... فالأمر معكم في الفيلق الحادي والعشرين . ستبدأون تشكيلات العرفاء والرقباء، وخسارة الجنود... إننا قد بُلّغنا بشكل أكيد أن جميع الرقباء تقريباً سوف يُبعدون. والعرفاء أيضاً. وأنت خصوصاً، فأخبارنا دقيقة، وإذا حدث هذا...

- نثور؟

- أرى فعلاً أنهم سيثورون...

كان كيرينو حاضراً أيضاً. وضع تقريراً عن الوضع في الثكنة. لم يكن لجوفنيسيو شيء يناقشه، فالموسيقي تكلم الحقيقة. لقد وصل الوضع إلى النقطة الميتة. والرقباء والعرفاء لا ينتظرون إلا الأمر. وإذا بدأوا الانتقالات، فلن يكون ثمة من يستطيع البقاء.

وتابع الرفيق:

- أُبلغنا بأن الانتقالات ستبدأ بعد غد...

حسب جوفينسيو في فكره:

- حتى ولو أردنا، فلن نستطيع منعهم من التمرد. وإذا لم نؤيدهم فالتحرري سوف يصاب بالقنوط...

وافق الآخر بدمدمة. يبدو أنه قد فكر في كل ذلك، ووزن جميع الاحتمالات. وعندما تكلم، فليسأل في وسط الصمت:

- ماذا ترون في ليلة الثالث والعشرين؟

- رسيفي سوف تنهض على الأثر... وبعدها كل بقية البلد. بوسعي إعلام الرفاق بأن اللواء لويس كارلوس بريستس سوف يتبوأ قيادة الثورة.

كان الجو متوتراً. وشعر جوفينسيو أن أعصابه تفلت منه. كان مشدود الشفتين، وذا عينين صغيرتين، لكنه يحتفظ بهدوئه ويحسّ كأن قلبه مجلّد. لقد فكر يوماً بأن يصير كانغاسيرو. تعلم، بالرغم من القليل الذي عرفه آنئذٍ، أن ذلك سيكون تمرداً بلا حل. فالكانغاسيروس لن يحلوا مشكلات السرتون الرهيبة. الحكومة الشعبية الثورية فقط، التي يبشّر بها التحالف التحرري: «الأرض للفلاحين». كان جوفينسيو يحب أن يخربش على جدران الثكنة بشعار التحالف: «الخبز والأرض والحرية». أكثر من الخبز والحرية، كانت كلمة الأرض هي التي تلمس قلبه السرتوني. كان يرى الفرح في وجوه الفلاحين المرابعين، في وجوه الأجراء المياومين والعمال حينما يتسلمون الأرض التي يحرثونها، مع ورقة من السجل العقاري، وكل ذلك كما كان يفكر جوفينسيو.

كان الرفيق يبسط تفاصيل، ويوضح كيف يجب أن يتحركوا، ويزوّدهم بشعارات سياسية:

- تذكروا أن الثورة ليست شيوعية. إنها ثورة التحالف والتحالف ليس هو الحزب... وكانت الكلمات الأخيرة تتدحرج في القاعة:

- الرفيقان كيرينو وجوفينسيو يظلان منذ الآن على اتصال دائم بإدارة الحزب...

تذكر جوفينسيو المناقشات الضاربة بين عرفاء ورقباء، فسأل:

- ما الذي سيفعله بالضباط؟

- تجنب الميتات... فلسنا قتلة... من الواضح أن اللحظة هي التي ستملي علينا كيف نتحرك. لكن لا شيء من العنف. نضمن حياة الذين يستسلمون. وأنتما ستكونان مسؤولين أمام الحزب عما يحدث...

في الشارع، شاهد جوفينسيو كيرينو يسير بخطاه المتثاقلة. كان الموسيقي هو الذي يقود الانتفاضة. وبصوت خفيض بدأ كيرينو يتذكر أوامر الإدارة. وكان جوفينسيو يود الاستيضاح،

ويلاحظ أن الأخير لا يفهم كل شيء. لكن في تلك اللحظة لم يكن بوسعه أن يتبيّن أنه سيصار إلى الهيمنة على الثورة. فبالنسبة إليه، كانت المسألة جد محقة وجميلة بحيث أن انتصارها لا بد أن يأتي بشكل حتمي. وبصبر كان يساعد كيرينو في تحليل كلمات المسؤول.

وصلا إلى الشارع الذي يقيم فيه العريف. فمدّ كيرينو له يده، وكانا قريبين من منزل جوفينسيو.

- إلى الغد...

نظر إليه جوفينسيو بغضب تقريباً.

- من قال لك إني ذاهب إلى البيت؟ فمكاني الآن في الثكنة.

وافق الآخر:

- هيّا...

كانت المدينة نائمة، والبيوت مغلقة، لكن في الثكنة كان ثمة موجة من الأخبار المثيرة، وفي المهاجع كان الرجال يتهامسون، وعندما وصل جوفينسيو وكيرينو، قفز عرفاء ورقباء من أسرَّتهم وجاؤوا ليتحلّقوا حولهما:

- ما هنالك؟

وأعلن ماسيدو:

- يقولون هنا إنهم سينقلوننا...

وأكد صوت آخر.

- أكد ذلك الملازم... قال إن الأمر قد تقرر...

- نحن سننتفض... - قال رقيب وتوجه إلى جوفينسيو:

- ما الذي تراه؟

- إذا انتفضتم، فإني معكم... لكن لا تقوموا بتحرك لمجرد أنكم تريدون... من اللازم أن نضبط كل شيء...

وتمزق أول أضواء الفجر فوق الثكنة ومدينة ناتال.

6

كان هاجساً ولا شيء غير ذلك. كان حالما علم بنبأ التنقلات الأولى، بدأ شيء ما يضغط على صدره. وأحست به لورديس كأنه ثقل فوق القلب. وفي ذلك الشارع كانت تسكن عائلات متعددة لعرفاء ورقباء، وعشيقات جنود، وكان ذلك التعليق الوحيد في جميع البيوت. نساء يخشين أن يصبحن مهجورات - فالجندي يتخذ بيتاً وامرأة في كل مدينة يخدم فيها - نساء يرتبن الحقائب لسفر قريب أُعلن. وانعكست مكانة جوفينسيو على لورديس، فقد ركض إلى بيتها زوجات وعشيقات المنقولين، في جلبة صغيرة، يردن معرفة أخبار أكثر، أي انطباع لها عن الأحداث، ماذا سيحدث لهن. وبعضهن طلبن تدخلها من أجل العشيقات كيلا يتخلوا عنهن، عارضات أبناءهن الصغار:

- ليس من أجلي، إنما من أجل الولد، كي لا ينشأ بلا أب، مثل ابن بغي...

كن يعرفن جميعهن أن جوفينسيو مسموع الكلمة ومحترم:

- أطلبي من السيد جوفينسيو ... قولي له أن يكلِّم مانويل...

وأخريات ما كن ينادينه بجوفينسيو، فقد أطلقن عليه اللقب العائلي، لكي يحركن هكذا، مشاعر لورديس أكثر:

- السيد نينين طيب جداً... فإذا قال لأنطونيو أن لا يتركني، فهو لن يفعل... بالنسبة إليه الله في السماء والسيد نينين في الأرض...

حدث هذا في البيت النائي في الضاحية. بعضهن قدمن من أقصى أنحاء المدينة، ثيابهن بائسة، يجرجرن أطفالهن وأبناءهن بأيديهن. وبعضهن قدمن مودعات:

- إننا لا نعرف متى نذهب. ربما لن تكون ثمة مناسبة أخرى... قولي للسيد نينين، إني شاكرة له على كل شيء...

لم يكن قد فعل للكثيرات منهن أي معروف. لكن جميعهن وجميعهم شعروا أنهم مدينون له بالشكر. فكان تصرفه، كلمته، لا يذهبان عبثاً، وابتسامته الرقيقة مثل ابتسامة طفل.

وكانت لورديس تؤاسي، تعد، تساعد، وتشعر أنها متعبة ببطنها ذي الأشهر الثمانية والذي يحشو الفستان، وبساقيها المنتفختين ووجهها الممتقع، وذلك الضيق في الصدر، كأن أحداً يضغط عليه. وغشاها حزن من المودعات، ومن خوف النساء، لكن غشاها أيضاً شيء ما غير محدد، من دون تفسير. كانت النساء يعرفن بدقة أنها لم تكن قد خرجت من ناتال قط. لكنهن مع هذا يسألنها عن المدن التي أبعد إليها أزواجهن وعشاقهن. وكانت للورديس معلومات غير دقيقة عن بعض المدن. فجوفينسيو مرّ بها في أسفاره، وحدثها عنها في أوقات الغزل. لكن أمراً يجعل لورديس تفكر بأن أياً منهن لن تسافر، وأن أسوأ ما تتصوّره هو الخشية من أن يصبحن مهجورات وأن وقتاً رديئاً سيبدأ لجميعهن. ولم تكن لديها أية فكرة كاملة. كان فقط هاجس، حزن بلا سبب يتولّد في أعماقها هي بالذات، كأنها تتنبأ بكل ما سيحدث.

كان الطفل يتحرك في بطنها. وتتحسس القدم الصغيرة جداً تضربها على جدار رحمها، كأن الولد يريد أن يولد، يرى نور الدنيا: يعيش حياة البشر. وكانت النساء يأتين ويذهبن. والصباح يتأخر في الانصرام. تنتظر جوفينسيو بنفاد صبر يتزايد في التطابق مع الشمس التي تسير في طريقها إلى منتصف النهار. صباح من الدموع والمشاريع. وكان الحزن عاماً، لدى البعض لعدم معرفة ما سيحدث، ولدى الأخريات - حيث الحياة عادية في ناتال، بيت مجهز، ومفروشات، وأولاد في المدرسة العامة - للبدء مجدداً في مدينة مجهولة. وكانت لورديس تصغي للبعض، ولهن ولغيرهن بصبر، جالسة من مرة إلى أخرى على الكرسي الوثير الذي اشتراه نينين عندما بدأ بطنها يتضخم. تنتظر عودته، بقلق. وفي الوقت نفسه تفكر أن الأكثر صواباً هو أن لا يقول لها شيئاً، إذا كان أمر ما قد أُعد. لم يكن سراً له. فلورديس تعرف ذلك. وإذا عرفت، هل ستبكي وتتحسّر، هل ستمسك بخناقه طالبة منه ألا يفعل؟

لا شيء واعياً في لورديس ولا ناتجاً من تحليل أو اقتناع عميق. كل ما فيها غريزي، يتولّد من حدس، فنينين كان مندسّاً في هذه الأمور، راكضاً وراء كل تلك المخاطر، لأنه يرغب في تغيير حياة الفقراء. وكانت ترى أن هذا يستحق العناء. لكنها مبدئياً لديها تأكيد بأنه لا يتورّط في شيء ليس عادلاً وصحيحاً. وكان لديه نفوذ على كثير من الناس. ولم يكن هذا النفوذ كبيراً على أحد مثلما كان كبيراً على رفيقيه.

- وصل نعساناً. فلم ينم منذ ثلاث ليالٍ، يظهر في المنزل بسرعة ويخرج على الفور، في حيوية لم تكن لورديس تحاول فهمها. كان شيء ما غير اعتيادي يُعد، هذا ما تشعر به في الجو وفي القلب.

وكان جوفينسيو صامتاً وقلقاً، وضحكته الصريحة جداً مأخوذة قسراً، ولم يبلغ الصفاء كلياً في عينيه ولا إزالة جميع الغضون في جبينه. وصل فأكل واستلقى على السرير. وجاءت لورديس ورقدت إلى جانبه.

رأسه خارج الوسادة، كما كانت طريقته في النوم، يختلس النظر الى ما تحت بطن المرأة المتضخم. هل يعرف رؤية ذلك الابن؟ إذا لم يره قط، إذا لم يعد إلى التحديق إلى وجه لورديس الممتقع، فإنه يرغب في أن يعرفا أن الأب والزوج قد مات من أجلهما، حتى لا يصبحا في المستقبل بائسين كما هما الآن. هما والآخرون جميعاً في المدن والسرتونات . فهؤلاء قبل الجميع، لأنهم أشد فقراً وعذاباً، أولئك الذين يعرف جوفينسيو كيف يزن ألمهم ويقيسه.

رفع رأسه، فقرأ في عيني لورديس - شفتا لورديس مطبقتان على الأسئلة - استجواباً قلقاً. لكنه لا يستطيع أن يقول لها، ولا يجب أن يثق بالمرأة. فما كانت حياته هو ولا قدره ليجازف بهما، كانت حياة الكثيرين وقدر الثورة.

كانت لورديس طيبة القلب، رقيقة، وصلبة، لكن «السر لم يكن سره». ابتسم لها، وأمعن النظر إليها بحركة حنون، وأحس بالجهد الذي بذلته لتضحك حتى لا تسأله. وفكر: «أيتها المرأة الصغيرة المقدامة».

أثقل النعاس جفنيه، نعاس ثلاث ليال متواصلة. كان الأمر المعطى إليه هو الإخلاد إلى الراحة في ذلك المساء، النوم، وأن يكون مستعداً لليل. فرحيل العرفاء والرقباء قد حُدد. واللحظة قد حانت، فنظر إليها مرة أخرى، وفتح فمه ليتكلم، وأغمض عينيه. كان نعاساً ثقيلاً دام فترة المساء كلها. وحين استيقظ كانت الظلال الأولى تتسرب من شقوق النافذة. وكانت الغرفة مغلقة بشبه ظل قاتم وحزين. واستمرت لورديس إلى جانبه تغالب نعاسها، بطنها يفيض إلى أعلى، ووجهها مغموم.

قفز عن السرير، ومضى يبلل وجهه من الصنبور في الداخل. وسمعت لورديس بقبقة الماء على يدي جوفينسيو، فنهضت بجهد، واتجهت إلى المطبخ، فسخّنت القهوة بينما هو يرتدي البزة الموشاة بخيوط القصب التي تبرز بشرائط العريف. ودخل المطبخ وشعره الذي يقطر منه الماء مازال غير ممشط:

- عليّ الخروج حالاً... هل ستتأخرين؟

- إنها جاهزة تقريباً...

كان الخبز على الطاولة، وبدأ بتمرير الزبدة على قطعة منه. رأى المنشفة مع لطخات القهوة، الفوطة، علبة العيدان لنكث الأسنان التي أهداها إليه فالفيردي. وجلس على كرسي القش المثقوب، مفكراً بأن تلك ربما تكون وجبته الأخيرة في البيت، وتطلّع إلى جميع الأشياء بحنان وشوق، كأنه وداع. وكانت لورديس تقدم له الحليب والقهوة.

- اليوم كان جميع نساء المنقولين هنا تقريباً.

نظر إليها جوفينسيو بطرف عينه، هل ستبدأ الأسئلة؟ كان الأمر كمبارزة حيث الخصمان يدرّسان أحدهما الآخر. لكنها أضافت فقط:

- ماريا، عشيقة أنطونيو، مقتنعة بأنه لن يأخذها معه... ولديها ثلاثة أبناء، يا لها من بائسة! وإلفيرا...

- من هي؟

- تلك الخلاسية البدينة، صديقة مانويل... أيضاً...

- ما الذي أستطيع أنا فعله؟ - كان يرى أن ذلك الخوف عبث جداً وبلا داع أمام ذلك الذي يعرفه، عن الذي يعده، بحيث إنه لم يجد ما يقوله.

- إنهن يردن أن تطلب منهم... أن يأخذوهن... تطلّع جوفينسيو إلى المرأة، وهي واقفة إلى جانب الطاولة، تعبة وخامدة الهمة. لماذا تقول له هذه الأمور إذا كان متأكداً أن لورديس لا تؤمن بسفر هؤلاء الرجال، إذا كانت تعرف أن أمراً ما سوف يحدث؟ كانت تعرف، فهو لم يخدعها. إنها تخمّن، تقرأ في عينيه. لا تريد أن تسأل، حسناً تفعل، وهو أيضاً لا يستطيع الإجابة:

وجد أنه يجب أن يقول شيئاً ما:

- قولي لهن...

لكن الدموع انحدرت على خدي لورديس، فضغطت على شفتيها كيلا تجهش بالبكاء. فلم يكمل. ماذا تفيد تلك الكلمات التي تخمّن أنها كاذبة، جوفاء بلا معنى، كلمات بسيطة قيلت لمجرد القول، كمن يقبل امرأة لم يعد يحبها، بمحض الإلزام؟

فنهض، يشرب القهوة على جرعات:

- لقد تأخرت...

خطا بعض خطوات، وعاد فوضع يده على خصر لورديس، وأحس بالرعب يسري فيها. فقبَّلها:

- لا تخافي...

وخرج بسرعة. أضيئت في الشارع المصابيح الكهربائية الأولى.

7

من جميع إنجازات العريف جوفينسيو، في تحرك ناتال، إنجاز واحد بقي في اتجاه واحد بقي فوقها جميعاً، منقوشاً في ذاكرة الذين رأوا أنفسهم بشكل ما، متورّطين في أحداث تلك الأيام. إنه أقل من إنجاز. كان جملة، لكنها مرت من فم إلى فم. وحين يتكلم أحد باسم جوفينسيو في السجون المنتشرة في البلد، في السفن والجزر - المعتقلات، في الخروج على الشرعية، تروى في الحال قصص يدعون فيها إثبات مقياس لهدوئه في اللحظات الأشد رعباً.

حدث ذلك قبل أن ينفجر التحرك. فحوالى الحادية عشرة ليلاً، حين كانت جميع التحضيرات جاهزة، وبدء الانتفاضة المحدد الساعة الثانية فجراً، قرر جوفينسيو انتهاز تلك الساعات ليخلد إلى النوم، متصوّراً أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً لن يكون يسيراً عليه العثور على وقت للنوم. وفكر أنه هكذا ينال الرفاق قسطاً قليلاً من الراحة وهم قد تحركوا مضطربين، وبوسعهم إثارة الضباط الذين كانوا متحسّبين نوعاً ما.

غفا من شدة النعاس. وقبل ذلك طلب من ماسيدو أن يوقظه عند الواحدة والنصف فجراً، ثلاثون دقيقة قبل الساعة المحددة، وعندما كان يحلم بلورديس وبابنه الذي كان قد وُلد وتكلم ومشى وضحك له، وأحسّ بأنه متزعزع البنية، فتح عينيه وقفز من السرير، متأكداً أن الساعة كانت أكثر من الواحدة والنصف وأن اللحظة قد حانت للتحرك. وتطلّع إلى الساعة في رسغه (مشتراة بالتقسيط من شخص سوري) ورأى أنها تحدد الوقت بالثانية عشرة والنصف. ظنّ أنها متوقفة فقرّبها إلى أذنه. كانت تدق «تيك تاك»، وسأل جوفينسيو ماسيدو الذي أيقظه:

- هل هي نصف الساعة بعد منتصف الليل؟

- إنها...

- هل من جديد؟

- حسناً... لا يوجد...

- ولماذا أيقظتني؟ دعني أنام يا رجل الله...

ونام مجدداً، واستعاد خيط الحلم السار، ولم يستيقظ إلا عندما قال له كيرينو في أذنه:

- إنها الواحدة والخامسة والثلاثون...

كان الآخرون مضطربين طوال الليل، هادرين طاقات في ذلك التوتر من الانتظار، ملقين نظرات على عقارب ساعاتهم الرخيصة، وهم يمضون للتبوّل بين دقيقة وأخرى. ففي المثانة برد رغم الحرّ، وكان فالفيردي ينفخ في يديه المضمومتين كالصدفة، كأنه يشعر بالبرد. وفيما كان يحدث هذا، فكان جوفينسيو ينام، وهم يصغون إلى غطيطه المطمئن، وعلى شفتيه ابتسامة.

وأكثر من كل شيء فعله في مجرى الانتفاضة، قصة أكسبته شعبية وخدمته في مجال التعريف به. ففي الجزيرة الكبيرة حيث يعتقل السجناء السياسيون، كان فالفيردي يحب أن يكررها بتعليقه الذي لا يتغيّر:

- لم أر قط شخصاً هادئاً مثله... حتى ولا تورينيو...

مع هذا، فإن هذه القصة أعطت معياراً عن هدوء العريف. فلا شيء يقال عن السرعة في التبصّر، في تحسس الفرصة السانحة، في الإقدام، في الإخلاص، في تحسس المسؤولية من قبله، والبادية في مجرى المعركة، وخصوصاً بعد ذلك، حين أزفت ساعات الهزيمة المرة، عندما سيطر الرعب على الرجال وكانوا قبلاً متحمسين وواثقين بأنفسهم.

خصائص كشفت نفسها مجدداً في السجن حينما حوكموا، فتحمل مسؤولية التحرك ولم يقل شيئاً بعد ذلك في الإجابة عن الأسئلة والإثارات التي وجهت إليه بالرغم من العقوبات والتعذيب، والحكم عليه أوجز بالجملة الآتية: «لم يصرّح بشيء». فالفتى السرتوني الذي هرب من البيت لينخرط في جماعة كانغاسيروس لوكاس آرفوريدو وتعلم في المدينة وجعل من نفسه قائداً للرجال الثائرين. أحياناً، في السجن، كان يفكر في السرتون، في الفلاحين، في لوكاس آرفوريدو وفي جوزيه شقيقه، الذي صحب الجاغونسو. كان الدافع نفسه للانتفاضة، الظمأ نفسه للعدالة الذي

انتزعه من الحقل. إنما هو قد حالفه الحظ وحسب. وبدلاً من جماعة الكانغاسيروس ، عثر على الحزب والإدارة العادلة لانتفاضته.

8

عندما انفجرت الطلقات الأولى، لم يصدق كثير من الضباط أنها كانت ثورة. كان ثمة مقاومة لكنها كما فكروا، الدم يراق في فناء وممرات الثكنة. عدد من الضباط اعتقلوا في قاعة الكازينو، لكن البعض كانوا لا يزالون يقاومون وحولهم مسلحون بالرشاشات، وكان جوفينسيو قد اعتقل آمر الفيلق الذي تحصّن في قاعة صغيرة متسلحاً بمسدسه ومتوعداً كل من يجتاز الممر بإطلاق الرصاص عليه. وكُلف ماسيدو أمر السجن. لكن بما أن الأمر هو بمحاولة عدم قتل الضباط قدر الإمكان، فضل ألا يطلق النار على القاعة، واستولى على مخارج القاعة وعاد. فقرر جوفينسيو الذهاب بالذات. وتسلّم كيرينو قيادة الفيلق، وبدأت المقاومة بالتراجع. وكان الفيلق 21 ب ث متمرداً بأجمعه، إنما كتيبة واحدة فقط بقيادة ملازم استمرت تقاتل بنار غزيرة، فأربك الجرحى والجثث خطوات الجنود في تحركهم في الفناء.

وارتقى جوفينسيو السلم مصحوباً بماسيدو، فيما الجنود يحرسون الممر، وألقى الآمر خطابات عليهم، مذكراً إياهم بالطاعة المتوجبة عليهم، وبالعقاب الذي ينتظرهم بسبب التمرد. وحين وصل نينين كان الجنود قد أصبحوا مضطربين، وصوت الآمر قوياً، وأنصفه جوفينسيو في فكره.

- وحش جسور...

وراح يقترب على طول الممر، مسنداً ظهره إلى الجدار، وخطواته خفيفة. لكن الظلال تحت المصباح الكهربائي استطالت وامتدت عبر الباب، فصرخ الآمر:

- من الآتي؟

توقف جوفينسيو، وأجاب:

- إنه العريف جوفينسيو أيها الآمر، كن هادئاً، فأنا قد وصلت...

كان الرائد يحبه. فهو يعرف الوفاء بواجباته، مستقيم وقليل التعاطي للكاشاسا والمشاجرات في بيوت النساء، وصفحته نظيفة. وفضلاً عن هذا، فقد سمع من يتكلم أيضاً عن تلك القصص في الحدود، حين حفظ جوفينسيو النظام في وسط الغابة، عن المكابدات والهنود. وكانت طلقات

الرصاص قد أصبحت نادرة في الثكنة. كان يُسمع في الفناء فقط، إلى ناحية الشمال، تبادل إطلاق نار. فتخيّل الآمر أن التمرد قد سُحق وأن جوفينسيو جاء لنجدته ولم يعد يسمع في الممر تحركات الجنود ولا صوت ماسيدو الذي كان يوجه إليه أمراً بالسجن.

عاد جوفينسيو إلى السير، لكن في وسط الممر، مخبئاً مسدسه وراء ظهره. فاجتاز الباب، وكان الآمر واقفاً يمسك بسلاحه المجهّز لإطلاق الرصاص. بيد أنه لم يكن في وضع المهيأ لإطلاق الرصاص. فدخل جوفينسيو ماداً يده اليمنى بالتحية. لكنه فوراً أنزلها فوق يد الآمر وأخذ سلاحه قائلاً:

- التحرك المضاد لا يفيد أيها الكولونيل. فالثورة قد انتصرت في البلد كله...

امتقع الآمر من الحنق، واقترب الجنود بقيادة ماسيدو.

- خذوه إلى الكازينو... - وقال للآمر - إذهب بأمان أيها الكولونيل، فلن يحدث لك شيء... إلا إذا حاولت الفرار أو إثارة الرجال...

والتفت إلى الجنود:

- إذا حاول أحد...، فأطلقوا عليه رصاصة بدون شفقة...

نزل السلم راكضاً، وصلت أنباء بأن الانتفاضة في الشرطة العسكرية قد أحبطت وأنها تزحف على الفيلق. فتباحث مع كيرينو وكونسيبسون. وانتفض أيضاً الحرس المدني. وانتقلت المعركة إلى شوارع المدينة. وترامت أنباء عن أن الحاكم قد فرّ على متن باخرة، لكن لم يكن لديهم تأكيد، وكان المهم إسكات رشاشات الكتيبة التي ما زالت تقاوم. فتزعّم جوفينسيو مهمة الاستيلاء عليها، ومضى إلى جانبه فالفيردي معرضاً نفسه للرصاص.

- لن نترك قلامة ظفر يا نينين...

لقد أدرك جوفينسيو الأمر. يجب أن يستولوا على الموقع. أن يصفّوا ذلك قبل أي شيء، وإلا فيصبحون بين نار الشرطة العسكرية ونار الكتيبة. فنظر إلى الرجال الذين يرافقونه، ومن الباب، شاهدوا الملازم في الفناء، في الزاوية النهائية من السور، متحصّناً وراء الصناديق، والرشاشات مصوّبة فوهاتها إلى الباب.

وثبة واحدة، عدو واحد، وسينقضّون على الجنود والملازم، لكن في تلك الوثبة وذلك العدو سوف يموت كثيرون. فتفحص الموقف مجدداً. لا توجد وسيلة أخرى. فالتفت إلى رجاله وقال:

- يجب علينا أن نأخذ تلك الرشاشات والرجل بينكم فليتبعني...

- واجتاز الباب بوثبة واحدة من دون أن ينظر إلى الوراء. وعندما سقط بعدما أُصيب بالرصاص، كان فالفيردي إلى جانبه، فانحنى عليه. وهمس جوفينسيو:

- إلى الأمام، يا ابن العاهرة، وإلا فالآخرون سوف يتقهقرون...

وشاهده يتقدّم، والرجال يركضون. ثم ضجيج الرشاشات وبعد ذلك فوراً خيّم صمت كلّي دام حتى بعدما فتح عينيه وأنّ بعد ذلك وهو شبه فاقد للوعي، أُلقي على محفّة وحمله آخرون. ثم فتح عينيه بجهد ورأى أن العلم الأحمر كان مرتجفاً على عمود الثكنة. فابتسم قبل أن يصاب بالإغماء من جديد.

9

حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر، وصل الإسكاف لزيارته في المستشفى، حيث الراهبات صامتات كن يرمقن وهن مرتعبات أولئك الرجال الملتحين الذين يضعون مناديل حمراء على أعناقهم، وهو ممدد على السرير، ذراعه وفخذه مضمدتان وقطعة من الجلد ذي الشعر منتزعة. وأخذ جوفينسيو في كل لحظة يهدد بالنهوض والخروج. وكانت الراهبة (وهي لا تزال بعد شابة وذات ابتسامة طيبة، تأمره برقة أن يرقد) تتطلّع إليه:

- ابقَ راقداً ولا تتحرك... إنها أوامر الطبيب.

أخيراً استطاع أن يبعث برسالة:

- إذا لم يأتِ أحد، فإني سأنهض وأذهب إلى الثكنة.

ووصل الإسكاف مثقلاً بالأنباء وهو على عجلة شديدة من أمره. كان كل شيء يسير بشكل جيد، وحسب قوله، انفجرت الثورة في بيرنامبوكو حيث الفيلق 29 ب ث. قد انتفض عند التاسعة صباحاً. وأيضاً، فإن الثكنة العامة قد ثارت وكانت بزعامة الرقيب غريغوريو، وفي ناتال كل شيء على ما يرام. وقد شكلوا مجلساً حكومياً، يشترك فيه الإسكاف، والحاكم قد لاذ بالفرار. سحبوا نقوداً من مصرف البرازيل لأي طارئ، والمدينة كلها هادئة.

- والداخل؟

- لدينا محافظون في عديد من المدن...

- ألم تغادر طوابير إلى الداخل؟

- لم تغادر حتى الآن، لكننا نعالج هذا...

- والثكنة؟

- كل شيء حسن... كيرينو يقودها... أنت حاول الإخلاد إلى الراحة، إذ إن الطبيب قال إن الجرحين خطران، يتطلّبان معالجة شديدة... في ما بعد سأعود ونتحدث أكثر...

أحسّ وهو وحيد في غرفة المستشفى بأن الحمى تتزايد. لكن أفكاره كانت في الثكنة. فرغم كل تفاؤل الإسكاف لم يكن جوفينسيو مقتنعاً. ثمة أمران كانا يخيفانه بشكل أساسي. أولاً إن الثورة لم تكن قد انفجرت في كل البلد كما كان يتوقع، وكما قالوا إنها ستحدث. ثم تأخر مغادرة طوابير الجنود إلى الداخل. كان يخشى أن يصير الجنود في الثكنة غير ملمين بما يفعلونه. وكان يصارع ضد نوبات الحمى، محاولاً التفكير، التعقل، وبدا له في لحظة ما أنه يسمع صوت لورديس في الممر. فأمعن الانتباه، مصيخاً السمع فلا شيء سوى الصمت. وفكر بأن الهذيان قد جاءه. إنما عرف بعد ذلك وحسب أن لورديس فعلت كل شيء لتراه، ولم تسمح لها الراهبات، منفذّات أوامر الطبيب.

لقد أفاده النعاس، رغم أنه قلق وخفيف. فاستيقظ وهو يسمع مجدداً الأصوات في الممشى. لكنه هذه المرة ميّز تماماً صياح ماسيدو والنبرة الحادة لفالفيردي. وكانت الراهبة تناقش وهي تستمع لماسيدو:

- سوف أدخل بأية وسيلة أيتها الدونا... فمن الأفضل لكِ يا سيدتي أن تخرجي من أمامنا.

في الحال، بعد ذلك، كانا في الغرفة، ووقفا أمامه. فابتسم جوفينسيو، ورفع ذراعه المضمدة:

- لقد أساؤوا معاملتي...

- فكرنا بأنك قد مت... - قال فالفيردي وأضاف:

- لقد مات سبعة في ذلك الهجوم.. أراد جوفينسيو أن يسأل، لكنه بقي صامتاً، ماذا تفيد في تلك الساعة معرفة الرجال الذين ماتوا؟ فسأل عن لورديس:

- ولورديس؟

- إنها تطهو للجنود، هي والأخريات... أرادت المجيء لتراك، فلم تسمح لها الراهبات.. ولم يردن السماح لنا أيضاً... فكان لازماً..

- سمعت المحادثة في الممشى...

لاحظ أن الاثنين كانا مترددين، كأنهما قد صمما إزاء حالته، أن لا يقولا ما جاءا من أجله. فاستبد به القلق وانتفض نوعاً ما في سريره، محاذراً أن يئن كيلا يشعرهما بالذعر أكثر:

- ماذا هنالك؟ هيّا صارحاني...

قال فالفيردي:

- لا شيء... كل شيء يسير على ما يرام... - كان يتطلّع إلى الذراع المضمدة وإلى الفخذ الملفوفة بالشاش إلى أعلى الساق، وإلى رأسه ذي الشعر المشيط. ماذا يفيد أن يقصّا على جوفينسيو؟ إنهما سوف يكدّرانه وحسب، وهو لن يستطيع التصرف.

لكن صياح ماسيدو قاطعه:

- من الأفضل أن نخبره دفعة واحدة... - وقبل أن يحاول الآخر منعه - فالوضع في الثكنة يسوء كثيراً... وإذا استمر هكذا، فلا أدري كيف سينتهي...

كان جوفينسيو قد جلس على السرير. والراهبة التي أفاقت من خوفها في الممشى، ظهرت عند الباب، فأطلقت صيحة اندهاش صغيرة لدى رؤيتها إياه في ذلك الوضع:

- هيّا نمدده حالاً حالاً... ألا تعلم أنه جريح وجروحه بالغة؟ وأن رصاصة ما زالت في الساق؟

نظر إليها بحنق:

- أخرجي من هنا... - لكنه ندم في الحال - المعذرة أيتها الأم... لكنني أتحدث بأمر مهم، وأرجو منكِ يا سيدتي أن تنسحبي... وبعد ذلك أضمن لكِ بأني سوف أرقد... وأمر فيما هو يتوجه

إلى فالفيردي:

- أخبر...

- لا أحد يفهم، هذه هي الحقيقة... فكل واحد يريد أن يأمر أكثر من غيره، في الثكنة... وفي بقية المدينة كل شيء يسير حسناً، والمجلس اتخذ احتياطات متعددة. لكن الثكنة... إنها اضطراب...

- ما الذي يحدث؟

عد فالفيردي بأصابعه:

- أولاً: نقص في القيادة... فلكيرينو سلطة ضئيلة. جماعتنا تطيعه، لكن الآخرين...

- أي آخرين؟

- الذين انضموا إلينا... أناس كثيرون... وكل منهم يأمر أكثر، يعطي أوامر معوجّة وأوامر مستقيمة... نقاش البعض مع الآخرين. كل منهم يريد أن يصبح أكثر أهمية. وليس هم وحسب، فجماعتنا أيضاً... كونسيبسون يتشاجر مع كيرينو، حتى أنهما تناقشا أمام الجنود...

ومدّ إصبعه الأخرى:

- ثانياً: الكاشاسا. لقد مُنعت، لكنها ظهرت، والآن هي التي تُعرف هناك.. هناك أناس لم تعد تتحمل...

- جماعتنا؟

- كل جماعة أكثر من غيرها... الجميع تقريباً متفقون على هذا...

- ماذا بعد؟

- السرقة... نهبوا المتنازع عليه.. إنها المؤونة...

- جماعتنا؟

- كلا... إنهم يبيعون أشياء لأهالي المدينة...

- هل هم يخرجون؟

- ومن يستطيع أن يضاهيهم؟ - توقّف فالفيردي عن العد بأصابعه.

وفكر جوفينسيو:

- قد يكون هذا ناتجاً من تحريض العدو أيضاً... لكي يفسد الأمر...

وافق فالفيردي برأسه وأكمل:

- الأسوأ... وصمت. فما جدوى أن يقول تلك الأمور للآخر الذي كان مربوطاً إلى السرير، فلن يستطيع القيام بأي وسيلة؟ إنه لا يجلب إليه إلا الكرب. فلو كان هناك لاختلف الأمر.

- اخبّر...

- يوجد قسم يريد قتل الضباط...

- قتل الضباط؟

- هو هكذا، ثمة ثمل جداً ويقول إن الضابط يجب أن يُقتل فقط... وإذا كانوا حتى الآن لم يقتلوهم، فلأني تركت كيرينو يناقشهم. لكن كونسييسون يرى أن الأفضل هو تصفيتهم بالذات...

فقال جوفينسيو:

- تحريض.

- وأنا أيضاً أرى ذلك...

أتى بجهد مع جسمه. الأسوأ هي ساقه المجروحة:

- ساعدني...

- هل ستنهض؟

- سأذهب إلى الثكنة - وأعلن: - لن يتعادل معي أحد...

ساعداه ليرتدي بزته، وأخذ مسدسه. تمكن فقط أن يحرّك يده اليمنى، والشرائط منتزعة عن كتفيه، وصدره غير مغطى. فلحسن الحظ أن اليد المجروحة هي اليد اليسرى.

- هيّا ننطلق...

واقتربت الراهبة من الباب، لتناشد فالفيردي وماسيدو، فتراجعت عند رؤيتها له:

- إلى أين تذهب يا بني؟

- كوني صبورة يا أختاه. يجب أن أذهب. حرّكت رأسها بإشارة لوم:

- هكذا، إنك سوف تموت يا بني...

- لا بأس يا أختاه. هناك أمور أكثر أهمية...

حنى ماسيدو وفالفيردي رأسيهما أمام الراهبة، وشعرا بأنهما مذنبان، وكان جوفينسيو يمشي في المقدمة، وهو يعرج. وفي وسط الممر لم يستطع السير أكثر، فطلب:

- ماسيدو، أعطني ذراعك...

فقال فالفيردي:

- أليس من الأفضل أن تعود؟

- هيّا نذهب...

وحين اجتاز باب المستشفى، شهر جوفينسيو المسدس. وأحس ماسيدو بثقل جسم جوفينسيو على ذراعه، لكن جوفينسيو كان يثق بماسيدو وفالفيردي.

10

عند اجتياز بوابة الثكنة، أدرك أن الأمر يسوء. والاضطراب سائد. ولم يبق هناك شيء يذكره بنظام الجنود، بالانضباط في الكيان العسكري. وميّز شخص كيرينو في الفناء، يناقش وهو يحرّك ذراعيه. ولمس أحدهم، إذ رآه داخلاً، كتف كيرنو، وأشار إلى البوابة. لم يستطع جوفينسيو إلا أن يبتسم تجاه صيحة الفرح من الرفيق الذي وصل راكضاً. فوصل وهو يلهث، وبهيئة ذعر:

- مضوا ليقتلوا الضباط... أغثهم بسرعة...

- في الكازينو؟

- هناك...

- وأنت، ألست الآمر؟ أين سلطتك؟ واعترف كيرينو:

- هذا الذي هنا... هو فوضى...

استند إلى ماسيدو، لكن ليثبت نفسه فقط، وخرج فوراً ماشياً بجهد جعله يقطب وجهه. كان يحمل المسدس وإصبعه على الزناد. وقبض ماسيدو وفالفيردي أيضاً على سلاحيهما.

كان الرجال قد وصلوا تواً إلى الكازينو، حينما هم ظهروا، بعضهم سكارى، وآخرون بائسون لمجرد أن التمرد قد نجح. رجال بلا حزب، انضموا إليهم وهو يؤمنون بأنه لا ينبغي إطاعة أحد. والضباط هم مجردون من السلاح؛ جُمعوا في أحد الأركان، بعضهم ممتقعو الوجوه، وآخرون احتفظوا برباطة جأشهم. وتكلم أحدهم مع الرجال، لكن السكارى كانوا يضحكون والآخرين يصيحون، فوصل جوفينسيو من الخلف.

- أخرج من أمامي...

تطلّعوا إليه كما لو أنه شبح. كان وجهه أبيض كالكلس، كأنه لم يعد فيه ولا قطرة من الدم. وفتحوا طريقاً ليمرّ. ففكر الضباط آنئذٍ أن ساعتهم الأخيرة قد حانت، كانت قد وصلتهم أنباء بأن الشيوعي جوفينسيو هو الذي كان في مقدمة التمرد، وأنه قد اعتقل الآمر، وهاجم كتيبة الرشاشات. وظنوا أنه قد مات.

وابتسم الملازم الذي كان يقود الرشاشات بحزن. وتقدم منه الآمر:

- أيها العريف جوفينسيو، فكر جيداً في ما أنت مقدم عليه.

فنظر إليه جوفينسيو بلا حقد ولا إشفاق وقال:

- أيها الكولونيل، اغلق فمك ولا تتدخل... صاح الجنود، وزعق أحد السكارى بشتيمة:

- أخرس أيها البليد!

التفت جوفينسيو ورمق الجندي قائلاً:

- أنت سجين... فالفيردي، ضع هذا الشخص في السجن، وبعدها سنرى...

سكت الجميع، كان السكارى يحاولون الضحك، لكنهم لم يعثروا بعد على تضامن من الذين كانوا مأخوذين قليلاً. وقال لهم جوفينسيو:

- جئتم لتقتلوا الضباط...

- لإدخال الخوف إلى قلوبهم فقط...

- كن رجلاً ولا تكذب، لأن هذا أسوأ... من أنتم؟ ثوريون أم قتلة؟

ثم توجه إلى الضباط:

- ليكن معلوماً لديكم أيها السادة، أن أحداً منهم، هؤلاء، ليس شيوعياً، ولا من التحالف. فالشيوعي لا يقتل.

وتكلم مجدداً مع الجنود:

- ألا ترون أنتم أن هذا ما يريده الأعداء؟ القول بأن الجندي، العريف والرقيب، لا يصلح إلا للقتل؟ الضباط وحدهم خليقون بأن يقودوا ثكنة ويحفظوا النظام ويحكموا... وأنتم بدلاً من أن تبرهنوا أن هذا كذب...

قال سكران:

- ماذا يهمني النظام... نحن انتصرنا، ولدينا الآن الحق في تسديد حسابات ما فعله هؤلاء. لدينا الحق... - كان يهم بإلقاء خطبة على الآخرين.

- بأي سلطة تناقش أنت أوامري؟ فأنا آمر الثكنة وأنت ستعاقب بجرم الخروج على النظام... أنت سجين.

- من هو الذي يعتقلني؟

- أنا... - قال ماسيدو وهو يتقدم منه. وحاول الجندي السكران الإتيان بحركة مضادة، فسدد إليه ماسيدو لكمة أطاحته أرضاً.

كان الضباط ينظرون إلى ذلك كله، فرأوا أنه أخيراً، عادت الثكنة لتكون لها قيادة، ولم يُخدعوا، لأن النظام الأشد دقة قد عاد إلى السيطرة. كان جوفينسيو هو الذي يخدعهم عند التأكيد لهم:

- الثورة قد انتصرت في البلد كله... وحياتكم أيها السادة مضمونة. مضمونة من قيادة الثكنة. سوف تحاكمون فيما بعد. والآن أريد أن أنذركم بأمر واحد. فذلك الذي يحاول الهرب!

وتضليل جندي ما، سوف يعدم بالرصاص من دون محاكمة...

ثم توجه إلى فالفيردي:

- خذ السجناء وابعث بأربعة رجال جديرين بالثقة.

كان الجنود الآخرون لا يزالون هناك. فقال لهم:

- ماذا تنتظرون ههنا؟... اذهبوا إلى الفناء، سوف أنزل في هذه اللحظة...

فأطاع الرجال، وبدأ الضباط يغيّرون آراءهم حول مصير التمرد الذي ظنوا قبلاً أنه ضائع. وتقدم النقيب الطبيب، فشاهد الدم ينزف من أعلى ساق العريف:

- هكذا، فأنت أيها السيد ستموت...

وقال لماسيدو:

- تدبّر قطناً...

أبعد جوفينسيو الطبيب بيده:

- منكم أيها السادة، لا أريد شيئاً.. دعوني أتدبّر نفسي...

عاد فالفيردي مع بعض الجنود، فقال لهم جوفينسيو:

- تنبهوا للمداخل. أطلقوا النار على مَن يحاول الفرار وأطلقوا النار على أي شخص - أياً كان - يظهر ههنا من دون أمر مني أو من كيرينو... لا تناقشوا. أطلقوا الرصاص...

خرج، لكن في الممشى، كان على ماسيدو أن يسعفه مجدداً.

11

عند الوصول إلى الفناء، وقبل أن يتكلموا مع الجنود، كان يرغب في محادثة كيرينو، وأن يعرف حقيقة الوضع، والاتفاق معه على أن الشخص الأكثر مسؤولية سياسية هو الشخص الذي يتصرف بشكل أفضل. لكنه حالما ترك ذراع ماسيدو ليجتاز بمفرده الباب المؤدي إلى الفناء، رأى أنه لن يتمكن من القيام بذلك. وكان كيرينو في الجناح الداخلي إلى جانب الجنود محاطاً بالعرفاء والرقباء الشيوعيين. وفي الجانب الآخر كان آخرون منفصلين عنهم كأنهم تجمع خصم، وقد تجمع

أيضاً جنود وعرفاء ورقباء ومعهم كان شيكو كونسيبسون. وكان التجمعان تقريباً متعادلين في القوى. ونظر جوفينسيو إلى بعضهم وإلى آخرين خلال بضع لحظات. كان قد اكتسب طاقة ليستطيع المشي، لكن يده لم تعد قادرة تقريباً على الإمساك بالمسدس. كان يخشى أن يسقط منه في أية لحظة. ومع هذا رفض المساعدة التي قدّمها له ماسيدو بهمس، وسار إلى الأمام، وأخذ مكانه بين المتجمعين ثم تطلّع إلى شيكو كونسيبسون طويلاً واستدار إلى كيرينو، وتكلم بصوت هادىء ورصين:

- إني رهن الأوامر أيها الآمر - أدى التحية من دون أن يترك المسدس، وعاد لينظر إلى الذين كانوا مع كونسيبسون.

تقدم كيرينو وجاء إليه. لم يكن يعرف ما الذي سيفعله. لكن منذ أن رآه يجتاز البوابة الكبيرة في الثكنة شعر بالارتياح. فمع جوفينسيو هناك، لديه تأكيد بأن كل شيء سوف يكون على ما يرام. وهمس ماسيدو:

- حاذر من كونسيبسون يا نينين... فهو...

لكن صوت شيكو كونسيبسون غطى الكلمات المهموسة:

- آمر، لماذا؟ ومن انتخبه؟ فهل نحن أولاد أم بغايا لنقبل أياً كان يرغب في تسلّم زمام أمرنا؟ نحن - أشار إلى الرجال الذين كانوا يتحلّقون حوله - لا نقبل كيرينو آمراً.

وتطلّع الرجال الذين كانوا واقفين وراء كونسيبسون إلى جوفينسيو، إنما بدون عداء. وبرغم كل الحديث اللطيف المغري للآخر، فإنهم كانوا يثقون بالعريف. إنهم يعرفونه ويعرفون أنه واحد منهم. وجوفينسيو أيضاً، نظر إليهم يتفحص كلاً منهم بمفرده. وكان كونسيبسون أمامه تقريباً. ولكونه تقدم خطوات، فقد انفصل عنه رجاله. وانتقل جوفينسيو إلى ناحيته، وبدون أن يجيبه، وقف أمام الجنود بجدية وهو شبه صارم:

- أيها الرفاق، لقد وصلت من المستشفى، فما الذي وجدته؟ هل وجدت جنود الثورة مجهّزين ثكنتهم، قائمين بالتزاماتهم؟ كلا... وجدت كل شيء مضطرباً، يبدو أن الجنود لا يعرفون أن يحكموا إلا حين يوجد الضباط ليصدروا لهم الأوامر، ليأمروهم، ويضعوهم في السجن... نحن قد تمردنا لأن الشعب يتضوّر جوعاً والجنود، العرفاء والرقباء مطاردون.. والآن هل نبرهن أننا لا نصلح حتى لشيء؟ بالنسبة إليّ أقول بأنني أشعر بالخجل... نظر إليهم فخفضوا رؤوسهم.

أراد كونسييسون الرد بأي شيء، لكن جوفينسيو لم يسمح له:

- في ما بعد تتكلم أنت... بعدها يتكلم من يشاء، لكن الآن أنا من يتكلم ولديّ الحق في التكلم لأني جئت من المستشفى كيلا أترككم تموتون في الهجوم عليكم من الخلف في أية لحظة... - توجه إلى الجنود الذين انضموا إلى كونسييسون - أستطيع أم لا أستطيع أيها الرفاق؟

انبرى زنجي من بين الآخرين:

- بوسعك الكلام، فأنت رجل مستقيم. ونحن نؤمن بك...

- أيها الرفاق، الثورة قام بها التحالف الوطني التحرري بالتعاون مع الحزب الشيوعي. الولاية لها حكومة شعبية، مؤلفة من التحالفيين والشيوعيين. وعلى جنود الثورة أن يطيعوا هذه الحكومة التي عيّنت الرفيق كيرينو آمراً للفيلق. فلماذا لا تطيعون إذن؟ لماذا هذه الفوضى هنا في الداخل؟ أم تُرى أن الجنود غير قادرين؟ يريدون قتل الضباط، لماذا؟ أين تدبّرتم الكاشاسا وبأي إذن؟ فهل أنتم ثوار أم متضامنون مع الشرعية؟

كانوا مضطربين. وابتسم جوفينسيو:

- إني أفهم أشياء كثيرة. الحماسة، والحرية، لكن لكل شيء كفايته أيها الرفاق. وأقول الآن: يكفي، فهذا سيدخل في النظام. هل نحن على اتفاق؟

حدث همس بينهم، وفي الحال قال الزنجي:

- على اتفاق...

وراح الآخرون يرددون بصيحة واحدة:

- يحيا العريف جوفينسيو!

عندما أخذت الهتافات تضمحل، انبرى كونسييسون:

- أنتم تتصنّعون البلاهة...

ونادى جوفينسيو:

- ريكاردو! داميان!

وجاء الزنجي وخلاسي قصير القامة.

- اعتقلا العريف كونسييسون، فهو عدو الثورة. كان يريد أن يقيّدنا بالكاشاسا، بالفوضى، لكي يبيعنا جميعاً للعدو. سيحاكم ويعدم رمياً بالرصاص...

شهر كونسييسون مسدسه. لكن ذراع جوفينسيو انهالت بالضرب على كتفه:

- أترك هذا السلاح يا ابن العاهرة...

أخذ جوفينسيو كيرينو من ذراعه وخرج معه. وفي الممشى أغمي عليه، وقد شاهده الجنود حين وقع أرضاً، فركضوا إليه من كلا الجانبين، وشاهدوا الدم على الشاش في الذراع، ملطخاً أيضاً سرواله في أعلى الساق. وأولئك الذين أحدثوا الفوضى، كانوا أول من أطاع الأوامر التي كان كيرينو يوزعها.

12

أعطاه الطبيب حقنة لينام:

- هكذا، فأنت تقتل نفسك... - كان متعاطفاً ويدرك مدى أهمية جوفينسيو في التحرك.

ووصلت لورديس مهتاجة، لكن بلا دموع. فرتبت الوسائد في الغرفة المعدة بشكل ارتجالي من قبل الممرضات. وطلب جوفينسيو أن تنسحب:

- إن هذا هنا مكتظ بالنساء، بحيث يبدو كاباريه في يوم سبت... سوف أطرد الجميع... وإذا بقيتِ أنتِ، فلن تكون لديَّ أخلاقية لإعطاء الأوامر... لا تقلقي، فغداً سوف أكون واقفاً على قدميّ من جديد.

فهمت وغادرت، ثم تطوّع جنود لمرافقتها حتى البيت. وقد أصبح النظام الآن مهيمناً على الفيلق. وتخدّر جوفينسيو وهو قلق في مسألة تشكيل الطوابير إلى الداخل. فأثناء ما تبقى من فترة ما بعد الظهر لم يكن لديه وقت للتفكير في ذلك. باتت الساعات قليلة ليعد الأمور داخل الثكنة نفسها، مناقشة كيرينو، تشكيل قيادة، توزيع المراكز على الرجال الموثوق بهم. كان يفكر بأن يعالج تلك المسألة ليلاً مع كيرينو واحد ما من الإدارة، لويس أو سواه. وكان الأمر العاجل هو أن تغادر الطوابير. فقد أضاعوا تقريباً أربعاً وعشرين ساعة ولم تكن قد وصلت أنباء طيبة من الجنوب... وبما أنه أُغمي عليه مجدداً فقد استدعوا الطبيب، وعندما شاهده يقوم بنشاط (كان قد تركه بعد

الإغماء في فترة بعد الظهر مع أوامر واضحة بالرقاد والنوم) استبد به الخوف وأجبره على الذهاب إلى السرير الذي أعدوه بصورة موقتة في إحدى الغرف إلى جانب القيادة، ومن دون أن يقول بماذا يعالجه، أعطاه تلك الحقنة التي جعلته ينام.

استيقظ ولويس ورفيق آخر من الإدارة إلى جانب سريره. كانا ينظران إليه كأنهما خائفان من أن يستيقظ. وشاهد ضياء الشمس عالياً:

- كم الساعة؟

- التاسعة والعشرون...

- كيف نمت هذا القدر - كان رأسه ثقيلاً ومعدته تؤلمه، لكن لم يكن محروراً.

وأوضح كيرينو:

- إنها الحقنة التي أعطاك إياها الطبيب...

- والطوابير؟ هل غادرت؟

فقال الإسكاف:

- فات الأوان...

- فات الأوان؟ لماذا؟

- الأمر في رسيفي حالك السواد... إنه لا يسير على ما يرام... ولم يحدث شيء آخر في بقية البلد...

- ليس هو سبباً لنبقى متوقفين - وقف ومشى إلى المجلس، وأخذ يغسل وجهه.

- والفيلق الثاني والعشرون في باراييبا ... يبدو أنه يزحف إلى هنا... المهم هو الدفاع عن المدينة. أن نضمن ناتال حتى ينفجر الأمر في الجنوب... يجب أن يحدث هذا بين لحظة وأخرى...

عاد جوفينسيو إلى الجلوس على السرير:

- هل يوجد قهوة؟

فصاح كيرينو، وقدم جندي.

- تدبّر قهوة للرفيق جوفينسيو...

وطلب جوفينسيو:

- ساخنة جداً.

وسأل لويس:

- كيف الأمر حقاً في بيرنامبوكو؟

- يبدو أن الشخصيات اضطرت إلى مغادرة المدينة... لم يعودوا يستخدمون اللاسلكي.

- وهنا، كيف يجري الأمر؟

- في المدينة، حسناً.

- وفي الثكنة؟ هل من جديد؟

قال كيرينو:

- كلا، إنما في الليل هرب عريف هو بونيفاسيو وأربعة جنود... أخذوا بعض الأشياء...

- يجب أن يُعدم رمياً بالرصاص من يُقبض عليه فارّاً... وعلى مرأى من الجميع...

وصل الجندي مع القهوة. حرّك السكر وتناولها بجرعات صغيرة. ثم أمعن التفكير في الوضع. رأى الإسكاف متشائماً، والرفيق الآخر صامتاً أكثر من اللازم، فضحك:

- هيّا نمضي قدماً...

انتهى ذلك النهار من دون مستجدات كبرى. تجوّل جوفينسيو في المدينة بسيارة، متفحصاً أفضل الأماكن للتحصينات، وأمر الجنود بإعدادها. وحين عاد إلى الثكنة، وجد جواً من الوشوشات لكن الأنباء شاعت. عرفوا أن التحرك كان ضائعاً في بيرنامبوكو، وقصّوا تفاصيل منذرة بالخطر. وفي الزنزانة حيث كان كونسيبسون، كان يتحرك، متحدثاً مع الجنود الذين كانوا يحرسونه، مشيعاً أخباراً غامضة. فعقد جوفينسيو اجتماعاً مع الآمرين، ودرس معهم الوضع. لكن بعض الرجال قد لاذوا بالفرار، وأحدهم كان سجيناً.

وسأل كيرينو:

- هل الإعدام رمياً بالرصاص يصلح الأمر؟

- هيّا نرى...

نزل إلى الفناء، وكان جهد فترة ما بعد الظهر أكثر من اللازم، فأحس بدوار في رأسه، الرأس ثقيل والعينان قاتمتان، فأمر بإحضار الجندي. كان هو جوان إيناسيو، فلاح متقدم في السن. تكلم معه كأنهما كانا في الحقل:

- يا سيد جوان، لماذا ركنت إلى الفرار؟ هل كنت حضرتك خائفاً؟

- الرجل أيها السيد العريف، لا يخاف ساعة القتال. لكن العريف كونسيبسون قال لي إننا خائفون وسنوضع جميعنا في السجن، وبعد ذلك يقتلوننا بسياط المطاط... ولست رجلاً خليقاً بالضرب أيها السيد العريف...

- جوان، أنت أتيت أمراً منكراً ويجب عليّ أن آمر برميك بالرصاص. لكنك كنت مضللاً من قبل هذا الخائن. فيا سيد جوان قد نموت جميعاً، لكن مع السلاح باليد، نقاتل من أجل الثورة، هل أنت خائف؟

- هكذا، لا، الأمر هكذا معقول. لكن جلداً بسياط المطاط...

تُرك الفلاح، وقال للجنود:

- من كان خائفاً يمكنه الانصراف. لا أريد جبناء ههنا... فالمعركة ستكون قاسية وعلينا دعم الثكنة والمدينة حتى تنتصر الثورة في الجنوب... ومن يخف فلينصرف في الحال، وهيا نرى...

لم يتحرك أحد، فتابع كلامه:

- الآن لم يعد من عذر للفار من الجندية. ألن يرحل أحد منكم؟

انتظر. وبقي الرجال صامتين.

- حسناً. هيا نعالج الآن مسألة كونسيبسون أيها الجندي ريكارديني ، إذهب واجلب السجين...

أقام المحاكمة هناك بالذات:

- هذا الرجل أشاع الفوضى في الفيلق، وأشار بقتل الضباط، إنه ينشر الرعب، مختلقاً أكاذيب وجاعلاً الجنود يخونون الثورة، فيهربون كفارّين من الجندية وجبناء. فما الذي يستحقه؟

كان كونسييسون يرتجف جاحظ العينين قانطاً:

- حباً بالله يا نينين، لخير امرأتك...

شكل طاقم الإعدام لصق الجدار. وجُرّ كونسييسون. وانسحب جوفينسيو عندما دوت طلقات الرصاص.

- لدينا ذخيرة ضئيلة... - قال كيرينو، لكنه كان يفكر في شيكو كونسييسون، واختلس النظر من الباب، رأى الجثة، والوجه إلى الأرض والدماء تحيط بها.

13

كان من المستحيل تماماً ضبط الفارّين. فالأنباء المرتقبة من الجنوب لم تصل، وفقدان الصدقية بدأ يهيمن على الجميع، ولاحظ جوفينسيو أنه حتى العرفاء الذين يطيعونه طاعة عمياء، يحاولون تجنبه، ناظرين إليه كما لو أنه قد خدعهم. لكنه تمكن من حفظ النظام، وعدم معاقرة الرجال الخمرة، وألا يحاولوا شيئاً ضد الضباط السجناء، وألا يعصوا رفاقهم الذين عُينوا للمراكز، وكان جوفينسيو يشعر أن كل ذلك قد ينفجر بين لحظة وأخرى.

- وفي المدينة أيضاً، لم تكن الأمور تسير بشكل جيد. فالرجعيون عرفوا أن تحرك رسيفي قد خُنق ولم تحدث انتفاضات في أي ناحية. كان الوقت في 25 تشرين الثاني، وبعد يومين فقط انتفض الفيلق الثالث - أو مدرسة الطيران في الريو، حين وصل جنود الفيلق الثاني والعشرين ب ث إلى ناتال، وواجه المجلس الحكومي صعوبات جمة، وخفَّت الحماسة الأولى للمتعاطفين وانتهازية المنضمين، وأصبح الثوريون الذين ما زالوا في الحكم مزعجين.

استنتج جوفينسيو، في مساء ذلك النهار، أن الدفاع عن المدينة غير مجدٍ بأولئك الجنود المتبقين. ومَثَّل كونسييسون قد نُسي مع انقضاء الليل والفرار ازداد. حتى أن ضباطاً تمكنوا من الفرار، بعدما اشتروا تورّط الرجال الذين يحرسونهم بالمال وبوعود الغفران.

عادت الحمى وخشي جوفينسيو ألا يتحمل حتى النهاية. فجسده كان يشكو السرير، واستمرت جروحه مفتوحة، ورأسه يؤلمه بشكل متواصل. ومع هذا تباحث مع كيرينو، وبعد ذلك

ذهب إلى القصر الحكومي للتفاهم مع أعضاء المجلس العسكري. وكانت فكرته أن يُنظم الرجال الأكثر إخلاصاً ووعياً، أولئك الذين كانوا شيوعيين وتحالفيين أو أقله الذين يحتفظون بولاء الثورة، في طوابير من المقاتلين يذهبون إلى الداخل، فيتوغلون في السرتون، في الكاتنغا، وهناك يدفعون الفلاحين إلى الانتفاضة، بانتظار التحرك في الجنوب الذي يعتبرونه أمراً لا يمكن تجنبه، ثم يعودون بعد ذلك إلى العاصمة ، وقد وافق المسؤولون في تلك الليلة بالذات، وأشرف جوفينسيو على رحيل طوابير المقاتلين مزوداً إياهم بأفضل الذخائر. واستبقى نفسه للذهاب مع الدفعة الأخيرة عندما لن يكون لديه ما يقوم به في المدينة، ولم يتمكن، مع هذا، أن يترك جميع الرجال يغادرون، إذ إن الرجعيين سوف يتسلمون عندئذٍ زمام الأمر في ناتال.

رأى ماسيدو عند الفجر يسير في مقدمة طابور. ذلك الرجل المحب كثيراً للمحادثة، ذو الصوت المرتفع الفاضح والزهو اليسير، كان في الحقيقة فتى شجاعاً مخلصاً، قوي الشكيمة لا يخون، وقلب عاشق وقبضة قاسية. عانقه واستقبل بتأثر وصية الآخر:

- انتبه لنفسك يا نينين...

وكان فالفيردي إلى جانبه وكبر لديه الإعجاب بكيرينو. كان ضعيفاً سياسياً وكان مسؤولاً عن كثير من الأمور التي قد حدثت. لكنه يبقى هناك مستعداً لكل شيء، ولا يهمه الموت.

وكان فجر اليوم الرابع يرسل أشعته فوق ناتال، وانطلق الرجال إلى الكاتنغا، حيث يسيطر لوكاس آرفوريدو والطوباوي استيفان. ذهبوا كمقاتلين، والآخرون كهاربين. وكان جوفينسيو ينظر إليهم حتى أضاعهم في البعيد. ومع تنشقه هواء الفجر، تذكر الصباحات في المزرعة حين كانوا يغادرون لحراثة الأرض، تلك الأرض التي كانت للعقداء والتي كان يريد أن تكون للفلاحين. لهذا انتفض مع فيلقه.. والآن سوف تبدأ أوقات قاسية، لكن السرتون سيستمر، وذات يوم سوف يفكر الآخرون مثلما فكر العريف جوفينسيو.

14

انقضى اليوم الأخير ببطء والرجال يخرجون من الباب أمام الثكنة، ولم يعد ضرورياً القفز فوق الأسوار ليهربوا. شاهدهم جوفينسيو يرحلون. لم تكن بعد إشاعات، كانت أنباء حقيقية. فجنود الفيلق الثاني والعشرين في باراييبا يقتربون من المدينة، وكانت البنادق الثائرة في رسيفي قد سكتت. فالجنود يغادرون، وبعضهم جاؤوا ليودعوه:

- إلى مناسبة أخرى أيها العريف.. اعتمد عليّ...

لم تكن لديه حمى، تعب فقط، تعب مريع، لم يكن في جسمه مكان لا يؤلمه. والمجلس الحكومي قد انتقل إلى الثكنة. وبقي المسؤولون في مباحثات طويلة مع جوفينسيو وكيرينو، وقرروا الرحيل من المدينة قبل وصول الجنود.

أراد فالفيردي البقاء معه، لكن جوفينسيو أجبره على الرحيل. وكانت لكيرينو هيئة قريب أحد المتوفين عند احتضاره. كانوا قد اقترحوا أن يأخذوه معهم، لكنه رفض. فلن يستطيع السير كيلو مترين، سوف يكون عقبة كأداء أمام الآخرين وحسب. وكذّب:

- سأتدبّر أمري... لديّ مكان أختبىء فيه...

وفي نهاية فترة بعد الظهر، قدم الزنجي ريكاردو ليودعه:

- أيها العريف، ستبقى؟

- سأبقى...

- سوف أبقى معك...

- من أجل ماذا يا ريكاردو؟ إني سأبقى لأن على أحدهم أن يبقى. أنا أبقى لأني مصاب بالرصاص، وهم لن يفعلوا شراً لرجل شبه ميت. وأنا مسؤول، كنت أحد الزعماء. وإذا ألقوا القبض عليك وسيجعلونك رأساً على عقب... فانصرف ما دام الوقت سانحاً.

ومن بعيد سمعا ضجيج سير جنود الفيلق الثاني والعشرين باتجاه المدينة. وريكاردو ما زال معانداً:

- من الأفضل أن أبقى معك...

- أنت جندي وأنا عريف... فضلاً عن هذا، فأنا ما زلت نائب الآمر. وأعطي أمراً: انصرف.

فخطا الجندي ريكاردو، وهو زنجي طويل القامة ودميم، خطوة إلى الأمام، ووقف كمن يقف في الطابور، وأدى التحية، ثم خرج سائراً كأنه يذهب إلى المعركة، ورافقه جوفينسيو بعينيه، ثم رآه يختفي عند الناصية.

بقي وحيداً في الثكنة، وفي المدينة تحرك قساوسة وسياسيون لاستقبال الفيلق الثاني والعشرين ب ث باحتفالات وزهور. وكانت الخطوات تقترب أكثر، وهي الآن تعدّي فوق الشوارع المتوازية. بقي له آنئذٍ شيء واحد ليفعله، فأنزل العلم الأحمر عن السارية حيث كان يرفرف لمدة أربعة أيام فوق مدينة ناتال. ووضعه تحت ردائه العسكري وخرج من الثكنة.

كان جوفينسيو يسير بخطى متمهلة. فالجروح تمنعه من السير بسرعة أكثر، ورأسه يؤلمه، وتعب في كل عضلة وفي كل عصب، تعب لا يسمح له بالتفكير. إلى أين يستطيع الذهاب؟ لم يكن لديه بيت يصلح ليكون مخبأ، إلى الغابة، ذاك إذا أراد أن يموت بسرعة أكثر. كان لديه مال في جيبه، مال كثير، لم يرَ مثله بهذا القدر. لم يكن يفيده بشيء في تلك اللحظة، أتى بجهد ليتذكر مكاناً للوقاية. «سوف يصلح للحزب ذات يوم».

ذهب إلى البيت. منذ صباح أمس لم يرَ لورديس. وكان المساء يهبط على الضواحي الصامتة. كانت خطوات الجنود تقترب. لسوف يتسللون إلى الثكنة المقفرة. ولن يجدوا العلم لينتزعوه من السارية، فابتسم.

دخل البيت. كانت ثمة أريكة مستطيلة في الغرفة، وبعض الكراسي الصغيرة غير المريحة. ولورديس جالسة على الأريكة، وبطنها يصعد إلى صدرها. أرادت النهوض، فأتى بإشارة لتبقى هناك بالذات. ثم انتزع جزمته، ولم تكن لديه قوى لينزع جوربيه، فمدّ رجليه على ذراع الأريكة، ووضع رأسه في حضن المرأة. وكانت تتسرب منها حرارة، وسلام، وراحة. وفي رحمها طفل يعد نفسه ليولد.

أغلق جوفينسيو عينيه. إنه الآن لا يفكر في شيء. وأحسّ فقط بتلك الحرارة آتية من الزوجة. ويبدو أن كل شيء قد انتهى. وأن ذلك السلام وذلك الاطمئنان كانا إلى الأبد كله، وأمرّت لورديس يديها على الشعر المشيط، فابتسم بشكل خفيف. وهبطت ظلال الغسق على القاعة.

ختام

الحصاد

طونيو

1

فاردا! أي فتى جميل هو طونيو... - قالت الايطالية الصغيرة بلهجتها الريفية، لهجة فلاحي البندقية.

ووافقت الجارة العجوز:

- فتى جميل، أجل...

كان طونيو يمرّ على الطريق العام وهو في طريقه إلى المدينة، وربما كانت ثمة مبالغة في كلمات الإطراء من الفتاة الإيطالية السانباولية التي اعتادت عيناها رؤية الخلاسيين والمهجنين من الشمال الشرقي. وجعل البرد شعر الولد السرتوني ذا الخصلات والمنبوش أشقر اللون. وقد قاوم تركيبه العضوي الرحلة عبر الكاتنغا، الجوع والظمأ، والديزنطاريا في سان فرانسيسكو بحيث تكوّن وسط كل أمراض المهاجرين في بيرابورا مناعة إزاء الاحتكاك بها، فنما قوياً، ثابتاً بهذه الجذور من طفولة أولى من العذاب الشديد. ومثل نبتة جففتها الشمس بحيث أزهرت وتطاولت مع أمطار الشتاء، هكذا نما هو في الريف السانباولي.

انتهت طفولته برحلة القطار، في عربة الشحن تلك، الخاصة بالمهاجرين، قادماً من بيرابورا، في المحطة بقيت خالته مارتا تلوح بالوداع وما عادوا قط يعرفون شيئاً عنها. وكان طونيو يفكر فيها من وقت إلى آخر، عند رؤيته الفتيات الأكثر جمالاً في المنطقة، الهجينات اللواتي وُلدن من أبوين سرتونيين، الايطاليات ذوات الخدود الوردية، وكانت الذكرى التي بقيت عن الخالة، ذكرى رائعة مدهشة، مع أنهم لم يلفظوا قط اسمها اللعين في البيت، وكان طونيو يحتفظ بها في ذاكرته خلال سنين كثيرة. وتجددت هذه الذكرى، وازدانت الذكريات التي يمحونها، حين مات جده جيرونيمو وهو يبصق دماً، بعد ثلاث سنوات من وصولهم إلى مزرعة البنّ الكبيرة حيث باتوا عمالاً مأجورين. كان جيرونيمو في سنواته الأخيرة في سان باولو خيالاً من السرتوني الذي غادر ذات فجر أرضه المستولى عليها من قبل صاحب المزرعة الجديد. والسل يأكل قواه ولحمه،

في السنة الاخيرة لم يعد قادراً تقريباً على العمل في قطف البنّ، وكان من حسن الحظ أن أغوسطينيو وصل في ذلك الشتاء بصحبة جيرتروديس وابنين، مسحوقين من الجوع الذي انتشر في السرتون. وشاخ جوان بيدرو أيضاً. وفي الليلة التي وصل أغوسطينيو ظلوا حول النار، منكمشين على أنفسهم من البرد، ذلك البرد الذي جعلهم يعانون كثيراً. ووصلت أنباء متعاقبة، فعرفوا آنئذٍ بسجن نينين وموت جاون، وكان جيرونيمو يصغي وهو مضطجع، والسعال المتواصل يقطع في كل لحظة كلمات ابنه إنما كان له تعقيب واحد على كل ذلك:

- من يعطني القدرة على العودة.. ومات بعد ذلك بأيام معدودة، فقد كان احتضاره أكثر من وصول أغوسطينيو - دام ليلة مرعبة من البرد، حين تساقط الثلج على المزروعات - إذ استحضرت ذكرى الخالة لطونيو، حيث أن جيرونيمو الذي لم يفتح فمه قط ليقول اسم ابنته، يبدو الآن في ساعة الموت القصوى، لا يعرف كلمة أخرى، فكان يناديها بصوت خفيض:

- مارتا... مارتا...

وكانت جوكونديا الجالسة إلى جانب المحفّة، تبكي ويستشفّ طونيو أنها تمزج في ألمها الحنين: الحنين إلى الزوج الذي قد انتهى، والشوق إلى الابنة التي كانت في بلاد بعيدة، في شوارع النساء الضائعات.

استعاد في ذاكرته الآن، في ليلة الاحتضار تلك، وجه مارتا الجميل والرقيق، طيبتها الصامتة وتكريس نفسها للعائلة. رآها في أحضان الطبيب، تشتري بجسدها الشهادة الصحية للوالد المسلول. كان ذلك مثل دراما يشاهدها على المسرح في المدينة من آنٍ إلى آخر مع جوان بيدرو، إنما على المسرح كان الأمر كذباً، ومع هذا فالنساء كن يبكين، ومعهم كان الأمر حقيقة. ولا أي نبأ أتى به أغوسطينيو عن مارتا. وجرّت جوكونديا ابنها إلى إحدى الزوايا، ليلة وصوله، فيما كان جيرونيمو نائماً، وسألته:

- هل علمت شيئاً عن مارتا؟

- لم أعلم شيئاً... ليست في بيرابورا... قيل إنها سافرت منذ وقت...

ثم أضاف:

- حضرتك تعرفين أن البغي قليلة الاستمرار... وأن طائر البغاث يطير إلى حيث يعثر على فضلات الذبيحة...

في تلك الليلة الأخرى، عندما اجتمعوا في الغرفة حيث العجوز المريض على مرأى منهم وهو في حالة النزاع، استجمع طونيو الكلمات التي همس بها جده في حشرجة الموت:

- ليباركك الله يا ابنتي...

لقد أرفد البركة على مارتا، ربما كان يراها، وهي في تلك اللحظة، من يدري؟ تفكر فيه وتطلب بركته قبل أن تنام، والجسد متعب من تجارته، والقلب متعب أيضاً.

بصق دفعة من الدم امتزجت باسم مارتا الذي لفظه بصوت أبَحّ سمعه الجميع.

وجرى الدفن، وصل عمال المزرعة، فلاحون مرابعون جيران، إيطاليون في معظمهم. وتكلم المهجنون عن السرتون. تذكروا مشاهد من الرحلة التي قام بها كل منهم إلى سان باولو. وفكر طونيو في مارتا، خالته.

كانت الذكرى الأكثر عمقاً عن طفولته التي انتهت مع الرحلة في القطار. وهنا في سان باولو كان يذهب إلى العمل مع جده ومع جوان بيدرو. لقد تردد إلى المدينة بضعة أشهر، ما يكفي ليتعلم القراءة والكتابة. لكن بعدما صار فتياً عاد إلى حرق هدبيه فوق كتاب القواعد، كانت لديه رغبة في أن يعرف أكثر.

ولقد جرت معه وقائع هامة قليلة، فضلاً عن وصول أغوسطينيو وموت جيرونيمو في غضون تلك السنوات. والحدث الأكبر بروزاً من جميع الوقائع هذه، كان السفر إلى ريو دي جانيرو بصحبة جوكونديبا، لزيارة خاله نينين، السجين في الجزيرة الكبيرة، فلقد جيء بجوفينسيو مع محكومين سياسيين آخرين من فيرناندو دي نورونيا، وفي الجزيرة الكبيرة كان يدرس. فبالنسبة إليه كان السجن هو الجامعة. والسنوات التسع التي حملها من سجن إلى سجن، في ناتال، في رسيفي، في الإصلاحية وفي الاعتقال في ريو دي جانيرو، في فيرناندو دي نورونيا، وفي النهاية في الجزيرة الكبيرة، كانت سنوات درس. فقد ساعده الرفاق الأكثر تنوّراً، فقرأ أخيراً تلك الكتب التي كان يطمع فيها في تلك الأيام السابقة لثورة 35. من انجلز تعلم أن «الحرية هي معرفة الاحتياجات». وفكر بأن السرتون كان يتعلم بالدم والألم.

كان كثيراً ما يتكلم عن السرتون، عن الفلاحين المستغَلّين، حتى إنهم كانوا يتندرون معه. لكنهم مثل الآخرين الذين هم خارجاً، الذين قاتلوا في صف الخارجين على الشرعية، يعرفون أنه

يجب عليهم أن يزرعوا في الشاب السرتوني الاهتمام بقضية الريف. فكانوا يرسلون إليه جميع المواد، كتباً ونشرات تعالج المسألة الفلاحية. ويلتهمها في أيام السجون الطويلة.

جوكونדينا، عند معرفتها بأن ابنها المحبوب أكثر من سواه كان نسبياً قريباً منها، وأن الزيارات مسموحة، لن تخلد إلى الراحة ما لم تتمكن من رؤيته. فجمعت نقوداً لبطاقات السفر. واستعلمت عن الريو، الشرطة، كيف الذهاب إلى الجزيرة الكبيرة. وذات يوم ركبت القطار مصطحبة طونيو الذي صار فتى.

لم يريا مدينة الريو تقريباً. فقد اندست جوكونדينا في فندق رخيص على مقربة من المحطة وقضت اليوم التالي في الشرطة، وكانت ترسل من ركن إلى آخر من قبل رجال المباحث الذين كانوا يتسلون بها. إنما في نهاية المساء، عندما تعبوا من تضليلها، وطرح أسئلة بلهاء عليها والضحك منها، أعطوها الإذن بزيارة ابنها. وفي الفندق علّموها أي قطار يجب أن تأخذ وكم ثمن بطاقات السفر في الباخرة الصغيرة. كان عليهما أن ينتظرا يومين لكنهما لم يخرجا تقريباً، فحركة المدينة كانت تخيف جوكونדينا وطونيو كان يتلصص من نافذة الغرفة على السيارات وحافلات الترام، وسيارات الإسعاف بصفاراتها المدوية.

انطلق القطار ممتلئاً بعائلات السجناء، وطلبت جوكونדينا معلومات، فسألوها في الحال عمّن هي وما الذي ستفعله في الجزيرة الكبيرة.

ـ سأزور ابني الذي هو سجين هناك... وبما أنهم لم يكونوا قد رأوها في تلك الأشهر العشرة حيث يقومون هم بالرحلة أسبوعياً، تصوروا أنها قد تكون أماً لأحد السجناء العاديين. فسألوها:

ـ لماذا هو سجين؟

ـ كان عريفاً في ناتال، قاتل في إحدى الثورات... فأدانوه... قيل إنها كانت جريمة بشعة جداً... لكنني أعرف ابني، ولا أعرف أنه يتورّط في أمر سيّيء... لا أصدق...

تلك الأشياء نفسها قالتها في العشية، في مركز الشرطة، وقد ضحكوا منها، قالوا لها إن نينين لن يطلق سراحه أبداً «فهو شيوعي، أسوأ من قاتل ولص». لكنها لم تصدق. والآن هؤلاء الناس الطيبون الذين يذهبون في القطار يقولون لها إنها مصيبة، فهو لم يأتِ عملاً منكراً.

ـ ما هو اسمه؟

- جوفينسيو... ونحن ندعوه نينين...

- جوفينسيو؟

وحدثت عندئذٍ حماسة. فقد وُجد أشخاص يعرفون حتى اسمها من دون أن تقوله. كانوا جميعاً أصدقاء ابنها. فامتلأ قلب العجوز بالفخر. وكان طونيو بسرواله الذي يصل حتى منتصف الكاحل، وقبعته الغريبة الحمراء، يختلس النظر مبتسماً. وبدوره كان هدفاً لكلمات متوددة ومصافحات باليد عندما عرفوا أنه ابن أخت جوفينسيو.

أمضت العجوز بقية الرحلة قاصّة عليهم اجتيازهم السرتون، حينما أخذوا منهم الأرض التي كانوا يعملون فيها. وكان الذين حولها يصغون مندهشين، حتى أن أحد مواطني ولاية ريوغراندي دو سول وهو حارس السجن في الجزيرة، شعر بأنه متأثر بذلك السرد الذي يروى بدون نعوت ودموع.

2

انضمت صورة الخال نينين إلى صورة مارتا في ذاكرته، رآه في الجزيرة وتحت ذراعه كتاب، سائراً مع جوكوندينا على الشاطىء. كان يقضي معها طوال النهار، مصغياً إلى القصص التي ترويها، ماسحاً الدموع التي تنهمر، دموع الفرح لرؤية ابنها ثانية. ودموع التحسّر على الذين ماتوا أو اختفوا، مثل مارتا.

كان جوفينسيو مختلفاً ولم يكن ينتظرها. وهي أيضاً، جوكوندينا، كانت تبدو امرأة أخرى، فالشعر أبيض تماماً، والعينان فاقدتا البريق، والوجه مليء بالغضون. وقالت ماريا باراتا العجوز حين وصلت الشاحنة الصغيرة.

- انتظري ههنا، سأزف الخبر...

وأوضحت لأجيلدو:

- إنها والدة جوفينسيو...

وبقي النقيب المحكوم يتحدث معها فيما كانت ماريا تسعى إلى العريف، فألفته منهمكاً في القراءة:

- لديّ هدية لك...

- سيكار أم حلوى؟

- تعال معي...

بات منفعلاً باللقاء. فالعجوز تربت ذراعيْ ابنه وساقيه، وتصرخ من الفرح عند تثبتها أنه لم يكن مشلولاً كما قالوا لها. والنقيب نفسه المشهور بأنه لم يعرف الخوف قط، وأنه كان شجاعاً حتى الإفراط، ابتعد لأن عينيه كانتا تحترقان ولم يكن يحب البكاء.

قضيَا أربعة أيام في الجزيرة، أربعة أيام لم تكن جوكونديا تترك جوفينسيو منذ وصولها حتى ساعة اجتيازه قضبان الحديد المشبك في المبنى والمبيت في المهجع، وكان طونيو يتحدث مع أحدهم والآخر، يكلمانه بأمور غريبة ومغرية. كانت أياماً بالنسبة إلى طونيو إظهاراً لعالم، فأولئك السجناء لم يكونوا يشبهون في شيء الذين يقضون عقوبتهم في سجن المدينة السانباولية القريب من المزرعة حيث هم يعملون. كانوا رجالاً مرحين وواثقين بأنفسهم، وكانت وجوههم تتطلّع إلى المستقبل. وأحب طونيو البقاء هناك، بينهم والتعلم من خاله ومن الآخرين تلك الأمور التي يعرفونها، وأحدها، بشكل رئيسي، قد حُفر في رأسه: «الأرض لأولئك الذين يعملون فيها». لأنهم قالوا هذا، وكانوا سجناء، لكنه يساوي العناء. وطونيو أيضاً لن يحفل إذا سُجن بتلك الجريمة.

حين رجعت، كانت جوكونديا التي غيّرتها الدموع، تتكلم فقط عن خاله وعن أصدقائه، رفاق السجن. لم يدعوا العجوز، وهما يعودان إلى الفندق، بانتظار القطار إلى سان باولو، فأقرباء أحد السجناء أخذوهما معهم إلى منزلهم، ولم يتركوهما يستقلّان القطار في الصباح التالي، فتنزهوا معهما في ريو دي جانيرو وأوصلوهما إلى المحطة بالسيارة. إلى القطار الليلي. وقالت له الفتاة حين شدّت على يده:

- إلى مرة أخرى أيها الشيوعي...

فضحك:

- سأصير يوماً...

وطلبت جوكونديا أن يعانقوا ابنها:

- عناق شديد...

وعدها الأصدقاء، وبكت إزاء كل هذه الطيبة. ولم تعد تشعر بعد بذلك الأسى لابنها المدان الذي يقضي العقوبة، كان إحساسها الآن إحساس افتخار، فابنها لم يكن مجرماً، وأصدقاؤه أناس مستقيمون، وفيما القطار يجري، كانا يتذكران أيام الجزيرة. وعندما وصل طونيو إلى المزرعة، عند الإياب، كان لديه الكثير ليرويه. وفي الليالي، حينما يهبط البرد، ويركن هو إلى الرقاد، كان يرى وعيناه مطبقتان، آناً الخالة مارتا تلوّح إليهم في المحطة، وطوراً الخال نينين متكلماً في الجزيرة الكبيرة بتلك الأمور التي كان يرددها حتى لا ينساها أبداً.

3

ذات يوم، تحت ضغط الأحداث الوطنية والعالمية، جاء العفو. فالحزب في شبه لا شرعية، حقق توسعاً كاملاً.كان العريف السابق جوفينسيو حاضراً. وبعد ذلك ذهب لزيارة أهله في سان باولو. وحصل الحزب على الشرعية، وتأسست أولى اللجان البلدية.

ولدى عودته من المزرعة حيث قضى أسبوعاً مع ذويه، التقى جوفينسيو في المدينة القريبة، صديقاً قديماً. وصحبه طونيو، وكان الاثنان يسيران في الشوارع حينما صاح العريف:

- زيه تافاريس!

كان شعر العريف قد بدأ يشيب، لكن الوجه الجاف والمبتسم هو نفسه. فجلسوا في المقاهي، وطالت المحادثات فترة ما بعد الظهر، كان زيه تافاريس قد فرّ إلى الداخل في ولاية سان باولو، منذ أطلق سراحه في المرة الأخيرة. والآن فهو هناك ينهض باللجنة البلدية. وكان يعيش في الداخل ولديه رغبة في أن يعمل مع الفلاحين. وردد كلمات بريستيس حول المسألة الفلاحية في أول مهرجان كبير.

- نحن السرتونيون نتحسس هذا حقيقة...

فقال جوفينسيو لطونيو:

- هذا الخلاسي هو الذي أدخلني الحزب...

ثم قال لزيه تافاريس:

- اهتم الآن بابن اختي... فهؤلاء - وربت كتف طونيو - هم الذين سينهضون بالريف.

كان كلاهما يفكران في السرتون البعيد. فتكلم زيه تافاريس:

- الآن سوف ينتهي الكانغاسيروس والطوباويون...

نهضوا، وترك جوفينسيو بعض القطع النقدية على الطاولة. وكانت الشمس ضعيفة، مداعبة تقريباً، مختلفة عن تلك الشمس النارية في الشمال الشرقي. وراح زيه تافاريس يروي حالة ما ليعرض كيف أن الفلاحين بدأوا يستوعبون وجوفينسيو يردد الكلمات التي قرأها عن إنجلز. إن صوت زيه تافاريس لا يزال يحتفظ بتلك الرخاوة المغنّاة في الكاتنغا:

- كان الفلاح صديقي، يعرفني منذ وقت بعيد، حينما علم أني في ريو بريتو أؤسس مقراً شرعياً للحزب، جاء لرؤيتي، «يا سيد تافاريس، قل لي حضرتك ماذا تعرف، ما هي هذه المدعوة شيوعية»... فأوضحت له، تكلمت عن مسألة الريف، عن الأرض للعمال، فسّرت، خضت في التفاصيل، وكان يصغي. وحين انتهيت قال: «يا سيد تافاريس، هذه المدعوة الشيوعية تعيد إلى ذاكرتي الانبهار». أراد أن يعرف لماذا. «ألا ترى أنت أن نوراً يظهر في الطريق ويقولون لنا لا تقتربوا منه، إذ إن ذلك هو الانبهار الذي يقتل الناس لمجرد أن يختلسوا النظر إليه، لكنهم طالما يتكلمون عن أن الناس يظلون يقضمون أنفسهم رغبة في الذهاب والتلصص، وذات يوم لن يقاوموا، فسوف يصلون إلى هناك ويرون أنه أبو الناس».

ضحك جوفينسيو. ودخلوا غرفة صغيرة. في الشارع لافتة صغيرة حديثة الطلاء تعلن لأعين الفضوليين من المارة:

الحزب الشيوعي في البرازيل.

اللجنة البلدية.

وكان عمال وأناس من الشعب يعملون ويتحدثون في المقر، ووجد طونيو ثانية ذلك الوسط عينه وتلك الأحاديث نفسها في الجزيرة الكبيرة. فابتسم ابتسامة أكبر من ابتسامة ابن التاسعة عشرة.

وتقدم زيه تافاريس بقسيمة:

- هل تعرف القراءة والكتابة؟

- أعرف...

- إذن، املأ قسيمتك في السجل... ونتحدث في ما بعد عن العمل في مزرعتك. هل تعرف ما هي الخليّة؟

- كلا يا سيدي...

خرجا ليأخذا جوفينسيو إلى المحطة:

- اعتقد أن الأصدقاء سيرسلونني إلى السرتون يا زيه.

- لديّ رغبة في الذهاب أيضاً.

- إنك قد تآلفت مع الوسط ههنا.. لكنني بالرغم من كل شيء، كما لو أنني لم أخرج من هناك... سأكون راضياً إذا أرسلوني...

عانقاه، وغطّى صفير القطار الأصوات:

- ليبق الولد معك... فهو بأيدٍ أمينة...

- دعه معي...

احتضن طونيو بشدة:

- إلى مرة أخرى، أيها الرفيق... كن شيوعياً جيداً...

كانت لديه الرغبة في القدرة على كتابة رسالة يقصّ فيها على خالته مارتا كل ذلك، كل تلك البهجة حوله، لكن أين ستكون هي، في أي مكان من العالم، وبأي دموع تبكي؟

يخرج طونيو من المحطة، ويأخذ في الإجابة عن أسئلة زيه تافاريس.

- كم يكسب عامل المزرعة في اليوم؟

صفير القطار في المحطة. أين تمضي مارتا في هذا العالم الكبير جداً؟ تُرى، هل يلتقيها الخال جوفينسيو ويقول لها إن جيرونيمو قد غفر لها في ساعة الموت، وإن بوسعها القدوم، وإن جوكوندينا وجوان بيدرو بصحة جيدة، وأغوسطينيو وجيرتروديس لديهما ابنان، وهو، طونيو، انخرط في الحزب الشيوعي ليناضل ضد العذاب والجوع.

بعد ذلك ببضعة أشهر، استدعى الرفيق فيتور، الأمين الوطني للمنظمة، جوفينسيو وكان العريف السابق قد بقي في الريو، يعمل من أجل الحزب. وكان فيتور قد وصل تواً من سان باولو، حيث كان في الداخل. لقد قدم متحمساً لفعالية الفلاحين:

- كل فلاح يشعرك بالارتياح. جاؤوا من ثمانين محافظة... واعين وقادرين... إني أقول لك إن حوالى خمسة عشر مسؤولاً سوف يخرجون من بين المائة رجل الذين جمعناهم في فعالية...

ثم ربت كتف جوفينسيو:

- أحدهم هو ابن أختك... إن الولد سوف يمضي بعيداً... حاذر، فقد يتجاوزك..

بعد ذلك، دخل في الموضوع. وكان جوفينسيو ينتظر بشوق ذلك القرار.

- العمل صعب لكنك تعرف السرتون. فلديك النموذج في ما نفعله في سان باولو. روابط فلاحية، خلايا المزارع، استنهاض المطالبات..

وأخبره جوفينسيو عن الحالة التي حدثت مع زيه تافاريس والفلاحين. فابتسم فيتور ثم قال:

- لديه حق. فالطوباويون والكانغاسيروس سينتهون في اليوم الذي يصبح للسرتونيين وعي سياسي. إنه عملك...

وعاد الرفيق ليصير مهذاراً:

- ليعترينك الخجل، وإلا فإن ابن اختك سيتجاوزك، حياة طيبة...

5

ذات ليلة ظلماء، كان ميلتون يسير إلى المزرعة، قادماً من الدسكرة. بدا له أنه يسمع خطوات في الطريق، فاحتاط للأمر. كان الرجل يسير بسرعة ومرّ من جانبه. أين رأى ذلك الوجه؟ واستدار السائر، فهو أيضاً قد عرف ميلتون، فتطلّعا أحدهما إلى الآخر خلال ثانية، على ضوء السراج الذي كان العامل يحمله:

- نينين!

- ميلتون...

كان ميلتون متزوجاً وأبناؤه الأربعة يملأون بيته الصغير المشيد من الطين الجاف. وتنشق جوفينسيو هواء الليل السرتوني العميق والكثيف. ولم تعرفه فيلينيا. كانت بنتاً صغيرة حين رحل العريف سعياً إلى عصابة لوكاس آرفوريدو. أرادوا معرفة أخبار الجميع، وقصّوا عليه مرة أخرى تلك الأحداث عن السنين الخوالي حين باع الدكتور أوريليانو المزرعة، وأصرّ المالك الجديد على تسلّم أراضي الفلاحين المرابعين والأجراء المياومين. تُرى، هل يعرف جوفينسيو شيئاً عن باستيون عازف الهارمونيكا؟

وعقّبت فيلينيا:

- لا بد من أنه قد مات. فقد كان طاعناً في السن...

كانت جملة ميلتون تحسّراً:

- عازف جيد مثله، لم يظهر قط..

وعن غريغوريو، هل لديه من خبر ما؟ لكن ما يريد جوفينسيو معرفته هو عن ميلتون والآخرين الذين استمروا في المزرعة، كم كانوا يكسبون في اليوم؟. وهل يوجد فلاحون مرابعون وأجراء مياومون؟ وهل يستمرون ملزمين بالشراء من المخزن؟

بعدها طلب أن يجمع، في تلك الليلة، جميع العمال الذين يستطيع جمعهم. وهناك في بيته، من دون أن يعرف المتصرف، ثم يغادر في الصباح الباكر، وقبل ذلك سيتحدث مع الرجال، فلديه الكثير ليقوله لهم، سوف يعلِّمهم كيف يغيّرون تلك الحياة البائسة التي يتحملونها.

وكان ميلتون يرمقه، فلو لم تكن تانك العينان كعينيْ الطفل تعبرانه، لما تعرّف إلى الرجل الذي كان يتكلم موضحاً، عارفاً بأمور كثيرة، الشاب الذي هرب من البيت والذي لم تكن تصل عنه إلى المزرعة إلا أخبار غامضة، فسأله ميلتون وهو بادي الاحترام، قبل أن يخرج لينادي الآخرين:

- هل تعلّمت هذا كله في العاصمة؟ إنك لم تضيّع الوقت سدى وما قلته هو مثل ضوء يثير، يشق ضياءً في أعين الناس التي كانت في العتمة...

وجاء الرجال واجتمعوا في قاعة البيت، وتكلم جوفينسيو. كانوا يصغون بصمت لا يقطعه إلا هتاف من آنٍ إلى آخر:

- هذا هو بالضبط...

- إنك تقول الحقيقة خالصة...

وعند الفجر، حين كانت الظلال لا تزال تغلّف الحقول المبللة بالندى، وفي الهواء تتصاعد تلك الرائحة النفّاذة للأرض، غادر نينين إلى الكاتنغا، في الطريق نفس الذي سلكه يوماً جيرونيمو وعائلته. وكانت براعم الألم والتمرد تنمو في ذلك المحصول الأحمر من الدماء والجوع. فقد حان وقت الحصاد.

(تمت)

بيجي ده أوشوسي

(ولاية الريو) حزيران 1946